

محمد فتح الله كولن

أسئلة العصر المحيرة

ترجمة كتاب

Asrın Getirdiği Tereddütler

عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الرابعة: ١٤٣١-٢٠١٠

ISBN: 978-975-315-144-2

DAR AL-NILE

Kısıklı Mah. Meltem Sok. No: 5
34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye
Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185314

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

أسئلة العصر المحيِّرة

المؤلف: محمد فتح الله كولن

المترجم: اورخان محمد علي


١٤٢٢

مقدمة المترجم

يحاول الجيل التركي حاليا تلمس طريقه بين كل هذا الصخب من الأفكار والفلسفات التي تغزو دياره والقادمة إليه من الشرق والغرب. ومعظم هذه الأفكار الجديدة عليه تشكل تناقضا مع ما ورثه من أسس فكرية انتقلت إليه من عائلته. وهو في خضم هذه الأفكار الجديدة المتضاربة بعضها مع البعض الآخر والمتناقضة مع جذوره الإسلامية يقف حائراً: أيدع نفسه للتيار القوي الهادر الذي يحاول قلعه من جذوره، أم يرجع إلى جذوره؟ ولكن كيف يرجع وجذوره الفكرية هذه متهمة ليل نهار بالرجعية وبإنها لا تناسب روح العصر؟

لذا ففي مثل هذا الخضم الصاخب من الأفكار يكون دور مثل هذه الكتب التي تتناول المواضيع التي تثار حولها الأسئلة مهمة جدا وطوق نجاة للعديد من الشباب الذين يتوقون لمعرفة الحقيقة ولا يدرون كيف يصلون إليها، ولاسيما في الظروف التي تعيشها تركيا حاليا.

وقد أخذ الأستاذ الشيخ محمد فتح الله كولن حاجة الشباب بنظر الاعتبار فصرف جهدا كبيراً في سبيل إزالة الشكوك من عقول الشباب، والإجابة على الاستفسارات والأسئلة التي تحير عقولهم. وذلك في خطبه في المساجد وفي مجالسه التي تنقلب في العادة إلى مجلس علم يطرح فيه السائلون –وأكثرهم من الشباب– ما يدور في أذهانهم من أسئلة لا يجدون لها جواباً.

ولا شك أن من أهم واجبات الحركات الإسلامية الآن الفوز في الصراع الفكري الدائر الآن في العالم بأجمعه، ولا سيما بعد أن تقاربت أجزاؤه في ظل هذا

العصر. لذا فمن المفيد على الدوام فتح أبواب مثل هذه الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها.

وقد قام بعض طلابه بجمع هذه الأسئلة والأجوبة عليها في األربعة أجزاء قمت باختيار ما يكفي لإصدار كتاب واحد بحجم مناسب. وقد نعود في طبعات قادمة إلى إدراج أسئلة واأجوبة أخرى في هذا الكتاب.

أورخان محمد علي

ما الحكمة في بدء نزول القرآن بأمر ﴿اِقْرَأْ﴾؟

الأمر الإلهي ﴿اِقْرَأْ﴾ (العلق:١) أمر ودعوة ووظيفة إلهية وجهت إلى أشرف المخلوقات ﷺ -الذي تجلت فيه جميع الكمالات- ومن ثم إلى البشر أجمعين. وهذا الكون المعروض أمام أنظارنا لنتأمله ونفهم معناه ومحتواه، والشاهد على النظام الذي أنشأه الخالق، وعلى قدرته وعظمته وجماله... هذا الكون ليس إلاّ تجليا من تجليات اللوح المحفوظ. لقد جعل الله كل شيء في هذا الكون من أحياء أو جماد -عدا الإنسان- "قلماً" لكي يقوم كل موجود بوظيفة تسجيل ما أُودع فيه من تجليات وحكم.

كل موجود -سواء أكان حياً أم جماداً- يُعد كتاباً. لذا فلم يأت الأمر بصيغة "اُنظر وشاهد" بل بصيغة "اقرأ"، ذلك لأن الكتاب يُقرأ فحسب. وهذا الكون المتألق المملوء بالأحياء التي يُعد كل منها كتاباً.. هذا الكون بمثابة مكتبة إلهية غنية. لذا فبينما كُلّف كل موجود -عدا الإنسان- بوظيفة "الكتابة" كُلف الإنسان بوظيفة الكتابة ثم كُلّف بالأخص بوظيفة "القراءة".

والعلم عبارة عن معرفة تجليات النظام والعلاقات المختلفة الموجودة بين الأشياء في هذا الكون وتصنيفها وتبويبها. ولا يمكن إرجاع كل هذا النظام وكل هذه الدقة والتوازن في هذا النظام إلى المصادفة العمياء. لذا فلا بد من صاحب وواضع لمثل هذا النظام.. واضع واضح وجوده بأجلى ما يكون الوضوح.

قبل وضع أي نظام يتم أولاً تصوره تماماً مثلما يتصور المهندس المعماري تصميمه قبل أن يرسم هذا التصميم على الورق. فإذا وضعنا جانباً التركيب المادي للإنسان ولتفكيره وكيف يؤثر هذا التركيب على تصور الوجود عنده نقول إنه إن كان اللوح المحفوظ هو هذا النظام الشامل الموجود بمقياس الكون، فإن القرآن هو النظام المسجل والمكتوب وهو مرآة اللوح المحفوظ. لذا كان على الإنسان أن يقرأ ويحاول أن يفهم

كلما قرأ. قد يخطئ أحياناً في الفهم، ويدخل في تجارب الخطأ والصواب وهو يحاول الوصول بجوهر العلم إلى مرتبة الثقة به والاعتماد عليه.

النظرة شيء والمشاهدة شيء والفهم شيء آخر، ونقش ما تم فهمه وقبوله في القلب وفي الشعور شيء آخر. وبعد كل هذا فإن تطبيق ما قبِله شيء، ودعوة الأخرين لما قبله شيء آخر. أجل، فكل هذه الأشياء المختلفة المتعلقة بالفهم وبالإدراك موجودة على الدوام. ذلك لأن هناك قوانين عديدة في الكون، وهي تجري من قبل واضعها بدقة وتناسق، منها:

١— السيْر من الوحدة إلى الكثرة.

٢— وجود التشابه أو الفروق أو الأضداد بين هذه الكثرة.

٣— وجود توازن فعال بين الأضداد.

٤— التناوب، أي وجود المناوبة في الوظيفة.

٥— التعلم والنسيان ثم التعلم من جديد.

٦— صرف الجهد والعمل.

٧— التحليل والتركيب.

٨— الإلهام والكشف.

تنطبق هذه القوانين بأجمعها على الإنسان. لذا كان من الطبيعي وجود كثرة من الناس ووجود التشابه وكذلك الفروق والاختلافات بينهم من ناحية الفكر والنظرة والعقيدة والسلوك والتصرف. ولكن هذه الفروق الفطرية والأضداد ليست ساكنة أو فارغة من المحتوى، بل هي فروق حية وفعالة وضمن إطار من التوازن. لذا كان من الطبيعي أن حركة تستهدف الإيمان فقط تُحرم من العلم، وأن حركة تستهدف العلم فقط تهمل الإيمان وتحرم منه.

لذا كان هناك علم وجهل، إقرار وإنكار، فضيلة ورذيلة، عدل وظلم، حب وبغض، سلام وحرب، حياة متسمة بالكسل والخمول والتواكل، وحياة ترى أن الإنسان يستطيع عمل وإنجاز كل شيء وحده، لذا نراها حياة متسمة بالعجلة والتهور والجنون والشهوة، تقوم أحياناً بالبناء وأحيانا بالهدم.

لذا كان هناك احتمال نسيان ما تعلَّمَهُ الناسُ من ذلك الإنسان الفريد ﷺ الذي

أُرسل رحمة للعالمين، ولكن يجب تذكره من جديد، وتعلمه من جديد. كذلك فإنه في نهاية مثل هذه التجزئة والتحليل والتنويع سيكون هناك تناول جديد ونظرة جديدة وإلهام وظهور جديد.

كل هذا قد حصل ويجب أن يحصل، وهو مستمر في الحصول. فقد أوحيت الأوامر العشرة إلى النبي موسى عليه السلام لتنظيم الحياة الاجتماعية، وألهم عيسى عليه السلام الحلم والشفقة والرحمة والمحبة والصبر والتحمل في العلاقات البشرية، كما ألهم النبي محمد ﷺ -علاوة على هذه الأمور- العلم والإرادة والحكمة والتوازن وقابلية التحليل والتركيب في الفكر وأوتي جوامع الكلم والبيان.

لذا كانت وظيفة المسلم -بوجه من الوجوه- أكثر مسؤولية وأصعب من وظائف الآخرين. ولكنها أكثر سموّا وألطف بنفس النسبة، لأنها تستلزم إلى جانب الأوامر العشرة وإلى جانب الأسس الاجتماعية من المحبة والصفح والعفو والحلم والشفقة والصبر والتحمل... تستلزم العلم والإرادة والحكمة والتواضع وجمع القلوب وتأليفها، أي تستلزم وتستوجب مرتبة إيمانية عالية.

لذا فإن الكشوفات التي تمت في ساحة علوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا (علم الأحياء)، والتقدم الذي حصل فيها على أيدي العلماء والمكتشفين يستحق كل تقدير وتبجيل، لأنها كشفت الكثير من الحقائق المسجلة في القرآن الكريم -المسجل في اللوح المحفوظ- حول العديد من أسس العلاقات الموجودة في أرجاء الكون. ولكن يجب أيضا حفظ الإنسانية وصيانتها من الوقوع في ضلالة الأفكار مثل إنكار خالق الكون وبارئه ومصوره، أو رد وإنكار الإلهام والإرشاد والوحي الإلهي، أو القيام بتأليه الإنسان وجعل إرادته هي الحاكم المطلق.

إن لم تعط اتجاهات جديدة لعلوم الفيزياء والكيمياء والأحياء في ظل القوانين المكتشفة والمستندة إلى التجارب المختبرية، فإن هناك خطرا كبيرا أمام هذا المجتمع الذي بدأ فيه الإنسان -المغرور بهذه الاكتشافات- يتمرد ويحاول التملص من جميع القيود الإنسانية ويزداد جرأة وتقل فيه نزعة المسؤولية. لذا وجب على هذا الإنسان -الذي أصبح نوعا من أنواع الحيوانات التي تجرى عليه التجارب في المختبرات بعيدا عن المقاييس الإنسانية- أن يتذكر بأنه

إنسان، وأن هذا المجتمع ليس مختبرا لإجراء التجارب المختبرية عليه.

من المهم تخليص العلوم الحالية من الجمود والخمود ومن العبثية، وهذا يساعد على فهم مسألة المواضيع التي يهتم بها العلم بوضوح. كما يؤدي إلى قيام الإنسان بأداء ما يقع ضمن حصة إرادته وذهنه، ويستطيع آنذاك مشاهدة مكتسبات أحاسيسه وقلبه مشاهدة باطنية. عندئذ ينقلب المثقف إلى لسان فصيح وإلى قلب يستطيع قراءة الكون الموجود والموضوع أمامه ككتاب مفتوح سطرا سطرا. علما بأن من المستحيل تجاهل أن الكون لا يختلف عن كتاب، ولا سيما في الأوامر التكوينية، أي أوامر الخلق، حيث أن "القلم" كان أول ما خُلق،[١] لذا كان أول أمر في القرآن المنـــزل هو "إقرأ ".

ولكن هذه المسألة ليست سهلة كما تبدو للوهلة الأولى، فمع وجود نظرة تقول بأن الإحساس والشعور يكون قويا بنسبة قوة الأحاسيس الظاهرية والباطنية، إلا أن وجود أي عارض في إحدى الحواس يؤثر سلبيا في الحواس الأخرى.

لذا نرى أن الصمم والعمى والبكم يرد معا في آيات القرآن ذي البيان المعجز.[٢] لأنه مع كون قراءة الأوامر التكوينية بالعين ممكنا، إلا أن السمع هو الحاسة المملوءة بالأسرار التي تنعكس عليها الأوامر التنـــزيلية أولا. أما اللسان فهو الذي يقوم بترجمة هذه المشاهدة وهذا السمع. لذا فمن لا يستطيع مشاهدة الآيات في الآفاق وفي النفس لا يستطيع سمع ما يتناهى إلى أذنيه، ولو سمعه لما فهمه. كذلك فإن القلب غير المتصل بالأوامر الإلهية لا يفهم ما يطرق سمعه ويرى أن من العبث الانشغال بالشريعة الفطرية.

إذن فإن "اقرأ" رمز للتوحد وللتكامل وللتكميل، ورمز للمشاهدة والتقييم والرؤية إلى جانب الحدس، وتعبير لساني عن هذه المعرفة الباطنية، وهو يحمل دلالات كبيرة لنا لكونه أول أمر موجه إلينا.

لقد أطلنا شرح هذا الموضوع لأهميته وربما خرجنا عن الصدد أحيانا وتناولنا مواضيع أخرى. نأمل أن تكرار مطالعته والتفكير فيه وتحليله قد يعطي لنا بعض العذر في هذه الإطالة والخروج عن الصدد.

---

[١] المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ٤٩٢/٢.

[٢] انظر: البقرة: ١٨، ١٧١.

ما جوهر الألوهية وماهيتها؟

لا يشبه الله أي شيء من مخلوقاته سواء الحقيقي منها أو النسبي. فهذا الإنسان الذي يعيش في هذا العالم المحدود لا يكون فكره ونظره وأحاسيسه إلا محدودة أيضاً.

أجل! فنسبة ما يراه في هذا العالم يبلغ فقط خمسة في المليون تقريبا، وكذلك نسبة ما يسمعه. فمثلاً لا يستطيع أن يسمع صوتاً اهتزازه ٤٠ تردد في الثانية. كما إذا تجاوز هذا التردد الآلاف فلن يسمع أيضاً. إذن فحاسة السمع عند الإنسان محدودة، ولا تدرك هذه الحاسة إلاّ نسبة صغيرة في المليون. كما أن مجال بصره وسمعه محدودان جداً. إذن كيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرأ ويسأل: لماذا لا يرى الله؟ وكيف هو؟ إن طرح الإنسان مثل هذا السؤال ومحاولته نَسبَ الكمية والكيفية لله تعالى أو محاولة التفكير في ذاته جرأة وتجاوز للحد.

فمن أنت أيها الإنسان وماذا تعلم أصلاً لكي تتجرأ وتحاول إدراك الله تعالى؟ إن الله تعالى منـــزه عن الكيف والكم، وهو منـــزه عن أن تحيط به مقاييسك الناقصة. فلو سافرت بسرعة الضوء تريليون سنة إلى عوالم أخرى ثم راكمت تلك العوالم بعضها على بعض لما بلغ ما شاهدتَه بالنسبة إليه تعالى ذرة أو هباءة.

وعندما نكون عاجزين حتى عن معرفة قارة "أنتريتيكا"[1] فكيف يتسنى أن نحيط علماً بجوهر وبماهية الله جَلَّ جَلَالُهُ خالق الكون والمكان ومدبرهما؟ حاشا لله، فالله تعالى لكونه هو الله مقدس ومنـــزه عن الكيف والكم. فهو فوق كل تصور من تصوراتنا وكل تخيل من تخيلاتنا.

يقول علماء الكلام: "وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك". أما المتصـــوف فيقول: "ما خطر ببالك فهو وراء وراء وراء ذلك. فأنت محاط بالحجب وكأنك داخل فانوس". يقول "ديكارت": "الإنسان محدود من جميع جوانبه، والمحـــدود لا يســـتطيع التفكير في اللامحدود"، فوجود الله تعالى وجود غير محدود ولانهائي، لـــذا لا يســـتطيع

---

[1] قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبي. (المترجم)

الإنسان القاصر والمحدود أن يحيط به. يقول الأديب الألماني "جوته": "يذكرونك بـــألف اسم واسم، أيها المجهول الموجود! لو ذكرتك لا بألف اسم بل بآلاف الأسماء لم أستطع أن أوفي حقك في الثناء، لأنك وراء وفوق كل وصف".

يرى المفكرون أن الله موجود ولكن وجوده لا يدرَك، فليس الله من الأمور التي يمكن للأذهان الإحاطة بها. فالعين لا تستطيع رؤيته والأذن لا تستطيع سماعه. إذن فما عليك إلاّ أن تتبع تعاليم الأنبياء في حقه وتؤمن به.

كيف يمكن أن يتم إدراك الله تعالى الذي هو المبدأ الأول والعلة الأولى للوجود وللعلم. وجودنا ظل من نور وُجوده، وعلمنا نفحة من علمه الإلهي المحيط بكل شيء. أجل هناك في مستوى ما طريق لمعرفة الله تعالى والوصول إلى اكتساب مرتبة العرفان، ولكن هذا الطريق ليس الطريق الاعتيادي لمعرفة الأشياء، بل طريق مختلف تماماً. والذين يحاولون معرفة الله بسلوك طريق منحرف هم قسم من البؤساء الذين لم يستطيعوا التغلب على غرور النفس، و لم يعرفوا الإلهام الباطني، و لم يذوقوه. لذا تراهم يقولون: "لقد فتشتُ عن الله فلم أجده". وهذا تعبير عن ضلال كبير وقول زائف باسم العلم والفلسفة.

الله تعالى هو الإله الذي يظهر نفسه في الآفاق وفي أنفسنا في أثناء معراج الروح والقلب إليه، فيرسخ مدى ضرورة وجوده في أعماق قلوبنا وأرواحنا. وهذا الإحساس الوجداني الذي هو أساس جميع علومنا أقوى من جميع علومنا القاصرة ومن جميع عقولنا وأفكارنا. ومع هذا فإننا كثيراً ما نذهل عن أجسادنا وعن هذه القابلية عندنا للحدس الداخلي فنسقط في الخطأ والضلالة.

الكون شاهد على الله تعالى، وينطق بذلك بألف لسان ولسان، والقرآن يقوم بهذا التذكير بأبلغ لسان، ورسولنا هو أبلغ رسول وأكمله. يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي:[1]

"قال الحق تعالى: لا يسعني السماء والأرض
منجَمُ القلب عرفه (كنـــزاً)".[2]

---

[1] إبراهيم حقي (١٧٠٣–١٧٨٠): ولد في أرضروم في بلدة "حِصن قلعة"، وهو من الشعراء المتصوفين. أهم كتبه "معرفت نامه" الذي يعد دائرة معارف في عصره. (المترجم)

[2] يُروى كحديث شريف، انظر: العجلوني، كشف الخفاء، ٢/٢٥٥؛ وإلى معنى قريب للعبارة في الطبراني، مسند الشاميين، ٢/١٩.

يتساءل البعض لماذا تستحيل رؤية الله في هذه الحياة؟
كيف نجيب هؤلاء؟

الرؤية مسألة إحاطة. فمثلاً هناك جراثيم في جسم الإنسان، وقد توجد ملايين من البكتريا أسفل سن واحدة، وهذه البكتريا تستطيع بما أُوتيت من قابليات وإمكانيات نخر سن الإنسان وتخريبها. ولكن الإنسان لا يستطيع سماع صوتها أو ضجيجها كما لا يحس بها ولا بوجودها. كما أن هذه البكتريات لا تستطيع رؤية الإنسان ولا الإحاطة به. ولكي تستطيع الإحاطة به عليها أن تكون في موضع مستقل وخارجي عنه، وتملك في الوقت نفسه عيوناً تلسكوبية. إذن فعدم قدرتها على الإحاطة بالإنسان تمنعها من رؤيته، وهي لا تستطيع سوى رؤية ما موجود أمامها فقط. بعد هذا المثال من العالم الأصغر لنعط مثالاً من العالم الأكبر:

تخيل أنك جالس أمام تلسكوب كبير يستطيع رؤية أمكنة على بعد أربعة مليارات سنة ضوئية. ومع ذلك فمعرفتنا حول الكون وحول المكان تعد قطرة في بحر. قد نستطيع معرفة بعض النظريات غير الواضحة تماماً حول المجال أو الساحة التي يغطيها ذلك التلسكوب وبعض المعلومات أيضاً، ونسعى انطلاقاً من هذه الفرضيات والمعلومات لنصل إلى فرضيات ومعلومات أخرى كذلك. ولكننا لا نستطيع الإحاطة الكاملة بالكون ولا بماهيته ولا بإدارته ولا بشكله العام ولا بمحتواه، لأننا مثلما لا نملك إحاطة كاملة في العالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة التامة في العالم الأكبر.

ويتبين من هذا أنه على الرغم من امتلاكنا للميكروسكوب ولـ"أشعة أكس" فلا نحيط إحاطة شاملة بالعالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة الشاملة في العالم الأكبر. والآن لنفكر في الله تعالى، يقول الرسول ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلاّ كدراهم سبعة ألقيت في تُرس»[1]. وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣١٠/١؛ تفسير الطبري، ١٠/٣.

«ما الكرسي في العرش إلاّ كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض».[1]

إذن فتصور هذه العظمة الهائلة!! وأنتم... أنتم الذين تُعدون بالنسبة لهذه الأكوان أجزاء ميكروسكوبية كيف تستطيعون ادعاء إحاطتكم بالكون والمكان؟ بينما الأماكن كلها والأكوان كلها تعد أشياء ميكروسكوبية بالنسبة إلى عرشه تعالى الذي هو مجرد محل تنفيذ الإرادة والأوامر الإلهية... أليس هذا اشتغال بالعبث؟ فإذا كان الأمر هكذا فقس أنت درجة العبث في محاولة الإحاطة بالله تعالى.

لذا يذكر القرآن الكريم أنه ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (الأنعام:١٠٣). أجل لا تدركه ولا تحيط به لا الأبصار ولا البصائر. فلكي تتم الرؤية يجب توفر الإحاطة... هو يدرك الأبصار ويحيط بعلمه بكل شيء... ولكن الأنظار والأبصار لا تدركه. لذا يجب معرفة هذا الأمر لكي تتوضح جوانب هذه المسألة.

من جانب آخر فإن النور حجاب لله ﷻ وستار. ونحن لا نستطيع حتى الإحاطة بالنور. وقد سأل الصحابة النبي ﷺ بعد عودته من المعراج: أرأيت ربك؟ فأجاب الرسول ﷺ حسب ما يرويه أبو ذر ﵁: «هو نور أنَّى أراه؟!»[2] وفي مناسبة أخرى قال ﷺ: «رأيت نوراً»[3] بينما النور مخلوق والله تعالى هو منوّر النور ومشكّله[4] ومقوّمه[5] ومصوّره. فالنور ليس الله بل مخلوق له، وهذا يوضحه حديث آخر عن الله تعالى يقول: «حجابه النور»[6] أي هناك نور بينكم وبينه. وأنتم محاطون بالنور... هنا عمق آخر... فنحن نقول مرة آخرى بأنه محيط، ولكن بصفاته وليس بشيء آخر، وصفاته ليس غيراً ولا عيناً.

عندما نطرق مسائل متعلقة بالألوهية تتعمق أغوارها وتزداد صعوبة حتى يصعب حمل عبئها. وكنتيجة نستطيع القول بأن الله تعالى لا تدركه الأبصار وأن حجابه النور.

---

[1] تفسير الطبري، ٣/ ٧٧، والرواية عن يونس عن ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه.

[2] مسلم، إيمان ٢٩١.

[3] مسلم، الإيمان ٢٩٢؛ المعجم الأوسط للطبراني، ١٧٠/٨.

[4] أي معطي له الشكل.

[5] أي معطي له القوام.

[6] مسلم، الإيمان ٧٩.

والآن لنتناول الموضوع من جانب ثالث. يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي:

لا ندّ لربي ولا ضدّ،
منـــزَّه عن المثيل والشبيه،
منَـــزَّه عن الصورة،
هو مقدَّس... تعالى الله...

أولاً لا يوجد له ضد، وهذا شيء مهم جداً. فلكي يمكن رؤية شيء يجب أن يكون له ضد. أنت تشاهد النور لوجود ضد له، وهو الظلام. كذلك تستطيع إبداء رأيك حول بعض الأطوال فتقول هذا متر، وهذا ثلاثة أمتار.. ذلك لوجود أضداد لها. لذا يمكن وضعه في ترتيب. ليس الله مثل النور الذي تشاهده لوجود ضد له وهو الظلام، إذ لا ضد له ولا ند.

ولنتناول الموضوع من زاوية الفيزياء. فما نسبة ما يستطيع الإنسان رؤيته من هذا الكون المبسوط أمام ناظريه يا ترى؟ أجل، هل تستطيعون ذكر نسبة ما تستطيعون رؤيته من الأشياء؟ لنفرض أن عدد الأشياء المعروضة في معرض الكون يبلغ (مليار X مليار) شيئاً لكي نشاهد عظمة الخالق ونقف تجاهها بكل تبجيل وتوقير، غير أن نظرنا لا يستطيع إلاّ رؤية خمسة في المليون فقط من هذه الأشياء. أما الباقي فلا نراه ولا نعرفه. أجل فنحن لا نرى سوى الموجات الضوئية التي لها طول وتردد معينين. إذن فتأمل مدى تهافت سؤال البعض "لماذا لا أرى الله؟" يسأل هذا وهو لا يعلم بأنه لا يستطيع رؤية إلاّ خمسة في المليون فقط من هذا الكون.. ثم هو بعد كل هذا يريد أن يضع الله تعالى أيضاً في هذا المجال، وهذا تفكير سطحي.

وفي يوم القيامة يستطيع من أجهد فكره في الدنيا أمام الآيات الكونية أن يراه. لذا يستطيع النبي موسى عليه السلام ويستطيع سلطان الأنبياء محمد ﷺ رؤيته آنذاك. أما الآخرون فيرونه كل حسب مرتبته. ويعد هذا الأمر تشويقاً كبيراً وحضاً ودعوة للتفكر والتأمل. فالذين يريدون الحصول على الدرجات العليا في الآخرة عليهم أن يجددوا قلوبهم وأفكارهم، وبتعبير أصح عليهم أن يكونوا في هذه الدنيا أصحاب همّة عالية وروح وفكر يليق بحظوة رؤية الله تعالى يوم القيامة، أي ألاّ يرحلوا من هذه الدنيا بزاد قليل، طبعاً كل

حسب استعداده وقابليته. قام الشاعر المتصوف إبراهيم حقي بالتعبير عن حديث ضعيف -بل يقال عنه إنه موضوع- بأبيات من الشعر.. يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي:

"قال الحق تعالى:

لا يسعني السماء والأرض

منجَمُ القلب عرفه (كنــــزاً)".[1]

إذن فما أعظم منة ونعمة هذا الذات المقدس الذي لا يعد كل الأكوان ذرة أمام عظمته... ما أعظم نعمته على كل مؤمن عندما تجلى على قلبه ككنــــز وساقه إلى الاطمئان والسكينة. وأخيراً نقول الله أعلم بالصواب.

---

[1] يُروى كحديث شريف: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٢٥٥؛ وإلى معنى قريب للعبارة في مسند الشاميين للطبراني، ٢/١٩.

يُقال إن الله خلق كل شيء.. فمَن (حاشا لله) خلق الله؟

كثيراً ما يُطرح هذا السؤال. وأنا أُعد هذا السؤال علامة ودليلاً من أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ. وأمام تحقق ما أخبر به من أخبار الغيب أنكس رأسي وأقول "أشهد أن محمداً رسول الله".

أجل، إنه رسول كريم لله، إذ أخبر كل شيء يحدث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تلفزيون ينقل ما يشاهده. وقد نطق بالحق في كل ما أخبر عنه. فالأحكام التي ذكرها والحوادث التي أخبر عنها وقال إنها ستقع في المستقبل حدثت فعلاً وكما أخبر عنها تماماً. وهذا هو ضمن ما أخبر به. يقول ﷺ: "لن يبرح الناس يتساءلون: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟"[1]

وعندما وجّه لي هذا السؤال قلت في نفسي "أشهد أن محمداً رسول الله!" ما أصدق ما رأيتَ وما أصدق ما قلتَ! فما كان بالإمكان التعبير بشكل أفضل من هذا التعبير لسفالة طراز تفكير هؤلاء وضحالة إدراك الذين تمردت أنفسهم وأنانيتهم وتفرعنت، فأسبغوا صفة الألوهية على الأسباب وحاولوا إيضاح كل شيء بها وضمن إطارها.

فإذا رجعنا إلى المسألة الأصلية قلنا إن هذا السؤال من الأسئلة التي يطرحها المنكرون، وكثيراً ما تنسحق العقول الغضة تحت ثقل مثل هذه الأسئلة. أجل! إذ لا يستطيع هؤلاء فهم معنى اللاَّمُتَنَاهِي، ولا يستطيعون تقييم استمرار تسلسل الأسباب، وعما إذا كان لمثل هذا الخداع أي معنى.

لذا نراه يتردد ويشك، إذ يظن أن الله أيضاً سبب مثل الأسباب الأخرى، لذا فهناك أيضاً سبب آخر له، أي هو أيضاً مُسبَّب، أي نتيجة. وهذا وهم... وهم يستند إلى عدم معرفة الخالق، لأن الله تعالى هو مسبب الأسباب ولا بداية لوجوده.

وقد قام علماء الكلام استناداً إلى قواعد معينة بإثبات أن الأسباب لا يمكن أن تتسلسل هكذا إلى ما لاَنِهَايَة، وسعوْا لإثبات وجود مسبب الأسباب الذي هو الله

---

[1] مسلم، الإعتصام ٣.

تعالى. ومن المفيد تلخيص أفكارهم في هذا الصدد بمثال أو مثالين. يقول علماء الكـــلام إن القول بأن سلسلة الأسباب تستمر دون توقف تعبير عن الجهل بماهية الأسباب وغفلة عن الخالق. أجل فليس من الصحيح إعطاء أي احتمال لظهور الأسباب عـــن طريـــق سلسلة الأسباب المستمرة منذ الأزل، والنظر إلى احتمال هذا الأمر انخداع. فمثلاً إن قلنا بأن اخضرار وجه الأرض بالنباتات مرتبط بوجود الهواء والماء والشمس، وأن وجـــود الهواء والماء والشمس مرتبط بوجود بعض الأجزاء المادية مثل الأوكسجين والهيدروجين والكاربون والنتروجين...الخ. ووجود هذه الأجزاء المادية مرتبط بوجود جزيئات أصغر، وهذه الجزيئات الصغيرة مرتبطة بجزيئات أصغر...

إن الظن بأن من المحتمل أن يستمر هذا التسلسل إلى اللاَّنِهَاية، وأن من المحتمل إيضاح ظهور الأشياء عن هذا الطريق مغالطة وانخداع، ولا سيما إن علمنا أن هناك أضداد المادة وأن الميتافيزيقيا تغلب الفيزياء، وإن علمنا أن الأسباب بأجمعها بدءاً من السبب الأول وانتهاء بآخره تعمل ضمن اتساق وتلاؤم وبصيغ قوانين وكأنها موظف مستخدم يقوم بأداء وظيفته.

أجل! إن القول "إن هذا نتج عن هذا، وهذا عن ذاك، وذاك عن ذاك..."، مثل هذا القول لا يُحل أي مشكلة ولا أي مسألة، بل على العكس يجعل المسألة مستحيلة الحل، لأن الظن بأن من الممكن أن يُعد هذا حلا يشبه الظن باحتمال استمرار سفسطة "البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة" إلى الأبد. وهذا الادعاء والظن سيبقى معلقاً ودون سند حتى نسند البيضة أو الدجاجة إلى الموجود الأزلي ذي القدرة اللانهائية. ولكن ما أن تسندهم إلى الخالق الأزلي -الموجود بذاته- حتى تنحل المعضلة، لأنه سواء أتم خلق البيضة -التي هي خلية واحدة- أولاً، أم تم خلق الدجاجة أولاً وجعلت لها قابلية إنتاج البيضة لإدامة نسلها.. سواء كان هذا أم ذاك فالأمر سيان.

إذن فتنحية هذا وتركه جانبا وتكرار "هذا من ذاك، وذاك من تلك..." لا يؤدي بنا إلى أي نتيجة ولا نصل إلى أي وضوح، لأن كل جواب من هذا النمط يجلب معه استفهامات أكثر. مثلاً المطر مرتبط بالغيوم، والغيوم مرتبطة بالجزيئات الموجبة والسالبة، وهذه الجزيئات متعلقة بالتبخر، والتبخر مرتبط بوجود الماء وأخيراً بالعناصر المكونة

للماء.. وهكذا فبعد بضعة خطوات فقط ينتهي التسلسل ويقف. وحتى عندما يقف التسلسل في نقطة معينة يجد الإنسان نفسه في خضم فرضيات عديدة يحاول بها إشباع عقله "قد يكون كذا... أو كذا... أو كذا..."

وليس هذا إلاّ محاولة لتفسير العالم الذي نشاهد فيه النظام الدقيق والتلائم والتناغم المدهش بين أجزائه ونحدس ظهوره من يد الحكمة الباهرة.. محاولة لتفسير هذا العالم وكل الأشياء بهذيان الأطفال. كما أنها تضليل لأفق العلم وهدفه وإبقائهما في ظلام دامس. علماً بأن لكل نتيجة لا بد من وجود سبب، ومجرد تزايد الأسباب غير المنطقية وغير المعقولة وتسلسلها لا يجعلها معقولة ولا يضفي عليها صفة التلاؤم مع المنطق، فمثل هذا الظن هذيان وهو توهم المستحيل ممكناً.

والآن لنشرح هذا بمثال: لنفرض أنني جالس على كرسي من دون قائمتَيه الخلفيتَين. ولكي لا يسقط الكرسي فقد أسند إلى كرسي مثله، وهذا الكرسي إلى كرسي آخر مثله... وهكذا إلى اللانهاية، أي بعدد لا يستطيع العقل تخيله ولا يسعه الزمان ولا المكان. ومع ذلك فإن هذه الكراسي إن لم تسند إلى كرسي ثابت وذي قوائم أربعة فإنه لا فائدة من هذا التسلسل وإن استمر إلى اللانهاية.

ومثال آخر: لنفرض وجود صفر أمامنا، فهذا الصفر إن لم يُضف إلى رقم على يساره يبقى صفراً ودون قيمة وإن رصصت كومة من الأصفار على جنبه، حتى وإن وضع (تريليون x تريليون) صفراً. ولكن ما أن تضع على يساره رقماً حتى يكتسب الصفر قيمة حسب هذا الرقم. وهذا يعني أن أي شيء إن لم يكن له وجود مستقل وإن لم يكن قائماً بذاته فإن أمثاله من الأشياء العاجزة لا تستطيع منحه الوجود ولا منحه أي سند أو عون، ذلك لأن تجمع الأشياء العاجزة لإسناد العجز نفسه لا يفيد إلاّ في زيادة العجز وزيادة الحاجة.

وحتى لو فرضنا المستحيل وقبلنا بتأثير الأسباب فإن القانون الفيزيائي القاضي بـــ"تناسب العلة" يوجب وجود تناسب معقول بين السبب والنتيجة، لذا يجب مثلاً التفتيش عن أسباب معقولة وذات قوة وقدرة كافية تكون وراء ظواهر عديدة بدءاً من تحول الكرة الأرضية إلى بيئة ووسط صالح لظهور الحياة واستمرارها وانتهاءً إلى وجود

هذا الإنسان المفكر العاقل.

هذا علماً بأن الوضع الحالي للكرة الأرضية أي سرعتها ومقدار بعدها عن الشمس وطبقتها الجوية ودوراها الطبيعية والمقدار المحسوب لميل محورها ومقدار ونوع الغازات التي تشكل جوها، وطبقتها الترابية والنباتات التي تكسو هذه الطبقة، وبحارها والقوانين الخفية الجارية فيها والرياح والوظائف والمهام المختلفة التي تؤديها.. الخ من آلاف بل مئات الآلاف من الحوادث الجارية بكل نظام واتساق وتناغم لا يمكن عزوها وإرجاعها إلى الأسباب العمياء والصماء أو إلى المصادفات العشوائية، فمثل هذا العمل يجعل العقل وكأنه يناقض نفسه بنفسه.

والحقيقة أن علماء علم الكلام عندما حكموا عن طريق مفهوم "الدوْر والتسلسل" بنفي الأسباب وإسنادها إلى مسبب الأسباب أي إلى الله تعالى، ذكروا أن كل شيء "ممكن الوجود" وأن كل الأسباب والعلل تستند إلى "واجب الوجود"، ففتحوا بذلك منافذ إلى التوحيد، غير أن من الممكن الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق أسلم. أجل! ففي كل أثر من آثار الخالق ﷻ نرى ختمه وسكّته وآيته. لذا فليس هناك دليل واحد بل آلاف الأدلة على وجوده. فمنذ بدأت العلوم بمحاولة الكشف عن أسرار الكون، كان كل علم يشير بلسانه الخاص إلى وجوده ويعلن عنه بأجلى صيغة. وهناك كتب قيمة جدّاً كتبت في هذا الموضوع. أذكر هذا لكي أرجع إلى الصدد.

أجل! لقد وجد كل شيء فيما بعد. والله هو موجِدُ وخالقُ كل شيء، والله لكونه هو الله فلم يُخلَق، إذ كل مخلوق يكون عاجزاً ومحتاجاً بينما وجود الله من ذاته دون حاجة إلى أي أحد، فهو الغني المطلق الغنى. كل شيء يستند إليه ويعتمد عليه. وكل لغز -يبدو وكأنه غير قابل للحل- يظهر ويتوضح به، فهو الخالق وهو الموجِد وهو القائم على استمرار الوجود. هو الذي يَشُدّ إصره، هو كل شيء، هو الأول وهو الآخر.. فكيف إذن يفتّشون عن مسبب له؟!

ولنوضح هذا بمثال أو مثالين: مثلاً إن رجلي تحملان جسدي والأرض تحمل رجلي. والآن وبعد أن توصلت إلى معرفة مثل هذا الحامل المعقول فلا أحتاج إلى البحث عن أسباب جديدة خارجه. ومثلاً لنأخذ العربة الأخيرة من عربات قطار.. هذه العربة تجرّها

العربة التي أمامها، وهذه تجرها التي أمامها... وهكذا حتى نصل إلى القاطرة، أي المحرك الذي يجر القطار. وعندما نصل إلى المحرك نقول "إن هذا المحرك يحرك نفسه بنفسه". هذه الأمثلة المعطاة من الأشياء التي خلقها الله. فمهما غيّر هؤلاء المخدوعون الأسباب، وانتقلوا من سبب إلى آخر، فإنهم سيصلون حتماً إلى سبب لا يستطيعون التقدم بعده إلى سبب آخر. عند ذلك سنواجههم ونسألهم "ها هي نهاية الأسباب! ماذا بعد؟"

هناك مسألة أخرى تعكر صفو بعض العقول وهي أن التفكير المحدود لبني الإنسان لا يستطيع هضم مفهوم الأزل وإدراكه، لذا نراه يضفي صفة الأزلية على المادة، ثم يرى احتمال وقوع أشياء غير معقولة في الماضي السحيق الذي لا تستطيع الأرقام إيضاحه.

قبل كل شيء إن الأزل ليس نهاية الزمان الماضي، إنه لا زمان. فلو بلغت الأزمان (كاتريليون x كاتريليون) سنة لما بلغ عشر معشار الأزل. بينما يعرف الجميع تقريباً الآن بأن المادة التي هي أساس تسلسل الأسباب لها بداية معيّنة. فحركات الألكترونات، وأسرار فيزياء نواة الذرة، والعمليات الغامضة التي تجري في الشمس وتؤدي إلى إطلاق الإشعاعات، والقانون الثاني للديناميكا الحرارية (الثرموديناميك)، وهو القانون الشامل للكون يشير إلى أن لكل شيء نهاية. كل هذه الأمور أدلة بضخامة النجوم وبوضوح وبريق الشموس، وكل شيء له نهاية لا بد أن تكون له بداية، وهذا أمر واضح قد لا يحتاج إلى أي نقاش.

لذا فإن أي شيء أسبغت عليه نعمة الوجود يشير إلى الخالق ويدل عليه، كذلك فإن انطفاء وجوده وفنائه يدل على أنه (أي الخالق) لا أوّل له ولا آخر. لأنه إن كانت القاعدة الآتية صحيحة وهي "من كانت له بداية كانت له نهاية"، كان من الضروري "أن من لم تكن له بداية لم تكن له نهاية". لذا فإننا نرى أن المادة وكل شيء نبع منها إن كان موجوداً اليوم فهو غير موجود غداً. ولكن سير الكون البطيء نحو الفناء، والفناء التدريجي للمادة قد يخدع الكثيرين. ولكن مصير هذه العوالم -التي نمت وتوسعت ضمن عهود طويلة- هو إلى الفناء. أجل إن المادة مع أنها موجودة اليوم، فإنها -على ضوء بعض الأبحاث- متوجهة دون شك نحو التغير. والآن لنوضح هذا بمثال قطار أيضاً:

لنفرض أن قطاراً توجه من مدينة "إِزْمِير" نحو "تُورْكُوتْلُو" التي تبعد عنها ٥٥ كم.

ولنفرض أن سرعة القطار كانت ٥٥ كم/ساعة عند بداية الرحلة، أي أن الرحلة ستستغرق ساعة واحدة. سار القطار بهذه السرعة نصف ساعة ثم هبطت سرعته إلى النصف بعد أن بقي من المسافة ٢٧،٥ كم، أي أنه سيقطع نصف هذه المسافة فقط في نصف ساعة، ولنفرض أن القطار كلما سار نصف ساعة أنقص سرعته إلى النصف... وهكذا، مثل هذا القطار يبدو أنه لن يصل إلى مدينة "تُورْكُوتْلُو" أبداً. ومع أن القطار سيصل حتماً إلى هذه المدينة إلاّ أن راكب القطار قد يتصور أنه لن يصل إلى المدينة أبداً بهذه السرعة المتناقصة.

وشبيه بهذا فإن المادة سائرة نحو التحلل والتجزؤ. وسيتحقق هذا وإن كان بعد عدة ملايين من السنين، أي أن كل شيء فانٍ سواه تعالى.. سوى الموجود الذي لا يستند وجوده إلى شيء آخر غيره.

والخلاصة أن الله موجود وهو خالق كل شيء. وتوهم أنه مخلوق تفكير ساذج يسند إلى الخالق صفة المخلوق ولا يميز الفرق بين الخالق وبين المخلوق. والملحدون والمنكرون الذين أبرزوا هذا التصور والوهم -الذي يجفل منه الإنسان ويرتجف- أرادوا الظهور بمظهر العقل وهم لا يدرون أنهم سقطوا في تناقض صارخ مع العقل ومع المنطق. فمن يستطع اليوم ادعاء أزلية المادة أو إنكار الألوهية؟! فمثل هذا الادعاء لم يعد غريباً فحسب بل علامة على الجهل والتعصب.

ولكن مع أن بعض الماديين الذين لم يستطيعوا النفوذ إلى معنى الأشياء والحوادث لا يدركون الفناء والتحلل المقبلين على المادة ولا الفناء الذي تنتظره الذرة سيبقون -حتى يوم إدراكهم هذه الحقائق- وراء بياناتهم وادعاءاتهم هذه لخداع بعض السذج والبسطاء.

والله الذي أحاط علماً بكل شيء هو أعلم بحقيقة الأمر.

ما السبب في انتشار الإلحاد كل هذا الانتشار؟

لكون الإلحاد يعني الإنكار، فإن انتشاره متعلق بانهدام الحياة القلبية وسقوطها. طبعاً يمكن الإشارة إلى أسباب أخرى كذلك. الإلحاد من الناحية الفكرية هو إنكار الله وعدم قبوله. وفي مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود. أما في مستوى العمل والسلوك فيتبنّى الإباحية ويدافع عنها. انتشر الإلحاد فكرياً نتيجة إهمال الأجيال الشابة ونتيجة سوء التطبيق في دور العلم ومعاهده، إضافة إلى اكتسابه السرعة والقوة بتلقيه المساعدات من جهات كثيرة.

إن أوّل بيئة ينمو فيها الإلحاد هي البيئة التي يسود فيها الجهل ويغيب عنها القلب. فكتل الجماهير التي لا تتلقى تربية وتغذية روحية وقلبية ستقع إن عاجلاً أم آجلاً في براثن الإلحاد. وإذا لم تتدخل العناية الإلهية فإنها لن تستطيع إنقاذ نفسها. إذا لم تبذل الأمة عناية خاصة في تعليم أفرادها ضرورات الإيمان و لم تظهر الحساسية اللازمة في هذا الأمر وتركت أفرادها في ظلام الجهل، فإن هؤلاء الأفراد يكونون قد دفعوا لتقبل كل إيحاء معروض عليهم.

يتجلى الإلحاد في بادئ الأمر باللاّمُبالاة تجاه أُسس الإيمان وعدم الاهتمام بها. ومثل هذا السلوك الذي يتسم بحرية التفكير ما أن يجد أي أمارة صغيرة تعين على الإنكار وعلى الإلحاد حتى ينمو هذا الإلحاد ويزداد، مع أن الإلحاد لا يستند إلى أي سبب علمي. ولكن إهمال معين أو غفلة معينة أو تقييم خاطئ قد يولد الإلحاد.

في أيامنا الحالية هناك الكثير ممن هلك تحت ضغط هذه الأسباب، غير أننا سنقف هنا فقط على أهم هذه الأسباب وأكثرها تخريباً وتدميراً. ودَعني أقُلْ من البداية بأننا لسنا في مجال التعرض هنا إلى الأدلة التي تهدم الإلحاد وتزيله. ومن الطبيعي أن القارئ لا يتوقع منا هنا في هذا الحيز القليل التعرض إلى موضوع يحتاج إلى مجلدات، فزاوية الأسئلة والأجوبة في الكتب أو الصحف لا تستطيع استيعاب هذا ولا أن توفيه حقه. فمن الطبيعي أن مواضيع معقدة وعميقة بهذا المستوى لا يمكن تناولها وإيضاحها حق الإيضاح

في مثل هذه الزوايا، ثم إن هناك كتبا ثمينة جداً وممتازة جداً في هذا الموضوع، ولن يكون كلامنا إلاّ تكرار ما ورد فيها.

لنرجع إلى الصدد. إن الحوادث التي انبثقت كل منها من يد القدرة الإلهية والتي كل منها رسالة إلهية.. هذه الحوادث أو بتعبير آخر قوانين الطبيعة هذه أصبحت في يد الإلحاد وسيلة لاستغفال الأجيال وساحة لبذر بذور الإلحاد. مع أنه سبق وأن كتب آلاف المرات في الشرق والغرب وذكر أن قوانين الطبيعة هذه ليست إلاّ آلية تعمل بدقة واتساق واطراد ومعملا ذا إنتاج وفير. ولكن من أين أتت هذه القدرة على الإنتاج ومن أين أتى هذا النظام؟ أيمكن أن تكون هذه الطبيعة الجميلة التي تسحر النفوس والأرواح مثل شعر منظم ونغم موسيقى نتيجة مصادفات عمياء؟

إن كانت الطبيعة تملك -كما يُتوهم- قوة قادرة على الإنشاء والخلق، فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الطبيعة الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول إنها خلقت نفسها بنفسها؟ أيمكن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟ الوجه الحقيقي لخلاف الحقيقة هذه هو "الشجرة خلقت الشجرة، والجبل خلق الجبل، والسماء خلقت السماء..." لا أعتقد أن هناك شخصاً واحداً يستطيع أن يؤيد مثل هذه المغالطة والبعد عن المنطق.

أما إن كان القصد من ذكر "الطبيعة" هو الإشارة إلى القوانين الفطرية، فهذا أيضاً خداع آخر. ذلك لأن القانون -بتعبير القدماء- عرض من الأعراض. والعرض لا يقوم إلا بوجود الجوهر، أي أنه إن لم يتم تصور جميع الأعضاء والقطع التي تكوّن شيئاً مركباً أو جهازاً حيوياً ما، فلا يمكن تصور مفهوم القانون المتعلق بهذا الجهاز. وبتعبير آخر فإن القوانين قائمة بالموجودات. فقانون النمو يظهر في البذرة، وقانون الجاذبية يظهر في الكتل وفي الحيز (المكان)... الخ، إذ يمكن زيادة هذه الأمثلة. إذن فإن التفكير في القوانين قبل التفكير في الموجودات والزعم بأن هذه القوانين هي منشأ الوجود ليس إلا خداعا وبهْلَوانية.

وليس النظر إلى الأسباب واعتبارها أساساً وقاعدة للوجود أقل خداعاً وتضليلاً. والحقيقة أن محاولة القيام بتفسير وإيضاح هذا العالم المملوء بآلاف الحكم والنظم الدقيقة بالأسباب أو بالصدف محاولة خالية من أي قيمة علمية، بل هي محاولة مضحكة بل هي هذيان وتناقض، لأنه إعلان عن بطلان العلم.

وبينما أعلنت تجارب "ميللر" (Müller) قصور الأسباب والصدف وعجزها، تكلمت العلوم وأعطت أحكامها. فقد أعلن مثلاً معهد الكيمياء في الاتحاد السوفيتي تحت رئاسة "اوبرين" (Oparin) بعد بحث دام ٢٢ سنة أن قوانين الكيمياء والتفاعلات الكيمياوية بعيدة عن تسليط الضوء على الوجود. هذا ما يقوله العلم وما يقوله العلماء.

ونظرية "التطور والتكامل" التي درست في مدارسنا سنوات عديدة وكأنها حقيقة علمية ثابتة.. هذه النظرية أصبحت مجرد خيال علمي وقصة من قصص التاريخ بعد الإكتشافات العلمية الحديثة وتطور علم الجينات و لم يعد لها أي قيمة علمية. ولكن كم يؤلمنا أن مثل هذه المسائل الواهية لا تزال من أسباب الإلحاد لأجيالنا الشابة التي لا تزال معلقة في الفراغ لا تملك مع الأسف حتى الآن قاعدة ثقافية متينة.

ولكن من جانب آخر توجد هناك لحسن الحظ بعض الكتب التي ظهرت إلى الأسواق والتي تزيل مثل هذه الاستفهامات التي تجرح مشاعرنا وأفكارنا، وتعالج أمراضنا الروحية. فمن الممكن الآن الحصول على مئات من الكتب التي كتبت في الشرق وفي الغرب بمختلف اللغات والتي أوضحت الوجه الحقيقي للطبيعة وللأسباب.

ومع أننا نستغرب الكتب المنحرفة التي كتبها بعض "المستغربين" عندنا، إلاّ أن كتباً عديدة كتبت في الغرب أمثال "لماذا نؤمن بالله" الذي اشترك في كتابته العديد من علماء الغرب تشكل جواباً لأمثال هؤلاء المستغربين.

وبعد كل هذا الوضوح الموجود في الوسط العلمي حول هذا الموضوع، فإن الإلحاد لا يعد الآن إلا انحرافاً نفسياً وعناداً وفكراً جاهزاً من غير تفكير ومزاجاً طفولياً. ولكن لا يزال بعض شبابنا رغم كل هذا غير متخلصين تماماً من تأثير هذه الأفكار التي أكل عليها الدهر وشرب، إذ يتوهمون أنها تحمل حقائق علمية، لأنهم لم يتلقوا التربية العلمية والروحية الكافية.

لذا كانت التعبئة العلمية والتربوية لنشر المعارف الصحيحة ضرورة فوق كل الضرورات الأخرى. أما عدم إيفاء مثل هذه الوظيفة المقدسة حقها من الاهتمام فسيؤدي إلى جروح غائرة لا يمكن اندمالها في المجتمع. ولعل هذا هو أساس كثير من الآلام التي عانى منها المجتمع مدة سنوات طويلة، لأننا كنا محرومين من المرشدين الممتلئين بعشق التعليم الذين جمعوا بين

العلم والروح وبين العقل والقلب وبرزوا وتعمقوا فيهما. لذا نأمل من هؤلاء المرشدين الحقيقيين التصدي لحمل هذه المهمة البشرية الأساسية وأن ينقذونا من هذه الآلام التي قاسينا منها طوال عصر. عند ذاك ستصل الأجيال في أفكارها ومشاعرها وخيالها إلى الاستقرار، وتتخلص من الانحراف في تيار الأفكار الخاطئة، ومن التذبذب -كرقاص الساعة- ذات اليمين وذات الشمال، وتكون لها مناعة معينة ضد الإلحاد.

ونستطيع أن نقول كخلاصة إن الإلحاد الفكري هو نتيجة للجهل وعدم امتلاك قابلية التحليل والتركيب وعن فقر الغذاء الروحي والقلبي، لأن الإنسان يحب ما يعرف وهو عدو لما يجهل.

والآن لنلق نظرة على الكتب الموجودة في الرفوف وواجهات المكتبات، ونتفحص الأفكار التي تروج لها هذه الكتب والشخصيات التي تقدمها لنا؛ عند ذلك ندرك لماذا يحاول الصبيان في الأزقة التشبه في ملابسهم بـــ"الهنود الحمر" (Apachi) أو بـــ"زورو" (Zoro) أو الشباب بـــ"دون جوان" (Don Juan). ما ذكرته ليس إلاّ مثالا أو مثالين على الحقيقة التي نحاول إيضاحها. وعندما تقومون بإضافة عناصر التخريب الاجتماعية والاقتصادية الأخرى فليس في وسعنا إلاّ أن نرتجف حتى النخاع من المنظر المتشكل أمامنا.

لقد سار مواطننا من قبل وما يزال خلف من أحبه وقُدّم له على أنه شخص جيد، وأصبح عدواً أو غريباً عمن لم يعرفه. ووظيفتنا الآن هي القيام بالتفكير بالشيء الذي يجب علينا تقديمه له من الآن فصاعداً وإرشاده إلى طريق النور وعدم تركه في حالة تسيب وفراغ.

العامل الثاني في انحراف الجيل[1] إلى الإلحاد وفي انتشار الإنكار هو طبيعة الشباب. فرغبات الشباب التي لا تعرف الشبع، ورغباتهم في حرية مطلقة لا قيد عليها.. هذه الميول غير المتوازنة تكون قريبة من الإلحاد. فمثل هذه النفوس تقول "من أجل درهم من اللذة العاجلة "فإني أتقبل أطناناً من الألم في المستقبل". وهكذا يهيئون عاقبتهم الأليمة، وينخدعون باللذة الموهومة التي يقدمها لهم الشيطان ويقعون في شرك الإلحاد مثلما تقع الفراشات التي تحوم حول النار في النار.

---

[1] هذا يصح بالنسبة إلى تركيا قبل ثلاثين أو أربعين سنة حيث نشأت أجيال محرومة من التعليم الديني. (المترجم)

وكلما زاد الجهل وزاد فقر الروح والقلب تيسرت غلبة الشهوات الجسدية على المشاعر العلوية. وكما سلم فاوست (Faust)[1] روحه للشيطان، فالشباب يسلمون قلوبهم للشيطان. أجل! عندما تكون الأرواح ميتة والقلوب فقيرة والعقول في هذيان، فهناك طريق واحد وهو طريق الإلحاد. بينما تشكل العقيدة والشعور بالمسؤولية والقلب والروح الغنيان بالتربية والتهذيب أكبر ضمان ليقظة الشباب؛ وإلاّ فإن مجتمعاً تسلط فيه الشيطان على النفوس يتقلب من هذيان إلى آخر ويغير على الدوام محرابه وقبلته، ويسير خلف كل فلسفة جديدة ويعدها منقذة له ويرمي نفسه في أحضانها ليشرب من لبنها.

عندما يستيقظ صباحاً يصفق للفوضوية، وفي الظهر يقف احتراماً للنظام الماركسي/اللينيني، وفي العصر يحيي "الوجودية"، وفي العشاء قد ينشد نشيداً هتلرياً (Hitler)، ولكنه لن يلتفت أبداً إلى جذور روحه ولا إلى شجرة أمته ولا إلى ثمار هذه الشجرة وثقافة أمته وروحها ومدنيتها.

يصعب على هذا الجيل الذي تشوهت نظرته كل هذا التشوه، التخلص من الأهواء والرغبات، ويصعب -وربما يستحيل- إعطاء وجهة صحيحة لذهنه وتفكيره. لذا كان من الضروري تقديم مصطلحات الأفكار التي كانت أساس وجودنا وكياننا حتى الآن، وإيصالها -بأسلوب منظم ومدروس- إلى جيلنا ليصل إلى مستوى القدرة على التفكير السليم والصائب، لأننا مع هذه الشهوات الفردية نكون كما قال الشاعر محمد عاكف:[2]

لا تُصدِّق! إن قالوا لك إن المجتمع،
يمكن أن يعيش... بمشاعر ميتة...
أرني مجتمعاً.. استطاع العيش بمعنويات ميتة!

هناك عامل وسبب آخر للإلحاد، وهو اعتبار كل شيء مباحاً، أي النظرة الإباحية التي ترى الاستفادة من كل شيء موجود مهما كان ذلك الشيء، أي النظرة التي تستند إلى الفائدة والتلذذ من جميع النعم. وتبذل المحاولات اليوم لصب هذه النظرة في قالب

---

[1] فاوست بطل مسرحية مشهورة للشاعر الألماني الكبير "جوته" (المترجم).
[2] محمد عاكف: من أكبر الشعراء الأدب التركي المعاصر، ومنشد النشيد الوطني. (المترجم).

فلسفي وفكري منهجي. وعندما أقبل هذا الفكر إلينا جاءنا أوّل مرة في شكل فلسفة فرويدية (Freud) تحت مصطلح "اللبيدو" (Libido) الذي جرح مفهوم الحياء لدينا، ثم طغت عندنا الفلسفة الوجودية لـــ"جان بول سارتر" (Jan Poul Sartre) و"كامو" (Albert Camus) فهدمت حصون الحياء عندنا وجعلتها أثراً بعد عين.

هذه الفلسفة التي تجعل الإنسان يشمئز من إنسانيته، والتي ترمي هذه الإنســـانية إلى برميل القاذورات والزبالة قُدمت للأجيال على أنها الفلسفة التي توضح الوجه الحقيقـــي للإنسان. وقد هرع شباب أوروبا في أوّل الأمر ثم شباب البلدان المقلدة للغرب نحو هذا التيار الفلسفي وكأنهم نوموا تنويماً مغناطيسياً. وقد تصورت الإنسانية أن هذه الفلســـفة الوجودية سوف تُرجع قيمة الفرد وأهميته، هذه القيمة الفردية الــتي تضـــاءلت نتيجـــة للفلسفة الشيوعية، وأن رجوع القيمة إلى الفرد ستؤدي إلى نمـــو شـــجرة الإنســـانية وارتفاعها من جديد. ولكن هيهات! فالإنسانية لم تنتبه إلى أنها خُدعت مرة أخرى.

وهكذا فلأن الإيمان بالله والارتباط بمفاهيم الحلال والحرام لا يتماشى مع فلسفة التهام اللذات لهذا الجيل الذي تشوه بهذه الدرجة، نرى هذا الجيل يرمي بنفسه إلى أحضان الإلحاد، لأنه يريد أن يعيش في الجنة المزيفة لـــ"حسَن الصبّاح" زعيم الحشاشين.

لقد عرضنا بعض الملاحظات التي تهم من يملك البصيرة من الإداريين والمرشدين والمعلمين في المستقبل لكي يستطيعوا إيقاف تيار الإلحاد. ولكننا لا نعتقد بأن التسيب والهذيان الفكري محصوران داخل هذه الأسباب، كما أن التدابير التي يجب اتخاذها غير محصورة أيضاً فيما تم ذكره. أتمنى أن تستفيق أمتنا في هذا العهد الجديد وتثوب إلى رشدها وترجع إلى نفسها.

بما أن جميع الأنبياء ظهروا من شبه جزيرة العرب فكيف يكون الذين يعيشون في البلدان الأخرى مسؤولين من ناحية العقيدة والعمل؟

لهذا السؤال شقان؛ الأول: ظهور الأنبياء في شبه جزيرة العرب فقط وعدم ظهورهم في البلدان والقارات الأخرى. والثاني: ليس من العدل تعذيب الأمم التي لم يرسل لهـا الأنبياء. والآن لنتناول كل شق على حدة، إلاّ أنه من المفيد بل من الضروري التنبيه أولاً إلى مكانة الأنبياء بين الناس.

النبوة مرتبة سامية جداً. فهي الغصن المدلَى من الحق تعالى إلى الخلق، وهي قلـب الغيب ولسانه ووجوده من وراء هذا العالم الأرضي. وفيها تتجلى عملية سمو وعمليـة اختيار واصطفاء وعملية تكليف وإرسال. وليس النبي مجرد عبقري يملك عقـلاً كـبيراً يستطيع النفوذ إلى صلب الأحداث. فالنبي هو إنسان الأفق الذي تكون جميع ملكاتـه وقابلياته في ذروة الحركة والفعالية وفي نشاط دائمي موّاج يرسم في تموجه أفقاً جديـداً من السمو، وتكون هذه الفعالية متوجهة إلى استقبال النسائم الإلهية في كل أمر. الجسم عنده في إمرة الروح والعقل في إمرة القلب. ونظره متوجه على الدوام إلى عالم الأسمـاء والصفات الإلهية، وتصل قدمه إلى كل ما يصل إليه بصره من موضع، أي هما دائماً معاً. أما المشاعر عند النبي فتكون نامية ومتفتحة حتى آخر برعم فيها. وقابليتـه في الرؤيـة والسمع والإدراك تتجاوز حدودها الاعتيادية والطبيعية. وليس من الممكن لنا أبـدا في إطار قابليتنا في التحليل والتركيب أن نصل أو حتى أن نقترب من آفاق علوم الأنبيـاء علومهم التي تكاد تشق الحدود الطبيعية.

تستطيع الإنسانية بواسطة هؤلاء الأنبياء اكتشاف ماهية الأشياء. ولا يمكن النفوذ الكامل إلى طبيعة الأشياء وحقائق الأحداث خارج إرشادهم وتعليمهم، ولا التدخل الصائب في الطبيعة دون إرشادهم.

كانت الوظيفة الأولى والدرس الأول لهم هو تقديم أسرار الطبيعة وقوانينها الإلهية إلى البشرية. وكان هذا الدرس خاصاً بالمبتدئين. ثم قاموا بشرح الأسماء والصفات للخالق

العظيم الذي يشهد الكون والوجود كله عليه، والمقاييس الدقيقة في حق هذا الخالق الذي هو وراء كل إدراك. فهذا الخالق الذي يمسك كل هذه العوالم بيد قُدرته، بدءً من الذرات حتى مجموعات المجرات، ويسري فيها حكمه، ويقلّبها كيف يشاء كحبات سبحة ويحولها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل... لو لم تكن هناك بيانات الأنبياء الواضحة حول صفات هذه الذات العلوية المقدسة لَما كان من الممكن إطلاق أي حكم صحيح أو التفكير بشكل صحيح في حقه ﷻ.

إذن فإن النبي إضافة إلى نفوذه إلى قلب الأشياء وحقائق الأحداث وإلقائه علينا دروساً في الحياة بكاملها إلاَّ أنّ أهم دروسه هو شرح صفات وأسماء صاحب القدرة اللانهائية والعلاقات والموازنات الدقيقة الموجودة بين الأسماء الحسنى والصفات وبين الذات الإلهية.

لذا فليس هناك أي احتمال أن يخلو أو يحرم أي بلد من البلدان ولا أي زمن من الأزمان من فيض أنوارهم. وكيف يمكن ورود هذا الاحتمال والبشرية لم تعرف خارج نطاق إرشاداتهم أي أحكام صافية وواضحة لعالم الوجود، ولم تستطع الإرتفاع فوق شكوك وشبه وتناقض الفلسفة وترددها وضبابيتها في هذا الخصوص. لذا فإن العقل والحكمة والقرآن يتفقون على أن كل أمة وكل قارّة وفي كل عهد كانت تحت وصاية وإرشاد نبي، ولا يمكن ورود أو احتمال العكس.

فبينما نرى حاجة كل متحف صغير أو معرض صغير إلى مسؤولين عن التشريفات وإلى أدِلاء، وأن زيارة هذه المتاحف والمعارض تفقد معناها وغايتها وتكون عبثاً في غياب المرشدين والأدِلاء؛ لذا فكيف يمكن تصور مجيء الزوار إلى القصر الفخم لهذا الكون من دون وجود أدلاء ومرشدين يدلون الزوار إلى خصائص هذا القصر الفخم وإلى أسراره؟

وهل هناك أي احتمال أن القادر المطلق ﷻ الذي خلق هذا الكون وهذا النظام، وجعل هذا الكون معرضاً للفن الإلهي بأرْوع صوره، والذي عرّف نفسه لمشاهديه بآثاره وبدائعه، فهل يعقل أنه بعد عرضه كل هذه الآثار والمعارض الربانية لا يختار أشخاصاً متميزين ليقوموا بتعريف ذاته وأسمائه وصفاته إلى هؤلاء المشاهدين المشتاقين فيكون كل

ما عمله من أعمال حكيمة –حاشا لله– عبثاً، ويعرض إجراءاته الحكيمة للاتهام؟ بينما كل شيء يخبرنا بلسان واحد وبنغمة واحدة بأن القادر المطلق حكيمٌ في كل شؤونه ومنـزّهٌ عن العبث ومتعالٌ عن ذلك.

هذا علاوة على أن الله تعالى يقول في كتابه الكريم عن ظهور الأنبياء في كل أمة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦). ولكن البشرية سرعان ما نسيتْ الدروس التي تلقتها من هؤلاء الأشخاص العظام، وانحرفت عن الصراط السوي عن طريق تقديس هؤلاء الأنبياء وتأليههم، فعادتْ إلى الوثنية مرة أخرى. وهناك مئات من الأوثان التي خلقها الخيال الانساني ممتدة من جبل الآلهة في اليونان حتى نهر كنج في الهند، وهذه الأديان مختلفة في وضعها وشكلها الحالي عن وضعها وشكلها في بداية ظهورها اختلافاً كبيراً.

لذا لا يمكن النظر إلى "كونفشيوس" الصين أو إلى "براهما" و"بوذا" الهند من زاوية الشروط والظروف المعروفة التي هيأتْ ظهورهم. فالزمن يبلي كل شيء، وتتغير خلاله نظرات الإنسان وقيمه. لذا فمن الصعوبة بمكان تخمين المدى الذي تغير فيه وضْع هؤلاء وانحرف وضعه الأصلي وموقفه كما هو في بداية أمره.

لو لم يقم القرآن الكريم –ببيانه المزيل لكل الشبه[1]– بإعلامنا وإخبارنا عن عيسى عليه السلام لَما كان بالإمكان معرفة حقيقته داخل جدران الكنائس ضمن مفاهيم القسس والرهبان الذين يقومون حول تماثيل عيسى عليه السلام بمراسيم اختلطت بها شعائرالوثنية. إذ أن رفع البشر إلى مرتبة الألوهية وتنـزيل الذات الإلهية إلى مرتبة البشر، والدخول في تناقض عقلي صارخ من أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وتحريف العقيدة وتشويهها وتزييف العقل والمنطق لَهو أعظم صفاقة وجحود تجاه الله تعالى.

ونحن نشاهد الآن أن الشعائر المسيحية المحرفة في معابدها لا تختلف كثيراً من ناحية الشكل عن الوثنية اليونانية والرومانية. ولولا البيان القرآني، ولولا توضيحاته فإن من يشاهد الكنيسة وما يجري فيها يصعب عليه تمييز المسيح عليه السلام عن "أبولّو".

---

[1] انظر: المائدة ٧٢-٧٣، ١١٦-١١٧، النساء ١٧١.

لذا فإذا كانت المسيحية قد حرفت كتابها ونبيها كل هذا التحريف وهي قريبة الظهور من عصرنا، إذن فكم من مسيح وجد في القرون الأبعد وكم منهم تعرض إلى تحوير دينه وتحريف صورته في أذهان الناس. «عن بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "ما كان من نبيّ إلاّ كان له حواريون يهدون بهديه ويستنّون بسنّته ثم يكون من بعدهم أقوام يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما ينكرون»[1]، وهذا مهم جدّا. أجل! فكم من دين نراه الآن ديناً باطلا نبع من نبع صاف في بدايته وكان الوحي مصدره، ولكنه نتيجة جهل أتباعه والعداء الظالم لأعدائه انقلب بجميع أُسسه إلى مجموعة من الخرافات والأوهام.

إذن فإن معظم الأديان ذات المظاهر الباطلة والتي استمرت ووصلت إلى أيامنا الحالية كانت مستندة في الماضي إلى أسس متينة وصالحة وصافية في الأكثر. والظاهر أن كل عصر كان يحمل سمة وختم نبي من الأنبياء.

إن إسناد النبوة إلى شخص ليس بنبي يُعد كفراً ككفر إنكار نبوةِ نبيّ. إن الإنسان لا يملك نفسه من النظر نظرة شك إلى منشإ البوذية أو الاقتراب بحذر كبير من "البراهمة". بل يجب حتى البحث عمّا وراء الفلسفة العقيمة الضيقة للكونفيشيوسية أيضاً. وأعتقد أن من الاحتياط النظر إلى "الشامانية"[2] على أساس أنها تعرضت لكثير من التأويلات.

وسواء أكانت منابع هذه الأديان وبداياتها صافية أم يشوبها بعض الكدر فإنه مما لا يختلف فيه أحد أنها كانت مختلفة عن وضعها الحالي. فهي تعرضت إما لتآكل الزمن، أو تعرضت لتراكمات وإضافات جديدة مما أدى إلى تغيرها واختلافها عن حالها الأول. ولو فرضنا المستحيل ورجع مؤسسوها إلى الحياة مرة أخرى لما عرفوا الأديان التي جاءوا بها.

هناك أديان كثيرة في الدنيا تعرضت إلى التحريف والتغيير، ومن الضروري قبول أن القسْم الأكبر منها كانت صافية المنبع. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤)، فيعطي بذلك حكماً عالَمياً شاملاً. ولكننا لا نعرف من الأنبياء الذين

---

[1] صحيح ابن حبان، ٧١/١٤.

[2] الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الالهة والشياطين وارواح السلف. وان هذا العالم لا يستجيب الاّ للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. (عن قاموس المورد)

ظهروا في كل العالم والذي يبلغ عددهم حسب إحدى الروايات ١٢٤ ألف نبي[1].. لا نعرف سوى ٢٨ نبياً. ومع ذلك فنحن لا نعرف أماكن وأزمنة هؤلاء الأنبياء ولا نملك معلومات كافية عنهم.

ثم إننا غير مكلفين بمعرفة جميع الأنبياء الذين جاءوا إلى الدنيا. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَد أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ لَمْ نَقْصُصْ﴾ (غافر:٧٨)، أي أنه نبه إلى عدم الخوض أو المماراة في موضوع الأنبياء الذين لم يتم تعريفهم لنا.

ولكن من المعلوم من علم تاريخ الأديان والفلسفة والأنتروبولوجيا وجود نقاط مشتركة عديدة في العقيدة بين كثير من المجتمعات الإنسانية مع أنها متباعدة بعضها عن البعض الآخر بعداً كبيراً. فمثلاً يلاحظ في جميعها التوجه من التعددية إلى الواحدية. وعند التعرض إلى مصيبة كبيرة لا يمكن تحملها يُنبذ كل شيء جانباً وتفتح الأيدي في حضرة ذات علية، وترفع الأيدي إلى الأعلى دائماً... أي هناك تشابه في مظاهر السلوك والتصرف عندما يتعلق الأمر بشيء وراء الطبيعة. وهذا يشير إلى وحْدة المنبع ووحدة المعلّم. فمن السكان الأصليين في جزر الكناري إلى الملايا، ومن الهنود الحمر إلى قبائل الماوماو نرى الشعائر الدينية نفسها، والألوان والديكور نفسه والأنغام نفسها أو المتشابهة مع بعضها.

والملاحظات التي سجلها الأستاذ الدكتور محمود مصطفى حول قبيلتين وحشيتين وبدائيتين جداً تؤيد هذا الأمر. إذ يقول الدكتور محمود بأن قبيلة الماوماو تعتقد بإله اسمه "موجاي". وهذا إله واحد في ذاته وفي إجراءاته. وهو لم يُولَد من أحد و لم يلِد أحداً، لا شبيه له ولا ند، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام، ولكنه يُعرف بآثاره. وينقل عن قبيلة "نيام نيام" أشياء مشابهة لعقيدة قبيلة "الماوماو"، إذ يعتقدون بإله حاكم على كل شيء، قادر على أن يحرك ويوجه كل شيء في الغابة حسب إرادته ويرسل شرارات البرق على الأشرار... أي يؤمنون بالمعبود المطلَق.

وكما تبيَّن فإن العقيدة الإلهية لهؤلاء القوم تتشابه كثيراً مع ما ورد في القرآن الكريم

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢٦٥/٥؛ صحيح بن حبان ٧٧/٢؛ المستدرك للنيسابوري، ٦٥٢/٢.

حول عقيدة الذات الإلهية، بل نستطيع أن نقول إن "الماوماو" يعبرون تقريباً عن المعنى الوارد في سورة الإخلاص. إذن فمِن أين استطاع هؤلاء الأقوام –البدائيون البعيدون جداً عن المدنية وعن ساحة تأثير الأنبياء الذين نعرفهم– الوصول إلى مثل هذه العقيدة الإلهية العميقة والصافية في الوقت الذي لم يصلوا إلى معرفة أبسط قوانين الحياة؟ إذن فالآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُم قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾ (يونس:٤٧) توضح حقيقة عالمية شاملة، وليست هناك أرض خارجة عن نطاقها.

وسمعت من الأستاذ "عادل زينل" أستاذ الرياضيات من مدينة "كركوك" في العراق والذي تعرفت به سنة ١٩٦٨ شيئا شبيها بما نقله الدكتور محمود مصطفى، إذ قال بأنه خِلال دراسته العليا في الولايات المتحدة الأمريكية كان كثيراً ما يلتقي بالسكان الأصليين لأمريكا من الهنود الحمر وأنه استغرب جداً من بعض أمورهم. قال "كان السكان الأصليون يرتبون شعائر دينية فيما بينهم، وكانت هذه الشعائر منسجمة مع عقيدة التوحيد. إذ رأيتهم يؤمنون بإله لا يأكل ولا يشرب ولا يمر عليه الزمن –أي فوق الزمن– وكانوا يكررون قولهم بأن كل ما يجري في الكون إنما يجري حسب إرادته ومشيئته، وكذلك يتحدثون عن كثير من الصفات السلبية والوجودية.[1] ولم تكن مثل هذه الأفكار العالية والسامية تتلاءم أو تتوازى مع حياتهم البدوية البسيطة والبدائية".

إذن فإنه لا يمكن تفسير العقيدة بين الشرق والغرب وبين الأطراف القاصية من الدنيا إلاّ بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هذه البلدان وإلى هذه الأرجاء، لأنه يستحيل إرجاع مثل هذه العقيدة التوحيدية المتوازنة التي لا يستطيع إدراكها كبار الفلاسفة إلى اجتهاد وإلى فكر هؤلاء الأقوام البدائيين من أمثال قبائل الـ"ماوماو" أو قبائل الـ"نيام نيام أو" قبائل الـ"مايا". إذن فإن صاحب الرحمة الواسعة الذي لم يترك النحل والنمل دون أم، لم يترك نوع البشر دون أنبياء، بل أرسلهم إلى جميع بقاع الأرض لينشروا فيها النور.

والآن لنأت إلى الشق الثاني من السؤال وهو هل يُعذب من لم يَر نبياً؟

---

[1] الصفات السلبية والوجودية: أي الصفات الإلهية مثل الوجود والقدم والوحدانية ومخالفته للحوادث والقيام بذاته. مثلا: صفة الوجود تسلب صفة العدم، وصفة الوحدانية تسلب التعدد، وصفة القدم تسلب الفناء.

لقد رأينا في جواب الشق الأول أن أي بقعة من الأرض لم تخْل من نور النبوة. ومع أنه مرت أوقات جفاف مؤقتة، إلاّ أن الرحمة الإلهية سرعان ما كانت تهطل أمطاراً غزيرة. لذا فكل فرد سمع –قليلاً كان أم كثيراً– بهذه الرحمة أو شاهدها أو ذاقها أو شبع منها. ولكن في البقاع التي كان التحريف فيها سريعاً نرى سرعة هجوم زمن الفترة[1] بظلامه على تلك البقاع، أي أن فترات النور والظلام كانت متعاقبة، والذين وقعوا دون إرادتهم في فترة من فترات الظلام نرى الرحمة الإلهية تنجدهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥). إذن فالإنذار أولاً، والتكليف ثانياً، ثم العذاب أو الرحمة.

صحيح أن أئمة المذاهب لهم آراء مختلفة في فروع هذا الأمر، فالإمام الماتريدي وأتباعه مثلاً لا يرى أي عذر لأي شخص في عدم معرفة وجود الله ولا سيما بعد آلاف البراهين والإدلة التي تشير إليه والتي يزخر بها الكون. أما الأشعريون فيقولون بأن معنى الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥) هو إشارة إلى أن استحقاق العذاب لا يكون إلا بعد التبليغ.

وهناك من يوفق بين الرأيين فيقول: إن كان هناك شخص لم ير أي نبي ولكنه لم يعبد صنَما و لم يلحد بالله فهو من أهل النجاة، ذلك لأن هناك كثيرا من الناس المحرومين من قابلية التحليل والتركيب الفكري، كما لا يستطيعون استنباط المعاني من سير الأمور والأحداث. لذا يجب أولاً إرشاد أمثال هؤلاء، ثم نرى عما إذا كانوا يستحقون الثواب أو العقاب. ولكن إن كان هناك من اتخذ الكفر مهنة له ومسلكاً، ويفلسف هذا الكفر، ويعلن الحرب ضد الله، فسيَلقى جزاء إلحاده وكفره وإن كان في أقصى الأرض.

وكنتيجة نستطيع أن نقول إنه ما من بقعة أو بلد خلا من الأنبياء، وأنه ما من زمن "فترة" طويل خال من الأنبياء. فإنسان كل عهد أخذ نصيبه من النسيم العطر الذي أحدثه نبي من الأنبياء. أما في الأماكن التي نُسي فيها اسم النبي وذكْره وبهتت آثاره بفعل مرور الزمن وتأثيره، فقد أطلق تعبير "الفترة" على هذه العهود حتى ظهور نبي آخر، وبأن إنسان مثل هذه العهود –أي عهود الفترة– سيُغفر له ولكن بشرط ألا يكفر بالله ويلحد به عن سابق قصد وشعور. والله تعالى المحيط بعلمه بكل شيء هو أعلم بالصواب.

---

[1] الفترة: الزمن الماضي بين نبيين أو رسولين.

لقد بيّن القرآن الكريم أن الإرادة الكلّيّة لله تعالى وحده. ومعلوم كذلك أن للإنسان إرادة جزئية، فإذا كان الأمر هكذا فهل يتبع حين يقترف الإثم إرادته الجزئية أم الإرادة الكلية لله تعالى؟

نستطيع أن نعبر باختصار عن هذا الموضوع فنقول إن هناك إرادة للإنسان سواءٌ أأطلقنا عليها تعبير "الإرادة الجزئية" أم "المشيئة الإنسانية" أم "الكسب الإنساني". ولنطلق تعبير "الإرادة الكلية" أو "القدرة على الخلق" أو "الإرادة التكوينية" -وكلها من صفات الله تعالى- على صفة الخلق عند الله. وعندما يتم تناول المسألة من الجانب المتعلق بالله تعالى يبدو وكأن الله تعالى يفرض إرادته ويجبر الحوادث أن تأخذ مجرى معيّناً. وهكذا يدخل الجبر في المسألة، أو يتم تناول المسألة من الجانب المتعلق بالإنسان فتبدو وكأن الإنسان يعمل أعماله بنفسه، أي أن "كل إنسان هو خالق لعمَله" وهذا مذهب المعتزلة.

الله خالق كل ما يحدث في الكون، وهذا هو معنى "الإرادة الكلية" الواردة في السؤال. ومعنى ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافات:٩٦) أي خلقكم وخلق الأعمال الصادرة منكم.

مثلاً إن قمت بعمل سيارة أو ببناء بيت فالله هو خالق هذه الأعمال، لأنك أنت وأفعالك تعودان لله تعالى. ولكن هناك أشياء تعود إليك في هذه الأفعال وهي "كسبك" و "مباشرتك". وهذا الكسب شرط عادي وسبب بسيط، فيشبه تماماً قيام شبكة كهربائية ضخمة بإنارة منطقة واسعة جداً بمجرد قيامك بالضغط على زر واحد. فكما لا يمكن هنا القول بأنك لم تفعل شيئاً ولم يكن لك أي دخل في الموضوع كذلك لا يمكن القول بأن هذه الإضاءة والإنارة تعود تماماً إليك. العمل يعود تماماً إلى الله تعالى، ولكن الله تعالى عندما خلق هذه الأعمال قبل تدخلك الجزئي هذا وعده شرطاً عادياً وبنى ما سيفعله على هذا التدخل الجزئي.

مثلاً، إن الله تعالى هو الذي أسس آلية الكهرباء الموجودة في هذا الجامع وجعلها

صالحة للعمل وللشغل، وهو الذي حقق عملية التنوير، لأن إحداث النور من تيار الألكترونات وتنوير الجامع يُعد فعلاً. وهذا الفعل يعود إلى "نور النور" و"منور النور" و"مصور النور"، أي إلى الله تعالى. ولكن هناك مباشرة عائدة لك في موضوع تنوير هذا الجامع، وهي القيام بالضغط على زر فقط في هذه الآلية التي وضعها الله تعالى، أي أن عملية التنوير وآليته ووظيفته التي تتجاوز قدرتك وطاقتك وإرادتك تعود إلى الله تعالى.

لنضرب مثلاً آخر... لنفرض وجود ماكنة جاهزة للعمل وللشغل، وأن وظيفتك تنحصر فقط في الضغط على زر واحد فيها. إن تحْريك هذه الماكنة يعود إلى من أنشأها وصنعها في الحقيقة. لذا نحن نطلق على المباشرة الضئيلة العائدة للإنسان صفة "الكسب" أو "الإرادة الجزئية" ونطلق على ما يعود إلى الله تعالى صفة "الخلق". وهكذا يظهر أمامنا تقسيم للإرادة:

١. الإرادة الكلية

٢. الإرادة الجزئية

ومعنى الإرادة هو التوجه والمشيئة، وهذه تعود إلى الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ﴾ (الانسان:٣). يجب ألاّ يُساء فهم هذا، لأننا عندما نقول إن للعبد نسبة صغيرة من الإرادة تتمثل في ضغط أصبع نكون قد افترقنا عن الجبرية الصرفة. وعندما نقول إن الله هو خالق العمل نفترق عن فكر المعتزلة وعن أصحاب الفلسفة العقلانية (Rasyonalizim). وهكذا لا نكون قد أشركنا أحداً في ربوبية الله وألوهيته تعالى، ولا وضعنا له نداً تعالى عن ذلك علواً كبيراً. فكما أن الله تعالى واحد أحد في ذاته، كذلك لا يُشرك في أفعاله وإجراءاته أحداً غيره. الله هو خالق كل شيء ولكنه من أجل التكليف والامتحان ومن أجل أسرار وحكم أخرى قبل مباشرة البشر وكسبهم كشرط عادي. ولكي أُكسب الموضوعَ وضوحاً أكثر فإني أُورد هنا مثالاً ذكره أحد كبار العلماء. يقول هذا العالم:

"إذا أخذت طفلاً عاجزاً ضعيفاً على عاتقك، وخيّرته قائلاً: إلى أين تريد الذهاب، فسآخذك إليه. وطلب الطفل الصعود على جبلٍ عالٍ، وأنت أخذته إلى هناك، ولكن الطفل تمرض أو سقط. فلا شك أنك ستقول له: أنت الذي طلبت! وتعاقبه، وتزيده

لطمة تأديب. وهكذا -ولله المثل الأعلى- فهو سبحانه أحكم الحاكمين جعل إرادة عبده الذي هو في منتهى الضعف شرطاً عادياً لإرادته الكلية".[1]

هل في وسعك إنكار إرادة الصبي هنا؟ لا تستطيع، لأنه هو صاحب الطلب. ولكنك كنت أنت الذي ذهبت به إلى ذلك المكان. أما المرض فلم يكن من عمل الصبي، وإنما صدر منه الطلب فقط. هنا يجب التمييز بين من أعطى المرض وبين من جلب الصبي إلى هناك وبين من طلب المجيء.

نحن ننظر بهذا المعنى وبهذا المنظار إلى القدر وإلى الإرادة الإنسانية. والله تعالى المقدر لكل شيء هو الأعلم بالصواب.

---

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة السادسة والعشرون / المبحث الثاني / المثال السابع.

ورد في القرآن الكريم أن ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧). وهناك أيضاً ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩) أي أن الله قد منح الإنسان العقل والتفكر وله إرادته وهداه الله السبيلين أيما شاء سلك. كيف يمكننا أن نؤلّف بين كلا الأمرَين؟

هناك شقان في هذا السؤال: جريان الأمور هل هو حسب الإرادة الإلهية الكلية، أم حسب الإرادة الإنسانية؟

ففي الآية الواردة ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (الكهف:١٧) معنى الهداية هو الطريق الصحيح والرشد، وهو طريق الأنبياء. أما الضلالة فهو الطريق المنحرف، وفقدان الطريق الصحيح، والابتعاد عن الاستقامة.

إن أمْعنا النظر نرى أن كلا منهما عمل وفعل، ويعدان من الوجهة البشرية فعلاً عاملاً. لذ أوجب إرجاعهما إلى الله تعالى لأن كل فعل -كما قلنا سابقاً- يرجع إلى الله تعالى، وليس هناك أي عمل لا يرجع إليه. أجل، فالضلالة مرتبطة باسمه "المضل" والهداية مرتبطة باسمه "الهادي". فهو الذي يعطي كِليهما.

ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد للعبد أي دخل وأي كسب، إنما يدفع إلى الضلالة من قبل الله جبراً، أو يساق إلى الهداية سوقاً، فيكون ضالاً ومنحرفاً في الحالة الأولى، ومهتدياً وراشداً في الحالة الثانية. نستطيع أن نفهم بإيجاز هذا الأمر كما يلي:

إن كان الوصول إلى الهداية أو السقوط في الضلالة عملاً بوزن عشرة أطنان مثلا، فلا يملك الإنسان منه عشر المعشار، بل العمل كله لله تعالى.

لأذكر مثالاً ملموساً: إن الله يهدي، وللهداية وسائلها مثل الذهاب إلى الجامع... الاستماع للنصائح... تنوير العقل وتثقيفه... كلها من وسائل الهداية. الاستماع إلى القرآن الكريم وتدقيق معانيه والتعمّق فيها من وسائل الهداية أيضاً. التتلمذ في مدرسة

الرسول ﷺ، والاستماع إلى أقواله بقلب حاضر، والاسترشاد بمرشد وأخذ الدروس منه، والدخول إلى الجوّ الروحي للرسالة وللنبوة وفتح القلب لكل نسائم تجلياته طريق من طرق الهداية، حيث يستطيع الإنسان المباشرة بالطرق المؤدية إلى الهداية. أجل! مع أن المجيء إلى الجامع مباشرة بسيطة إلا أن الله تعالى يجعلها وسيلة للهداية، أي أن الهداية من قِبل الله، ولكن للعبد "كسب" معيّن في طرق باب الهداية.

وقد يطرق الإنسان أبواب الخمارات والبارات والأصنام، أي يطرق باب اسم "الْمُضِلّ" ويطلب الضلالة لنفسه. فإن شاء الله أضله وإن شاء جعل أمامه عوائق تمنعه من الانحراف والضلالة. إذن يتضح أن ما في يد الإنسان من شيء ضئيل لا يكفي ولا يستطيع أن يكون سبباً للهداية أو للضلالة.

لأضرب هذا المثل: قد تُصغي إلى القرآن الكريم وإلى المواعظ والنصائح وقد تَقرأ كتاباً علمياً جيداً فتحس وكأن الأنوار تشرق في قلبك. بينما عندما يستمع شخص آخر إلى الأذان المحمّدي أو إلى المواعظ أو إلى المناجاة والأدعية الضارعة الخارجة من القلب يحس بضيق ويقول "ما هذه الأصوات المنكرة؟" أي يشكو من أصوات الأذان.

إذن فإن الله تعالى هو الذي يعطي الهداية أو الضلالة. ولكن إن سلك أحد طريق الضلالة بعناد فإن الله تعالى يخلق له ما يتبقى من ٩٩,٩% من العمل العائد له تماما كعملية الضغط على زر لتشغيل آلة ضخمة ثم يقوم بمحاسبة الإنسان لكونه مال إلى الضلالة ورغب فيها ويعاقبه أو يعفو عنه.

هناك أشخاص أعطاهم الله كل شيء، الأموال الطائلة والسيارات الفارهة والقصور الفخمة والشرف الرفيع والصيت الذائع... بينما الآخرون يتضورون جوعًا وتصيبهم آلام وبلايا ومصائب وفقر وعلل. فيا ترى هل هؤلاء فاسدون والآخرون يحبهم الله حتى أغدق عليهم ما أغدق، بينما هؤلاء ينسحقون تحت وطأة أعباء الحياة؟

مثل هذا السؤال لا يُسأل إلا من أجل الوصول إلى المعرفة، وإلا فإن السائل يكون آثماً. ومن كان في ضيق فمن الطبيعي أن يَسأل هذا السؤال من أجل الفهم لا الشكوى.

يعطي الله تعالى المال والدور والمراكب والعمارة لمن يشاء، ويعطي الفقر وضيق اليد لمن يشاء. ولكن لا يمكن هنا إنكار دور بعض الأسباب كالظروف العائلية وغيرها، كما لا يمكن إنكار قابلية شخص ما وكياسته ودرايته في كسب المال وتنميته، وكذلك لا يمكن إنكار مدى تأثير معرفته بطرق الربح في الأحوال والشروط والظروف المحيطة به أيضاً. ومع هذا فقد لا يؤتي الله تعالى المال لأشخاص مع وجود القابليات عندهم. ومع هذا فقد ورد في حديث ذي مغزى عميق يخص موضوعنا «عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: إن الله قسَم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنّ الله ﷻ يعطي الدنيا من يحبُّ ومَن لا يحبّ ولا يُعطي الدِّين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه»[1]. وهذا له معنى فيما نحن بصدده.

ثم إن من الخطإ عد المال والجاه خيراً على الدوام. أجل! فالله ﷻ قد يعطي المال والرفاه والسعادة الدنيوية لمن يطلبها وقد لا يعطي. وسواء أأعطى الله تعالى أم لم يعط فهو خير في كلتا الحالتين. ذلك إن كنت شخصاً جيداً واستعملت المال المعطى لك في أمور الخير، فالمال هنا يُعد خيراً. ولكن إن لم تكن شخصاً جيداً، بل كنت منحرفاً عن الصراط القويم فسواء

---

(1) المسند للإمام أحمد، ١/٣٨٧.

أأعطى الله تعالى المال لك أو لم يعطه فالوضع يكون سيئاً بالنسبة لك.

أجل! إن كنت شخصاً غير مستقيم فالفقر يكون عندك وسيلة إلى الكفر، لأنه يحرضك على رفع راية العصيان تجاه ربك. كما إن كنت بعيداً عن الاستقامة فمعنى هذا أنك لا تملك حياة قلبية وروحية صحيحة، لذا فإن الغنى سيكون لك مصيبة وبلاء ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٨). لقد خسر الكثيرون هذا الامتحان حتى اليوم؛ فكم من غني مع أنه يملك ثروة كبيرة لا يملك في قلبه شرارة نور واحدة بسبب جحوده. لذا فإن إعطاء الله تعالى المال والجاه لهؤلاء يعد استدراجاً[١] أي وسيلة لانحرافهم. ولكن هؤلاء استحقوا هذا لكونهم أماتوا حياتهم القلبية والروحية وقضوا على القابليات الفطرية التي وهبها الله تعالى لهم. من المناسب هنا ذكر هذا الحديث النبوي: «كم مِن أشْعثَ أغْبَر ذي طِمْرَيْن (صاحب ثوبين خلقين) لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأَبَرّه، منهم البراءُ بن مالكٍ»[٢]

بينما لم يكن البراء -وهو شقيق أنس- يملك لا طعاماً يأكله ولا داراً يأوي إليها. كان يعيش على الكفاف. وكم من أشعث أغبر مثل البراء كانوا يوقرون ويُنظر إليهم كعظماء ويقيّمون حسب وسعة قلوبهم وعمقها وعظمتها، ونور نفوسهم وضيائها. لذا وصفهم النبي ﷺ أنهم لو أقسموا على الله لأبرهم.

إذن فلا يمكن النظر إلى مجرد الفقر أو إلى مجرد الغنى على أنه مصيبة أو نعمة. فقد يكون الفقر حسب موقعه من أكبر نعم الله تعالى. وقد اختار الرسول ﷺ الفقر بإرادته فقال لعمر رضي الله عنه المتألم من فقر الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[٣] وبينما كانت الثروات تسيل إلى خزينة بيت المال عاش الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقيراً، لا يتناول إلا ما يسد رمقه فقط و لم يطلب المزيد.

ولكن هناك نوع من الفقر -أعاذنا الله منه- يكاد يكون كفراً. فمثلاً لو كان هذا

---

[١] الاستدراج: استمرار العديد من الاشخاص -الذين أنعم الله عليهم نعماً عديدة- في الكفر والعصيان واقترابهم بسبب ذلك من غضب الله ونقمته.

[٢] الترمذي، المناقب ٥٥.

[٣] البخاري، تفسير سورة التحريم ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٦/٣.

السؤال صادراً لا عن قصد معرفة وعلم، بل تعبيراً عن السخط، من فم جاحد، يعد هذا جحوداً لنعم الله تعالى وشكوى منه وعصياناً... أي عُدّ كفراً. إذن فالفقر يعد نعمة أحياناً وأحيانا نقمة، أي أن الأصل في الموضوع هو الصدى الذي يلقاه في القلب، أو كما قال الشاعر:

يارب! كل ما يأتي منك مقبول،
إن كان خلعة... أو كان كفنا،
إن كان وردة... أو شوكاً،
نعمتك ومحنتك... كلاهما حسن.

وفي شرقي الأناضول هناك مثل يقول "كل ما جاء منك جميل، سواء أكان هذا أم ذاك".

الإنسان إن كان مع الله فلا يضره أن يكون غنياً وأن يلبس فاخر الثياب، مثل هذا الشخص قد يكون مثل عبد القادر الكيلاني قدس سره، رجله على أكتاف الأولياء ورأسه يلمس حافة ثوب الرسول ﷺ. ولكن إن لم تكن للإنسان أي علاقة بالله تعالى فإن فقره يكون له خسراناً في الدنيا وخسراناً في الآخرة أيضاً. وكذلك إن كان الغني غافلاً عن الله تعالى فإنه وإن بدا سعيداً في الدنيا فإن خسراناً كبيراً ينتظره في الآخرة.

كيف يستطيع عزرائيل وحده القيام بقبض أرواح العديدين الذين يموتون في لحظة واحدة؟

نرى في هذا السؤال كيف أن المقاييس البشرية تخدع الإنسان. فكمـــا أن تشـــبيه الملائكة بالإنسان خطأ، كذلك من الخطأ البحث عن آثار الروح ووظائفها في الجســـد. لذا فلا يمكن الإجابة على هذا السؤال قبـــل القيـــام بإيضـــاح الخطـــأ المصـــطلحي (Terminological)، أي يجب أولاً معرفة نقاط الانحراف في السؤال ثم القيام بالإجابة.

.بما أن الملائكة تعود إلى عالم آخر، إذن فإن طبيعتها وماهيتها ووظائفها مختلفة تماماً عن عالمنا. لذا فإن من الخطأ إعطاء أي حكم دون النظر إلى عالمها الخاص ودون التفكير .بماهيتها ووظائفها. لذا يجب معرفتها من هذا الجانب أولاً.

كلمة الملائكة مشتقة من كلمة (المَلْك) بمعنى القوة، أو من (المَلَك) بمعنى الرســـول. فمن حيث الاشتقاق الأول يكون المعنى: القويّ جدّاً. ومن حيث الاشتقاق الثاني يكون المعنى: الرسول الناقل لأوامر الله تعالى. هذه الأوصاف الممتازة موجودة في عموم الملائكة التي خلقها الله تعالى وهي ضرورية لدى الملائكة المكلفين بتبليغ الوحي الإلهي خاصـــة. وهذه المخلوقات السامية، بدءً من الملائكة المكلفين بمراقبة الحياة والممات، وانتهاء بحَمَلة العرش والموجودين في الحضرة الإلهية مكلفة وموظفة لمشاهدة ورؤية خلـــق الله تعـــالى وشؤونه الأخرى.

فكل الأعمال بدءً من العالم الكبير (الكون) وانتهاء بالعالم الصغير (الذرّة)، وكـــل التغييرات والتركيبات والتحوّلات تقع بإشراف ومراقبة هذه الكائنات المتميزة السامية. كما تقوم هذه الكائنات القوية والأمينة بنقل التشريعات والأوامر الإلهية النابعة من صفة الكلام الإلهي. فإن أخذنا بنظر الاعتبار قيامها بأعمال مدهشة وكونيـــة اعتبـــاراً مـــن الإشراف على أعمال الجاذبية والتنافر على المستوى الكوني وانتهاء بالحركـــة المنتظمـــة للألكترونات حول نواة الذرات.. إذا أخذنا هذه الأعمال المدهشة والدقيقة والصـــعبة علمنا مدى القوة والأمانة التي يجب عليها الاتصاف بها.

الوظائف والمهمات التي تقوم بها الملائكة كثيرة ومتعددة جداً، فلا يمكن تصور وقوع حادثة خارج مهامهم... لا تنزل قطرة مطر، ولا يبرق برق من دونها، أي إن جميع القوانين الكونية والفطرية تجري بواسطتهم، أي بواسطة هذه القوى المدركة والواعية، كلٌّ حسَب قابلياتها واستعداداتها التي وهبها لها صاحب الملك والقوة ﷻ. كما يتجلى بواسطتها الإلهام والوحي الإلهي المرسل لتوجيه سلوك الإنسان الذي هو من أشرف مخلوقات الله تعالى وتنظيمه وتصحيحه.

إذن فنظرا إلى القدرة والقوة الهائلة المعطاة لها لمباشرة وظيفتها كواسطة بين الخالق والمخلوق، والقيام بمهام عديدة بدءاً من الذرات إلى السدم، ونظراً لكونها جهزت بقوة وقدرة ملكوتية[١] لأداء وظائفها، فإن القيام بتشبيه الملائكة بالإنسان وتوهم أن القيود الضرورية الموجودة أمام البشر موجودة أمامهم إنما هو جهل وانحراف في التصور وفي التفكير.

أجل! لو كانت الملائكة تحمل جسداً ماديّاً مثل جسد الإنسان المعرض للتحلل، ولو كان الزمن يتحكم عليهم ويجري حكمه عليها مثلما يجريه على سائر الأحياء، إذن لكنّا محقين باتخاذ مقياس بشري في حقهم. ولكن هناك فروقات لا يمكن قياسها بينهما لأنهما عالمان مختلفان.

ثم إن الملائكة تختلف عن الإنسان من ناحية الخلق. وهذا الفرق ناشئ عن الساحة الواسعة لمهماتها ووظائفها. فالطبيعة النورية في خلقها تجعلها أكثر نفوذاً وسيالية. لذا فهي تملك قابلية الانعكاس في لحظة واحدة لدى أرواح عديدة، وقابلية المشاهدة من قبل أنظار عديدة في اللحظة نفسها، ويملك الملك الواحد قابلية التجلي المتعدد. وهناك حديث ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ من أن الملائكة خلقت من النور،[٢] لذا فهي تملك خصائص النور.

كل جسم من الأجسام المضيئة -مثل الشمس- يمكن أن يظهر أي واحد منه في

---

[١] الملكوتي: هو الذي يعود إلى الماهية الأصلية والحقيقية للأشياء وهو العالم الذي تجري فيه الأسرار والسلطة الإلهية في حاكمية مطلقة ومؤثرة.

[٢] جاء في الرواية أن «عائشةَ رضي الله عنها قالتْ قال رسولُ الله ﷺ: خُلقتْ الملائكةُ مِن نُور وخُلق الجانّ من مارج من نار وخُلق آدمُ ممّا وُصف لكم». مسلم، الزهد والرقائق ١٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٨/٤.

عدة أماكن بانعكاسه في كل جسم شفاف، ويستطيع الدخول في بؤبؤ كل عين. والملائكة التي تحمل صفات النور وخصائصه تستطيع التعامل في اللحظة نفسها مع آلاف الأرواح.

علماً بأن الملائكة التي تملك ماهية خفيفة ولطيفة تختلف اختلافاً كبيراً عن الأشياء المادية والكثيفة مثل الشمس، فهي تملك قابلية التشكل في أشكال وصور مختلفة، كما تستطيع التمثل في الوقت نفسه في أشكال مختلفة. والتمثل معروف عند المتدينين منذ القديم ولكنه أصبح الآن موضوعاً شائعاً ومعروفاً لدى محافل الطبقة الأرستقراطية الغنية إلى درجة كبيرة بحيث أصبحت شيئا قطعيا كقطعية النتائج المأخوذة من التجارب.

ولا يمر يوم إلا وتنشر فيه الجرائد والمجلات خبرا عن ظاهرة من هذه الظواهر الروحية الغريبة فيما يدّعى في علم تحضير الأرواح بـ"الجسم السيالي" أو "مثيل الإنسان".[1] فترد الأخبار مثلا عن مشاهدة إنسان في مكان بعيد عن مكان وجوده، وإظهار هذا الجسم المثيل قدرات عجيبة وقابليات فائقة. ومهما كان أصل المسألة فإن للموجودات اللطيفة كالأرواح قابلية سيالية أكثر وقدرات أكبر من الأجسام المادية وحرية حركة وتنقل أوسع من الإنسان العادي. وهذه السيالية والجوالية التي تتجاوز المادة تشير إلى كون نشاط وفعالية الجسم المثيل أكبر من الإنسان العادي، كما أن الملائكة تملك قابلية أكبر من قابلية الروح في هذا المجال. وهذا يشير إلى كونها فوق القوانين الطبيعية السارية في عالمنا.

إن تمثّل الملائكة والأرواح كان معروفاً منذ القديم. وقام كثير من أرباب القلوب وعلى رأسهم الأنبياء بشرح مشاهداتهم في هذا الخصوص، وأشاروا في هذا الخصوص إلى شهود من عوام الناس. كان جبريل عليه السلام يظهر في صور مختلفة، وذلك حسب المناسبة التي يظهر فيها. فإن كانت المناسبة التي يظهر فيها هي مهمة الرسول ونقل الوحي ظهر بالمظهر المناسب لهذه المهمة، وإن ظهر في أثناء الحرب ظهر في صورة

---

[1] مثيل الإنسان: لوحظ وقوع حالات نادرة يظهر فيها الإنسان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه. وتدعى صورة الإنسان الثاني الظاهر في ذلك المكان البعيد أو المختلف عن مكان الإنسان الحقيقي بـ"مثيل الإنسان". (المترجم)

المحارب. وهذه أمثلة على التمثل. وهذا التمثل وارد بالنسبة لعموم الملائكة وخصوصا لجبريل عليه السلام الذي كان يتمثل في صورة الصحابي دحية الكلبي[1] رضي الله عنه وتمثل ملَك آخر -لا نعرف اسمه- في معركة "أُحد" في صورة الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه حيث قاتل دفاعاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم في أصعب مراحل القتال حتى المساء حيث جاء في الرواية بأن رسول الله قال صلى الله عليه وسلم: «"أقدم يا مصعب"، فقال له عبد الرحمن: يا رسول الله! ألم يُقتل مصعب؟ قال: بلى، ولكن ملَك قام مكانه وتسمى باسمه».[2] كما تمثلت ملائكة آخرون في صورة الزبير بن العوام رضي الله عنه في معركة بدر،[3] وشدّوا من عزيمة المؤمنين.

هناك أمثلة لا تعد ولا تحصى حول اتصال بعض أرباب القلوب وأولياء الله مع أرباب العالم الآخر. أما هذا الإتصال بوساطة الرؤى فهو شيء لا يمكن إنكاره، فهو شائع حتى عند عامة الناس. فيكاد كل إنسان يملك شواهد من قيام أحد الأرواح التي يعرفها بإرشاده وإنارة الطريق أمامه عند ظهوره في رؤياه. ولكن هناك بعض من يدّعي أن الرؤى ليست إلا فعالية اللاشعور، أي دفعوا هذا الموضوع إلى ظلام دامس لا يرى فيه شيء، فيا ويل للجهل!

ونحن إذ نحيل الذين يرغبون في التفاصيل حول الملائكة والتمثل والأرواح إلى المراجع والمصادر الخاصة بهذا الموضوع. فإننا نستطيع القول كنتيجة: إنه كما يظهر لكل موجود مثيله في المرآة كذلك تستطيع الملائكة التمثل في كل شيء يكون مرآة لها. تظهر الملائكة لا كصورة فقط -كما هي الحال عند الأجسام المادية- بل بكل صفاتها ومزاياها.

ولا يضير الروح أو الملك في هذا الأمر على أنه فرد واحد، لأنه يستطيع أن ينعكس من مكانه كشعاع فيصل إلى أي مكان يريده ويقوم بالوظيفة التي يريدها، ولا يعوقه في هذا أي شيء... لا البعد ولا المسافة، ولا كثرة عدد الذين يجب الوصول إليهم. فكما أن الشمس مع كونها شمساً واحدة تستطيع الوصول إلى كل مكان توجد فيه مرآة تعكس نورها، وتجري تأثيرها هناك، كذلك تستطيع الملائكة وهي مخلوقات نورانية

---

[1] البخاري، المناقب ٢٢؛ مسلم، فضائل الصابة ١٦؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٥٣/٢.

[2] مصنف ابن أبي شيبة، ٣٦٩/٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢١/٣.

[3] كما جاء في الرواية «عن أبي المليح عن أبيه رضي الله عنه قال: نـزلت الملائكة يوم بدر على سيماء الزبير، عليها عمائم بنو». (مسند البزار، ٣٢٨/٦؛ مصنف ابن أبي شيبة، ٤٣٧/٦؛ مجمع الزوائد، ٨٣/٦).

الظهور في كل مكان وتقوم بمهامها هناك، فتنفخ الحياة أو تقبض الأرواح.

ثم إن الله تعالى هو الذي يقبض الأرواح في الحقيقة. وليس عزرائيل ﷺ سوى مراقب وستار. والله ﷻ الحاضر والناظر في كل مكان يستطيع إنجاز ما لا يستطيع الخيال والعقل تصوره، ويخلق في اللحظة نفسها مليارات الكائنات أو يفني ويميت المليارات من الكائنات. فهذه هي القدرة اللانهائية التي تعلم وترى الأشياء كلها في كل لحظة، وهذا هو العلم اللانهائي الذي لا يمكن لعقل تصوره والذي يرى كل ذرة في الكون ويستطيع إنجاز أعمال بعدد هذه الذرات في آن واحد، ويستطيع قبض أرواح جميع الأموات.

وسواء أكان الله تعالى أم عزرائيل ﷺ هو القابض للأرواح فإن من حان أجَله يتوجه إليه ليقبض روحه. ولتقريب الموضوع إلى الأذهان أضرب هذا المثل: لنتأمل في حال آلاف من أجهزة المذياع (الراديو) وأجهزة الأستقبال التي تعمل على تردد معين. فإذا قمنا بالضغط على زرّ لمرسل يعمل على هذا التردد سُمعتْ الإشارات وأصوات أحرف المورس في جميع هذه الراديوات في اللحظة نفسها. كذلك فإن المخلوقات بكل عجزها وفقرها متوجهة نحو صاحب القدرة والعزة، وعندما يحين الوقت الموعود سواء في خلقها وإيجادها أو في قبض روحها، شعرت في روحها بالإشارة المعينة. فإذا كان الإنسان العاجز يستطيع بالضغط على زر واحد التأثير في أجهزة متعددة بعيدة عنه آلاف الكيلومترات، إذن كيف يعجز صاحب القدرة المنزه عن العجز والقصور والذي ترتبط به نفوسنا وأرواحنا عن التأثير فيها مع أن الإنسان ليس إلاّ جهازاً حيًّا، وكيف يعجز -حاشاه- عن نفخ الروح أو قبضه متى شاء؟

إذا وضعنا كل هذا جانباً فهناك نظرات وآراء مختلفة حول قبض الأرواح:

١- إن الله تعالى -كما ذكرنا سابقاً- هو واهب الأرواح وقابضها، وليس عزرائيل إلا واسطة أو ستار أو مراقب.

٢- إن الله فوض قبض الأرواح إلى عزرائيل ﷺ وأذِن له بذلك. وقد ضربنا الأمثلة على أن الفرد الواحد والملك الواحد يستطيع وحده إنجاز هذا العمل.

٣- هناك العديد من الملائكة يعمل تحت إدارتهم ملائكة آخرون مكلّفون بأعمال

كونية عديدة وبمراقبتها. لذا فهناك ملائكة عديدون تحت إمرة عزرائيل (عليه السلام) ومساعدون له في عملية قبض الأرواح. وهم أصناف عديدة، فصنف يقوم بقبض أرواح المؤمنين قبضاً سهلاً ويسيراً ودون ألَم، وصنف يقبض أرواح المجرمين قبضاً أليماً، وصنف يسرع بهذه الأرواح إلى ربها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ (النازعات:١-٣). لذا فهناك ملائكة عديدون في قبض الأرواح، وكلها تعمل تحت إمرة عزرائيل (عليه السلام)، وهو يقوم بأمرٍ من الله تعالى بإرسال ملائكة مختلفين حسب اختلاف المحتضر إن كان شقيًّا أم سعيداً بقبض روحه.

لذا نستطيع القول جواباً على السؤال إن هناك انحرافاً في الفهم منذ البداية، أي هناك خطأ في تشبيه الملائكة بالإنسان، مع أن الملائكة لا يشبهون الإنسان أبداً لا من ناحية الخلق ولا من ناحية الماهية، كما أن طبيعة عملها وإجراءاتها مختلفة عنه تماماً. فهي تتمثل - مثل روح الإنسان- في لحظة واحدة في أماكن عديدة في اللحظة نفسها، وتتعامل مع أشياء عديدة في تلك اللحظة نفسها. وفي أيامنا الحالية انتشر تحضير الأرواح والوسطاء ومحاولة تأسيس علاقة مع الكائنات غير المرئية، وانتشر التنويم المغناطيسي وعلم الروحانية (Spiritualism) وغيرها من الفعاليات التي تتجاوز القوانين الفيزيائية والتي تشير إلى وجود قوانين أخرى لها خاصية الشعور.

وهذه الأمور أصبحت شائعة إلى درجة اكتسابها قناعة قطعية. لذا فإن الملائكة التي تشبه هذه الموجودات تستطيع القيام بوظائف أضعاف هذه الموجودات، ولا سيما وظيفة مهمة قبض الأرواح، ففي هذه العملية يكون الحي الذي حان أجله في حالة استعداد وتلاؤم وعلى نفس التردد مع هؤلاء الملائكة. ثم إن المكلفين بهذه المهمة ليسوا واحداً، بل كثيرون إلى درجة يصعب عدها. وإذا أخذنا في نظر الاعتبار أن من الممكن إرسال ملك واحد لقبض روح أي محتضَر تبين لنا عدم وجود مشكلة في الأمر.

والله أعلم.

هل تستطيع النية إنقاذ الإنسان؟

النية التي تشوق إلى العمل تستطيع إنقاذ الإنسان. أما النية التي لا تتحول إلى عـــزْم وجهد فلا تستطيع ذلك أبداً. النية تعني قصداً وتوجهاً وعزماً وشعوراً. بالنيـــة يعـــرف الإنسان ما يريده والجهة التي سيتوجه إليها فيصل إلى شعور بالعثور على شيء والحصول عليه.

علاوة على أن النية أساس الأفعال جميعها، فهي وسيلة لكل الاتجاهات والميول التي ينسبها الإنسان لنفسه. كما أن أمتن قاعدة للإرادة وأسلم أساس لقابلية الإنشاء في الإنسان هو النية، بل نستطيع أن نقول إن كل شيء في الكون ولدى نفس الإنسان اعتباراً من بدايته وامتداداً إلى استمراره ودوامه متعلق بالنية. فبدون الاستناد إليها لا يمكن لأي شيء أن يكتسب وجوداً ولا يمكن له الاستمرار.

يبدأ كل شيء كتصور في الذهن، ثم يتم الانتقال إلى التخطيط ثم إلى تحقيقه بعـــزم وإصرار. فدون وجود هذا التصور الأولى والنية لايمكن البدء بأي عمل، كما أن أي نية لا يعقبها عزم وقرار لا يؤدي إلى أي نتيجة وتبقى عقيمة. هناك أشياء كثيرة تشـــير إلى القوة التي تملكها النية. غير أن العديدين ممن لا يملكون المقدار الكافي من الشعور بالحياة لا يعرفونها.

والنية مهمة أيضا من ناحية حسنات الإنسان أو سيئاته، فهي من هذه الناحية إما إكسير وشفاء له، أو طوفان عات يقوم بسلب كل أعمال الإنسان وجعله أثراً بعد عين. فكم من عمل صغير كحبة قمح تضاعف بالنية الصالحة فأصبح ألف سنبلة، أو قطرة انقلبت إلى نهر وإلى سيل. وكم من عمل بضخامة الجبال بقي بسبب نية غير صالحة دون ثمرة وعقيما.

الركوع والسجود والصوم وحتى الابتعاد عن بعض الأمور المباحة إن تم أداؤها بشعور تام من العبودية يرفع العبد إلى درجات عليا في عوالم سامية ويجعله سلطاناً. بينما قد يتم إجراء نفس الحركات ونفس الأعمال وأضعافها، فلا يحصل فاعلها إلاّ على النصب والتعب

إن لم يسبق ذلك كله بنية صادقة. إذن فعلى الإنسان -في سبيل نيل الرضا الإلهي- ترك بعض الأمور إضافة إلى قيامه بإنجاز بعض الأعمال. كل ذلك لكي يكون لائقاً بمخلوق في أحسن تقويم، وكل عمل أو جهد خارج الرضا الإلهي لا يفيد شيئاً.

النية الحسنة إكسير يحوّل العدم وجوداً، والنية السيّئة تحول الوجود عدماً وتمسح تأثيره. فكم من قتيل مضرج بدمائه في غزوة تدحرج إلى الجحيم، وكم من محتضر على وسائد لينة طار بطهر نيته إلى الجنة. فإلى جانب الذين قاتلوا الأشرار في سبيل مستقبل إيماني زاهر نرى العديد ممن دخلوا المعارك في سبيل مصالحهم الشخصية؛ فبينما يرتفع الأولون إلى أعلى عليين، يهبط الآخرون إلى أسفل سافلين.

النية مفتاح سحري يستطيع أن يقلب حياتنا المؤقّتة هذه إلى حياة خالدة أو إلى حياة شقاء وعذاب. والذين يستعملون هذا المفتاح استعمالاً جيداً لا تبقى في حياتهم ناحية مظلمة، بل ستشع حياتهم نوراً ويصلون إلى الحياة المطمئنّة الخالدة. ذلك لأنه عندما تؤدى الواجبات اليومية والأسبوعية والشهرية بإخلاص فإن الفضائل المترتبة على هذه الواجبات والثواب لا تنحصر ضمن زمن الأداء، بل ستحتضن كل دقائق وثواني الحياة وتشملها بتأثيرها. الجندي المتهيّئ للجهاد سينال حصته من ثواب المجاهد حتى خارج أوقات الجهاد الفعلي؛ كما أن الحارس الذي يتناوب في حراسة حصن أو موقع عسكري سينال ثواب عبادة عابد طوال شهور وشهور.

فهذا هو السر في أن المؤمن يستطيع في حياة مؤقتة الوصول إلى السعادة الأبدية وإلى الخلود. أما المنْكِر فيكون من نصيبه الشقاء والندَم الأبدي. وإلا كان من المفروض حسب اقتضاء العدالة الظاهرية أن يثاب الإنسان بقدر عبادته وفضيلته، أو يعاقب بقدر ضلالته وآثامه. أي أن يبقى الإنسان الصالح في الجنة بعدد السنين التي عاشها صالحا، وأن يبقى الإنسان الآثم في جهنم بعدد السنين التي عاشها في الدنيا آثما، بينما يكون الخلود سواء للصالح أو الآثم هو نقطة الوصول الأخيرة التي لا يمكن التفكير فيما وراءها.

وهكذا تكمن السعادة الأبدية والشقاء الأبدي في نية الإنسان. فكما يكون فكر الإيمان الأبدي والاستقامة وسيلة إلى السعادة الأبدية يكون فكر الكفر الأبدي والانحراف وسيلة إلى الشقاء الأبدي.

الإنسان الذي يمتلئ قلبه بشعور العبودية في الدقائق الأخيرة من حياته لكونه عازماً قضاء عمره في هذا الاتجاه -وإن بلغ هذا العمر ألف عام- يعامل في ضوء هذا العزم وهذه النية، وتتقبل نيته كعمل حقيقي. لذا كانت «نية المؤمن خير من عمله»[1] كما أن الملحد إن كانت نيته في لحظاته الأخيرة متوجهة إلى دوام هذا الإلحاد والإنكار حتى وإن استمر عمره ألف أو مائة عام.. مثل هذا الملحد يعامل أيضا على ضوء نيته هذه ويعاقب على ضوئها.

إذن فإن الأساس في هذا الموضوع ليس الحياة المحدودة والمؤقتة التي يعيشها الإنسان، بل نيته المتوجهة إلى المستقبل. وتجليات هذه النية والإيمان بالسعادة الأبدية ونيلها -وإن كانت تمتد لملايين السنين- يهب الجنة الخالدة للمؤمن ويعطي جهنم الخالدة للكافر.

وكما سيلقى المنكِر والملحد الذي يضم الكفر في جوانحه عن علم وعن سابق قصد عقابه، فإن الشيطان الذي يكون سبباً في الكفر والآثام سيلقى عقاباً ليست له نهاية. والحقيقة أن للشيطان -حسب مستوجبات خلقه- واجبات وخدمات كثيرة أيضا يقوم بأدائها. إذ لا ينكر أثره في توسيع الكثير من قابليات واستعدادات الإنسان وتطويرها وفي تصفية المعادن الصلبة الموجودة في فطرة الإنسان وفي ظهورها، بل حتى في بقاء الروح والقلب على أهبة الحذر والاستعداد على الدوام.

أجل! إنه يتسلط على الفرد وعلى الجماعة وينشر بذوره السامة في نفوسهم ويحاول أن يجعلها مزرعة للآثام. وأمام هذه الجهود المبذولة من قبَله لسوق النفوس نحو الانحراف تستيقظ المشاعر المعنوية لدى الإنسان، وتصبح في حالة تأهب، تماماً مثلما تتأهب وسائل الدفاع في الجسم ضد الجراثيم. وهذا يؤدي إلى نموّ وتطور اللطائف الإنسانية وقوها، لأنه يدفع الإنسان إلى الالتجاء إلى الله تعالى مرة بعد مرة من شر عدوه الأبدي. وهذا يعني كسباً كبيراً بالنسبة للحياة القلبية والروحية للإنسان مقابل احتمال ضئيل من الضرر. ومثل هذا التأثير المعنوي يثير روح الكفاح لدى الإنسان ويدفعه لليقظة والحذر. وكم أدى هذا إلى تصفية معادن ثمينة وظهور أولياء أبطال مجاهدين للنفس.

---

[1] المعجم الكبير للطبراني، ١٨٥/٦؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٦١/١.

ومع أن الشيطان كان وسيلة لظهور مثل هؤلاء الأشخاص الممتازين وإكسابهم مراتب عُليا إلاّ أنه لا يستحق مكافأة في هذا الخصوص، ذلك لأنه لم يفعل ما فعله لكي يتسامى هؤلاء الأشخاص من المتفانين في حب الله، بل لكي يغرقوا في الآثام. إذن فنِيّة الشيطان سيئة وعمله سيء أيضا. لذا يتم التعامل معه على أساس نيته السيئة وعمله السيء وليس على أساس ما كان وسيلة إليه من سمو. نية الشيطان سيئة وكذلك عمله. فهو يدعو إلى العصيان عن سابق تصميم وإرادة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۞ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف:١٢-١٦). فهذا العصيان الأول اختيار لطريق الكفر والعصيان عن شعور وقصد. أما قسَمه ويمينه بأنه سيغوي البشرية فهو أساس الدراما الإنسانية المستمرة دون توقف.

لذا فهذا العزم والتصميم للشيطان وإن أدى إلى يقظة بعض المشاعر لدى الإنسان نتيجة هذه العداوة ويسوقه إلى بعض الفضائل، فإنه لا يُكسب الشيطان أي مكافأة. لذا نستطيع أن نقول كخلاصة، إن النية هي كل شيء بالنسبة للمؤمن، فهي التي تُكسب الحياة للسلوك الفردي، وهي التي تقلب حياة المؤمن إلى مزرعة تعطي مقابل الواحد ألفاً، وهي التي تفتح أبواب ونوافذ الخلود على حياة الدنيا المحدودة والقصيرة. كما أنها هي التي تهيئ الشقاء الأبدي والخسران الأبدي. «إنّما الأعمالُ بالنيات»[1]، والتعامل يكون حسب العمل.

---

[1] البخاري، بدء الوحي ١؛ مسلم، الإمارة ٤٥.

ما الإلفة؟ وما تأثيراهًا السلبية؟

الإلفة تأتي بمعنى العادة والصداقة والمحبة. أما المعنى المقصود هنا فمع كونه ذا علاقة بهذه المعاني بعض العلاقة إلاّ أنه أكثر شمولاً. الإلفة هي علاقة الإنسان مع الأشياء والحوادث والمعاني الحاصلة من هذه العلاقة، وانعكاس هذه المعاني وهبوب نسيمها في أعماق نفس الإنسان، ثم التغيرات التي تحدثها في سلوك الإنسان. وهكذا فهناك سلسلة متعاقبة من الوقائع وما تنتجها من شؤون تبقي الروح حيًّا وديناميكاً وحساساً.

أجل! إن حساسية الإنسان وإعجابه بجمال الوجود وجاذبيته، وإعجابه بالنظام الموجود الذي يعمل أدق من الساعة، وما يثيره هذا النظام في نفسه من مشاعر الفضول والدهشة، ثم زيادة خبرته ومعرفته بعد كل اكتشاف يتوصل إليه، ثم وصوله إلى التفكير المنهجي بعد ربط أجزاء معلوماته بعضها مع بعض.. هذه الأمور تحفز مشاعره وحركة ذهنه وفعالية روحه وتجعل الإنسان في يقظة روحية.

أما إن بقي دون مشاعر ودون أحاسيس أمام آلاف من لوحات الجمال والنظام ودون أي مبالاة، لا يبحث عن أسباب وعن حكم ما يراه، بل يمر لاهياً وغافلاً... فهذا أمارة على موت أحاسيسه وروحه وعمى بصيرته. فكتاب الكون المليء بالأسرار بالنسبة لهؤلاء لا يعني شيئاً، ولا تتفتح عوالم النفس الإنسانية أمام أنظارهم ورَقة ورقة: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف:١٠٥)، لم يستفيدوا مما حدث ومضى، و لم يعتبروا مما يأتي أو يمضي.

كل إنسان يحدس ويفهم ما يحدث حواليه، ويحس بالإعجاب بالوجود وبالفضول لاستكناه أسراره، هو مثل شخص نشر شراع سفينته في بحر لا نهاية له. وهو في سياحته هذه يحصل على المفاتيح الذهبية لقصور الأسرار وقلاعها. وكلما نهل روحه وقلبه وأحاسيسه النقية وذهنه التركيبي من هذه الأسرار رأى في كل موضع جنائن معلقة فتتحول دنيا أفكاره إلى نوع من جنة الفردوس.

أما من لم يصل إلى هذا الفهم وإلى هذا الروح فتراه يشكو على الدوام من الضيق

والملل والسأم، ومن الوتيرة الواحدة التي تسير عليها الحوادث، لأنه لم يستطع الخلاص من أسر ما اعتاد عليه أو ما ألفه. فكل شيء بالنسبة لهؤلاء فوضى، وكل شيء ظلام، وكل شيء دون معنى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ (الاعراف:١٤٦) أي هناك سلاسل على عقولهم وأكنة على قلوبهم: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِم وَعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة:٧)، إن انتظار أي خير أو أي ثمرة من أمثال هؤلاء عبث لا طائل تحته.

ثم هناك انغمار في الإلفة بعد المعرفة والمشاهدة، أو ما يُحسب ويظن أنه معرفة ومشاهدة. وأعتقد أن السؤال موجه نحو هذه النقطة، أي بعد القيام بالحصول على بعض المعرفة وبعض العلم، والظن بأن كل شيء قد انتهى، فيغرق في عالم الإلفة والعادة ولا يحس بأي علاقة واهتمام بالتغيرات والتحولات الحاصلة في الدنيا، ولا بعالم الجمال المتجدد دوماً وأبداً والداعي إلى التأمل والعبرة وزيادة القلب والروح عمقاً وسعة.. أي يتحول إلى كائن لا يحس ولا يأخذ عبرة من أي شيء. وهذا يعني -والعياذ بالله- سقوطاً للإنسان، وموت أحاسيسه ومشاعره.

فإن لم يسرع من ابتلي بهذا إلى رفع الغشاوة عن عينيه بسرعة وإن لم يبادر إلى تأمل الحكم والأسرار الموجودة في الأشياء حواليه، وإن لم ينصت بسمعه وقلبه إلى الملأ الأعلى، وإلى الرسائل والإشارات الإلهية منها، ويحاول فهمها، فالمصير المحتوم أمامه هو الموت المعنوي، والاحتراق الداخلي الذي يحوله إلى فحم ورماد.

ولهذا أرسل الله تعالى خالق هذا الكون بين فينة وأخرى مرشدين، وجهزهم بمعجزات واضحات، قاموا بإيقاظ الغافلين وفتح العيون للنور، والقلوب للانشراح والمعرفة ولتنبيه عقول وضمائر الذين سجنوا أنفسهم داخل أسوار الإلفة والعادة، وطلبوا منهم إعادة التأمل في ملكوت السموات والأرض.

لذا فقد ذكر الله تعالى في كتابه وفي مواضع عديدة وبعبارات وأساليب مختلفة كيف أنه خلق الإنسان وجعله في الأرض خليفة، وخلق له زوجه ليسكن إليها، وجعل بينهما مودة ورحمة، ووجه الأنظار إلى تأمل السماوات والأرض، وإلى عظمة خلقه وإلى اختلاف ألسنة الأقوام وألوانهم، وإلى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإلى النعم التي يرسلها مع الأمطار والبروق.. أي لم يبق هناك مجال واعتبار لأي ألفة بعد كل هذا

التذكير والدعوة إلى التأمل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٠-٢٤).

فهذا البيان السماوي يبدد الإلفة بمئات من تنبيهاته وإرشاداته إلى التأمل والتفكر في آلاف الخوارق والمعجزات الجارية في الكون. ولكن مع هذا يوجد من لا يستطيع سماع أو تدبر الحوادث والآيات الموجودة حوله وفهمها. وهؤلاء هم أمثال السمكة التي تعيش في البحر ولا تعرفه.

وهناك شيء آخر في هذا الخصوص، وهو الإلفة في الفكر والتفكير والتصور، وهذا ينعكس على سلوك الإنسان وعلى عبادته. ومثل هذه الإلفة والعادة يعني موت الوجد العشق والأحاسيس لدى الفرد. والفرد المبتلى بهذه الإلفة يزول عنه الإحساس بالمسؤولية والنفور من الإثم والبكاء على الآثام التي يرتكبها. ومن الصعب إرجاع مثل هذا الفرد إلى حالته الأولى، ولا يفيد معه سوى تذكرة طيبة ونقية لكي يرجع إلى نفسه ويجدها من جديد ويرى ما حوله بعين متفحصة وقلب متأمل.

إنْ أردنا أن نعيد بناء الإنسان وتجديد روحه، فعلينا أن ننفث فيه المعاني المذكورة. صحيح أن هناك ميلاً عند الإنسان نحو الجمود والتحنط، ولكن تجديد نفسه ليس مستحيلاً كذلك، إذ يكفي أن تمتد إليه يد بمبضع الجراحة لتمنع هذا الجمود وتجدد دورة دمه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزلَ مِنَ الْحَقّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

ونستطيع القول كخلاصة إن الإلفة تعد مصيبة كبيرة للإنسان وإن الكثيرين معرَّضون لها. والذي يقع فيها يكون غافلاً عما يحدث حواليه، ولا يبصر الجمال الموجود

في كتاب الكون، ولا يسمع صوت الحق من ألسنة الحوادث لأنه أصم، لذا يكون إيمانه سطحياً وغير كاف. وتكون عبادته باردة لا روح فيها ولا وجد، وفي تعامله البشَري دون رقيب أو حسيب، وخلاصه منها مرتبط بامتداد يد عناية قوية نحوه لكي يرى ويسمع من جديد.

يحتاج من سقط في هاوية الإلفة إلى:

١- تأمل عميق في الآفاق وفي الأنفس،

٢- تذكر للموت ولمشاهد الآخرة،

٣- زيارة لمؤسسات الخدمات الإيمانية،

٤- تكليفه ببعض المهمات والوظائف الإيمانية،

٥- إطلاعه على الصفحات المشرقة لماضينا،

٦- جمعه مع أصحاب الفكر والثقافة وأصحاب الوجد والقلب لتتهيأ له فرصة تجديد نفسي هناك.

وإضافة إلى الاقتراحات أعلاه هناك اقتراحات ومجالات أخرى يمكن التفكير فيها والانتفاع منها، إلاّ أننا نكتفي بما ذكرناه لكونه أعطى فكرة ملخصة حول الموضوع. ندعو من الله تعالى أن يزيل الإلفة والعادة من قلوبنا، فمفاتيح القلوب كلها بيده.

هل هناك أثير؟ إن كان موجوداً فما ماهيته؟

وجود الأثير ليس قطعياً، ولكن قيام بعض من نحترم من العلماء بذكره وتناوله –وإن كان في معرض ضرب الأمثلة– يجعلنا نقترب منه بتوجس.

كان "كريستيان هويكنـــز" أوّل من قام –بتردد وقبل عدة عصور– بتقديم فكرة الأثير كمادة تنفذ في كل شيء وتملك ماهية رقيقة جداً. ولكن ما أن قام "مكسويل" بتأييد هذه الفكرة حتى أهملت فكرة الفراغ المطلق. كان مكسويل يقول: بعد أن تم إثبات الظاهرة الكهرومغناطيسية تولدت الحاجة إلى وجود وسط كالأثير. أي إن كل شيء بدءً من العالم الكبير (الكون) وانتهاء إلى العالم الصغير (الذرة) يتحرك ضمن الأثير. وكان مكسويل يقول أيضا إن النتيجة الأولى لهذا الاكتشاف هو أن الموجات الضوئية ليست إلاّ موجات كهرومغناطيسية. أي أن ظاهرة الضوء ليست إلا ظاهرة كهرومغناطيسية. وكان هذا الاكتشاف يعد في الحقيقة خطوة أولى نحو توحيد الظواهر الطبيعية.

وفي الحقيقة فإن "فاراداي" كان قـــد صـــرح قبـــل "مكســـويل" بـــأن الشـــحنات الكهرومغناطيسية لا تستطيع الحركة والانتقال في الفراغ، وأنها تحتاج في ذلـــك إلى وســـط تنتقل خلاله. ومن خلال القوانين التي اكتشفها ذكر أن هذه الشحنات هي مَوجات عرضية وأنها تملك نفس خواص الضوء من ناحية الانعكاس والتكسر والتكسر المزدوج. بينما ادعى "ماكسويل" أن الضوء عبارة عن موجات كهرومغناطيسية قصيرة نوعاً ما. ثم جاء "هرتـــز" فأجرى تجارب عديدة أيدت نظرية ماكسويل، إذ لاحظ بأنه عندما يقوم بإحـــداث تيـــار كهربائي في أي زاوية من زوايا الغرفة تحدث شرارات كهربائيـــة في الـــدورة الكهربائيـــة الموجودة في الزاوية الأخرى من الغرفة دون وجود أي ارتباط بينهما. وقال إن سرعة هـــذه الموجات تساوي سرعة الضوء، لذا تم إطلاق اسم "هرتز" على هذه الموجات. وهكـــذا تم اكتشاف أساس الراديو واللاسلكي والهاتف الذي نعرفه ونستخدمه.

بعد أن سادت الفكرة الأثيرية مدة طويلة أراد "مورلي" و"ميكلسون" التأكد من وجود الأثير تجريبيًّا وفكرا بما يأتي: إن قمنا بإرسال شعاعين، الأول باتجاه حركة

الأرض، والثاني باتجاه عموديّ وقمنا بواسطة مرايا بعكس هذين الشعاعين مرة أخرى إلى عين المشاهد أو المراقب للتجربة، فإن من المفروض أن يتأخر الشعاع المتوجه باتجاه حركة الأرض عن الشعاع المرسل باتجاه عموديّ لحركة الأرض، لأنه سيصادف مقاومة من التيار الأثيري المتكون باتجاه معاكس لحركة الأرض. ولكن هذا التوقع لم يتحقق، إذ وصل الشعاعان في اللحظة نفسها دون أي فرق ومع أن التجربة أعيدت، إلا أن النتيجة بقيت نفسها، وكانت هذه إشارة سلبية بالنسبة لوجود الأثير، أي تبين أن الموجات الراديوية لا تحتاج في انتقالها إلى أي وسط.

كان هناك من اعترض على هذه النتيجة السلبية، منهم "لورنتز" الذي ذكر بالمبدأ القائل بأن الأجسام تفقد جزءاً من طولها باتجاه الحركة. وقال بأن هذا الأمر حدث في تجربة "مورلي" و"ميكلسون"، وقام بإثبات وصول الشعاعين إلى المركز أو إلى عين المشاهد في اللحظة نفسها رياضياً. وقد عد هذا الاعتراض وجيها آنذاك. ولكن كان من المهم معرفة ماهية ما يريد ميكلسون إثبات وجوده، وماذا يعني "الأثير" الذي يقول "لورنتز" بوجوده.

فالأول كان يقول بعدم وجوده استناداً إلى تجربته، لأنه كان يفترض كثافة في الأثير، أو يعده في الأقل مشابها للهواء المحيط بالكرة الأرضية ويتصور حركة هذه المادة السيالة المحيطة بالأرض مع حركة الأرض، أي كان يجري تجربته في مثل هذا الأثير الخيالي. أليس من الممكن أن الأثير وجود فوق المادة؟ أي عالماً غير مشهود مقابل عالمنا المشهود هذا؟ هذا علماً بأن كثيراً من المجلات العلمية نشرت وتنشر الآن مقالات عديدة حول العودة إلى "الأثير".

والخلاصة أننا نستطيع القول بأنه مع عدم وجود أي حكم يستند إلى المشاهدة أو إلى التجربة في خصوص الأثير، إلاّ أن من الخطأ الاستعجال والقيام بنفي وجوده. لأننا لا نملك معلومات أكيدة حول عدم وجوده.

لماذا يستند كل شيء إلى الموت؟ فحياة الأحياء مثلاً تستند إلى موت النباتات، وحياة الإنسان تستند إلى موت الحيوانات.

من صفات الخالق الذي بيده كل شيء خلق أجمل الموجودات من أبسط الأشياء وأدناها مرتبة، وقيامه بتجديد مستمر لكل الأشياء دون إسراف وتوجيهها نحو التكامل؛ لذا فهناك في جميع أنحاء هذا الوجود شروق بعد كل غروب، تماماً مثلما يتعاقب الليل والنهار في دنيانا هذه. فالضوء يترك مكانه للظلام، والظلام يترك مكانه للضوء، وهكذا يتم الحصول على ثمرات جديدة ونضرة ضمن هذا النظام الذي يدهش الألباب، مثل علاقة الشمس بكرتنا الأرضية ومجيء الحياة في أثر الموت.

والآن لنتأمل قليلاً هذه الأمور، ولكن علينا قبل كل شيء أن نتعرف على الموت. ليس الموت النهاية الطبيعية للأشياء ولا انقراضاً أو فناء ولا عدماً أبديًّا، بل هو تغيير مكان، وتغيير حال، وتغيير أبعاد وإجازة وانتهاء من أعباء وظيفة والوصول إلى الراحة وإلى الرحمة؛ بل هو -من بعض الوجوه- رجوع كل شيء إلى أصله وجوهره وحقيقته. لذا فالموت جذاب جاذبية الحياة، ومفرح فرح الوصال مع الأحباب والأصدقاء، وهو نعمة كبيرة لأنه يوصل إلى الحياة الخالدة.

لذا فالماديون الذين لم يروا هذه الحقيقة للموت قاموا على الدوام بتصويره تصويراً مفزعاً ونظموا حوله قصائد الرثاء المحزنة، واستمرت حال هؤلاء البؤساء الذين لم يدركوا حقيقة الموت على هذا النمط منذ الأمس البعيد حتى الآن.

صحيح أن الموت لكونه فراقاً يعد حادثة مؤثرة ومحزنة في نظر العقل وفي مستوى إنسانية الإنسان. لذا فكما لا يمكن إنكار التأثير أو الأثر للموت، كذلك لا يمكن إسكات صوت القلب. ولاسيما لدى الأشخاص من ذوي القلوب الرقيقة والأرواح الحساسة. فالموت يحدث عند هؤلاء -وإن كان بشكل مؤقّت- عواصف مدهشة، لذا فإن عقيدة البعث بعد الموت بالنسبة لهؤلاء يشبه إهداء منصب سلطنة لمتسول فقير، أو

إهداء حياة خالدة لمحكوم عليه معاقب بالإعدام، أي أن هذه العقيدة تستطيع مسح كل آثار حزن هؤلاء، وإهداء السعادة الكبرى لهم.

لذا فالموت عند من أدرك حقيقته ليس إلاّ ترخيصاً وتبديل مكان وسياحة إلى عـــالم يلقى فيه تسعة وتسعين بالمئة من أصدقائه وأحبائه، بينما يبدو هذا الموت لمن لم يـــدرك حقيقته واقتصر على مشاهدة وجهه الظاهري المخيف.. الموت عنـــد هـــؤلاء جـــلاّد ومشنقة، وبئر دون قاع، ودهليز مُظلم.

أما الذين يعدون الموت بداية لوجود أبدي كلما هبّ نسيم الموت عليهم بَانَ وظهر ربيع الجنة أمام ناظرهم. أما إن خطر خاطر الموت على بال الملحد المحروم من جمال هذه العقيدة فإنه يرتاع منه ارتياع من قذف في جهنم. وقد يهون هذا الألم بعض الشيء لو كان الموضوع مقتصراً عليه، ولكنه يضيف إلى ألمه ألم كل من يفرح لفرحه ويتألم لألمه ويحمل هذه الآلام كلها في روحه. الإنسان المؤمن يرى في موت كل شيء رخصة وإجازة من مشاق الدنيا وآلامها ودوام وجود هذه الأشياء بهوّيّتها المثالية وماهيتها العلمية في عوالم أخرى واكتسابها ماهية أسمى وأرقى.

أجل! إن الموت ما هو إلا تفتّح بُرعم على الوجود الأبدي، وليس إلا ترخيصاً من مشقات الحياة الدنيوية. لذا فهو يعد نعمة كبرى وهدية إلهية ثمينة. وبما أن كل كمال وترقٍّ، وبعبارة أخرى كل نعمة وصلة مرتبطة بالمرور من بعض أجهزة التصفية والتنقية ومن بعض الأوعية التي تعطيها شكلاً خاصًّا، كذلك فإن جميع الموجودات تتسلق نحو الأعالي بهذه الطرق من الإذابة والتصفية. مثلاً معدن الذهب وجوهر الحديد لا يصلان إلى مستوى هويتهما الحقيقية إلاّ بعد إذابتهما، أي بعد مرورهما بنوع من الموت، وإلاّ فإنهما إن لم يمرا بهذه العملية فإنهما يظهران بمظهر التراب والحجر، أي بمظهر مخالف لحقيقتهما ولهويتهما.

وعندما نقيس الأشياء الأخرى بالذهب والحديد نرى أن لكل شيء نقطة غروب ونقطة ذوبان ونفاد ومظهر يوحي بالعدم والفناء، ولكنه في الحقيقة ليس إلاّ انتقالاً إلى حال أعلى وأسمى.

عندما يهرع كل شيء بكل شوق إلى الموت اعتباراً من جزيئات الهواء إلى ذرات

الماء إلى جزيئات الأعشاب والأشجار إلى خلايا الأحياء، فإنما يهرع في الحقيقة إلى الكمال المقدَّر له. فعندما يتحد الأوكسجين مع الهيدروجين فإنهما يفقدان خصائصهما الأولية السابقة، أي يموتان ولكنهما يكونان ألزم شيء للحياة وهو الماء، أي يُبعثان من جديد في مستوى أرقى.

لذا فإننا نطلق على الغياب وعلى تغيير المكان وتغيير الحال اسم "الموت"، ولكننا لا نقول عنه إنه انقراض وعدم. وكيف نستطيع قول هذا وكل حادثة جارية في الكون اعتباراً من أصغر الجزيئات الذرية إلى أكبر الأجرام السماوية، وكل تحوّل وانصهار وتشتت متوجه للأحسن وللأجمل. كل ما يمكننا القول هنا هو أن الموجودات في سياحة وفي نـــزهة، ولا نستطيع القول أبداً بأنها سائرة نحو العدم.

ومن زاوية أخرى يعد الموت –لدى مالك الملك ﷻ– تغيير نوبة الوظيفة، فكل موجود مكلف بوظيفة استعراض خاص به أمام خالقه الذي أوجده. وعندما تنتهي مراسيم الاستعراض بالنسبة إليه، عليه أن يذهب ويخلي مكانه لغيره لكي تتم الحيلولة دون سير الأمور على وتيرة واحدة في مسرح الاستعراض هذا، وإكسابه حيوية ونشاطاً بكادر جيد وجديد. وهكذا تظهر الموجودات على مسرح الحياة وتلعب دورها وتلقي ما يجب إلقاءه من كلمات ثم تختفي خلف الستارة، لكي يتسنى للآخرين أيضا فرصة الظهور للعب أدوارهم ولإسماع أصواتهم. أجل "من أتى سيذهب، ومن حلّ سيرحل". وهكذا يتم التجديد وتتحقق الحيوية والنشاط في خضم هذا المجيء والرحيل والشروق والغروب.

والموت –من زاوية أخرى– يتضمن نصيحة صامتة بليغة وهي: إن أي موجود لا يكون قائماً بذاته –بل إن كل شيء– يشير (مثل المصابيح التي تتعاقب فيها الإضاءة والانطفاء إلى الشمس الأبدية التي لا تنطفئ) إلى طريق الاطمئنان والسعادة للقلوب التي تئن من خشية الزوال والفناء، أي أن تلتفت إلى ورائها. عند ذلك يتحرك في قلوبنا شعور بالبحث عن حبيب لا يزول ولا يغرب. ونبض هذا الشعور في قلوبنا هو المرحلة الأولى للوصول إلى الأبدية في عالم مشاعرنا وأحاسيسنا وعواطفنا. وهكذا فالموت بمثابة "مِصعد" سرّيّ يرفع الإنسان ويسمو به إلى هذه المرحلة الأولى.

لذا فبدلاً من النظر إلى الموت كسَيْف يقطع الموجودات ويرميها إلى الفناء وإلى الزوال فمن الأفضل النظر إليه كيَدٍ تعالج وتلقح وتعمل عملية جراحية. بل إن النظر إلى الفناء والزوال كشيء ذاتي نظرة خاطئة وناقصة من بعض الوجوه، ذلك لأنه لا يوجد عدم مطلق، بل إن كل شيء يغيب عن الدائرة الضيقة لنظرنا ومشاهدتنا، ولكنه يديم وجوده بهويته المثالية والعلمية في ذاكرتنا وفي اللوح المحفوظ وفي دائرة العلم الواسع المحيط بكل شيء، وفي شتى الأبعاد وفي عوالم ما وراء هذه الأبعاد. فكأن كل شيء بذرة تتحلل ثم تتفتح زهرة، ثم تذْبل ولكنها تديم وجودها وجوهرها في آلاف السنابل والبراعم. والآن لنرجع إلى السؤال من زاوية أخرى:

ماذا كان يحدث لو أن كل شيء استند إلى الحياة بدلا من استناده إلى الموت، أي لو لم يتّجه كل شيء إلى الفناء وإلى الزوال واستمرت الموجودات متماوجة في بحر الوجود، وكانت الموجودات تعمل من جانب واحد.. ماذا كان يحدث آنذاك؟ إضافة إلى أن الأمور السابقة المذكورة تكفي للاقتناع بأن الموت أثر من آثار الرحمة والحكمة. نستطيع القول بأنه في مقابل استناد الموت إلى الرحمة فإن الخلود الشامل وعدم الموت الشامل والساري في جميع مناحي الحياة يعد مصيبة مفزعة وعبثاً بحيث لو أمكن تصويره حق التصوير وتصوره حق التصور لبكى الناس بحرقة لا للموت ولكن لمثل عدم الموت هذا.

فكّروا لحظة... وتصوروا أنه ما من شيء يموت... في هذه الحالة لا يستطيع الإنسان وحده –حتى في العصور الأولى– بل لا تستطيع حتى ذبابة واحدة العثور على مكان للعيش. فمن الأحياء يكفي النمل والنباتات المتسلقات أن تسيطر على العالم بأسره في ظرف عصر واحد فقط، إن لم يتعرضا للموت والتحلل، فلا يبقى شبر واحد فارغ على سطح الكرة الأرضية، ولَبَلغ ارتفاع سمك النمل والمتسلقات مئات الأمتار فوق سطح الأرض. لذا فعندما تتخيل مثل هذا المنظر المرعب تدرك آنذاك كيف أن الموت رحمة والتحلل والتعفن رحمة وحكمة.

وهل كنا نستطيع مشاهدة منظر من مناظر الجمال الخلابة التي يحفل بها هذا الكون آنذاك؟ أي نسبة منها وأي جزء من الجمال كنا نستطيع مشاهدته في ظل هذا الاستيلاء الهائل للنمل وللمتسلقات؟ وفي هذه الأرض الحافلة بآثار الصنعة والفن والجمال الرفيع

أكان من الممكن مشاهدة هذا الجمال أم مشاهدة ركام النمل والمتسلقات؟ أكان الإنسان الذي خُلق وسُخر له هذا الكون الرائع يستطيع العيش في مثل هذا الوسط القبيح؟ لم يكن هذا باستطاعته، بل لم يكن بقدرة أدنى المخلوقات وأحطّها شأناً سوى الهرب من هذه المزبلة.

من جانب آخر فهناك في إدارة هذا الكون حكمة رائعة لا تجد فيها ذرة واحدة من إسراف وعبَث. فصاحب الحكمة المطلقة يخلق من أحطّ الأشياء أثمنها وأجملها، لذا فلا يمكن التصور بأنه سيسرف في أي شيء، بل سيستعمل أقل البقايا والأنقاض قيمة في أماكن أخرى وسيخلق عوالم جديدة، وسيقوم باستعمال الأرواح التي يرفعها إليه ولاسيما روح الإنسان أفضل استعمال ويخلق مخلوقات جديدة وجيدة منها. وإلا فإن إهمال هذه المخلوقات التي كرّمها والتي سبق وأن كانت مظهراً لتقديره ونعمه وخلقه وإيجاده.. مثل هذا الإهمال والترك لا يناسب حكمته اللانهائية وهو منـــزَّه عنه.

لذا نستطيع القول كخلاصة إن أصحاب جميع العقول السليمة والقلوب الشاعرة بالجمال ترى أن جميع الأشياء في مكانها الصحيح من ناحية الترتيب والتنظيم والسَّوق والإدارة إلى درجة تذهل هذه العقول وتلهمها تعابير الجمال والشعر. أي أن جميع الأشياء في تحول دائم من كيفية إلى كيفية أعلى بدءاً من حركة الذرات وتحللها إلى نمو الأعشاب والنباتات، إلى تدفق الأنهار إلى البحار وإلى تبخر المياه وتكوينها السحب والغيوم ثم نـــزولها مطراً إلى الأرض... الخ. أي نشاهد أن كل شيء يتحول ويسرع بكل شوق من حال إلى حال أفضل وأسمى. وصدق الشاعر عبد الحقّ حميد حين قال:

عجباً لهذا العالم الذي يهز الفكر والعقل،

تمر معجزات القدرة أمام عيني تترى،

ما ينثره الحق تعالى من وجه السماء ليس إلا بسمات سماوية،

كلها أنوار مستترة خلف الألوان،

العشب... البحر... الجبال... فجر الربيع...

من يولد هنا يصبح شاعراً دون ريب.

ما الذي يجب ذكره أولاً للمُنكِر والمُلحِد؟

قبل الإجابة على السؤال أرى من المفيد أولاً إيضاح بعض الأمور:

أولاً هناك أنواع من الإنكار ومن المنكرين، فالقناعات الشخصية الخاصة والسلوك تجاه الإيمان، ومدى الإيمان -أو عدم الإيمان- بمسائل الإيمان كلها... الخ يعرض مراتب ودرجات مختلفة من الإيمان أو عدم الإيمان. فكما يختلف الشخص اللامبالي بأسس الإيمان عن الشخص الذي ينكر هذه الأسس كذلك يختلف هؤلاء عن الشخص الذي يرد كل هذه الأركان والأسس ولا يقبلها وينكرها تماماً. وبعبارة أكثر وضوحاً نستطيع أن نضع الترتيب الآتي:

١- هناك إنكار ناشئ عن لامبالاة الشخص تجاه ما يجب الإيمان به، وهذا الإنكار ليس ناشئاً عن تفكير وعن تعمد، بل عن قلة الاهتمام أو عدمه. ومعظم هذا الإنكار نراه عند من لم يتعود على التفكير المنطقي، وعند الذين استعبدهم الأهواء والشهوات، وعند الحمقى والبلهاء. من الصعب أن تعلم هؤلاء وتفهمهم شيئاً عن الإيمان، بل يستحيل هذا أحياناً. فسلوك هؤلاء يتصف بالانسياقية والاستمرارية، يتحركون بشكل مواز لحركة الجماهير وحسب الضغط الاجتماعي الموجود حولهم.. يقومون مع الجماهير، ويقعدون مع الجماهير.

٢- الصنف الثاني هم الذين لا يقبلون أسس الإيمان. وهؤلاء يعدون ملحدين ومنكرين مهما اختلفت السبل التي ساقتهم لهذا الإنكار. وهؤلاء يشكلون القسم الأعظم من المنكرين في المجتمع.

٣- الصنف الثالث هم الذين لا يتقبلون ما يستدعي الإيمان قبوله. وقد ازدادت نسبة هؤلاء حالياً عن نسبتهم الموجودة في سابق العصور.

كما نستطيع تقسيم الصنفين الأخيرين إلى:

آ- من يُرجع كل شيء إلى المادة ولا يؤمن بأي حدث غيبي.

ب- من يؤمن ببعض الظواهر الميتافيزيقية والروحية (باراسيكولوجي).

يعد الإنكار من أبرز صفات بني الإنسان المتجبر والباغي، وأحد أسباب الأزمة التي يعيشها شباب هذا العصر. الإنكار هو النبع والمصدر الأساس للهلاك والمصائب والفوضوية حتى أننا نستطيع القول أن البشرية عاشت أحلك ظروفها وأتعسها في أدوار الإنكار والبعد عن الإيمان.

وكان سادة عصر النهضة ودهماء الثورة الفرنسية أوّل من مثلوا هذا الإنكار ونشروه. ثم جاء فيما بعد من اتخذ هذا الإنكار ديناً وانتشر هذا الاتجاه حتى استولى على أرجاء العالم الحالي.[1]

لقد وضح تماماً في عصرنا الحالي أن الإلحاد ليس إلا فلسفة بهيمية وجنونية. وهو موضوع يجب أن يهتم به علْم النفس أكثر من اهتمام علم الاجتماع أو علم الاقتصاد به. ذلك لأننا عندما نقوم بمقارنة نماذج الجنون وأنواع المجانين مع نماذج ملحدي هذا العصر لا نملك إلا تصديق وتأييد هذا الأمر، أي كون الإلحاد مرضاً نفسياً يجب أن يهتم به علم النفس.

ومع أن هذا الموضوع ليس من اختصاصي ولا علاقة مباشرة له مع السؤال، إلا أننا عندما قمنا بتصنيف بسيط للإلحاد كنا نريد أن نقول بأنه كما للإيمان درجات ومراتب، كذلك للإلحاد درجات ومراتب. لكي نعرف بأن كل ما يقال للمنكر قد لا يكون علاجاً وشفاء لذا يجب تناول الأنواع المختلفة للإنكار تناولاً مختلفاً، وأن يتم إرشاد كل نوع من الإنكار بشكل مختلف وحسب وضعه ونوعه. لذا فبقدر الاختلاف الموجود في الإنكار يجب أن يكون هناك أصول مختلفة في الإرشاد والتنبيه والإصلاح. ولكي يعطي الإرشاد والتنبيه ثمرته يجب أولاً معرفة إلى أي صنف من الأصناف المذكورة سابقاً ينتسب إليه المنكر. فإذا تم تناول هذا الموضوع بحذاقة طبيب يتوضح نوعا ما ما يجب قوله للمنكر وكيفية إرشاده. ومع ذلك نود أن نذكر ما نراه ضرورياً هنا وكما يأتي:

١- معرفة نوع إنكار المخاطب وعما إذا كان إنكاراً كلياً أم إنكاراً لبعض الأركان لكي يتم التركيز اللازم حولها وإعطاء الأهمية لها، ولكي لا نصرف وقتنا وجهدنا هباء إن كان هذا المخاطب يتسم بسمة اللامبالاة أو بالتعصب الأعمى.

---

[1] يشير المؤلف هنا إلى الشيوعية. وذلك قبل انهيار النظم الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وفي شرقي أوروبا. (المترجم)

٢- من المهم معرفة المستوى الثقافي والاجتماعي لمن تخاطبه لكي تستطيع التحدث معه بالمستوى الذي يستطيع فهمه. فالشخص الواصل إلى مستوى ثقافي معين لا يستسيغ سماع شيء من شخص أقل ثقافة منه، بل يبدي رد فعل سلبي تجاهه. ويصعب في أيامنا الحالية التي نما فيها العجب بالنفس والأنانية ولاسيما عند من قرأ وملك بعض المعلومات أن تقنعه أو تفهمه شيئا ما. ولكي يتم الوصول إلى نتيجة مرضية مع أمثال هؤلاء يجب أن يقوم بمخاطبته من هو في مستواه وأن لا يكون الكلام معه مباشراً ولا يعطي انطباعاً أنه هو المقصود بهذا الكلام.

من المهم أيضا استعمال لغة يفهمها المخاطب عندنا، فالتشوهات التي أصابت الفكر عندنا وانعكاساتها على لغتنا أدت إلى تخريب هذه اللغة حتى أننا لا نستطيع اليوم القول إننا نستعمل اللغة نفسها في وطننا.[١] والحقيقة أن محطات الراديو والتلفزيون وكذلك الصحف تستطيع تقديم خدمات إيجابية في توحيد هذه اللغة. ولكن الجماعات المختلفة التي انساقت وراء أيدولوجيات مختلفة تستعمل أساليب مختلفة أو أشكالا مختلفة من اللغة في مجلاتها وكتبها وصحفها.[٢] والجيل الناشئ المسكين في حيرة من أمره. فالمصطلحات المختلفة والطرق المختلفة المستعملة في اللغة حفرت وديانا عميقة بين الأجيال.

لذا يجب معرفة الأسلوب المناسب واللغة المناسبة التي يجب مخاطبة هؤلاء، وإلاّ كان الحوار مع هؤلاء شبيها بحوار الطرشان، أي يجب الاهتمام باستعمال الكلمات والمصطلحات التي توضح الغاية والفكر أفضل إيضاح.

٣- علينا أن نحيط علماً بشكل جيد بما نريد تبليغه وإفهامه، وأن نحضر أجوبة مقنعة للأسئلة المتوقعة، وإلاّ فإن خطأ صغيراً أو هفوة صغيرة ستقلب كل شيء رأساً على

---

[١] قامت الفئات التي تدعي التقدمية في تركيا -بعد إنشاء الجمهورية التركية- بحركة واسعة لحذف الكلمات العربية والفارسية من اللغة التركية ووضعوا مكانها إما كلمات تركية أهمل استعمالها، أو اشتقوا هذه الكلمات أو اخترعوا كلمات جديدة، أو وضعوا بدلاً منها كلمات فرنسية أو إنكليزية و لم يدعوا اللغة في سيرها التطورية الطبيعية. وأدى هذا إلى ظهور صعوبة في التفاهم بين الأجيال، فالأب يجد صعوبة في فهم كلام ابنه، والشباب لا يستطيعون فهم الأدب التركي السابق ولا يستطيعون قراءته بعد أن تم تغيير الحروف الكتابية السابقة -وهي الحروف العربية- بالحروف اللاتينية وحذف استعمال العديد من الكلمات التركية القديمة. (المترجم)

[٢] تقوم المجلات والكتب والصحف اليسارية وكذلك أنصار الغرب باستعمال لغة تكثر فيها الكلمات التركية المخترعة والموضوعة حديثا وكذلك الكلمات الأجنبية. بينما تكثر الصحف والكتب الإسلامية استعمال الكلمات العثمانية. (المترجم)

عقب. إن كنا جاهلين ولا نملك بصيرة فإن هذا سينعكس على الحقائق السامية التي نريد الدفاع عنها ويهون شأنها لدى مخاطبنا وتفقد قيمتها ويؤدي إلى انطباع سلبي ويجعل هؤلاء ينأون بأنفسهم عن الدخول معنا في أي حوار جادّ.

والشخص الذي يكون سبباً في مثل هذا الوضع يرتكب خطأً فاحشاً مهما كان حسن نيته. فكم من شاب انغمر في وهدة الإلحاد نتيجة جهل المرشدين ونقص معلوماتهم. وقديماً قيل في المثل الشعبي "الإمام الجاهل يذهب بالدين والطبيب الجاهل يذهب بالروح". والحقيقة أن ضرر المرشد الجاهل أكثر من ضرر الطبيب الجاهل، لأن جهل الطبيب وضرره محصور بالحياة القصيرة الأمد في الدنيا، بينما يقوم المرشد الجاهل بتخريب الحياة الأبدية الخالدة.

٤- يجب الابتعاد عن سلوك الجدل ومحاولة الإفحام والإلزام. فهذا الأسلوب إضافة إلى أنه يثير مشاعر الأنانية لدى الفرد فإنه لا يؤدي إلى أي نتيجة. فإثارة نور الإيمان في القلب متعلق بدرجة ارتباط هذا المرشد بالله تعالى الذي هو صاحب الإرادة في مثل هذه الهداية. فبدون أخذ رضا الله في الحسبان وفي النية فإن المناقشات الحامية والمناظرات التي تتم حسب أسلوب أهل الغفلة -وإن أدت إلى التفوق في الإفحام والإلزام- فلا يكون لها أي تأثير، ولاسيما إن كان معروفاً مسبقاً حدوث مثل هذا النقاش والجدال وتم التهيؤ له بأعصاب متوترة ومنفعلة. فأمثال هؤلاء لا يحضرون كمناظرين، بل كخصوم ويجلسون كحاقدين ويتركون النقاش والغضب يملأ قلوبهم، وقد وطنوا أنفسهم على البحث عن أجوبة حول المسائل التي قدمت إليهم. ومعلوم ما يحدث بعد هذا... سيقوم بمراجعة أصدقائه وبتقليب الكتب وطرْق كل باب وكل سبيل لتهيئة الأجوبة للمسائل والأمور التي حاولت أن تفهمها له. وهكذا يكون قد خطا خطوة أخرى تزيد من إنكاره، أي أن المرشد في هذه الحالة يحصل على نتيجة معاكسة تماماً لما أراده.

٥- يجب مخاطبة قلب المخاطب عند التحدث إليه. كل جملة يجب أن تبدأ وتنتهي بالصدق وبالحب وصادرة عن القلب، وألاّ تحتوي على أي تعريض بشخصية المخاطب أو أفكاره أو أي خشونة، وإلاّ فقد حديثنا معه تأثيره، بل ربما جعله خصماً لنا. يجب أن يتصرف المرشد كطبيب رؤوف ومشفق على مريضه يحاول جهده شفاءه وينحني عليه،

وينصت إليه ويحس بآلآمه المعنوية في قلبه كحواري صادق وكرجل باحث عن الحق والحقيقة. فإنْ تناغم الصوت والحديث في مثل هذا الجوّ يجعل الحديث ينساب إلى قلب المخاطب كماء زمزم ليفتحه ويطهره. وهنا نستطيع التأكد بأننا وصلنا إلى قلبه. علينا أن ننتبه إلى تعابير وجه من نخاطبه ونحاول إرشاده، فنجعل من أنفسنا وكلامنا صورة محبّبة له فلا نكرر شيئاً آلمه أو أقلقه أو أزعجه.

هنا يجب ألا تغيب عن بالنا نقطة مهمة هي أنه عندما يفارقنا مخاطبنا هذا، عليه أن يفارقنا وهو محمل بانطباعات جيدة عنا... عن صدق حديثنا، عن الإخلاص الذي عبر عنه كل عضو من أعضائنا، عن وجهنا المشرق، وعن ابتسامتنا وعن نظراتنا المعبرة عن الحب والمودة. فإن أبدى رغبته في اللقاء بنا مرة ثانية تأكدنا أننا نجحنا في إيصال معظم ما أردنا إيصاله إليه.

٦- يجب ألا ننتقد الأفكار الخاطئة لمخاطبنا أو تعابيره غير الصائبة بشكل يجرح غروره، وألا نهون من شأنه أمام الآخرين أبداً. فإن كان هدفنا الوصول إلى قلبه، وإهداء شيء إلى هذا القلب علينا أن نتقبل بكل رحابة صدر التضحية بغرور أنفسنا، بل حتى بما يجرح كرامة هذه النفس. هذا علماً بأننا لا نستطيع جعله يتقبل أي شيء منا إن جرحنا كرامته أو آذينا إحساسه، فكل تصرف من هذا القبيل يبعده عنا أكثر فأكثر.

٧- أحياناً يكون تعريف مثل هذا المنكر بأصدقاء من ذوي العقائد الصحيحة والنفوس المضيئة أفضل من ألف نصيحة وأكثر تأثيراً. ولكن مثل هذا السبيل قد لا يصلح لكل منكر. لذا يجب على المرشد أن يعرف نفسية تلميذه ويتصرف على ضوء هذه المعرفة.

٨- وعلى عكس ما جاء آنفاً يجب الحيلولة دون تعرّفه إلى أشخاص غير جدّيين في سلوكهم وغير صائبين في أفكارهم. أما من يدّعي التدين ولكنه محروم من عشق العبادة، ومن كانت أفكاره ومشاعره عكرة وغير صافية فيجب الحذر تماماً من تعريفه بأمثال هؤلاء.

٩- علينا أن ندعه يتكلم من حين لآخر ويعبر عن نفسه وعن مشاعره، فهو إنسان يجب إبداء الاحترام له وإعطاءه فرصة التعبير عن أفكاره. إن قطعية العقيدة لدى الفرد وقوتها وحدتها إن كانت متوجهة نحو داخل نفس الفرد كانت عامل نضج وفضيلة، وإن كانت متوجهة نحو الخارج، وخاصة نحو من لا يعرف شيئاً كانت عامل تنفير وإضاعة فرصة التفاهم معه.

صحيح أن الاستماع للأفكار الباطلة يجرح الروح ويعكر صفو الفكر، ولكن علينا إبداء الصبر في هذا الخصوص وتجرع هذا الألم في سبيل اكتساب قلب جديد؛ وإلاّ فإننا إن لم نعط له حق وفرصة إبداء الرأي والفكر، وقمنا باحتكار الكلام، وملأنا المجلس بكلامنا فقط... فقد لا يدخل من هذا الكلام إلى عقله شيء. فكم من مرشد اشتهر بهذا الأمر وأصبح مكروها بسببه. ومثل هؤلاء يشبه من يحاول نقل الماء بقربة مثقوبة أو بغربال؛ فهو على رغم بذله لجهود جبارة لا يستطيع الوصول إلى نتيجة إيجابية. لذا فويل للذين لا يبدون ظرفاً في السلوك وأدباً في الاستماع إلى الآخرين.

١٠- من المفيد أن يذكر المرشد في أثناء كلامه أن الأفكار التي يقدمها ليست خاصة به وأن كثيراً من المفكرين العظماء السابقين والحاليين يشاركونه فيها، وأن كثيراً من المفكرين الموجودين حالياً باستثناء فئة قليلة جدّاً هم من أصحاب العقائد ومن المؤمنين، ويذكر أسماءهم ويضرب بهم المثل لكي لا يبقى كلامه كلاماً مجرداً.

١١- لا شك أن أوّل ما يجب علينا تبليغه وإفهامه وشرحه هو شرح ركني كلمة الشهادة. فإن ظهر أنها من معتقداته وأنها بعض موروثاته السابقة، أو أنه اعتقدها وآمن بها بعد حديثنا معه، عند ذلك يمكن الانتقال إلى مواضيع أخرى. ويجب الحذر هنا والابتعاد عن إثارة المسائل التي يتجرأ المنكر على نقدها، وذلك قبل التأكد والاطمئنان إلى استقرار الإيمان في قلبه.

نستطيع أن نلخص الموضوع ونقول إنه بعد تعيين وضع المنكر فإنّ أسُس الإيمان هي أوّل ما يجب ذكرها وطرحها له، وذلك ضمن الإطار الذي تم ذكره، وبعد الاطمئنان إلى استقرار الإيمان في قلبه، عند ذلك يمكن التطرق إلى مواضيع ومسائل أخرى. وإلاّ فإن تقديم المسائل بترتيب خاطئ يشبه تقديم الحلوى أولاً في الوليمة، أو يشبه تقديم اللحم إلى الحصان والعشب إلى الكلب، ومثل هذا الترتيب الخاطئ في التقديم وإن أعجبنا لا يأتي بأي نتيجة بل يعطى انطباعاً سلبياً للمخاطب.

ونحن نقدم هذه المقالة إلى جنود المعرفة الذين يحملون حالياً أعباء القيام بوظيفة ومهمة إنقاذ هذا الجيل المسكين الظامئ إلى العقيدة المضطرب في تيار الإلحاد والإنكار.

يقال إن شباب القرآن يتجدد بمرور الزمن، ما المقصود من هذا؟

جاء القرآن من الأزل وسيدوم إلى الأبد. فهذا الكتاب ذو البيان المعجز من الله تعالى الذي أحاط علماً بأدق التفاصيل لكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل. وقيام القرآن بشرح المسائل العائدة لأيامنا الحالية وللعهود والعصور القادمة وتناوله للمسائل التي تهم الإنسانية وكيفية تطور هذه المسائل والأحوال التي ستصير إليها يُعد من معجزات القرآن وشيئاً خاصًّا به وحده. أجل! إن القرآن نـــزل قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، إلاّ أنه نـــزل من الملأ الأعلى أي من نقطة ترى الماضي والحاضر والمستقبل، وصدر من علم الله تعالى الذي يمسك السموات والأرض والكون كله في يد قدرته ويديره ويقدّر كل شيء فيه، ويعلم حتى نَبضات قلوبنا.

أجل! كلما مرّ الزمان تَجدد شبابُ القرآن[1]، فكما يزداد نضج الإنسان وقدرة ذهنه على التحليل والتركيب، وإن ضعفت قدرة ذاكرته، وتزداد تجاربه وخبرته بمرور الزمن، كذلك الأمر بالنسبة للجماعات؛ أي كلما شاب الزمن وشاخ انفتحت قنوات جديدة وعروق جديدة وتوسعت وزاد سعي الإنسان وظهرت علوم جديدة تشرح لنا أسرار الكون وغوامضه. فعلم الفيزياء يظهر أمامنا وكأنه العلم الذي ينمو على الدوام في عروق الزمن ويغذيه ويتوسع ويعكسه. والأمر نفسه وارد أيضاً بالنسبة لعلوم الكيمياء والفلك وفيزياء الكون والطبّ والعلوم الأخرى؛ أي أن كل علم يتناول ضمن سير الزمن سرًّا من أسرار الكون ويشرحه ويعرضه أمام الأنظار. إذن فكلما خطا الزمن خطوة نحو يوم القيامة كلما تكاملت الدنيا ونضجت أمام أعيننا. فكأن العلوم هي

[1] يعبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله عن شبابية القرآن وفتوّته فيقول: "إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوّته حتى كأنه ينـــزل في كل عصر نضِراً فتياً. نعم، إن القرآن الكريم، لأنه خطاب أزلي، يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان. حتى إنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظراً كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملقناً دروسه ملفتاً إليها الأنظار". ويقول: "إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم، وتتغير وتتبدّل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور". (الكلمات، ص٤٧١ ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.) (المترجم)

الشعرات البيض على هامة الدنيا رمزاً للنضج والكمال، أي كلما اقتربت نهاية الدنيا زادت الدنيا كمالاً.

هذه الحال أو هذا المنوال يساعد على فهم القرآن، وسيأتي يوم يهتدي فيه كبار علماء الغرب الذين يبحثون عن أسرار العلوم وحقائقها عندما يفهمون القرآن حق الفهم ولا يملكون أنفسهم من السجود لله، وستهتف الإنسانية "ما أعظمك يارب!". أجل سيأتي اليوم الذي يقول العلماء وهم يرَون الأبعاد السحيقة من الكون والتي تبعد عنا ببلايين السنين الضوئية.. سيقولون ما قاله "باسْكَال" وهو يبكي "ما أعظمك يا رب!"

وضع القرآن الكريم أفضل نظام اجتماعي لأفضل مجتمع قبل أربعة عشر قرناً، ولكننا لم نفهم نحن هذا بعد، لذا لم نستطع شرح هذه الوجهة الاجتماعية للقرآن كما يجب أمام المبادئ الأخرى من رأسمالية وشيوعية وفاشية وليبرالية. نحن لم نقصر فقط في فهم القرآن من ناحية المسائل الاجتماعية، بل لم نفهم كذلك المسائل الأخرى له فيما يتعلق بالحياة الإنسانية. ووظيفتنا الآن ومهمّتنا هي القيام بشرح كل هذه المسائل وتقديمها كوصفة علاج لأمراض الإنسانية وأدوائها.

وعندما نقوم بهذا بإذن الله تعالى سيبدو واضحاً كيف أن القرآن الكريم آت من نبع عميق، قد لا يتم حدس مبلغ هذا العمق ظاهريًّا، ولكن سيرى الجميع كم من حقيقة علمية موجودة فيه.

نحن لم نستطع حتى الآن حلّ مسائلنا الاقتصادية. وعندما نرى أن نظاماً اقتصادياً معيناً وضع بالأمس قد أدّى إلى مشكلات ومصائب تركناه وركضنا وراء نظام آخر صائحين: "لن يتقدم البلد إلا بهذا النظام". وعندما نطبّقه نرى جيشاً من الفقراء المظلومين والبؤساء أمام عدد قليل من الأغنياء، وهكذا تتغير الأنظمة ونكون لعبة في يد هذه الأنظمة. وعندما يتم تناول القرآن الكريم من جديد نرى كيف نفهم أشياء جديدة وجيدة وكيف أن شبابه يتجدد بتجدد العلوم وتقدمها بمرور الزمن، وكيف يبدو وكأنه نـــزل تواً. ومع أنه لم يتم حتى الآن بحوث عميقة وجدّية حول القرآن في أيامنا هذه، إلاّ أننا –بعقولنا القاصرة وبقلوبنا الضيّقة التي لا تتسع للحقائق الكبيرة– ننذهل أحياناً مما نفهمه من القرآن فنضطر إلى القول: "كلا، لا يستطيع البشر قول شيء من هذا القبيل".

أجل! فكم من حقيقة علمية عبر عنها القرآن بجملة واحدة. وكم من بحوث تمت في ساحات عديدة فتبين أن الحقائق العلمية المستحصلة منها توافق ما جاء في آيات القرآن، وشوهدت هناك بصمته. ليس هذا الذي نقوله ادعاءاً فارغاً لا أساس له، بل هو حقيقة أظهرتها التجارب العلمية. قد نحتاج إلى مثال أو مثالين لشرح هذا الأمر:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:١٢٥). فهذه الآية تشير إلى قانون من قوانين الطبيعة، إذ تستعمل كلمة "السماء" وفعل "يصّعّد" وهو من "صعِد / يَصعَد" أي الارتفاع إلى فوق. وكلمة "يصّعّد" تعبّر عن صرف جهد ومشقة، حتى أن الإنسان عندما يتلفظ بهذه الكلمة يحس وكأن نفَسه ينقطع. والقرآن يبين هنا الحقيقة التالية: كلما صعد الإنسان وارتفع عن الأرض قل الضغط وصعب تنفّسه، لأن الضغط الجوّي يقل درجة واحدة كلما صعد الإنسان مائة متر، وفي ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر يضطر الإنسان إلى استعمال أجهزة تنفس خاصة.

مثال آخر: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنــزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر:٢٢). هذه الحقيقة العلمية التي لم يتم فهمها إلاّ في هذا العصر ذكَرها القرآن قبل أربعة عشر قرناً؛ إذ تبين أن الرياح تسوق الغيوم الحاملة لبخار الماء ويصطدم بعضها ببعض فيتم انسياب الشحنات السالبة والموجبة وتحدث البروق. وتقوم الرياح بإنــزال الأمطار من الغيوم وفي الوقت نفسه تقوم بتلقيح النباتات أي حمل بذور الذكورة لتلقيح بذور الأنوثة في النباتات، فتساعد على إتمام عملية التلقيح في النباتات. وترد في الآية نفسها أن الأمطار الساقطة من السماء تُخزن في باطن الأرض، وبوساطة الآبار والعيون تتم الاستفادة من هذه المياه في سقي الأحياء من نباتات وحيوانات وإنسان. وهكذا يشير القرآن إلى هذه القوانين الطبيعية قبل أربعة عشر قرناً فيبرهن على إعجازه.

وتقول آية أخرى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩). وفي اللغة العربية عندما تضاف كلمة ﴿كلّ﴾ –التي تعني العموم– إلى معرفة فتفيد عموم أجزاء الكل، وعندما تضاف إلى نكرة تفيد عموم الأفراد أي جميع الأفراد. وهنا كلمة "شيء" كلمة نكرة، إذن فالمعنى أن جميع الخلق خلقوا زوجين اثنين. كما أن الناس

خلقوا زوجين اثنين، كذلك خلقت سائر الأحياء زوجين اثنين، فالنباتات أيضا خلقت هكذا ذكَراً وأنثى. وكلمة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ الواردة في القرآن تعني الذكر والأنثى. بل إن الذرة نفسها التي هي أصل الأشياء خلقت زوجين اثنين. فمن أجزائها ما تحمل شحنة موجبة، وأخرى تحمل شحنة سالبة، وهناك أيضا قوة دافعة وأخرى جاذبة. أي إن هذا الأمر يظهر في صور وأشكال مختلفة. فإن زالت هذه الصفة لم تستطع الموجودات إدامة وجودها. وتعود آية في سورة "يس" إلى ذكر هذه الحقيقة بتفصيل أكثر فتقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦). فهذه الآية تذكر أشياء لم تكن معروفة للناس في ذلك العهد، إذ تقول "إننا خلقنا أشياء أخرى لا تعرفونها بشكل أزواج".

آية أخرى وموضوع آخر: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧). الجمل الفعلية في اللغة العربية تفيد التجدّد، والجمل الاسمية تفيد الاستمرارية. وجملة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ جملة اسمية لا تتعلق بالأزمنة الثلاثة "الماضي، الحاضر والمستقبل" بل تفيد الاستمرارية، أي لا تقول: "إننا وسّعنا في الماضي ثم تركنا" ولا تقول: "إننا نوسّع الآن" ولا "إننا سنوسّع في المستقبل"، بل تقول: "إننا نوسع على الدوام ودون توقف". ففي عام ١٩٢٢ ذكر العالم الفلكي "هوبل" بأن جميع المجرّات -عدا خمساً أو ستًّا منها- تبتعد عن الأرض بسرعة تتناسب طردياً مع بعدها عنا. وحسب حساباته فإن كان هناك نجم على بعد مليون سنة ضوئية يبتعد عنا بسرعة ١٦٨ ألف كيلومتر في الدقيقة، فإن نجماً على بعد مليوني سنة ضوئية سيبتعد عنا بضعف هذه السرعة، وأي نجم على بعد ثلاثة ملايين سنة ضوئية ستكون سرعة ابتعاده بثلاثة أضعاف هذه السرعة، وهذا يؤيّد فكرة العالم الرياضي والراهب البلجيكي "لامتري" الذي ذكر بأن الكون في حالة اتسا (Expansion) دائم.

هذا المفهوم العلمي القائل باتساع المكان والذي لا يزال محتفظاً بثقله في المحافل العلمية، ذكره القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً. أمام هذه الحقيقة العلمية التي أعلنها أمّيّ، كان من المفروض على المحافل العلمية أن تنحني إجلالاً وتقول له "نحن تلاميذك" ولكن ما نراه الآن ليس إلا منظر جحود.

وتقول آية أخرى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر:٥). والتكوير في اللغة العربية تأتي بمعنى لفّ لباس كعمامة مثلا حول شيء دائري، أو دوران حول شيء دائري. وهكذا نرى أن الآية عندما تذكر "تكوير الليل على النهار والنهار على الليل" تشير بشكل واضح إلى كروية الأرض. ومن جهة أخرى نرى أن الآية رقم ٣٠ في سورة النازعات توضح هذا المعنى بشكل أكثر فتقول: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات:٣٠) أي جعلها كالدحية، والدحية هي بيض النعام. إذن فأرضنا هذه كرة مفلطحة، مضغوطة قليلاً من جهة القُطبين وهي تشبه بيضة النعامة. وقد أبان القرآن هذه الحقيقة بشكل واضح لا لبس فيه ولا يحتاج إلى أي تأويل.

من الممكن ذكر أمثلة كثيرة وآيات عديدة في هذا الخصوص ولكننا نكتفي هنا بهذه الأمثلة. كما قام القرآن الكريم بوضع بعض الأسس التربوية. ولكن عندما تركت هذه الأسس التربوية القرآنية وجرّبت النظم التربوية الأخرى التي وضعها علماء النفس وعلماء الاجتماع، رأينا أجيالاً من الشباب الضائع الغارق في المشاكل والمضطرب في تيار الأهواء ونوازع النفس. وستبقى الإنسانية تتجرع الآلام وتعيش في الأزمات طالما كانت بعيدة عن أسس التربية القرآنية. ولكن عندما تتصادق الإنسانية مع القرآن ستفهمه وتدرك مراميه وتستسلم له فتصل إلى شاطئ الأمن والطمأنينة. أي لن تجد القلوب ولا العقول غذاءها ولا سعادتها إلا عند توجيهات القرآن وأوامره.

لكل هذه الأسباب نقول: إن الزمن كلما شاخ وتقدم في العمر ونضج وتكامل وقرب من أشراط الساعة ومن "آخر الزمان" كلما لمعت حقائق القرآن كالنجوم اللامعة في كبد السماء بالنسبة للمحققين والباحثين، وتبينت سلامته ومتانته وعمق تعاليمه، وأصبح أكثر إقناعاً لقلوب الناس. فبعبارة أخرى كلما تقدم الزمن تجدد شباب القرآن، وانفتحت أبواب جديدة أمام العقل من دون تعطيل للإرادة الإنسانية، وسيهتف عند ذلك الكثيرون: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

ألا يمكن أن يكون القرآن من قِبل رسولنا ﷺ؟
إن لم يكن كذلك فكيف يمكن البرهنة على هذا؟

لقد كُتب وقيل الكثير في هذا الموضوع، وقدمت أدلة عديدة أزالت كل تردد في هذا الأمر. ولا نستطيع في الركن الصغير هذا المخصص للأسئلة والأجوبة إلا تناول الموضوع بشكل مختصر وبرؤوس نقاط فقط.

إن الادعاء بأن القرآن وضع من قبل سيدنا محمد ﷺ أو من قبل آخرين ادعاء انحصر في بعض رجال العهد الجاهلي قديماً وعند بعض المستشرقين من أعداء القرآن الذين كثيرا ما ادعوا هذا، وأرادوا منه تعكير الأذهان. ونحن نرى بأن مشركي الأمس واليوم ليسوا حياديين في تفكيرهم، بل تصرفوا بحقد وعداء. ذلك لأن من يدقق القرآن بإنصاف وبفكر محايد يتبين أن مصدره إلهي، لأنه في مرتبة عالية بحيث يتجاوز القدرة البشرية.

ونحن نحيل من يريد التحليل الدقيق والعميق لهذا الموضوع المهم إلى الكتب القيمة التي كتبها عمالقة الفكر، ونكتفي هنا بالتذكير ببعض العناوين الرئيسة في هذا المجال:

١- هناك فرق كبير جدًّا بين أسلوب القرآن وبين أسلوب الحديث النبوي بحيث أن العرب بينما كانوا يرون في أحاديث الرسول ﷺ خارج القرآن أسلوباً مثل أسلوبهم في الحوار، فإنهم لم يملكوا أنفسهم من الحيرة بل الذهول من الأسلوب المعجز للقرآن.

٢- عندما تقرأ الأحاديث تحس وراءها شخصاً يفكر ويتحدث قد ملأته خشية الله تعالى؛ بينما تجد في القرآن مهابة وجلالاً وأسلوباً جبّاراً. لذا فمن المستحيل أن يجتمع في أسلوب شخص وفي بيانه مثل هذا الفرق الكبير والبون الشاسع... هذا غير معقول وغير ممكن.

٣- إن من المستحيل قيام شخص أمّيّ -فديتُه بأبي وأمي- لم ير مدرسة ولم يقرأ كتاباً بوضع نظام كامل لا نقص فيه ولا قصور... نظام يتناول الفرد والعائلة والمجتمع والاقتصاد والقانون. مثل هذا الافتراض يصادم العقل والفكر والبداهة، ولاسيما إن كان

هذا النظام صالحاً للتطبيق طوال عصور عديدة وعند أمم مختلفة وشعوب متفرقة، ولا يزال محتفظاً بنضارته وقوته وقابليته على التطبيق حتى هذا اليوم.

٤- الحيــاة والوجود في القرآن وما يتعلق بهما من مواضيع العبــادة والقوانين والاقتصاد تراها متوازنة مع بعضها البعض توازناً مدهشاً بحيث إن قمت بتناسي هذا وإهماله وقمت بنسب هذا الكلام إلى إنسان فإنك تكون قد رفعته فوق مستوى الإنسان. ذلك لأن مسألة واحدة فقط من المسائل المذكورة آنفاً يتجاوز الزمن ويتجاوز قدرة أكبر العباقرة. أي أن إسناد هذا الكتاب الذي يحتوي على مئات الأمور والمسائل التي يعجز عن إتيان واحدة منها كبار العباقرة إلى شخص أمي لم ير مدرسة ولا كتاباً ليس إلا زعماً باطلاً لا أساس له.

٥- يعد القرآن شيئاً خارقاً بما يحتوي من أخبار الغيب للماضي وللمستقبل، لذا لا يمكن أن يُعد من كلام البشر. فنتيجة للبحوث الجديدة في هذه الأيام ظهر صدق ما أخبر القرآن قبل عصور عن الأقوام الماضية البادية وعن طراز حياتهم ومعيشتهم وعن عاقبتهم سيئة كانت أم حسنة. فهاكم مثلاً النبي صالح ولوط وموسى عليهم السلام وأقوامهم، وهاكم مساكنهم التي أصبحت عبرة لمن اعتبر.

وبنسبة إعجاز القرآن في إخباره عن أنباء الأمم الماضية، هناك إعجاز قرآني بالنسبة لأخباره المستقبلية. فمثلاً أخبر عن فتح مكة وأن المسلمين سيدخلونها آمنين قبل مدة من فتحها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:٢٧).

وأخبر بأن الإسلام سينتصر على جميع الأنظمة الباطلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ (الفتح:٢٨).

كما أخبر القرآن بأن الساسانيين الذين تغلبوا على الروم سوف يُهزمون في بضع سنين، وأن المسلمين سوف يفرحون بالنصر الآتي وهو النصر الذي تم في معركة بدر الذي توافق مع انتصار الروم على قول البعض من المفسرين: ﴿الـــم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون﴾ (الروم:١-٤). وعندما حان الوقت الموعود تحقق ما أخبر به القرآن.

وشبيه بهذا الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنــزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧). فعلى الرغم من كون الرسول ﷺ محاطاً بالأعداء اعتباراً من عمّه إلى قومه إلى الدول المحيطة به، فأعلمه الله تعالى بأنه سيعصمه من الناس، وحقق له ما وعده.

والآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣). هذه الآية تقول بأن العلوم سوف تتقدم، أي العلوم المكانية (الوضعية) والعلوم النفسية، وإن هذا التقدم سوف يسوق الإنسان إلى الإيمان. وفي أيامنا الحالية تسرع العلوم لبلوغ هذا الهدف وتقترب منه كثيراً.

ثم إن القرآن تحدّى الإنس والجن جميعاً: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨). هذا التحدّي القرآنيّ وقع منذ نــزوله في مكة ولا يزال قائماً إلى يومنا هذا. فإذا استثنينا محاولة أو محاولتين اتسمتا بالهذَيان، لم يتجرأ أحد للتصدي لهذا التحدي أو القيام بوضع شيء يشابهه. فكان هذا أسطع دليل على صدقه وإعجازه.

في السنوات الأولى لنــزول القرآن كان المسلمون ضعفاء ومستضعفين في الأرض لا يملكون حولاً ولا قوة ولا يملكون فكرة واضحة عن مستقبلهم. فلم تكن لديهم أدنى فكرة لا عن الدولة ولا عن حكم الدنيا ولا عن منابع القوة لدينهم الجديد الذي سيقلب الأنظمة الدولية آنذاك، بينما كان القرآن يقول: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٥). كان القرآن يخاطبهم هكذا ويبين لهم هذه الأهداف السامية ويبشرهم بأنهم سيحكمون العالم. هناك آيات أخرى عديدة لا نستطيع سردها جميعاً هنا وهي تذكر مستقبل الإسلام والمسلمين وانتصاراتهم وهزائمهم، تقدمهم وتأخرهم.

معظم الأخبار التي أخبر بها القرآن الكريم حول المستقبل ستكون الحدود النهائية التي ستصل إليها مختلف العلوم. فما أخبر به القرآن بشكل رؤوس أقلام مختصرة ومركّزة حول بعض الحقائق العلمية أشياء مدهشة لا يمكن تجاهلها كما لا يمكن إسنادها إلى قول بشر. ولما كانت هناك كتب عديدة قامت بتناول مئات الآيات التي تناولت بشكل صريح وواضح أو عن طريق الإشارة والإيماء إلى كثير من الحقائق العلمية فإننا نحيل من يرغب في معرفة تفاصيل هذا الموضوع إلى هذه الكتب القيمة ونكتفي نحن هنا بالإشارة إلى بعض الأمثلة فقط:

١. خلق الكون

﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء:٣٠). هذه الآية متعلقة بخلق الكون، ومع أن هناك خلافاً في تفسير بعض فروعها، إلا أن المعنى العام لها يشير إلى المبدأ العام الذي لا يتغير للخلق. فسواء أكان المعنى للرتق والفتق هو تكوّن المجرات والنجوم من الغازات والسدم، أو تشكل وظهور مجموعات كالمجموعة الشمسية، أو انقسام سحب أو سدم وتجزؤها إلى أشكال ومنظومات معينة متناسقة... فإن المعنى العام لا يتغير في النتيجة. فالآية بالكلمات التي استعملتها وبالأسلوب الذي صاغته احتفظت بجدتها ونضارتها حتى اليوم، وستبقى جديدة في المستقبل أيضا على رغم تساقط جميع النظريات ووضعها على الرف.

٢. علم الفلك

هناك آيات عديدة جدًّا في القرآن الكريم حول علم الفلَك. وكم يتمنى المرء الآن لو جمعت هذه الآيات وتم تحليلها واحدة واحدة، وهذا قد يستوعب مجلدات. سنكتفي هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين فقط:

﴿اَللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد:٢). تذكر الآية رفع السماوات وتوسيعها ثم تشير إلى النظام الدقيق الموجود في الكون وأن كل شيء يسير في نظام ودقة، وتعطي حوله مثالاً نستطيع مشاهدته

ومعرفته. صحيح لا توجد هناك عمد في الظاهر يمكن مشاهدتها تقوم بالحيلولة دون تشتت قبة السماء، ومع ذلك لا نستطيع القول إن مثل هذه العمد غير موجودة تماماً. فهناك عمد موجودة ضمن القوانين والمبادئ السارية في الكون، وهي تقوم بمهمّة حفظ الكون من التشتت والانهيار، أي أن وجود مثل هذه العمد ضروري.

عندما نقرأ هذا التعبير القرآني تتداعى إلى أذهاننا القوة المركزية والقوة الطاردة عن المركز. وسواء أكان هذا يتوافق مع قانون "نيوتن" في الجاذبية أو مع نظرية "المجال" لـ"أنشتاين" فأنهما سيَّان إزاء الإشارة القرآنية.

والحقيقة أن إشارة القرآن إلى "أن الشمس والقمر يجريان" إشارة مهمة. وقد ورد في سورة "الرحمن" أن حركة الشمس والقمر تجري بحساب دقيق: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن:٥). وجاء في سورة "الأنبياء": ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء:٣٣). وفي سورة "يس" بعد أن يتم ذكر جريان الشمس تقول الآية: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠)، أي أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى خلقت تحت نظام معيَّن وأن حركة الجميع في اتساق ونظام رياضيّ دقيق.

تقول آية في سورة الزمر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر:٥). هنا جاء ذكر تكوير الليل على النهار، والنهار على الليل عند الحديث عن تعاقب الليل والنهار، أي شبه تعاقب الضوء والظلام في الدنيا بلف عمامة على هامة كرتنا الأرضية. وتذكر آية أخرى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات:٣٠)، أي بشكل قطع ناقص، أي أن الأرض بيضوية الشكل، وهكذا يعرض أمام المشاهدين النقطة الأخيرة لأبعاد النبوة.

وبالنسبة لتوسع المكان تقول الآية: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧). وسواء أكان هذا التوسّع كما فهمه "أنشتاين" أو كما فهمه "أدوين هوبل" من تباعد السدم بعضها عن البعض الآخر، ولكن المهم هو إشارة القرآن إلى صلب هذا الموضع وتقدمه وسبقه للعلوم التجريبية في هذا الخصوص.

٣. علم الأرصاد الجوية (Meteorology)

في معرض تعداد نعم الله تعالى وتذكير الإنسان بها وكذلك في معرض التهديد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم حول سوق الرياح وتكاثف الغيوم وتكهرب الهواء وتولد البروق والرعود. فمثلاً تقول الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور:٤٣).[١]

وهكذا يقوم القرآن بشرح حادثة المطر، ويبين وجود نعم إلهية وراء أصوات الرعود المخيفة ووراء سنا البروق التي تكاد تذهب بالأبصار، فيدعو أصحاب القلوب الواعية إلى اليقظة الدائمة، ثم يشرح كيفية نــزول الأمطار والبرد بشكل غريب بحيث لا يتناقض ولا يتصادم مع ما هو معروف الآن علميًّا، فلا يملك الإنسان إلاّ الإعجاب ببيانه. ولكن القرآن هنا لا يهمه الدخول في التفاصيل الدقيقة لحادثة المطر من ناحية وجود شحنتين كهربائيتين مختلفتين، ووجود قوة تجاذب بين الشحنتين المختلفتين وقوة تنافر بين نفس الشحنتين ودخول الرياح في هذه العملية وقيامها بالتأليف بين السحب التي تحمل هذه الشحنات المتنافرة، واتحاد الشحنات الموجبة المرتفعة من الأرض مع الشحنات الموجودة في الفضاء وتولد البروق ونــزول الماء على شكل قطرات إلى الأرض.. مثل هذه التفاصيل لا ينشغل بها القرآن، بل يشير إلى الحادثة الأصلية ويدع التفاصيل لتقدم العلوم بتقدم العصور.

أما الآية الموجودة في سورة الحجر ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنــزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر:٢٢). هذه الآية تضيف شيئاً جديداً لهذا الموضوع فتلفت الأنظار إلى دور الرياح في عملية تلقيح الأشجار والأزهار، إضافة إلى دورها في تلقيح السحب والغيوم. علماً بأنه لم يكن معروفاً في العصر الذي نــزل فيه القرآن حاجة الأشجار والنباتات والأزهار والسحب إلى التلقيح، ولم يكن أحد يعرف أي وظيفة للرياح آنذاك.

---

[١] **يزجي**: يسوقه سوقا خفيفا. **يجعله ركاما**: متراكما بعضه فوق بعض. **الودق**: المطر. **سنا**: شدة الضوء. (المترجم)

٤. الفيزياء

من المواضيع التي يتناولها القرآن موضوع أن المادة التي يتألف منها هذا الوجود مخلوقة بشكل مزدوج. ففي سورة الذاريات: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩). فهنا يذكر القرآن أن كل شيء خلق زوجين وأن هذا مبدأ أساسي في الوجود. وفي سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء:٧). فيوجه الأنظار إلى مئات الآلاف من الأزواج من النباتات والحيوانات التي تزخر بها الأرض ويتم التذكير بالنعم الإلهية التي لا تعد ولا تحصى.

أما الآية في سورة "يس" فهي أكثر تفصيلاً وشمولاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ ٱلأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦). تشير هذه الآية إلى الأزواج التي نعرفها من المخلوقات وتقول إن هناك أزواجاً أخرى لا نعرفها وتدعونا إلى التأمل والتفكر.

هناك آيات عديدة أخرى في هذا المجال عدا الآيات التي ذكرناها كأمثلة فقط، وكل آية منها تعد معجزة قرآنية تبرهن بأوضح دليل أن القرآن الكريم كلام الله وأن محمدا ﷺ هو رسوله إلينا.

أجل، لقد تناول القرآن مواضيع علمية عديدة بدءً من ظهور الحياة على سطح الأرض إلى تلقيح النباتات وتكاثرها، إلى خلق أصناف الحيوانات، إلى دساتيرها الحياتية المليئة بالأسرار، إلى عوالم نحل العسل والنمل الغريبة إلى طيران الطير، إلى طرق تكوّن الحليب في الحيوان، إلى المراحل التي يقطعها الجنين في رحم أمه...الخ. وذلك بأسلوب خاص به وحده، أسلوب وجيز ومركّز وبليغ ومهيمن. فإذا وضعنا تفاسيرنا جانباً فإن هذه الآيات تبقى على الدوام محافظة على شبابها ونضارتها وتبقى كأهداف نهائية للعلم.

إذن فهذا الكتاب يضع أصبعه على هدف يتجاوز ما يستطيعه الآلاف من الناس بعد جهد عصور عديدة من الوصول إليه يتجاوزه فيلخّص الموضوع بشكل دقيق.. مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يعود لإنسان عاش قبل أربعة عشر قرناً، لأنه لو حاول مئات من المتخصصين وآلاف من العباقرة اليوم لما استطاعوا الإتيان بمثله.. أي بمثل هذا القرآن الغنـــيّ جدّاً بمحتوياته وببيانه وأسلوبه الإلهي الجذاب والمعجز.

والآن لنسأل مخاطبنا: ممن تعلّم هذا الأمي -الذي كانت أمّيّته معجزة- كيفية تكوّن الحليب لدى الأحياء في عهد لم تكن المدرسة معروفة فيه ولا الكتاب؟[1] وكيف استطاع معرفة أن الرياح تقوم بتلقيح الغيوم والنباتات؟ وكيف عرف كيفية تشكل الأمطار والبرد؟ ومن أي مرصد ومن أي تلسكوب عملاق رصد توسع المكان والكون؟ ومَن علّمه أنّ شكل الكرة الأرضية شكل بيضوي؟ وفي أي مختبر تعلم مكونات الجو، وأن الأوكسجين يقل في الطبقات العليا منه؟ وكيف شاهد -وبأي جهاز أشعة إكس- مراحل الجنين في رحم أمه؟ ثم كيف استطاع أن ينقل كل هذه المعلومات إلى مخاطبيه بكل ثقة واطمئنان ودون أي تردد وكأنه خبير متخصص في هذه العلوم؟

٥. مثلما قام القرآن الكريم بتعليم الرسـول ﷺ وظائفه ومهامه ومسؤولياته وصلاحياته وأبان له هذه السبل قام أحياناً بتوجيهه وتنبيهه ومعاتبته أيضاً. فمثلاً نبهه عندما أذن لبعض المنافقين بينما كان من المفروض ألا يعطي لهم هذا الإذن فقال: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣). كما لم يوافقه القرآن في موضوع أسرى بدر فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٧) ثم قال: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨).

وعندما سألتْه قريش عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين «فقال لهم رسول الله ﷺ: أُخبرُكم بما سألتم عنه غدا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل (...) وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله ﷻ بسور أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح.»[2] ومن أجل كونه لم يقل "إن شاء الله تعالى"، نـــزلت آية تحذّره وتقول له: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي

---

[1] يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦). (المترجم)

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٢٢/١-٣٢٣.

فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الكهف:٢٣-٢٤). وفي مرة أخرى نـــزل ما يشم منه عتاب رقيق حول وجوب أن تكون الخشية من الله تعالى فقط: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الاحزاب:٣٧). وعندما حلف ألا يشرب شراب العسل لترضية زوجاته لم يوافقه القرآن في هذا بل عاتبه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التحريم:١).[1]

إذن ففي مثل هذه الآيات وغيرها نرى هناك من جانب آيات كثيرة تشرح مسؤوليات الرسول ووظيفته وحدود صلاحياته، نرى من جانب آخر آيات توجيهية ومنبهة له كلما خرج ولو قيْد شعرة خارج هذه الحدود، أي حدود المقربين. والآن أيعقل أن يقوم شخص بتأليف كتاب ثم يضع في مختلف صفحاته معاتبات وتحذيرات وتنبيهات له؟ حاشا لله.. فالكتاب كتاب الله سبحانه، أما هو ﷺ فرسول رفيع المنـــزلة ومبلّغ عن الله تعالى.

٦- إن القرآن ذروة في البلاغة، ولا ند أو مثيل له في هذا الأمر. لذا لا يمكن عزوه إلى إنسان. عندما أعلن الرسول ﷺ نبوته كان هناك العديد من الشعراء وأساتذة البلاغة والبيان ممن كانوا محل إعجاب وتقدير الكثيرين. وكان أكثر هؤلاء في الصف المعارض له. وكم تشاور هؤلاء حول كيفية التغلب على القرآن، حتى أنهم أحيانا راجعوا رهبان النصارى وأحبار اليهود لأخذ وجهات نظرهم، لأنهم كانوا قد عزموا على إيقاف سيل

---

[1] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل. وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فدخل على حفصة بنت عمر واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فعرفت فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقتْ منه النبي ﷺ شربة. قلتُ: أما والله لنحتال له.. فقلتُ لسَودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك إذا دخل عليك فقولي له: يا رسول الله أكلت مغافير فإنه سيقول لك سقَتْني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست نحله العرفط. وسأقول ذلك وقُولي أنت يا صَفيّة ذلك. قالت تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فكدتُ أن أبادئه بما أمرتْني به. فلما دنا منها قالت له سَودة: يا رسول الله أكلتَ مغافير قال لا قالتُ: فما هذه الريح التي أجد منك قال: سقتني حفصة شربة عسل، فقالت: جرست نحله العرفط. قالت: فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله أسقيك منه قال: لا حاجة لي فيه. تقول سودة: سبحان الله لقد حرمناه قالت لها: اسكتي. (البخاري، الطلاق ٧؛ مسلم، الطلاق ٣). وفي رواية "فقال ﷺ: لقد قالت لي هذا فلانة وما هذا إلا من شيء أصبته في بيت سودة ووالله لا أذوقه أبداً. قال ابن أبي مليكة: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في هذا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾." (أسباب النـــزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري)

القرآن وتخفيف نبعه الفيّاض، وكانوا مستعدين لعمل أي شيء في هذا السبيل. وعلى الرغم من جميع هذه العوائق استمر الرسول ﷺ في سبيله يكافح الكفار والملحدين، وسلاحه الوحيد هو القرآن حتى وصل إلى النصر المؤزر رغم أنف كل هؤلاء الأعداء.

وبينما كان بلغاء العرب في جبهة واحدة مع علماء المسيحية واليهودية يقيمون الدنيا ويقعدونها، كان الأسلوب البليغ للقرآن وبيانه الساحر وروحانيته الآخاذة تفتح القلوب وتغزوها... وقف في الميدان وقفة مبارز يتحدى خصومه أن يأتوا بمثله، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله، فإن لم يستطيعوا فبآية واحدة، وإلا فانكِسوا رؤوسكم وانصرفوا ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا﴾ (الاسراء:٨٨)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود:١٣)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس:٣٨) ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣).

وهكذا تعاقبت التحديات ولكن لم يستجب أحد لهذه التحديات أو يتجاسر على قبولها، إن استثنينا محاولة أو محاولتين كان الهذيان طابعهما.[١] وهذا يبَرْهن أن منبع القرآن ومصدره ليس بَشَرِّياً. ذلك لأن التاريخ يشهد أن خصوم الرسول ﷺ وأعداءه لم يتورعوا عن أي شكل من أشكال العِداء والإيذاء والمحاربة، ولكنهم لم يفكروا في تقليد القرآن، ولو استطاعوا ذلك، أي لو كان ذلك في وسعهم لما تأخروا عنه أبدا، ولأسكتوا بذلك صوت القرآن، ولَمَا كانت هناك حاجة للدخول في الحروب.[٢]

أجل! إن اختيار هؤلاء البلغاء والفصحاء طريق الحروب التي تتعرض فيها الأنفس

---

[١] حاول مسيلمة الكذاب تقليد القرآن فكان يقول: "يا ضفدع ابنة ضفدع نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين" وكان يقول "زرعا حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا ثردا لقما إهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ريفكم والمعتر فآووه والباغي" (تاريخ الطبري، ٢/٢٧٦). (المترجم)

[٢] يقول بديع الزمان رحمه الله: "فلو كانت المعارضة ممكنة فهل يمكن اختيار طريق الحرب والدمار، وهي أشد خطراً وأكثر مشقة. وبين أيديهم طريق سهلة هينة، تلك هي معارضته ببضعة أسطر تماثله، لإبطال دعواه وتحديه؟!" (الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الأولى، الشعاع الأول.)

والكرامة بل حتى الأعراض إلى الخطر، يبرهن على عجزهم عن تحدي القرآن. ولو كان باستطاعتهم تقليد القرآن أو الإتيان بمثله لَمَا تأخروا عن ذلك ولما اختاروا طريق الخطر وهو طريق الحرب.

وبعد ثبوت عجز بلغاء العرب من الإتيان بمثيل للقرآن، فإن البحث عن منبع القرآن ومصدره في علماء أهل الكتاب من يهود أو نصارى بحث عقيم ودليل على العجز. ولو كان في مقدور اليهود والنصارى الإتيان بكتاب غني بمحتواه مثل القرآن لم ينسبوه إلى شخص آخر، بل كانوا يفاخرون الناس بمثل هذا الكتاب الذي وضعوه.

ثم إننا إن صرفنا النظر عن بعض المستشرقين والكفار فإننا نرى آلافاً من المفكرين والباحثين ورجال العلم الذين أبدوا إعجابهم وتقديرهم للمحتوى الغني للقرآن ولبلاغة أسلوبه. يقول "جارلس ميلر" بأن القرآن ببلاغة أسلوبه وغنى محتوياته في مستوى يصعب ترجمته. ويقول "فيكتور أمبروس" بأن القرآن غني المحتوى إلى درجة يصلح معه لأن يكون منبعاً لجميع القوانين. ويقول "أرنست رينان" "إن القرآن أحدث ثورة أدبية كذلك بجانب الثورة الدينية". ويقول "كوستاف لوبون" بأن الدين الإسلامي الذي أتى به القرآن يحمل أصفى عقيدة توحيدية وأنقاها. ويقول "ك.أ. هيوارت": "إنه يؤمن بأن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ". ويقول "هـــ. هولمان": "إن محمداً ﷺ هو آخر نبي أرسله الله تعالى للناس، وإن الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية". ويقول "أميل درمنهيم" "إن القرآن هو المعجزة الأولى للرسول ﷺ وإنه بجماله الأبدي سيبقى لغزاً لا يمكن الوصول إليه".

ويقول "آرثر بللغزي": "إن القرآن الذي قام محمد ﷺ بتبليغه هو من عند الله". ويقول "جين بول روكس": "إن أكبر معجزة لرسول الإسلام هو القرآن الذي أنـــزل وحيا عليه". ويقول "رايموند جارلس": "إن القرآن هو أكثر كتب الوحي الإلهي -المبلغ إلى المؤمنين- حيوية". ويقول الدكتور "موريس": "إن القرآن معجزة وفوق كل نقد، والذين يشتغلون بالأدب يجدون فيه مصدراً أدبيّاً، أما المتخصصون في علم اللغة فيجدون فيه خزيناً كبيراً للألفاظ، وهو منبع إلهام للشعراء". ويقول "مانويل كنج": "إن القرآن هو المجموع الكامل لما تلقاه نبينا من الوحي طوال سنوات نبوته". ويقول السيد

"رودويل" "إن الإنسان ليزداد ذهولاً كلما أمعن في قراءة القرآن، ولا يملك إلا الإعجاب به وتبجيله".

ما نقلناه أعلاه ليس إلا بعض الجمل من بعض رجال العلم والفكر، وهناك مئات غيرهم توصلوا إلى النتيجة نفسها، وذلك حسب سعة فكرهم، ولم يجدوا أمامهم سوى إبداء الإعجاب والتقدير للقرآن الكريم. وما كان لنا أن نقول شيئا حول القرآن الكريم بجانب العديد من الأساتذة والمختصين وبجانب الكتب القيمة جدا في هذا الموضوع. ولكننا أردنا مشاركة بسيطة في هذا الأمر، وعسى أن يغفر لنا صاحب القرآن ﷻ هذه الجرأة.

ما عدد الأنبياء الذين جاءوا إلى الدنيا؟
أكانوا كلهم رجالاً؟ لماذا؟

لقد أرسل الأنبياء إلى جميع أرجاء الأرض. لا نعرف عددهم بالضبط، ولكن هنـــاك في كتب الحديث رواية أن عددهم كان ١٢٤ ألفاً،[1] وفي رواية أخرى ٢٢٤ ألفاً.[2] واستناداً إلى علم الحديث فإنه يمكن جرح جميع هذه الروايات، وسواء أكان عددهم ١٢٤ ألفـــاً أو ٢٢٤ ألفاً فليس هذا هو المهم، المهم أن الله تعالى لم يدع عهداً أو أمة دون نبيّ.

لم يُرسل الأنبياء إلى منطقة معينة، ولا إلى مجتمعات معينة، بل أرسلوا إلى مختلف البلدان وإلى مختلف المناطق والأقطار. فالنص القرآني قاطع في هذا الخصوص ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤). وهذا النص القاطع يُظهر أن كل مجتمع على سطح هذه الكرة الأرضية ظهر فيه نبي. وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥)، أي إن الله تعالى لا يحاسب أمة لم يبعث لها رسولاً ولا يعذبها، لأن ذلك لا يتلاءم مع رحمته الواسعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧-٨).

وهذا النص يبين أن عمل الخير وكذلك اقتراف الشر لن يبقى دون جزاء. ولكن بما أن الذين لم يرسل لهم الأنبياء لا يستطيعون التمييز بين الخير والشر لذا لا يمكن حسابهم وعقابهم. وبما أن الله تعالى سيحاسب على عمل الخير والشر إذن فهو قد أرسل الأنبياء لجميع الناس. وقد أبان الله تعالى حكمة هذا في قوله ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤).

وبعد إيضاح هذه القوانين الثلاثة المرتبط بعضها مع البعض الآخر في سلسلة منطقية، نودّ بيان المسألة الأساسية:

---

[1] انظر: المسند لأحمد بن حنبل، ٢٦٥/٥؛ صحيح ابن حبان، ٧٧/٢؛ المستدرك للنيسابوري، ٦٥٢/٢.
[2] انظر: تفسير روح البيان لإسماعيل حقّي البروسوي، ٣٢٣/٢، ٤٩/٦، ٢١٥/٨.

أرسل الله تعالى الأنبياء إلى جميع أنحاء الأرض وفي مختلف العهود والأدوار ولم يظهر الأنبياء -كما يتوهم البعض- في شبه جزيرة العرب فقط، والادعاء مناقض لنصوص القرآن. والحقيقة أننا لا نعرف بالضبط لا عدد الأنبياء المرسلين إلى شبه جزيرة العرب ولا الأنبياء المرسلين إلى أي قطر آخر من أقطار الدنيا. وسواء أكان عدد الأنبياء ١٢٤ ألفاً أم ٢٢٤ ألفاً فإننا لا نعرف من بينهم سوى ٢٨ نبيّاً. ومعرفتنا في حق ثلاثة من هؤلاء قاصرة وفيها شبه وعلامات استفهام. أجل فالقرآن الكريم يخبرنا عن ٢٨ نبيّاً فقط بدءً من آدم عليه السلام وانتهاء بنبيّنا محمد ﷺ، ولا نعرف في الأغلب أين ظهروا. فمثلاً يقال إن قبر آدم عليه السلام موجود في مدينة "جدة" ولكن لا نعرف مدى صحة هذا القول. فالروايات التي تتحدث عن لقاء آدم عليه السلام مع أمّنا حواء في جدة ليست روايات بلغت درجة الصحة. لذا فلا نعرف أين بدأ آدم عليه السلام حياته وأدّى وظائف نبوته.

نستطيع أن نقول إننا نعرف شيئاً أكثر حول إبراهيم عليه السلام، إذ ساح في بابل وفي الأناضول ثم ذهب إلى الشام. ونحن نظن أن النبي لوط عليه السلام أدى مهمته بين قومه عاد وثمود حول بحيرة لوط "البحر الميّت". كما نستطيع القول بأننا نعرف أن شعَيباً عليه السلام كان في مدينة "مدْيَن" وأن موسى عليه السلام نشأ في مصر.. ونستطيع القول بأن يحيى عليه السلام وزكريا عليه السلام عاشا في منطقة البحر الأبيض المتوسّط، ومن المحتمل أنهما انتقلا إلى الأناضول، فالآثار الموجودة في "أَفَس" والمتعلقة بعيسى عليه السلام وبأمه مريم عليها السلام تشير إلى هذا. ولكن جميع هذه الروايات لا ترقى إلى مرتبة الثبوت والقطعية.

وإذا استثنينا هؤلاء الأنبياء الثمانية والعشرين فإننا لا نعرف عن الأمكنة التي نشأ فيها الأنبياء الآخرون. وهكذا يتبين أننا لا نستطيع الحصول على معلومات مَوثوق بها في هذا الموضوع، ولاسيما عندما تكون آثار تلك الأديان قد اندثرت وانمحت آثار النبوة فيها، لذا يصعب معرفة مجيء نبي أو عدم مجيئه في هذه الحالات.

إذا تناولنا النصرانية مثلاً نرى أن الاجتماع الذي عقد في مدينة "إزْنِيك" غيّر العقيدة النصرانية وأعطاها وجهة جديدة، إذ غيّر عقيدة التوحيد فيها وجرها إلى عقيدة "الأقانيم الثلاثة". وهكذا تعرضت النصرانية من قِبَل أتباعها إلى أكبر خيانة. وقد تعرض الكتاب الذي جاء به المسيح عليه السلام من عند الله للتحريف.. وبينما كان الكتاب إلهيـــاً أصـــبح

بشَرياً، وبينما جاء بالتوحيد تشوه بالتثليث. فادعى البعض أن المسيح هو ابن الله –حاشا لله– وأضفوا إلى أمه الصديقة مريم صفة الألوهية. وقال آخرون أن الله تجسّد في الأجسام وحلّ فيها وبذلك اقترفوا أفظع أنواع الانحراف.

وهكذا لم يعد هناك مِن فرق كبير بين هذه النصرانية الوثنية وبين عقيدة اليونان الوثنية وآلهتها من أمثال زيوس وأفروديت. أي إن الذين قاموا بتحريف كتابهم عدّوا عظماء دينهم آلهة مثلما اعتبر اليونان عظماءهم آلهة. هكذا بدأت جميع الانحرافات في تاريخ البشرية، ثم استمرت هذه الانحرافات وانتشرت، ولو لم يذكر القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام نبي كريم وأن أمه صديقة لَكنّا ننظر إلى عيسى وأمه عليهما السلام نظرة اليونانيين إلى زيوس وأفروديت.

إذن فهناك أديان كثيرة شوّهت من قِبل الناس وحرفت فزال الجانب الإلهي منها وانمسح، لذا أصبح من الصعب جدّاً معرفة عما إذا تم إرسال نبي إلى المجتمع الفلاني أو إلى المنطقة الفلانية أو إلى القطر الفلاني أم لا. فمَن يدري فقد يكون "كونفوشيوس" نبيّاً، ونحن لا نقول هذا على وجه القطع والتأكيد. وتاريخ الأديان لا يعطي هنا ما يشفي الغليل. فالمعلومات التي يقدمها ليست إلا معلومات مبتورة ومجزأة. ولكننا نعرف من التاريخ وجود "كونفشيوس" و "بوذا" وأنهما أتيا بِدينيْن وأن أتباعهما كثيرون. ونعلم أيضا أن شذوذاً وأخطاء كبيرة موجودة في هذين الدينين، وأنهما بعيدان عن الفطرة السليمة وعن السنة الإلهية. لذا نشاهد فيهما عبادة للبقر وإحراق النفس والدخول في فترة صيام تبلغ ستة أشهر واللجوء في هذه الفترة إلى المغارات...

لذا لا يمكننا قبولهما كدِين. ولكن ربما كانا في السابق دينين حقين ثم أصابهما التحريف والتبديل والتغيير كما حدث للمسيحية.

لو لم يقم المسلمون بالحفاظ على منابع دينهم بكل حساسية واهتمام لكانت العاقبة نفسها في انتظار الدين الإسلامي. ولا نستطيع أن ننفي وجود محاولات من هذا القبيل في الماضي والحاضر. فهناك مسلمون يحاولون عن قصد أو عن غفلة عمل الشيء نفسه عن طريق التأويل أو التلفيق. فمثلاً اعتقاد الشخص أنه مع شربه الخمر وتورّطه في الزنا لا يزال يعيش الإسلام كما يجب مثال على التخريب المشاهد في الحياة العملية. وقس

على ذلك السرقة والقمار وأكل الربا.

لا نستطيع أن نقول أن "كونفوشيوس" كان نبياً، لأن إسناد النبوة إلى غير نبي كفر يماثل الكفر الناشئ من إنكار نبوة نبي. وما قلناه بخصوص "كونفوشيوس" وبلده وارد بالنسبة لأوروبا أيضا، ولكننا لسنا متأكدين لأننا لا نعلم شيئاً.

هناك أقوال حول "سقراط" ولكن حياته لم تنتقل إلينا بشكل كامل، فهل كان فَيلسوفاً تأثر باليهودية، أم كان رجل فكر آخر؟ لا نعلم شيئاً أكيداً. فبعض المفكرين يرونه فيلسوفاً متأثراً بالفكر اليهودي. ولكن الوثائق التاريخية لا تعطي مثل هذا الانطباع عنه. يقول سقراط –حسبما ينقله لنا أفلاطون– عن نفسه:

"يتراءى أمام عيني بعض الأشياء –قد تكون خيالات– وهي تلقّنني بعض الأمور لإرشاد البشرية. وكنت أعلم وأنا بعد صبي بأنني مكلّف بإرشاد الإنسانية وتوجيهها نحو الله". فإذا كان ما جاء في كلامه شيئاً من الحق فإنه كان يعد نبيا للمجتمع الأوروبي القريب من العقل والفلسفة. ولكن يجب الانتباه هنا، فإننا لا نقول إن سقراط كان نبياً، لأنه لو لم يكن نبياً لكان قولنا هذا كفراً، ولكننا نقول من المحتمل أنه كان نبياً.

وكما جاء في بعض الأحاديث فإن عدد الأنبياء هو ١٢٤ ألفاً أو ٢٢٤ ألفاً، ولكننا لا نعرف أين ظهر كل واحد منهم هذا عدا أربعة منهم. ونبينا محمد ﷺ الصادق الأمين يخبرنا بأن هؤلاء الأنبياء ظهروا في كل مكان. وبناءً على أخبار الصادق ﷺ فإننا سنشير إلى بعض الأمارات الدالة على ظهور الأنبياء –الذين لا نعرف عددهم بالضبط ولا أين ظهروا– في مختلف أنحاء العالم.

الأمارة الأولى أقدمها من أستاذ الرياضيات عادل زينل الأستاذ في جامعة الرياض وهو من أهالي كركوك في العراق ودرس في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ ذكر لي: "عندما كنت أتابع دراستي العليا في الولايات المتحدة الأمريكية كنت أختلط بالسكان الأصليين وبالزنوج. وكنت أفاجأ في الشعائر الدينية لهذه القبائل بأسس تطابق أسس العقائد عندنا. فمثلاً كانوا يقولون إن الله لا شريك له، ذلك لأنه إن وجد إلهان اضطربت الإدارة". وهذا يطابق الآية الكريمة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢).

فلو لم يقم نبي من الأنبياء بإخبارهم بهذا لَما كان في مقدور الزنوج التوصّل إلى هذه الحقيقة. كما كان هؤلاء الزنوج يقولون: "إن الله واحد لا يلد ولا يولد". وهذا لا يكون إلاّ نتيجة ذهن متفتح. ذلك لأن الولادة خاصية بشرية وتأتي من حاجتها إليها. والله تعالى في غنًى عنها. فلو لم يقم نبي بتعليم وتبليغ هذا الأمر فأنى لهم إدراك هذا؟ لذا فمن المستحيل وجود مثل هذه العقائد الرفيعة والعميقة إلا في أمم متحضرة ومتعلمة وليست في قبائل بدائية لا تزال تقوم بأداء الرقصات حول النيران، أو تقوم بذبح الشيوخ والمعمرين وأكل لحومهم. والاحتمال الوحيد هو أن نبيّاً من الأنبياء أوصل لهم هذه الحقائق.

ثم هناك المفكر الدكتور مصطفى محمود الذي كان ملحداً ويتبنى الفلسفة المادية وهي "موضة" عصرنا، ولكن ما أن درس الإسلام عن قرب وتفحص دقائقه حتى بدل وجهته تماماً. يسرد هذا المفكر ملاحظاته حول إحدى سفراته في أفريقيا فيقول إنه وصل إلى قبائل "الماوماو" و"النيام نيام" وأنه سألهم عن عقيدتهم فقالوا إننا نؤمن بمعبود موجود في السماء ولكنه يدير مَن في الأرض. صحيح أن الله لا يأخذه حيز كالسماء إلا أنه كما ذكرت الآية: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:٥) فإن الأوامر الإلهية وأحكامه تأتي من السماء، لذا نرفع أيدينا عند الدعاء نحو السماء. ورأيت أنهم يذكرون ويؤمنون بخلاصة معاني سورة "الإخلاص" إذ يعتقدون أن "كل شيء يستند إلى الله ﷻ، وأنه لا يستند إلى أي شيء، وأنه لم يولد من أب وأم وأنه لا ند ولا مثيل له". وذهبتُ إلى قبيلة أخرى فرأيت أن هؤلاء الوحوش على الرغم من استمرارهم على عادة ذبح الشيوخ والمرضى وأكل لحومهم إلا أنهم يؤمنون بالله بعقيدة قريبة من عقيدة التوحيد التي يعلّمنا القرآن. فلو لم تكن هذه العقائد مبلّغة إليهم من قِبل نبي لاستحال عليهم التوصل إليها بأنفسهم. أجل لقد قام أحد الأنبياء بتبليغ ونشر هذه العقيدة التي انتقلت من ثم من الأجداد والآباء إلى الأبناء حتى عصرنا الحالي. إذن فالقرآن الكريم وحقائق التاريخ والواقع كلها تشير إلى أن الأنبياء -وإن كنا لا نعرف عددهم بالضبط- ظهروا في كل أنحاء الأرض.

وبالنسبة لظهور الأنبياء من النساء أو عدم ظهورهن فإن علماء وفقهاء أهل السنة والجماعة وجمهور المحدّثين يقولون بعدم ظهور نبية. والروايات الواردة بنبوة مريم وآسيا

عليهما السلام روايات شاذة وغير قوية. والنتيجة المستخلصة هنا حول هذا الموضوع هو عدم وجود حكم قطعي حول ظهور أنبياء من النساء. ثم إن عدم مجيء نبية لا يعد نقصاً، فالله تعالى خلق الأشياء كلها على أساس الموجب (+) والسالب (−). فالأشياء المتشابهة تتنافر، وفي أجزاء الذرة لولا وجود قوة كبيرة تمسك هذه الأجزاء لكان من المفروض أن تتنافر الأجزاء المتشابهة. وهذا القانون نراه جارياً اعتباراً من أجزاء الذرة ووصولاً إلى المجرات. أما الإنسان المتألف من ذرات فهو عنصر توازن بين العالم الصغير (الذرة) وبين العالم الكبير (الكون)، فيتبع القانون نفسه. أي يجب أن يكون فيه زوجان مختلفان اثنان لكي يتم التجاذب بينهما. فالضعف والحنان من أحدهما والقوة من الآخر هو الذي أدى إلى تآلفهما وتكوينهما العائلة.

إن تحويل المرأة إلى رجل، أي صنع امرأة مسترجلة لم يعد اليوم يقابل إلا بالسخرية أو بالامتعاض. وبعد أن أخرجوا المرأة من أنوثتها وجعلوها مسترجلة بدأت المرأة تخاصم الرجل، ففقدت العائلة رئيسها وطمأنينتها، وفقد الأبناء جو العائلة، لأنهم وضعوا في المحاضن وفي دور رعاية الأطفال. أما الأباء والأمهات فهم في جو آخر يركضون وراء متعهم.

هذا القانون الإلهي العام في خصوص المرأة يتجلى أيضا في موضوع "هل يمكن أن تأتي نبية أم لا؟". ثم إن المرأة تلد. ولو كان الرجل يلد أيضا لكان من الضروري عدم مجيء نبي من بين الرجال. لأنه سيعجز عن أداء واجب النبوة ما يقرب من ١٥ يوماً في الشهر بسبب الحيض ويعجز عن الصوم والصلاة والإمامة، أضِف إلى ذلك مدة النِّفاس... أما في فترة الحمل فإن أداء وظائف النبوة سيكون أصعب، لأنه سيستحيل عند ذلك الاشتراك في المعارك وفي الحضن أو في البطن طفل، ويصعب وضع الخطط العسكرية والإدارية في هذه الحالة من الوضع الجسدي، بينما يجب على النبي أن يكون في الصف الأول في المعارك.

كل هذه الأمور جعلت من المستحيل ظهور نبية من بين النساء. وكل هذه الموانع الجسدية والوظيفية لدى المرأة تجعلها قاصرة في عبادتها بسبب كونها أمًّا تلد وتعتني برضيعها. بينما النبي شخص يُقتدى به ومرشد كامل يُسترشد به وإمام وقائد. أما ما يخص النساء من أمور فإن نساء النبي يكن مصدر التبليغ والإرشاد والتعليم.

بما أن الله لا يحتاج إلى عبادتنا فلماذا لا نقوم بعباداتنا كما يحلو لنا؟

إن عبادة الله تعالى فعْل مترتب على معرفته ﷻ، أي إن الإنسان يشاهد لوحات الجمال في هذا الكون ودلائل النظام فيه. وهكذا يتنقل هذا الإنسان من هذا النظام إلى واضع هذا النظام. ومَن يتأمل هذا الكون بدقّة وإمعان يرى أنه ما من شيء فيه وضع عبثاً أو دون نظام أو دون غاية، لذا يرى أن عليه أيضا أن يتحرك ضمن هذا النظام.

كذلك إن نظر إلى الوجود من زاوية الجمال يرى جمالاً مُذهلاً وخارقاً بحيث لا يستطيع تخيل جمال أعظم منه. فمن جمال وجه الإنسان إلى جمال الأرض إلى جمال السماء وجمال النجوم. وأمام مثل هذا الجمال الرائع الذي يأخذ بألباب الإنسان ويسحر قلبه، لا يمكن ألا يعرف ويرى وراءه صاحب كل هذا الوجود والجمال ومالكه.

وسواء أكان هذا تأملاً آفاقيا أم تأملا أنفسيا[1] فإنه يملأ نفس الإنسان وروحه بالنشوة والفرح والإثارة مثل طفل صغير يريد أن يثب ويقفز ويطلق صرخات الفرح كلما رأى أجمل الأسماء (الأسماء الحسنى) وهي تلمع مثل فراشات مضيئة فوق أجمل الأعمال والإجراءات والتقديرات، فلا يملك الإنسان نفسه من الإعجاب والتقدير والتبجيل لهذه الصفات التي هي منبع كل خير وجمال، ويكاد الإنسان أمام صاحب كل الوجود أن يغيب عن وعيه من الذهول والإجلال.

ويبدو كل شيء في الكون من زاوية أخرى وكأنه هيئ وحُضّر في مكان آخر ثم عُرض لخدمة الإنسان. فهناك نعم مقدمة له في علب محفوظة أو على شكل ثمار وفواكه حتى بدت الأرض وكأنها مائدة عامرة بكل الأصناف. وعندما يمد الإنسان يده لهذه النعم يحس بالصاحب الحقيقي لها، ويجد من هذا الإحساس إعجاباً واندهاشاً ولذة أخرى. فلو عقل الطفل وهو يمص ثدي أمه -منبع الرحمة له- لأحس أن مثل هذا الغذاء المفيد جدّاً له كأنه مقدم لنجدته من عالم آخر، ولأحس أن هناك وراء مظاهر الأحداث جميعها مُنعماً ورزّاقاً كريماً، ولكان عليه آنذاك أن ينحني تعظيماً وتبجيلاً له.

---

[1] إشارة إلى الآية الكريمة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

أجل! كل نعمة وكل إحسان يدل من جهة على صاحب هذه النعمة وهذا الإحسان، ويسوق إلى إجلاله وتوقيره من جهة أخرى. فأينما شاهدنا نعمة أو جمالاً أو نظاماً يجب أن تكون هناك عبودية تجاه صاحب هذه النعم والجمال والنظام. أي متى ما جعلنا الله تعالى نحس بوجوده، علينا أن نقابله بالعبودية فوراً. وانطلاقاً من هذه النقطة يقول المعتزلة وكذلك الماتريدية على نحو من الأنحاء بأنه لو لم يُرسل أي نبي، ولو لم يقم أي مرشد بإرشاد الإنسانية إلى الله لكانت الآيات والأدلة التي يزخر بها الكون كافية لتوجيه الإنسان إلى الله، ولكان الإنسان مكلفاً آنذاك بمعرفة الله والسلوك حسبما تقتضيه هذه المعرفة. ويمكن إيراد أمثلة عديدة على وجهة نظر الماتريديين. فمثلاً نرى أن بعض المعاصرين للرسول ﷺ على الرغم من أنهم نشأوا بجوار الكعبة المملوءة آنذاك بالأصنام والأوثان وعلى الرغم من عدم قيام أحد بتلقينهم حقائق التوحيد، فإنهم كانوا يحسون إحساس ذلك البدوي كما جاء في الرواية:

«قيل لأعرابي: بم عرفتَ ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير وآثار الأقدام تدل على المسير... فسَماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما يدل على العليم القدير؟!»[1]

هذا ما كان يقوله ذلك البدوي الذي لم يكن يرى في الصحراء سوى الرمال الممتدة أمامه، فكيف بغيره إذن؟!. جاء رسولنا بمفهوم سامٍ لإنقاذ البشرية. ولو جاز التعبير لقلنا إنه كان إنسانا فوق الإنسان. فقد وصل إلى إدراك المعنَى الحقيقي للكون قبل نبوته وحدس وجود الله تعالى وبدأ بالبحث والتأمّل في غار "حراء" والتحنث (أي التعبد) فيه.

ففي رواية وردت في صحيح البخاري عن أمّنا خديجة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ كان يتعبد في غار "حراء" وأنه لم يكن ينـــزل إلى مكة إلا للتزود بالزاد.[2] وهذا يدل على أن الإنسان يستطيع بإدراكه اكتشاف بعض الأشياء ثم -على نحو من الأنحاء- مظاهر العبودية لله تعالى.

---

[1] نفح الطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني، ٢٨٩/٥؛ روح المعاني للآلوسي، ٦٢/٢٦؛ زاد المسير لابن القيم الجوزي، ٣٦٢/١.

[2] البخاري، بدء الوحي ١؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢؛ الترمذي، المناقب ١٣.

كما أن ما قاله زيد بن عمرو بن نفيل وهو على فراش الموت يستحق التأمل. كان زيد عم عمر بن الخطاب ﷺ وقبيل وفاته استدعى جميع أفراد عائلته وجَمَعهم حوله وأخبرهم بما يعلمه عن صفات النبي المرتَقب الظهور. ولم يقدَّر له أن يرى رسولنا ﷺ، أي أنه قاد فرسه حتى الشاطئ، ولكنه لم يتيسر له ركوب سفينة الإسلام، غير أنه أحسّ بكل روحه بجوّ رسولنا ﷺ وحدس الحقيقة الأحمدية بكل جوارحه، ولكنه لم يستطع أن يطلق اسماً على ما أحسه. «عن عامر بن ربيعة قال سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيّا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه وأنا أُومن به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ... فإن طالتْ بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام (...) قال عامر بن ربيعة فلما أسلمتُ أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وإقرائه منه السلام، فردّ عليه السَّلامَ وترحم عليه».[1] وكان يقول: «اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحلته».[2] وهكذا يظهر أن هذا الضمير النقي لو لم يكن في مجتمع وثني لاستطاع بتأمل هذا الكون والنظام الموجود فيه الوصول إلى أداء وظائف العبودية لله تعالى.

إذن فبجانب معرفة الله تعالى تبدأ العبودية فوراً بعد هذه المعرفة. أجل! فما دام يوجد هناك من ينعم علينا بكل هذه النعم إذن فالعبودية موجودة أيضا. لذا فقد وضع الله تعالى في فطرة الإنسان وفي قلب الإنسان شعوراً بالعبودية وإحساساً بها. أي كما قال زيد: «اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم!».[3] والوحي السماوي هو الذي يستطيع تعيين وبيان الشكل الصحيح للعبودية ويحول بذلك دون انحرافها بل بقائها ضمن إطار الأوامر الإلهية. أي إن الله تعالى يقول إنني أنا الله وأنت عبدي، عرفتني من النعم التي أنعمتها عليك، وأنا سأعلّمك آداب العبودية التي تستطيع بها الحضور تجاهي. تتوضأ أولاً ثم لكي تناضل نفسك تذكر أن الله ﷻ هو الأكبر وأن كل شيء آخر صغير وضعيف، ثم تعقد يديك أمامك علامة الخضوع ثم

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٤٠.
[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٣٧.
[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٣٧.

تحاول أن تتعمق قدر استطاعتك في الفهم فتظهر عندك الرغبة في سمو روحك إلى المكان الذي عرج إليه سيد الأنبياء، ثم تركع شاكراً، وكلما انحنيت في الركوع وَصَلْتَ إلى أبعاد أخرى، ثم تنتقل إلى السجود لتَصِل إلى أعماق من التواضع، وتقوم وتأخذ نفَساً لكي تعيد السجود مرة ثانية حيث تكثر من الدعاء فيه لأن «أَقربُ ما يكون العبْدَ مِن ربِّه وهو ساجدٌ».[1] وتتذكر فيه الآية الكريمة: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء:٢١٩) أي يرى تواجدك بين الساجدين. وبقدر انسجامك وامتزاجك في جو السجود وقابليتك يكون مستوى ارتفاعك في درجة المعراج الذي هو الغاية من الصلاة.

إذن فالعبادة هي الإيمان بالله وحصول المعرفة بخصوص الذات الإلهية ثم القيام بالعبودية إزاء هذه المعرفة في جو المحبة والإجلال وتحت ظل من إرشاد الله تعالى وحسب أوامره.

أكون بهذا قد شرحت وجهاً من أوجه هذه المسألة. أي إننا أمام معرفة ربنا يجب ألا نتصرف بطيش وألا نعمل أعمالاً غير مناسبة، بل نتبع الأنوار التي شعها النبي ﷺ في ظل إرشاد الآيات البينات ونبحث دائماً عن الرضا الإلهي.

وإذا أتينا إلى المسألة الثانية فإننا نقول بأن الإنسان يحتاج دائماً في جميع الساحات – سواء أكانت ساحة تجارية أو علمية أو فنّية أو زراعية أو صناعية– إلى مرشد وإلى تعلم كثير من الأمور منه. ولنفرض مثلاً أن لكل واحد منكم عملاً، فأحدكم يملك مصنعاً للنسيج والآخر يعمل في تصنيع البلاستيك، والآخر له معرض للتحف... ولنفرض أن هناك شخصا يريد مصلحتنا ويريد ألا نتعرض للخداع، ولكونه يعرف الأصول والأساليب التجارية فهو يريد منا أن ننجز أعمالنا بشكل جيد، لذا يجمعنا ويقف أمامنا ليقول لنا: "أنتم تستطيعون تنفيذ هذا العمل، لأن هذا العمل ضرورة من جهة وحاجة من جهة أخرى. ولكن لكي تنفذوا هذا العمل بشكل جيد، عليكم أن تستعملوا العنصر البشَري وعنصر الرّأْسمال استعمالاً جيداً وتتخذوا تدابير الاقتصاد وعدم الإسراف وكذلك الإهتمام بكذا وكذا من الأمور..."

---

[1] مسلم، الصلاة ٤٢؛ أبو داود، الصلاة ١٥٢.

والآن إن كانت لدينا ذرة من الإنصاف فإننا سنهتمّ بما يقوله هذا الشخص الذي لا يرمي من وراء إرشاده أي منفعة له، ونستمع إلى نصائحه وندقق تقاريره بكل اهتمام، وننظم أمورنا حسب إرشاداته. ومثيل هذا فإننا لا نتصرف في عباداتنا وطاعاتنا لله تعالى حسب أهوائنا ورغباتنا، بل حسب النظم والقوالب والأشكال -التي توجد في كل منها روح العروج والسمو- التي يرشدنا إليها خالقنا ومعبودنا. وهكذا تحصل البركة في عباداتنا، وتكون كمثل سنبلة أنبتتْ سبْع سنابل. فمن يدري لعلنا نلمس الزر الذي يفتح أمامنا أبواب الرحمة الإلهية عندما نقول "الله أكبر"، ولعل أرواحنا تنفتح أمامها أبواب الإلهام آنذاك. ومن يدري فلعلّنا عندما نقرأ سورة الفاتحة نستعمل مفتاحاً سرّيّاً لفتح قفْل ذي شفرات سرّية. ومن يدري أي أبواب سرية تنفتح أمامنا في كل ركن من أركان الصلاة التي نؤدّيها.

أجل! نستطيع القول إن الطرق جميعها ستنتظم وتستقيم وتنفتح جميع الأبواب حينما نسجد، وإن أَدْعِيَتَنا سترتفع إلى مقام الألوهية وسنحاط آنذاك بالملائكة الكرام.. ومن يستطيع أن ينكر حدوث كل هذا؟ إن المخبِر الصادق ﷺ يخبرنا ببيانه البليغ النوراني حدوث كل هذا. إذن فإن أفضل شكل للعبادة هو الشكل الذي عرّفه لنا ربّنا. ذلك لأن الله تعالى الذي خلق ماكينة الإنسان أَدرَى كيف يمكن أن تشتغل هذه الماكنة، وهو أدرى كيف يمكن استحصال أفضل ثمرة منها سواء في سبيل الحياة الدنيا أو في الآخرة. إذن فمن خلق وصنع هذه الماكنة وهذا المعمل عمل "كَتَلُوكاً" لها ووضعه في موضع منها. إذن يجب أن يؤخذ هذا الكَتَلُوك بنظر الاعتبار إن كان المطلوب إدارة هذه الماكنة إدارة عقلية وصحيحة. إذن فإن العبادة لا تؤدَّى كيفما اتفق، بل ضمن إطار إرشادات وتعليمات رسولنا ﷺ. وعندئذ تتم العبادة في أفضل صورها. وهذه نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على أمة محمد ﷺ. لذا نقول إن هذا من فضل ربنا. ونحن ندعو الله تعالى بدعاء رسولنا الكريم سائلين ألا يكِلَنا إلى أنفسنا طرفة عين.[1]

---

[1] «اللهم رَحمَتَك أرجُو فلاَ تَكِلْني إلى نفْسي طَرفةَ عَينٍ». (أبو داؤد، الأدب ١١٠؛ المسند للإمام أحمد، ٤٢/٥؛ المستدرك للحاكم النيسابوري ٧٣٠/١.

ماذا يكون وضع من ولد في أحد البلدان الأجنبية، يوم القيامة؟

هذا السؤال هو أحد الأسئلة التي طرحت في السابق ولا تزال تطرح الآن. وأعتقد أنه يطرح لإثارة النقاش، أي يقولون إننا سندخل الجنة لأننا نؤمن بالله وبرسوله، ولكن أيدخل الآخرون الذين ولدوا في بلدان بعيدة عن العالم الإسلامي كباريس ولندن وموسْكو، ولم تتيسر لهم الأمكانيات التي تيسرت لنا ولم يصلهم النور الذي وصل إلينا؟ أيدخل كل هؤلاء إلى جهنم؟

مثل هذا السؤال يحمل أمرين: الأول إظهار رحمة أكثر من الرحمة الإلهية. والثاني، عرض نقد خفي ضد الإسلام.

نقول أولاً إنه خلافاً للعقيدة الشائعة لا توجد قاعدة أو حكم عام يقول إن جميع هؤلاء سيذهبون إلى جهنم. ولكن القاعدة الأصلية هي كما يأتي: إن الذين سمعوا بدعوة رسولنا ﷺ وشاهدوا النور الذي جاء به، ولكنهم أبَوا وعاندوا وسدوا آذانهم دون هذه الدعوة.. مثل هؤلاء سيذهبون إلى جهنم دون شك. ومن الحماقة هنا التظاهر برحمة أكثر من الرحمة الإلهية. ولا ينطبق هذا على الذين يعيشون في البلدان الأجنبية، بل ينطبق هذا الأمر على الذين يعيشون في بلادنا، فمن لم يتبع النور الذي أتى به الرسول ﷺ بل أدار ظهره له وخالفه فإن مصيره أيضا إلى جهنم وعاقبته هي الخسران المبين. ونحن نأمل من الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء أن يجعلنا من أتباعه ﷺ ومن السائرين خلفه في هذا العصر الذي كثر فيه الجاحدون.

لقد تم تناول هذا الموضوع من قِبل علماء الكلام الذين صرفوا جهودهم لإيضاح ما جاء في القرآن وفي السنة النبوية إيضاحاً عقلياً ومنطقياً وفلسفياً وتأييده وتقويته عن طريق الفكر، وتم تحليله مفصّلاً. أجل فهل سيكون مصير الذين لم يجدوا فرصة الاستجابة للرسول ﷺ، مثل مصير الذين سمعوا به ورفضوه وعاندوه؟ أم هناك فرق بين هاتين الفئتين؟

ويخطر على البال أيضا أسئلة عديدة: فهل يستحق مثل هذه الأسئلة اهتماماً منا

بجانب المسائل والمشاكل المهمة التي نعانيها الآن؟ وهل العثور على أجوبة لمثل هذه الأسئلة سيفيدنا في حياتنا الأخروية؟ وهل هناك فائدة حقيقية في حياتنا العملية؟ ولماذا صرف أئمة المذاهب جهوداً كبيرة حول هذه المسائل وهذه الأسئلة؟

والآن لنتناول قبل كل شيء وجهات نظر علماء العقائد حول هذا الموضوع الذي يثير معه كثيراً من الأسئلة.

يقول المذهب الأشعري -الذي هو أحد المذهبين المعتبرين للعقيدة في مذهب أهل السنة- بأن من عاش و لم يسمع شيئاً عن الله تعالى و لم يبلغه شيء عنه فإنه يعد من أهل "الفترة" أي من أهل النجاة أينما عاش وفي أي زمن عاش وكيفما عاش. فإذا كنتم لم تحملوا دعوة الرسول ﷺ إلى أقاصي الأرض وإلى كل أنحاء العالم، فإن الأشعري يقول إن أهل البلاد التي لم تصلها دعوة الرسول ﷺ سيكونون من أهل النجاة وإن الله تعالى سيكافئهم على نحوٍ ما وسيدخلهم جنته.

أما إن جئنا إلى أصحاب المذهب الماتريدي فنراهم في خط مواز للمعتزلة حيث يقولون إن الإنسان إن توصل بفكره وعقله إلى الله تعالى -ولا يهم أي اسم أطلقه عليه- سينجو يوم القيامة. ولكن إن لم يصل بعقله إلى الله تعالى فلن يكون من أهل النجاة.

ومع أن هاتين النظرتين ليستا متطابقتين، إلا أن الفرق بينهما قليل لأن الماتريدي يرى أن الإنسان حيثما كان سواء في الجبل أو السهل أو الصحراء يرى حواليه آيات ودلائل عديدة تشير إلى الخالق اعتباراً من طلوع الشمس والقمر وغروبهما، ومن لَمَعان النجوم في السماء، والأرض المزينة بأنواع الزينة، والجبال وهيبتها، والسهول والوديان التي تجري فيها جداول المياه... منظر الأشجار والأعشاب... بسمة الأزهار والورود... كل هذه المناظر آيات تشير وتدل على الخالق تعالى بلسان بليغ. وكل من به مسكة من عقل سيرى وراء مظاهر هذا الجمال يداً خفية، لذا سيتوصل إلى أنه لا بد من وجود خالق. ومثل هذا الشخص يكون من أهل النجاة وإن لم يعرف صفات الله تعالى ورسله وأنبياءه.

لذا ليس من الصحيح أن نبادر بالقول دون تثبت حول الناس الذين يعيشون في البلاد الأخرى "إنهم لم يؤمنوا، لذا فهم من أصحاب النار". ليس هذا صحيحاً، بل لا

يجوز أصلاً. ذلك لأن وجهات نظر أئمة المذاهب لا تسمح بهذا، وهي تدعونا إلى السكوت والصمت في أقل تقدير.

أما الإمام الأشعري فينطلق في وجهة نظره من الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الاسراء:١٥) وآيات أخرى مثلها. أجل، فالقرآن يقول بأن الله ﷻ لا يعذّب أمة لم ترَ رسولاً. إذن فالذين لم يروا نبيّاً و لم يسمعوا به، لا يُعذبون.[1]

يرى الإمام الماتريدي أن العقل يستطيع التمييز بين الحسن وبين القبيح وهو مقياس مهم في هذا الأمر. ويستطيع أن يقول الإنسان اعتماداً على عقله إن هذا حسن وهذا قبيح... صحيح أن الزعم بأن العقل يستطيع الوصول إلى حدس وإدراك كل شيء زعم باطل، ولهذا أَمَر الله تعالى بالخير ونَهَى عن الشرور، و لم يدع هذا الأمر المهم إلى العقل الذي يحتمل سَهْوه وقصوره، بل نظم هذا الأمر بالوحي وبينه ووضحه بوساطة أنبيائه ورسله و لم يدع أي شيء مبهَماً أو غامضاً.

إن العقل –حسب المذهب الماتريدي– يستطيع حدس قبح الزنا، لأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب وضياعها. فمن يأخذ المواريث؟ فإذا لم تحافِظ المرأة على عفّتها، وإذا كان أطفالها مجهولي النسب فمن يأخذ ميراث من؟ إذن يستطيع العقل الوصول إلى أن الزنا قبيح. كذلك يستطيع العقل التوصل إلى أن السرقة شيء قبيح أيضا، لأن من القبح قيام شخص بأخذ مال شخص تعب وشقي في سبيل الحصول عليه. ويستطيع العقل حدس قبح الخمر والمسكرات، لأنها تزيل العقل وتسبب نتائج ضارة وسلبية في النسل وتؤدي إلى أمراض وعلل مختلفة. ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة لأمور أخرى كذلك.[2]

والأمر نفسه وارد بالنسبة للأشياء الحسنة. فالعدالة حسنة والإحسان إلى الآخرين ومساعدتهم شيء حسن وجميل، ويمكن للعقل أن يحدس هذه الأمور. والقرآن والسنة

---

[1] مقالات الإسلاميين للأشعري، ص ١٢٧؛ الأصول لفخر الإسلام البزدوي، ١٣٥٠/٤–١٣٥١؛ التبصير في الدين للإسفراييني، ص ١٧٠–١٧١؛ أصول الدين لعبد القادر البغدادي، ص ٢٤–٢٥؛ بحر الكلام للنسفي، ص ٨؛ جمع الجوامع لتاج الدين السبكي، ٦١/١–٦٣؛ مسالك الحنفاء في والدي المصطفى، ص ١–٢، ١٢–١٣، ١٦–١٨.

[2] أصول الدين للبزدوي، ص ٢٠٧؛ تبصرة الأدلة للنسفي، ٤٥٣/١–٤٥٧؛ المسايرة في علم الكلام لابن الهمام، ص ١٦٥–١٦٦؛ إشارات المرام لبيازيزاده، ص ٧٤–٨٢.

النبوية أوضحتْ هذه الأمور وأمرت بها وبينتها وأنقذتنا من الزلل والخطأ في مثل هذه المواضيع.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإيمان بالله فهو شيء جميل، لأن الإنسان يصل به إلى الاطمئنان النفسي فيعيش حياته في سعادة ويذوق جزءً من سعادة الآخرة وهو في الدنيا. كما يمكن حدس الطريق الموصل إلى الايمان بالعقل والمنطق، لذا نرى أن بدَوِيّاً في الصحراء أحس بذلك، وعندما حضر إلى مجلس النبي ﷺ وسُئل كيف عرف ربَّه قال: «البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير وآثار الأقدام تدل على المسير... فسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما يدل على العليم القدير؟!»[1]

إذن فحتى بدويّ بسيط وراعي إبل استطاع بعقله التوصل إلى وجود ذات يملك جميع الأشياء في قبضته ويعلم كل شيء. إذن فلا يستطيع إهمال دور العقل في موضوع الإيمان إهمالاً كليّاً.

وانطلاقاً من هذه النقطة قال الماتريدي: "إن الإنسان يستطيع بعقله الوصول إلى ربه". والدليل على هذا هو أن الكثيرين أحسّوا بهذا في عهد الجاهلية وفي عهد "الفترة". فمَن هؤلاء: "ورقة بن نَوفل" الذي كان ابن عم والدتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها. وحينما شاهد رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام على صورته الحقيقية وهو يسدّ المشرق والمغرب جفل وأسرع إلى أمّنا خديجة يخبرها بما رأى، فذهبت به أمّنا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل[2] الذي كان قد ترك الأوثان والأصنام، لأنه أحس بأنها لا تضر ولا تنفع وتوصّل بعقله إلى الله تعالى.[3]

---

[1] نفح الطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني، ٢٨٩/٥؛ روح المعاني للآلوسي، ٦٢/٢٦؛ زاد المسير لابن القيم الجوزي، ٣٦٢/١.

[2] البخاري، بدء الوحي ٣، التعبير ١؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣١٢/١، ١٩٨/٤، ٢٢٣/٦، ٢٣٣.

[3] عن محمد بن إسحق قال: وكانت قريش حين رفعوا بنيان الكعبة وسقوفها يترافدون على كسوتها كل عام، تعظيماً لحقها، وكانوا يطوفون بها، ويستغفرون الله عندها، ويذكرونه مع تعظيم الأوثان والشرك في ذبائحهم ودينهم كله، وقد كان نفر من قريش: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جحش بن رئاب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم حليف بني أمية، حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا

ومن هؤلاء "زيد بن عمرو بن نفيل"، كان الخطاب (والد عمر بن الخطاب ﷺ) عمّه وأخاه لأمه. «كان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم»[1]، ويروى عنه بأنه قال في عبادة الأوثان: «فلا العزّى أدين ولا ابنتيها * ولا صنمَي بني عمرو أزور».[2] لم يكن النبي ﷺ قد أعلن نبوته بعد، ولكن زيد بن عمرو كان يحدس قرب مجيء نبي جديد ودين جديد. «عن عامر بن ربيعة قال سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيّا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه وأنا أُومن به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ... فإن طالتْ بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام».[3] كان زيد بن عامر يؤمن بخالق لا يستطيع معرفته، وكان يقول: «اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحلته».[4]

لذا فحتى بمثل هذا التفكير البسيط كان باستطاعة الجميع تقريباً التوصل إلى وجود خالق مالك للسموات والأرض. كان زيد بن عامر وورقة بن نوفل قد فتحا كوة صغيرة في قلوب أقربائهما. لذا نرى أن سيد الأنبياء عندما بدأ بدعوته اختار من هؤلاء أفضل المؤيدين والمؤمنين به، وأحال العقل والمنطق إلى يد الوحي لينطلق به نحو آفاق لا يحدها البصر.

والآن لنعد ونكرر السؤال من جديد: أيذهب إلى جهنم حالاً كل من ولد خارج الديار الإسلامية؟ أجل، من سمع بالقرآن وشاهد نبوة رسولنا ﷺ ولم يحس بحاجة للبحث عن صحة هذه النبوة ولم يبذل أي جهد في هذا السبيل مصيره هو النار. ولكن الذين لم تتيسر لهم حتى مثل هذه الفرصة ونشأ في الظلام وبقي في الظلام طوال حياته، فإننا نأمل أن يستفيدوا من رحمة الله الواسعة فلا يلاموا ولا يؤاخَذوا بشيء.

بعض أولئك النفر إلى بعض، قالوا: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقال قائلهم: تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين إبراهيم عليه السلام وخالفوه، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها، الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. (السيرة النبوية لابن إسحاق، ص٣٢)

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٣٧.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٤٢.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٤٠.

[4] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٣٧.

واسمحوا لي بتناول جانب آخر من المسألة لكونه متعلقاً بنا. لقد قام المسلمون الأوائل الذين مثّلوا الإسلام خير تمثيل بإيصال رسالة رسولنا ﷺ إلى جميع أنحاء الأرض وإلى أقاصي العالم، فأضاءوا القلوب بنور الإسلام. وعندما نقرأ الآن مناقبهم نشعر بالروح العالية التي كانوا يتحلون بها وهم ينقلون رسالة النبوة إلى العالم أجمع. و لم يكن من المتوقع بقاء الإنسانية في حالة تفرج ولامبالاة. فهؤلاء الأبطال الذين لم يكونوا يخشون أحداً استطاعوا فتح قلوب الناس جميعاً. لقد صاحوا صيحة مدوية بحيث لم يبق هناك في أرجاء العالم من لم يسمع هذه الصيحة.

أجل، لقد مثلوا الإسلام أفضل تمثيل وأناروا العالم بنور الإسلام فلم تبق هناك بقعة مظلمة لم يصلها هذا النور. ثم إن الإنسان ليذهل من سرعة أدائهم لهذه المهمة، ومن سرعة حركتهم ومن مستواهم الرفيع في تمثيل الإسلام وتمثيل رسالة القرآن التي نشروها من خليج السبت إلى بحيرة "آرال"، ومن الأناضول إلى سد الصين.

أجل، لقد وصل الإسلام في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الصين، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استطاع القائد عقبة بن نافع الوصول حتى برج هرقل، ودخل البرابرة جميعاً -أي ممالك المغرب وتونس والجزائر- تحت ظل الإسلام وإمرته. لقد تم هذا في ظرف ثلاثين سنة تقريباً. ففي ظرف هذه السنوات الثلاثين أضاءوا بنور الإسلام أنحاء العالم جميعاً، لأنهم كانوا يمثلون الإسلام أفضل تمثيل، لذا كسبوا قلوب جميع الشعوب إلى درجة أن النصارى واليهود كانوا يفضلونهم على أبناء دينهم.

وعندما ذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مدينة القدس وذهب أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى الشام استقبلوا بكل مودة إلى درجة أن المسلمين عندما اضطروا للانسحاب من مدينة دمشق لجأ النصارى ورهبانهم إلى الكنائس داعين من الله جل جلاله برجوع المسلمين إليهم، وقالوا للمسلمين: "ندعوا الله أن ترجعوا إلنا، نحن راضون بأداء الجزية والبقاء في حمايتكم"[(١)]. وبسبب هذه المحبة التي استطاع المسلمون أن يكونوا مظهراً لها بين الشعوب بدأت أفواج الناس بالإقبال على الإسلام والدخول فيه. فكل مسلم كان بمثابة

[(١)] سيرة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لشِبلي النعماني، ٢١٢/١-٢١٤؛ تاريخ انتشار الإسلام لآرنولد، ص ٩٥-٩٨.

عمر بن الخطاب ﷺ، لذا فلم يكن من الممكن ألا تقبل الجماهير على الإسلام مثل هذا الإقبال. كان هؤلاء الأبطال رهباناً في الليل فرساناً في النهار. لقد فتحوا القلوب أولاً حتى اعتقد الناس أن المسلمين سيفتحون العالم كله في مستقبل قريب.

أما الآن فنحن عاجزون عن فرض إرادتنا على جزيرة صغيرة[1] ولا نستطيع تأمين سيادة الأمن في المناطق التي نحكمها. بينما كان المسلمون الأوائل مثال الدراية والكياسة والأمن، وتسلّم لهم مفاتيح القلاع والمدن ويُدعون لكي يكونوا رؤساء وحكّاماً فيها وليس بتقديم المفاتيح الرمزية والمواطنة الرمزية.

عندما فتح المسلمون فلسطين وسوريا الحالية طلب القادة مفاتيح بيت المقدس فرفض رئيس الأساقفة قائلاً: "إننا نعرف أوصاف من يحق له تسلم هذه المفاتيح وشمائله ولن نعطيها لأحد سواه..."

توجه عمر بن الخطاب ﷺ إلى بيت المقدس مع خادمه. لم يكن أحد يدري كيف سيأتي، ولكنه كان يأتي بالطريقة التي يعرفها ذلك الأسقف.. اشترى من بيت المال بعيراً للسفر... لم تكن هناك آنذاك سيارة، ولكن كان من الممكن أن يأخذ الخليفة جواداً للسفر، ولكنه لم يفعل وفضل أن يتعاقب هو وخادمه ذلك البعير طوال السفر.

عندما اقتربا من بيت المقدس كان قواد الجيش الإسلامي يتمنون أن يكون دور الركوب للخليفة بعد اجتياز نهر الأردن، لأنهم كانوا يعتقدون أن الشعب الذي تعود على مظاهر الفخامة والزينة سيعيب حتماً منظر رئيس الدولة وهو يجر البعير الذي يركبه خادمه وقد رفع أطراف ثيابه حتى ركبتيه بعد اجتياز النهر.. ولكن العيب في نظر عمر بن الخطاب ﷺ كان في عمل شيء غير عادل. لذا كان يحاول الابتعاد عن اقتراف شيء كهذا. ونظم القدر الإلهي الأمر بحيث أن قيادة البعير وإمساك زمامه عند اجتياز النهر كان من حصة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ. نـــزل عمر عن البعير وركب الخادم وأمسك عمر بزمام البعير يقود ويجتاز النهر. كانت ملابسه قد تمزقت في مواضع عديدة نتيجة احتكاكها بظهر البعير. جلس عمر وبدأ يرتق ملابسه... كان فيها أربع عشرة رقعة... عفواً المفروض أن نقول كان فيها أربعة عشر وساماً. قال رئيس الأساقفة الذي

[1] المقصود هو جزيرة قبرص. (المترجم)

شاهد وضع عمر ﷺ: "أجل! هذا هو الرجل الذي ترِد صفاته في كتبنا"، ثم قال: "لن نعطي مفاتيحنا إلا لهذا الرجل".

تسليم مفاتيح بيت المقدس وتسليم المسجد الأقصى للمسلمين أصبح وسيلة لإقبال الناس على الإسلام أفوجاً أفواجاً. لم تكن غايتي هي إثارة مشاعركم بعرض مناقب عملاق الإسلام عمر ﷺ بل التساؤل هل يتم تمثيل الإسلام اليوم بالمستوى السامي اللائق به؟ لقد فتحوا قسمًا كبيرًا من أفريقيا وطشقند وسمرقند وبخارى في ظرف ٢٥-٣٠ سنة؛ ثم تشرفت الدنيا بظهور البخاري ومسلم والترمذي وابن سينا والفارابي والبيروني وغيرهم؛ وامتد حكمهم إلى القفقاس والعراق وإيران... وترددت أصداء "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في أرجاء المعمورة، فسمع الجميع رسالة الإسلام.

أما الآن فإننا لا نستطيع الزعم بأننا نبلّغ رسالة الإسلام إلى شعوبنا دع عنك تبليغها للشعوب وللأقطار الأخرى. ونحن نحاول دعوة الآخرين من الذين يستمعون إلينا إلى الايمان وإقناعهم، ولكنهم لا يؤمنون. فكأن كلماتنا تصطدم بجدران من الجليد، ثم ترتد وتنعكس على وجوهنا بكل برودة... نحاول أن نشرح، ولكننا لا نستطيع النفوذ إلى أرواحهم. ولا نقول هذا كشَكوى ضد النعم الإلهية التي لا تُعدّ ولا تحصى.. لا نقول هذا، بل لا نستطيع قول هذا، وإنما نقول هذا كمقارنة بين الصحابة الكرام وبيننا لإيضاح هذا الفرق الشاسع.

مَن هؤلاء الذين فتحوا أقطار الأرض وكانوا كالنسور في الجو وأوصلوا رسالة الإسلام إلى كل بقاع العالم القائد الكبير... عقبة بن نافع الفهري الذي كان نصيبه التوغل في قارة أفريقيا وفتحها. وقد تلاحقت انتصاراته التي ملأت قلوب المسلمين فرَحاً، غير أنه تعرض لمكيدة فعزله أمير ذلك العهد وسجن. إن أكثر ما يحزنه في سنوات سجنه التي بلغت خمس سنوات هو أنه حيل بينه وبين تبليغ الإسلام. كان يريد أن ينشر الإسلام من أقصى أفريقيا إلى أقصاها. وعندما تولى الحكم يزيد بن معاوية قَدِم عُقبةُ على يزيد، فرَدَّه واليًا على المغرب سنة اثنتَين وستّين، فكتب بذلك حسنة كبيرة في صحيفة أعماله المملوءة بالآثام والسيئات. وعاود عقبة نشاطه في الفتوحات هناك. حتى بلغ شواطئ المحيط الأطلسي ودخل بجواده الشاطئ وقال: "يارب! لولا هذا البحر

لمضيتُ في البلاد مجاهداً في سبيلك!"[1] ولو أن شخصاً حدثه عن وجود قارة مثل أمريكا هناك لتساءل عن كيفية الوصول إليها لنشر الإسلام فيها.

أجل! كان المسلمون في تلك العهود يبلغون الإسلام لجميع الناس، ويحسون بتأنيب الضمير بالنسبة للبلدان التي لم يستطيعوا تبليغ دعوة الإسلام إليها. أما نحن فلم نستطع لا تمثيل الإسلام في أنفسنا ولا حمل الإسلام بسرعة البرق إلى أنحاء العالم، إذ لم نستطع ترك مشاغلنا وأعمالنا الخاصة، و لم نستطع أن نعد العمل للإسلام الشاغل الأول لنا، وأعمالنا الأخرى الشاغل الثاني والثالث والرابع. صحيح أننا ذهبنا لجلب المارك والدولار والشلن والفرنك. لم نذهب من أجل الله تعالى، لذا لم نستطع أن نُسمعهم الحقيقة السامية للإسلام. فإذا كانت تلك الشعوب لا تزال تعيش في ظلام الكفر والضلال فبسبب كسَلنا وعجزنا وفشَلنا نحن. فإن وُجّه إليهم سؤالٌ يوم القيامة فسيوجه إلينا أيضا سؤال.

بالأمس تفرّجتُ على شريط لمحاضرة ألقيتْ هناك. كانت المحاضرة باللغة الألمانية. ومع أنني لا أعرف الألمانية إلا أن المنظر أمامي كان يقول ليَ الكثير. وكنت قبل مدة وجيزة في مقبرة في مدينة برلين... أحسست أنّ ركبتـــيّ لا تحملانني، قلت متضرعاً: "رحماك يارب! لم نستطع أن نوصل اسمك الجليل إلى هنا..." والآن عندما شاهدت شريط الفيديو هذا غمرتني مشاعر فوارة... المكان كنيسة في هولندة والمحاضر شاب مسلم، والقس جالس يستمع، والنساء الهولَنديات المسلمات والمحجّبات جالسات يستمعن إليه ويسألنه بشوق وهو يجيب، ونساء لم يسلمن بعد يشاركن في السؤال. والحقيقة أنني عاجز عن وصف مشاعري، غير أنه يجب ألاّ ننسى أن كل هذه الأمور ليست إلاّ فعاليات تؤدَّى من قِبل هواة وهي لا تكفي أبداً. هذه الجهود تعد خطوة في مضمار الخدمة الإسلامية، ولكنها ليست الخدمة ذاتها.

لا نـــزال نتجول في أروقة هذا القصر.. قصر الخدمة الإيمانية والإسلامية، ولا نستطيع الادّعاء بأننا فعلنا الشيء الكثير. وهذا هو السبب في أن الكثيرين لا يزالون يعيشون في الضلال. صحيح أننا ذهبنا إلى تلك الأقطار في سبيل الخدمة الإسلامية أيضا، ولكننا لم نملك أنفسنا من الدخول في نـــزاعات عقيمة فيما بيننا. و لم نستطع أن نمثل

---

[1] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٤/١٠٦.

الإسلام كما مثله السابقون من أمثال عمر بن الخطاب ﷺ وعقبة بن نافع وأبي عبيدة وأحنف بن قيس ومغيرة بن شعبة والقعقاع. فمن يدري كيف كانت قلوب الأعداء الذين شاهدوا مروءَة هؤلاء ورجولتهم وعدالتهم وإنسانيتهم وإيمانهم وعزمهم... كيف كانت قلوبهم ترتعش، وكم من مرة مالت هذه القلوب إلى الإسلام عندما شاهدت هؤلاء الأبطال.

إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من هذه الزاوية عند ذاك ننظر بنظرة متسامحة إلى الذين يعيشون في باريس ولندن ونيويورك. بل ربما ضربنا على صدورنا أسفاً لأننا لم نقم بواجب التبليغ -كما يجب- نحوهم. أريد أن أنقل هنا قصة واقعية سمعتها من الواعظ المشهور الشيخ "نجم الدين نورساج":

ذهب أحد مواطنينا إلى إحدى الدول الأوروبية للعمل فيها، وسكن في بيت وتعرف على صاحب البيت وعائلته. وكان كثيراً ما يجلس ويتسامر معهم. وتوثقت بينه وبينهم الصداقة. ولم يكن صاحبنا هذا يقصر في تمثيل الإسلام والحديث عنه والإجابة عن استفساراتهم عنه. وبعد مضيّ مدة أعلن صاحب البيت إسلامه. ولم تلبث زوجته أن أعلنت هي أيضا إسلامها ونطقت بالشهادتين، ثم التحق الأبناء بهما، وخيمت السعادة على العائلة حتى انقلب البيت إلى قطعة من الجنة.

بعد مرور عدة أيام قال صاحب البيت لمرشده ما أدهشه. قال: "هناك أوقات أرغب أن أضمك إلى صدري وأشبعك تقبيلاً. ولكن هناك أوقات أرغب فيها أن أشبعك ضرباً، ذلك لأنك أتيت إلينا وأصبحت نـــزيلاً عندنا، وبوساطتك جاءنا الرسول ﷺ وجاء القرآن الكريم وجاء الإيمان بالله تعالى، وبفضلك جاء الإيمان وأصبح بيتنا قطعة من الجنة، ولكن كان لي أبٌ طيّب طاهر الروح والنفس. وقد مات قبل أن تأتينا بمدة قصيرة، فلماذا... لماذا لم تأتنا قبل وفاته؟".

وأنا أعتقد أن هذه الصرخة هي عقاب العالم المسيحي واليهودي للمسلمين. نحن لم نستطع أن نذهب إليهم بالإسلام، بل لم نستطع تمثيل الإسلام حتى في بلادنا، ولم نستطع أن نَحيا بالإسلام ولا قُمنا بشرحه ولا إيصاله إلى القلوب المحتاجة إليه.

واسمحوا لي بالتطرق إلى أمر آخر. فالذين أبعدونا عن الإسلام وعدونا بأنهم

سيصلون بنا إلى حياة في مستوى المدنية الغربية. ولكن على الرغم من مرور ١٥٠ عاماً على هذا الوعد فلا نـــزال نتسول عند أبواب الغرب ولم يحدث أيّ تغير ولم يتم تقدم خطوة واحدة، واستمر الغرب في نظره إلينا كخدّام عند عتَبة بابه.. خدام جاءوا إليه من أجل دراهم معدودة. والآن أريد أن أسألكم:

"إن المسيحيين واليهود لا يسلمون ولا يُقبلون على مبادئكم السامية، فهل فكّرتم لحظة في السبب الكامن من وراء هذا الأمر؟ السبب بسيط للغاية: لو جاءكم أحد بمبادئ وبرسالة سامية جداً، بل لو فتح السماء على مصراعيها وأراكم الطرق المؤدية إلى الجنة فهل تدخلون في دين هذا الشخص إن كان يعمل لدَيكم خادماً ويقوم بأداء أحقر الأعمال في نظركم؟" لا شك أنكم لن تكونوا تابعين لخادمكم، ولن تسيروا خلف من ترونه متسولاً عندكم.

إن العالم الإسلامي لم يلم شمله ولم يرجع إلى نفسه بعد، ولم يمثل الإسلام في حياته، ولا يزال متسولاً عند أعتاب الغرب. لذا فطالما كان هذا العالم الإسلامي مغلوباً المرة تلو الأخرى بالضربة القاضية، وطالما بقي أسيراً ومتسولاً ومتمسحاً بأعتاب الغرب وخائفاً من الغرب ومرتجفاً منه؛ فلن يكون هناك أي احتمال لأن يعيرك الغرب سمعه أو يهتم بالرسالة التي تحملها. ولكن إن كنا في مستوى شخصية أسلافنا وعزتهم ومثّلنا الإسلام بما يليق به من رفعة وطرَقْنا أبواب الغرب بهذه الهوية فإنه سينصت إلينا وسيهتم بنا وسيَقبَلنا. لا أقول إنهم محقون في عدم الإصغاء إلى الذين يعملون عمالاً وخدماً عندهم، ولكن قد يكونون معذورين في هذا. ماذا كان هناك من يراهم مسؤولين في عدم القبول، فإن مسؤوليتنا نحن في عدم تمثيل الإسلام بالمستوى اللائق أكبر.

أرى أن ننظر إلى هذا الأمر من هذه الزاوية وأن نعلم أن المسؤولية مشتركة بيننا، ويجب أن تكون أحكامنا عادلة ومنصفة. ونحن بعيدون جدّاً عن عقلية الذين يصدرون أحكاماً غير متوازنة، ويرون أن جميع من يعيش في البلدان الأجنبية هم حطَب جهنم. كما نحن بعيدون جدّاً عن عقلية الذين يتوقعون أنهم ما أن يعرضوا الإسلام بشكل ناقص وغير لائق حتى سيقبل عليهم الجميع من كل حدَب وصوب.. فهذا خيال ووهم.ولكننا نؤمن بأنه سيكون هناك تغيّر في التوازن الدولي الحالي وأن الجيل القادم في تركيا ومصر

وبلدان تركستان[1] وسائر البلاد الإسلامية سيعود إلى نفسه وإلى شخصيته وهويته الحقيقية، وسيعيش عقيدته ومبدأه، وسيأخذ هذا الجيلُ الطاهر والمضحِّي مكانه ضمن التوازن الدولي الجديد. عند ذاك سيُصغي الشرق والغرب إلينا.

ليس هذا بالشيء المستحيل.. سيتحقق هذا بالتأكيد، بل لقد بدأ فعلاً بالتحقق.. فرجال الفكر في الغرب الآن مذهولون من سحر الإسلام وشبابه الدائم. ويبدو أن هذا سيكون سبباً في تغييرات كبيرة. وليس من المستبعد حدوث تغيرات اجتماعية كبيرة في المستقبل القريب. وستكون هناك تغيرات في خريطة العالم. ولكن لن يستطيع إنجاز هذا إلا الذين وجدوا أنفسهم وشخصيتهم وهويتهم الحقيقية، وليس العاجزون والفاشلون الذين يؤجّلون العمل في هذا السبيل إلى أوقات فراغهم.

وكما قلت في مرة سابقة فالذين يرفعون هاماتهم من القبور ويطلون عليكم من بين أحجارها قائلين: "أجل! هؤلاء هم المنتظَرون" عند ذاك يكون الأمر قد تمّ وستقومون بالمحاسبة مع أنفسكم ومع العالم أجمع.

---

[1] المقصود هو البلدان المسلمة التركية التي تحررت من الاستعمار الروسي. (المترجم)

أهناك دليل على سؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم ﴾؟
وعلى جواب ﴿قَالُوا: بَلَى﴾؟

هناك بعض المسائل التي يصعب إيضاحها عقلياً، ولكن يمكن بحث إمكانيتها وعـــدم استحالتها. وإذا كان الله تعالى يقول شيئاً فلا يبقى هناك مجال لأي اعتراض. نســـتطيع تناول السؤال من جهتين:

١- أحَدثَ هذا الأمر؟ وإذا حدث فكيف يمكن البرهنة عليه؟

٢- هل شعر الفرد المؤمن بهذا الأمر؟

أولاً، يرد سؤال هل أنّ قوْل الله تعالى في عالمٍ ما للأرواح "ألست بربكم؟" وقولهم "بلى" شيء قطعي وأكيد؟ تم تناول هذا الموضوع في القرآن الكريم في آيتين. الأولى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الاعراف:١٧٢) حيث يرد ذكر مثل هذا القول هنا. ولكن هناك اختلاف بين المفسّرين القدماء منهم والمحْدثين في زمن أخذ هذا العهد.

فبعض المفسرين يقولون إنّ أخذ هذا العهد تم في عالم الذر عندما كان العالم في شكل ذرات، وأنه تم أخذ هذا العهد من هذه الذرات التي ستتركب فيما بعد ومن أرواحها أيضاً التي ستحلُّ بها. وقال آخرون: "إن هذا العهد يؤخذ عندما يسقط الطفل في رحم أمه". وقال مفسرون آخرون مدقّقون استناداً إلى حديث شريف بأن هذا العهد يؤخذ عند نفخ الروح في الإنسان.[١]

والحقيقة أنّ تكلم الله تعالى مع مخلوقاته يكون بأشكال مختلفة. ونحن نتكلم مثلاً بشكل وبأسلوب معيّن، ولكن لنا أيضا أساليب أخرى في الكلام النفسي واللفظي، لأن لنا مشاعر داخلية وخارجية ولنا عقل وروح وظاهر وباطن. فمِن حينٍ لآخر نستعمل هذه الألسنة أيضا فنوصل رسائلنا إلى من يفهمها.

---

[١] تفسير حق ديني قرآن ديلي لألماليلي حمدي يازير (باللغة التركية)، ١٦٧/٤-١٧٥.

للقلب حديث خاص به. يتحدث القلب ولكن لا أحد يسمع حديثه، فإذا قيل لنا "ماذا كنت تحدث به نفسك؟" لأجَبنا "كذا وكذا" أي نقلب ذلك الحديث إلى كلمات متواصلة، فهذا حديث نفسي.

وأحياناً نتكلم في أحلامنا، ونسمع كلام الآخرين كذلك. ولكن الموجودين بالقرب منا لا يسمعون هذه الأحاديث. ثم نقوم وننقل ما قلناه وما سمعناه في الحلم إلى الآخرين. وهذا أسلوب آخر في الحديث.

هناك من يرى -وهو يقظان- مناظر من عالم المثال وأشخاصاً من ذلك العالم. قد لا يؤمن المادّيون بهذا ويقولون إنها ليست إلا خيالات وأوهام... لا بأس ليقولوا هذا. لقد كان هذا مظهر من مظاهر تكريم الرسول ﷺ عرض مناظر من عالم المثال ومن عالم البرزخ لنظره الكريم.. وكان ﷺ ينقل ما سمعه وما رآه إلى الآخرين. لقد كان هذا نوعاً آخر من الحديث.

والوحي شكل آخر وطراز آخر من طرز الحديث. وكان رسولنا ﷺ يأتيه الوحي، فيشعر به وهو في كامل وعيه. ولكن هذه كانت أبعاداً أخرى، فلم يكن أي شخص عدا الرسول ﷺ يسمع أو يفهم شيئاً. ولو كان الوحي شيئاً مادّياً لطرق سمع الآخرين كذلك. مع أن الوحي كان يأتيه أحياناً وهو مسند رأسه إلى فخذ إحدى زوجاته أو وهو مسند رأسه إلى صدر صحابي وركبته على ركبته فيسمع الرسول ﷺ الوحي ويتلقاه ولا يسمعه أو يحس به من حوله. أما الرسول ﷺ فكان يتلقى الوحي ويحفظه عن ظهر قلب ثم يخبر به الآخرين. وهذا طراز آخر من الأصوات وطراز آخر من التحدث.

ويأتي إلهام إلى قلب الولي... كالهمس في قلبه. وهذا طراز آخر من التحدث شبيه بالتخاطب بوساطة الشفرات. فكما يقال في شفرة مورس: "دي.. دي.. دا.. دا.. ديت" ويفهم المتلقي لهذه الإشارات معناها. كذلك هناك ما يرسل إلى قلب الولي الذي يستخرج منه بعض المعاني، فمثلاً يقول الولي: "إن فلاناً ابن فلان وصل الآن أمام الباب" فيفتحون الباب ويجدون ذلك الشخص أمامهم. وهذا طراز آخر من التحدث.

وهناك ظاهرة "التَّلَبَاثِي". وعلماء اليوم يتهيأون للتخاطب به في المستقبل. وهذا طراز آخر من التحدث. وتوجه القلب نحو القلب وتخاطب الناس فيما بينهم باطنياً نوع آخر منه.

ويُفهم من كل هذا أن الله تعالى خلق ما لا يعد ولا يحصى من أنواع التحدث والتكلم.

والآن لنأت إلى موضوعنا. قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الاعراف:١٧٢). ولكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف كيف قال وبأي كيفية تحدث. فإن كان قد تحدث إلينا بطريقة الإلهام -كما هو الحال عند الولي- فمعنى هذا أننا لا نتوقع حديثاً بصوت. فإن كان إلهاماً فهذا ليس بوحي. وإن كان وحياً فهو ليس بإلهام. وإن كان حديثاً للروح فهو ليس بحديث للجسد، وإن كان للجسد فهو ليس للروح.

هذه النقطة مهمة جداً، لأن الإنسان إن قام بمحاولة قياس ما يراه ويسمعه في عالم المثال وفي عالم البرزخ وفي عالم الأرواح بمقاييس هذا العالم فإنه يقع في خطأ جسيم. فالصادق الأمين ﷺ يخبرنا بأن المنكر والنّكِير سيأتيان ويحاسباننا في القبر.[1] فكيف يتم هذا الحساب؟ هل سيخاطبان روح الميت أم جسده؟ النتيجة واحدة سواء أكان الخطاب لروحه أم لجسده فالميت سيسمعهما، أما الموجودون حواليه وبالقرب منه فلا يسمعون شيئاً. ولو وضعت مسجلاً ومددت الميكروفون إلى القبر فلا يمكن تسجيل أي صوت، لأن الخطاب يتم هنا في أبعاد أخرى. فكما ذكَر "أنشتاين" وغيره عن وجود بُعد رابع وخامس فإن الأمور تكون مختلفة باختلاف الأبعاد.

لذا فإن قول الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف:١٧٢) هو خطاب خاص للأرواح، ولا يمكن توقع سماعه أو حفظه من قبلنا، فربما انعكس هذا في وجداننا، أي نستطيع أن نشعر به بالإلهام الذي انعكس على وجداننا.

كنت مرة أشرح هذا الموضوع فإذا بشخص يقول: "إنني لم أشعر و لم أحس بذلك" فقلت له: "ولكنني أحسست به، فإن لم تكن قد شعرتَ به فهذا مشكلتك، ولكني أعرف جيَداً أنني أحسست وشعرت به". فإن سُئلت كيف شعرت لقلت إنني سمعت هذا الصوت عندما شعرت برغبتي في الخلود، مع أنني شخص محدود وفان. أجل! فإنني لا أستطيع معرفة الله تعالى وإدراكه لأنني محدود إذ كيف يستطيع المحدود أن يدرك اللامحدود. إذن فإنني أعلم أنني أحسست به عندما وجدت في نفسي مثل هذه الرغبة في اللامحدود والرغبة في الخلود. فحشَرة صغيرة مثلي في مثل هذا العالم المحدود كان يجب

---

[1] البخاري، الجنائز ٨٧.

أن تعيش حياتها المحدودة ثم تموت.. وأن تكون آمالها وأفكارها محدودة مثل عمرها. بينما أفكر أنا في الخلود وتثور عندي الرغبة في الأبدية، وأحمل لهفة للجنّة ولرؤية جمال الله، وملك الدنيا كلها لا يُشبع رغباتي، إذن فبسبب وجود هذه الحال عندي أقول " لقد أحسست به".

إن الوجدان -مهما كان تعريفه- مشتاق لله تعالى بكل كيانه وبكل أقسامه، ومترنم به على الدوام، وهو لا يكذب. ولن يرتاح هذا الوجدان ولن يصل إلى السعادة والطمأنينة إلا عندما تعطيه ما يرغب به وما يطلبه. لذا فكما أشار القرآن الكريم: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبِ﴾ (الرعد:٢٨) فإن القلب الذي هو لطيفة من اللطائف الربانية لن يطمئن إلا عندما يصل الوجدان إلى الطمأنينة.

هناك أمر آخر وهو أن كثيراً من الفلاسفة من أمثال "برجسون" ترَكوا جميع الأدلة النقلية منها والعقلية جانباً، وقالوا إن الدليل على وجود الله تعالى هو الوجدان. ووصل الأمر بالفيلسوف الألماني "كانط" أن يقول: "لكي أُدرك اللهَ تعالى -إدراكاً يستحقه جلاله وعظمته- فقد نحيت وتركت جميع معلوماتي جانباً". ومشى "برجسون" في هذا الدرب بـــ"الحدس"، وكان وجود "الوجدان" و"الضمير" عنده هو الدليل الوحيد. فالضمير والوجدان يتألمان عند إنكار الله وجحوده، ويسعدان ويطمئنان بالإيمان بالله.

وعندما يستمع الإنسان إلى وجدانه وينـــزل إلى أعماقه يرى ويحس هناك بوجود رغبة شديدة في الإيمان بمعبود أزلي وأبدي. إذن فهذا الجو هو الدليل على الجواب ﴿قَالُوا بَلَى﴾ للخطاب الإلهي ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. وإذا أرهف سمعه للصوت الآتي من أعماق وجدانه لسمع هذا الصوت. ولكن إن بحث عن هذا الصوت في عقله وفي جسده وقع في التناقض، لأن هذا الصوت موجود في ضمير كل فرد ومكنون هناك، ولا تتم البرهنة عليه إلا في ميدانه وفي ساحته. وقد رأى الأنبياء والأولياء والأصفياء هذا وأدركوه بكل جلاء وصفاء وشرحوه وأبانوا عنه.

وإذا أتينا إلى الإثبات العقلي، فمن الطبيعي ألا يستطيع العقل إلا إثبات المحسوسات كإثبات وجود شجرة الصنوبر أو شجرة الدُّلب. مثل هذا الإثبات غير وارد هنا. ولكن من استمع إلى وجدانه واستبطن داخله رأى هذا وسمع ذلك الصوت وأدركه وشعر به.

ما الحكمة في نزول القرآن منجما في ثلاث وعشرين سنة؟

لو نزل القرآن دفعة واحدة ولم ينـزل في ٢٣ سنة لقالوا "لماذا نزل القرآن دفعة واحدة ولم ينـزل على مكث؟"

الأساس في مثل هذه المسائل هو التسليم والإيمان بأن ما جاء به الله تعالى هو الحق. وإلا انفتح الباب لأسئلة في جميع المسائل: لماذا كان مجموع ركعات صلاة الظهر عشر ركعات؟[١] ولماذا كانت صلاة الجمعة في يوم الجمعة؟ ولماذا كانت نسبة الزكاة من المال ١/٤٠ ولم تكن ١/٤١؟..الخ. أسئلة لا تنتهي ولا تنقطع. لذا كان علينا أن ندرك بأن هذه الأمور سرّ من أسرار العبودية.

صحيح أن هناك حكماً ذاتية في الصلاة. فلا شك أن وقوف الإنسان أمام ربه خمس مرات في اليوم له فوائد ومصالح، ولكن إن أتينا إلى عدد الركعات فإن الله تعالى هو الذي قضى أن تكون عدد ركعات الوتر ثلاثا، وثلاث ركعات لصلاة المغرب، وأربع ركعات لصلاة العصر. ولو وكّل الأمر إلينا وقيل لنا أنتم مكلّفون بالصلاة خمسَ مرات في اليوم، وعليكم أنتم إعطاء القرار حول شكل الصلاة، إذن لاختلفنا في هذا الأمر وأعطى كلٌّ منا رقَماً مختلفاً، ولقام كل منا بترتيب وتخطيط الصلوات حسب ظروفه ومشاغله اليومية. إن تعيين العدد بطريق العقل يختلف عن طريق الوحي. فالوحي ينسج لحياتك المعنوية من العلم الإلهي نسيجاً حكيماً متميزاً. لذا يمكن البحث هنا عن حِكَم الصلاة، أما التساؤل عن عدد الركعات فلا.

لنـزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة حِكَم مماثلة. فهو قد نـزل في عهد بدأت فيه أمارات لبداية رقي الإنسانية وتكاملها. لذا جاء أكمل نبي وهو الرسول محمد ﷺ المصطفى من قِبل الله وأحب الناس إليه. وكانت مهمة أصحابه أن يكونوا معلمين للأمم المتحضرة وأن يرقوا بها إلى أعلى مراتب التقدم. غير أن العادات السيئة والأخلاق الذميمة قد استولت على نفوسهم وجرت مجرى الدم في عروقهم، فكانت مهمة نـزع

---

[١] المقصود هو مجموع ركعات الفرض والسنة في صلاة الظهر. (المترجم)

هذه الأخلاق والعادات السيئة واحدة تلو الأخرى تختلف عن مهمة القيام -بعد هذا- بزرع العادات الحميدة والأخلاق الفاضلة في نفوسهم. فلو نـــزل القرآن دفعة واحدة وطالبهم بكل هذه الأمور دفعة واحدة لعجزوا و لم يتحملوا ذلك. عِلمًا بأن هذا أمر مخالف لسنن الكون ولطرق تكامل الإنسان.

نستطيع أن نعطي أمثلة عن حياتنا الحالية ولنفكر في الذين اعتادوا على التدخين أو ابتلوا بالإدمان على الخمر أو على التسكع في الشوارع أو إدمان الجلوس في المقاهي. فلو قطعت رأس هؤلاء ولو قلت لأحدهم: يا فلان! إن ذهبت إلى المقهى فستموت، لاخترع المعاذير وذهب إلى المقهى. ولو لم يذهب يوماً وبقى في البيت لقضى وقته وهو يطلق الحسرات والآهات ثم لم يتحمل واتخذ طريقه إلى المقهى. ذلك لأنه اعتاد على ذلك، ومن الصعب عليه تغيير ما اعتاد عليه مع أنها عادة صغيرة وغير مهمة.

والآن لنتناول المدمن على التدخين. إن قلت لمثل هذا المدمن "اترك التدخين، لأنه مضر بصحتك. لأن التدخين انتحار بطيء... فكأنك ضربت خنجراً في صدره" بل لو جعلت طبيباً يذكر له أنه لا توجد فائدة في التدخين بل له الأضرار الفلانية والفلانية، لتردد كثيراً في ترك التدخين. بل إن كثيراً من الأطباء يدخنون مع علمهم بأضراره.

ثم خذ المدمن على الخمر تراه قد تبدل عالمه فهو ثمل على الدوام، ولو نـــزل درجة واحدة لوصل إلى مستوى المخلوقات الدنيا. فلو طلبت منه ترك الخمر فجأة لكان طلبك هذا طلباً لتغيير نفسيته وعادته.

والآن تصوروا وجود الآلاف الذين جرت مثل هذه العادات السـيئة في عـروقهم مجرى الدم، وكذلك من تطبع بأخلاق سيئة، ثم تأملوا معي ضرورة نـــزول القــرآن بشكل تدريجي.

أجل! لقد قام القرآن بنـــزع الأشواك أولاً وإزالة العادات السيئة، ثم قام بوظيفـة التزيين؛ أي قام بتنظيف أرواحهم من الأخلاق السيئة أولاً، ثم زين نفوسهم بـالأخلاق العالية. ونجح في إصلاح آلاف النفوس في مدة قصيرة. ونحن نعتقد أن نـــزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة يعد نزولاً سريعاً. وكما قال بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله: "من المعلوم أن رفعَ عادةٍ صغيرة -كالتدخين مثلاً- من طائفة صغيرة بالكلية، قد يَعْسَرُ

على حاكم عظيم، بهمّةٍ عظيمة، مع أنا نرى هذا النبي الكريم ﷺ قد رفع بالكلّية، عاداتٍ كثيرة، من أقوام عظيمة، متعصبين لعاداتهم، معاندين في حسيّاتهم، رفعها بقوةٍ جزئيـــة، وهمّة قليلة في ظاهر الحال، وفي زمان قصير، وغَرَسَ بدَلَها برســـوخ تـــامٍّ في ســـجيتهم عادات عالية، وخصائلَ غالية. فيتراءى لنا من خوارق إجراآته الأساسية ألوفَ ما رأينا، فمَن لم يَر هذا العصر السعيد نُدخل في عينه هذه الجزيرة ونتحداه. فليجرّبْ نفسه فيها. فليأخذوا مائةً من فلاسفتهم وليذهبوا اليها وليعملوا مائة سنة هل يتيسر لهم أن يفعلـــوا جزءاً من مائة جزء مما فعله ﷺ في سنة بالنسبة الى ذلك الزمان؟!"[1]

إننا نتحداكم، الكل يعرف بأن الخمر يسبب كل سنة خراب مئات البيوت، وتقوم جمعيات "الهلال الاخضر"[2] بإلقاء العديد من المحاضرات كل سنة في هذا الموضوع، وأدرجت هذا الموضوع في المدارس المتوسطة والثانوية. ولكن كم من المدمنين على الكحول تركوا هذا الإدمان وتخلّصوا منه؟ ولتقم الجامعات بكل أساتذتها ويعبئوا جهودهم سنة كاملة، فهل يستطيعون إنقاذ عشرين شخصاً من هؤلاء المدمنين؟ ولو نجحوا في هذا لعددنا هذا نجاحاً كبيراً منهم وكتبنا نجاحهم هذا بحروف من ذهب بجانب إجراءات رسولنا ﷺ. ولكن هيهات هيهات.... لقد حدث ذلك مرة واحدة فقط ويعلم الأصدقاء والأعداء أن تكراره مُحال.

أجل! إن فترة ثلاث وعشرين سنة تعد فترة قصيرة وسريعة، لذا فإن ما عمله القرآن وما أنجزه يعد معجزة. فما قطعه رسولنا ﷺ في ثلاث وعشرين سنة من مسافة لم تستطع البشرية قطعها في آلاف السنوات.. ولن تستطيع أن تقطعها.

وبينما استهدف القرآن الكريم إزالة المئات من العادات والأخلاق السيئة من النفوس من جهة، استهدف من جهة أخرى تزيين النفوس بالأخلاق الرفيعة السامية دون أن يؤذي هذه النفوس أو يجرحها أو يؤلمها، وقام بتمرير وتحقيق مسائل كثيرة في مراحل عديدة حتى جعلها صالحة للتطبيق، بينما يحتاج تحقيق بعض هذه المراحل في أيامنا الحالية إلى أضعاف مدة ٢٣ سنة بعدة مرات.

---

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة التاسعة عشرة/الرشحة الثامنة.

[2] تقوم جمعيات الهلال الاخضر بمحاربة المسكرات. (المترجم)

هذه المدة، أي ثلاث وعشرون سنة كانت مدة ضرورية لكي يتقبل إنسان ذلك العهد الكثير من الأوامر ومن النواهي، وكانت ضرورية للإزالة التدريجية أو الإنشاء والبناء التدريجي لكثير من الأمور والمسائل. فمثلاً تمّ تحريمُ الخمر في هذه المدة على ثلاث أو أربع مراحل،[1] وحرّم وَأْدَ البنات على مرحلتين.[2] وتم تنظيم الحياة القبلية البدائية وتأمين الوحدة بينها، وإيصال الناس إلى الشعور الاجتماعي، أي تم إكسابهم خصال ولياقة تشكيل مجتمع. ولم يتم هذا الاّ بمحاربة العادات والأخلاق الفاسدة وإقامة الأخلاق السامية مكانها بإجراءات غاية في الصعوبة. وكانت كل هذه الأمور بحاجة إلى فترة زمنية أطول.

ثم إننا نقول حالياً كانت ظروف هذه السنة كذا، لـــذا يقتضـــي إقامـــة التـــوازن الاجتماعي الفلاني والتنظيم الفلاني، ويتم حساب تغير الشروط في السنة القادمة، وتعيير الخطط وضبطها حسب التغيرات والشروط المتوقعة في السنوات القادمة... وهكذا نقوم بأخذ طبيعة الأمور وطبيعة الأشياء بنظر الاعتبار لكي يتم التلاؤم معها. وشبيه بهذا مـــا كان يحدث في العهد النبوي.

فالمسلمون كانوا ينمون تدريجياً كنمو شجرة باسقة ويتلاءمـــون ويتكيفـــون مـــع الظروف والشروط الجديدة. وفي كل يوم كان هناك من يلتحق بركب الإسلام، وكان هناك في كل يوم شعور جديد وفكر جديد وتكييف جديد لتحويـــل الفـــرد إلى فـــرد إجتماعي. كان هذا يحدث بشكل تدريجي، ولكنه يحدث بشـــكل متناســـق ومتنـــاغم وبشكل متعاقب. وهكذا أصبحت هذه المراحل تعكس الخصائص والحقـــائق الخالـــدة للإسلام ضمن نواة صغيرة في البعد الزمني.

ولو لم يحدث هذا ضمن ثلاث وعشرين سنة، أي لو طلب إحـــداث كـــل هـــذه التغيرات مرة واحدة وبشكل آنِيّ، لما تحمل ذلك المجتمع البدوي ذلك. نستطيع تشـــبيه ذلك بشخص يتعرض لأشعة الشمس. فهذا يحدث تغييراً في جلده. ولو ذهب إلى بلدان باردة لحدث بعض التغيرات الصغيرة عنده. ولكن لا يمكن لهذا الشخص تحمل عشـــرين

---

[1] انظر: سورة البقرة، ٢١٩/٢؛ سورة النساء، ٤٣/٤؛ سورة المائدة، ٥/٩٠-٩١.

[2] انظر: سورة الأنعام، ١٤٠/٦، ١٥١؛ سورة إسراء، ٣١/١٧.

طفرة كبيرة مرة واحدة، لأن أي حي يتعرض لمثل هذه التغيرات الكبيرة سيموت. وهذا يشبه ارتفاع شخص يعيش تحت ضغط جوي واحد إلى ارتفاع عشرين ألف قدم بشكل فجائي. فمثل هذا الارتقاع الفجائي سيؤدي إلى موته. وحتى الطائرات عندما تصعد إلى مثل هذا الارتفاع فإنه يتم أخذ التدابير اللازمة كأقنعة الاكسجين وغيرها.

وكما يؤدي الارتفاع المفاجئ إلى عشرين ألف قدم إلى موت الإنسان. كذلك فإن مطالبة مجتمع يملك تصوراً بدائياً للحياة وللفرد وللعائلة بجميع أحكام القرآن –إن كان القرآن نازلاً مرة واحدة– دفعة واحدة والقول "هاكم... هذه هي أحكام القرآن... طبّقوها كلها دون نقص"، لو قيل هذا لما استطاع أحد أن يقبل ذلك. لآن هذا كان يعني ارتفاع المجتمع إلى علو عشرين ألف قدم دفعة واحدة، ولما كان باستطاعة ذلك المجتمع تحمل ذلك. لذا فإن نـــزول أحكام القرآن على مهل طوال ٢٣ سنة هو رعاية لمقتضى فطرة الإنسان وطبيعته البشرية.

بما أننا لا نستطيع فصل الإنسان عن الكون، لذا كان علينا تناوله حسب طبيعة الحوادث الجارية فيه. لأننا لا نستطيع النظر إليه خارج التطورات الجارية في الكون. فكما يتم النمو في الكون بشكل تدريجي، وتجري قوانينه حسب هذا الاتجاه، كذلك فإن نمو الإنسان وسموه وتكامله يجري بالنمط نفسه. وهذا هو السبب في نـــزول القرآن الذي هو أساس الرقي ومجموع المبادئ السامية على مهل طوال ثلاث وعشرين سنة.

لقد كان من حكمة الله جعل هذه الفترة الزمنية ٢٣ سنة، وكان من الممكن أن تكون ٢٤ أو ٢٥ سنة. وقد اقتضى القدر الإلهي أن يكون عمُر سيد الأنبياء ﷺ ٦٣ سنة وأن يختتم هذا العمر بعد ٢٣ سنة من نبوته. وكان من الممكن أن يكون عمره ٦٤ سنة، وسنوات الوحي ٢٤ سنة... كنا سنرى هذه المدة ضمن الإطار نفسه من الحكمة الإلهية. والله أعلم.

يقال إن أمّنا حوّاء خُلقت من ضلع أبينا آدم عليه السلام.. ما رأْيُكم في هذا الموضوع؟

ليس الإنسان نتيجة تطور ما، بل خلق كنوع خاص وبشكل مستقل. و لم يظهر نتيجة ترقيه وتطوره من نوع إلى آخر. و لم يكتسب صفاته نتيجة سلسلة من عمليات التطور ولا نتيجة الانتخاب الطبيعي. بل خلق كنوع إنساني من قِبل الله تعالى. وخلقه معجزة مثل خلق عيسى عليه السلام. وليس من الممكن إيضاح هذه المعجزة من زاوية الأسباب. و لم يستطع لا علماء الطبيعة ولا علماء التطور شرح كيفية ظهور الأحياء بشكل إيجابي وصحيح. أما النظريات التي طرحوها فلم تكن قائمة على أسس علمية صحيحة، بل على أسس ضعيفة وواهية. وأمام ظهور انتقادات قوية فقد وصلت إلى حافة الإفلاس وقد كتب الكثير من الكتب والمؤلفات حول هذا الأمر يمكن مراجعتها.

عندما نتناول مسألة ما في عالم الأسباب فإننا نتناولها من زاوية العلة والمعلول "أي السبب والنتيجة" وضمن مبدأ "تناسب العِلّيّة" فنقول مثلاً: إن من الضروري -بعد مشيئة الله تعالى- توفر شروط معينة لكي تنمو شجرة باسقة من بذرة صغيرة. فيجب توفر التربة الصالحة والمناخ المناسب وتوفر الحَيوية الضرورية وعقدة الحياة في البذرة نفسها. وعندما تتجمع هذه الأسباب معاً يظهر ما نطلق عليه "العلّة التامة". وهذه "العلة" (أي السبب) تؤدي إلى ظهور "الْمَعلول" (أي النتيجة)؛ أي أن هذه الأسباب ستؤدي بمشيئة الله تعالى إلى ظهور شجرة من بذرة وفرخة من بيضة.

الخلق الأول للإنسان معجزة، ونستطيع تناول هذه المسألة من زاوية السبب والنتيجة كما يأتي: لنفرض أننا نريد الحصول من كائن حيّ على كائنٍ حيٍّ آخر، فنقوم بتأمين التناسل بين طائر ودجاجة وبين جواد وحمار. فلا نحصل على شيء من العملية الأولى، بينما نحصل على بغل، أي على حيوان عقيم لا يستطيع إدامة جنسه من العملية الثانية. هنا نرى أن العلة ناقصة، أي هناك قصور في الوصول إلى النتيجة حسب مبدإ "تناسب العِلّية". ولكن نحصل من تناسل الرجل مع المرأة على إنسان كامل، أي أن جميع

الأسباب تكون متوفرة وكاملة عند اتحاد حيمن الرجل "سبرم" مع بويضة المرأة في رحمها، لأن الجنين هنا يتشكل -بعد إذن الله وإرادته- وينمو من طور إلى آخر ثم يولد. أي إننا نحصل هنا على النتيجة الكاملة التي ننتظرها لتجمع جميع الأسباب معاً. صحيح أن الله تعالى يستطيع تغيير كل شيء وإرساله إلى الدنيا بشكل آخر وبقابلية أخرى.[1]

هذا هو إيضاح الموضوع من ناحية الأسباب. ولكن عندما يتم الأمر خارج سلسلة السبب والنتيجة، والعلة والمعلول؛ عند ذلك يجب تقبل الأمر لا على أساس التطور أو الانتخاب الطبيعي، بل بالشكل الذي أخبرنا به الله تعالى ورسوله ﷺ.

يخبرنا الله تعالى بأن هناك معجزة في الموضوع الذي لا نستطيع تعليله وإيضاحه. فخلق آدم عليه السلام من دون أب وأم، وخلق عيسى عليه السلام من دون أب معجزة[2]؛ أي أن الله تعالى إن شاء خلق أيّ كائن من دون أب أو من دون أم أو من دون أب وأم كما هو واضح في موضوع آدم عليه السلام. ولا يمكن هنا إيراد سلسلة أسباب. والقرآن الكريم يتحدى ويقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت:٢٠)، إذ كيف يمكن تفسير الخلق من العدم؟!

وشبيه بهذا موضوع خلق حوّاء عليها السلام من آدم عليه السلام. فهو معجزة أخرى، أي لا يمكن إيضاح هذا الموضوع أيضا بسلسلة الأسباب الجارية. وطبعاً لا نستطيع إنكار شيء بحجة أننا لا نستطيع إيضاحه. فهذا الأمر وارد أيضا في موضوع آدم وعيسى عليهما السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩). أجل! كان الناس قد نسوا مبدأ الخلق، فكان خلق عيسى عليه السلام تذكرة جديدة مهمة.

والآن لنأت إلى موضوع خلق أمّنا حواء من ضلع آدم عليه السلام. وأنا أعتقد أنه يراد إثارة جدل جديد في هذا الموضوع. فلماذا تُخلق حواء من اقصر ضلع من ضلوع آدم عليه السلام؟ لماذا من ضلع، ولماذا من آدم؟

أريد أولا جلب انتباهكم إلى ناحية مهمة وهي أن الأدلة على أن الإنسان مخلوق من

---

[1] مثلا بالشكل الإعجازي لميلاد المسيح عليه السلام. (المترجم)

[2] انظر: آل عمران:٥٩.

قبل الله تعالى من الكثرة والقوة بحيث لا يمكن ردّها. كما أن هذا يعد أيضاً دليلاً باهراً وظاهراً على وجود الله. والكون بجميع قوانينه ونظمه ومبادئه ينطق بالشيء نفسه. كما أن الماهية الذاتية للإنسان وعالمه الداخلي وقلبه وسِرّه ولطائفه الأخرى التي لم تُكتشف بعدُ تشير كلها إلى الله تعالى. وهناك بالإضافة إلى هذه آلاف من الأدلة القاطعة الأخرى على وجود الله. والجميع سواء أكانوا فلاسفة أم مفكرين أم علماء كلام.. كل من هؤلاء تمسك بقسم من هذه الأدلة فوصل إلى شاطئ السلامة. فما بالك إن تجمع ألف دليل من هذه الأدلة، عند ذلك تصور قوة الدليل الحاصل ومدى قدرته.

والآن يحاول بعض المنكرين والملحدين إغماض عيونهم أمام كل هذه الأدلة وتناول موضوع خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام وكأنه يصلح وسيلة للإنكار والإلحاد، ويوضح المرشد الكبير بديع الزمان رحمه الله حال هؤلاء فيقول: "وا أسَفا!. إن وجودَ النفس عمى في عينها، بل عينُ عُميها، ولو بقي من الوجود مقدارُ جناحِ الذباب يصيرُ حجاباً يمنع رؤيتها شمسَ الحقيقة. فقد شاهدتُ أن النفسَ بسبب الوجود ترى على صخرةٍ صغيرةٍ في قلعة عظيمة مرصوصةٍ من البراهين القاطعة ضعفاً ورخاوةً، فتنكر وجود القلعة بتمامها. فقس من هنا درجة جهلها الناشئ من رؤيتها لوجودها..".[1] ليس هذا إلاّ التزام أعمى وفكر ارتيابي مسبق وافتقار منطقي.

أجل! فبينما يزخر الكون كله والإنسان بآلاف الأدلة على وجود الله تعالى وإعلان هذه الحقيقة، أليس هذا النظر الأحادي الجانب قصوراً فاضحاً؟

ورد موضوع "الخلق من ضلع" في صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد بن حنبل.[2] وعلاوة على ورود خلق حواء من ضلع آدم في كتب الأحاديث هذه فقد ورد أيضا في سورة النساء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١).

هنا نجد ضمير "الهاء" الراجع إلى النفس وليس إلى آدم. ونرى هذا أيضاً واضحاً في آية أخرى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوجَهَا﴾ (الزمر:٦). لنقف هنا

---

[1] المثنوي العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ١٧٠ (ذيل القطرة/رمز).

[2] البخاري، نكاح ٨٠؛ مسلم، رضاع ٦١؛ المسند للإمام أحمد، ٤٩٢/٢، ٨/٥.

حول هذا التعبير. إذن فإن الله تعالى لم يخلق حواء من آدم، بل من ماهية آدم، وهذه ناحية دقيقة جداً. فنفس آدم غير ماهية آدم. فمثلاً يقال عن إنسان أنه بطول كذا وبوَزن كذا وبملامح كذا.. ثم لهذا الإنسان ماهية وعالم ظاهري وعالم داخلي وفكر وقرب من الله أو بُعد عنه. فإذا تم تناول الإنسان من زاوية ذاته فيجب تناوله من الناحية الثانية أي من ناحية ماهيته، لأن الناحية الأولى ليست سوى مجرد هيكل. إذن فذات الإنسان ونفسه بهذا المعنى شيء، وجسده شيء آخر. وعندما يتناول القرآن موضوع خلق حواء يقول إنها خلقت ﴿مِنْهَا﴾ أي من "نفْس" آدم وليس من آدم.

كما أن الحديث الوارد في هذا الخصوص ليس متواتراً بل حديث آحاد، لذا وجب شرحه بالآيات. وهذا أصل مهم من أصول إيضاح الآيات والأحاديث. فالآيـة هنـا متواترة وهي كلام الله، لذا وجب إرجاع الحديث إلى الآية لشرح نواحيه المبهمة. ومن المهم إيضاح الأجواء المحيطة بهذا الحديث الشريف والقاعدة التي استند إليها، إذ يجـب الانتباه إلى هذا الأمر.

فالرسول ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلقنَ من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».[1]

إذن فسبب إيراد هذا الحديث أو المناط هنا هو تربية النساء وسياسة البيت. أجل! فإن أردت إصلاح المرأة بسرعة واستعجالٍ كسَرتَها، وإن أهملت إصلاحها بقيت كما هي. والرسول ﷺ عندما يريد شرح هذا الموضوع يشير إلى ناحية مهمة وهي أن المرأة أكثر قابلية من الرجل للاعوجاج. وهي أكثر رقة وأكثر قابلية على الانكسار. إذن فإن الشيء الذي يريد الحديث الشريف شرحه ليس خلق حواء من ضلع آدم، بل الإشارة إلى أن المرأة إن تُركت لحالها بقيتْ عوجاء، وإن تمت محاولة تعديلها بسرعة انكسرت.

ولا شك أن إيراد العبارة بهذه الصيغة له حكمة. فالرسـول ﷺ عندما يورد هذا الحديث يقول «خُلقنَ من ضلع»، ويأتي "من" في العربية أحياناً بمعنى التبعيض أي جزء

[1] البخاري، النكاح ٨٠.

من شيء، أو بعض هذا الشيء. ويأتي بمعنى "البيان" أحياناً، أي من جنس هذا الشيء. لذا فبما أن الرسول ﷺ لم يحدد المسألة تماماً فإنها تتحمل أوجهاً عديدة من المعاني.

هناك أمثلة عديدة مشابهة لهذا في الأحاديث النبوية الشريفة، فمثلاً يقول ﷺ: «لا تُصلّوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين»[1] أي كأنها فضلة من شيطان.

يفهم من هذا الحديث بأن لكل إنسان شيطان -كما ورد في حديث آخر «ليس مِنكم مِن أحَد إلاّ وقَد وُكِّل به قرينُه من الشّياطين»[2]- كذالك للحيوانات شيطان آيضا؛ فبعبارة أخرى إن بعض الحيوانات تتصرف أحياناً كتصرفات الشياطين، أي يجلب انتباهنا إلى التصرف الشيطاني. عندما نرى شخصاً غليظ الإحساس متبلد الشعور نقول عنه "هذا الرجل مخلوق من حطب". ولا شك أننا لا نعني أنه خلق من حطب، بل نريد التعبير بشكل رمزي عن تبلد أحاسيسه وقلة شعوره وفقره من ناحية العاطفة. وعندما نقول "إن الشخص الفلاني شيطان" فإننا نريد الإشارة إلى أنه يقوم بتضليل الناس وإغوائهم وجرّهم إلى طريق الإثم.

والآن لنتأمل حديث الرسول ﷺ في ضوء معنى الآية: المرأة خُلقت من ضلع آدم عليه السلام، أي أن المرأة جزء من الرجل، أي من جنسه، أي من نفس خواصه الوراثية. ولو لم يكن الرجل والمرأة من جنس واحد لَما كان هناك إمكانية التناسل فيما بينهما، لأن الآية تستمر هكذا: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء:١) أي لو كانا جنسين مختلفين لما حدث التناسل بينهما، إذن يجب أن يكون من الجنس نفسه. وكلمة "الضلع" الواردة في الحديث يفيد معنى الْمَيل للعوج وسهولة الاعوجاج أكثر من معنى الاعوجاج نفسه.

وقد اختار الرسول الكريم ﷺ هذا التعبير بعناية، أي أن المرأة أكثر قابلية من الرجل للاعوجاج. وهذا أمر لا يحتاج إلى نقاش، لأن حال العالَم تشهد على هذا. فأهل الغفلة وأهل الضلال يستخدمون المرأة كمِصيَدة لإغواء الرجل. وقد ابتذلت المرأة في هذا القرن العشرين ابتذالاً لم يشهده أي عهد وأي عصر. فاستخدامها في أكثر الإعلانات ابتذالاً لكي تكون مؤثّرة، وجعلها أداة طيعة مؤشر لضعفها، هذا الذي ذكره الحديث الشريف

---

[1] أبو داود، الصلاة ٢٥.

[2] المسند للإمام أحمد، ٤/٢٨٨.

ودليل عليه. إذ أيستطيع أحد تبرير استخدام صور المرأة في إعلانات إطارات السيارات وأثاث البانيو والحمام، وفي إعلانات اللحم المقدد والهامبرجر؟ وما العلاقة بين المرأة وبين هذه الأشياء؟ إذن فالرسول ﷺ يخبرنا بأن المرأة خلقت من أعوج مكان للرجل. وكان استخدام المرأة -ولاسيما في هذا العصر- أداة في يد أهل الضلالة والغفلة تأييداً لهذا الحكم. فكأن المرأة أصبحت رمزاً لأكثر جوانب الجنس الإنساني اعوجاجاً. ولا شك أنه لم يكن من الممكن استعمال تعبير أجمل في شرح هذا الأمر.

دعنا نتناول أمراً آخر في هذا الخصوص. فقد جاء في فصل "التكوين" في التوراة[١] بشكل واضح بأن حواء خلقت من جنب آدم عليه السلام. ولا بأس من هذا، ذلك لأن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بمعجزة. ولا محل هنا للاستغراب من أخذ جزء من آدم —وهو بين الماء والطين— لخلق أمّنا حواء. فآدم وحواء عليهما السلام ليسا إلاّ أثراً من إعجاز الخلق الأول.

والعلم هنا لا يستطيع أن يدلي بدلوه حول هذا الخلق الأول، فهو هنا أعمى وأصم وأخرس وأبْكم، لأننا نعد هذا الخلق معجزة ونسلم كل شيء لما قاله الله تعالى. ولا نسلم بهذا تسليماً أعمى، بل تسليماً بعد رؤية ومشاهدة ومعرفة إرادة الله تعالى وحكمه القهّار وعلمه الْمُحيط بكل شيء من نافذة العلم بدءً من الذرة وانتهاء إلى الكون بأكمله... أي نقبله بعقولنا وبقلوبنا. والله تعالى هو الأعلم بالصواب، والصوابُ في كلامه الجليل فقط.

---

[١] الكتاب المقدس (العهد القديم)، كتاب: التكوين، باب: ٢، الآية: ٢١-٢٣.

بما أن الأرواح غير متغيرة، إذن فهي ليست حادثة، ما قولكم في هذا؟

هذه مسألة من المسائل العميقة في علم الكلام، وهي تحتوي على ما يأتي: نحن نقول بأن الكون متغير وعرضة للتبدل باستمرار، لذا نقول عن الكون إنه حادث، أي أنه خلق فيما بعد، وأنه سائر نحو الاضمحلال، وهو يتحرك بشكل دائم ويتحلل. ونقـــول "إن منظّم وبارئ هذا "الكون المتحول" مبرّأ من التبدل والتغيّر"؛ أي يمكن إطلاق اسم مبدأ رجوع المتبدل إلى غير المتبدل، أي إن كل شيء متغير ومتبدل يدل ويشير إلى الـــذات الأقدس المبرأ من التبدل والتغير والتحول، وهو الله ﷻ الواجب الوجود. وهو منــــزه عن جميع العوارض الكونية والبشرية. لذا فالمسألة أعلاه ترد عند سرد هـــذه الصـــفات الإلهية، ويرد هنا سؤال وإشكال:

إن الله لا يتغير ولا يتبدل، لا يأكل ولا يشرب، أزلي، ووجوده من ذاته وهو أبدي كذلك. ولكن من جهة أخرى للروح أيضا بساطته، أي إن الروح غير متركب من مادة، وهو من عالم الأمر -كما جاء في القرآن- وليس من عالم الخلق (أي ليس وجوداً ناشئاً من اجتماع الذرات)، بل هو من القوانين النورانية الشاعرة جاء إلى الوجود -مثل الملائكة الكرام- بأمر من الله تعالى؛ أي أن الروح قانون مثل قانون الجاذبية الموجودة بين نواة الذرة والألكترونات ومثل قانون النمو الموجود داخل البذرة. ولكنه يملك شعوراً، بينما لا تملك القوانين الأخرى حياة ولا شعوراً.

الروح بسيط بمعنى أنه غير مركّب من المادة، لذا لا يتحلل ولا يتأين "أي لا يتحلل إلى أيونات"، وله وجود ثابت. لذا قد يخطر على بال البعض بأنه يشبه الله تعالى -حاشا لله- في هذه الناحية. أي كما أن الله منـــزه عن التغيّر فالروح أيضا لا يتغير... فما الفرق إذن؟

إن الله تعالى منـــزه عن التبدل والتغير وعن الألوان والأشكال تنـــزها نابعاً من ذاته. بينما خُلق الروح بسيطاً من قبل الله تعالى. فالله خالق والروح مخلوق، والله قائم

بذاته وموجود بذاته بينما الروح -وكذلك سائر الموجودات- قائمة به ﷻ. فكل شيء يمد يده يطلب العون والمساعدة منه ﷻ. بينما يقوم الله تعالى بسر كلمة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بإعانة الجميع ومساعدتهم. وكذلك الروح فهو مخلوق من المخلوقات الْمَادَّةِ يَدِ الاستعانةِ والحاجةِ والسؤال إليه تعالى. ووجود الروح قائم بالله، أي هو موجود طالما استند إليه ﷻ، فإن لم يستند إليه فني. والله تعالى خلق الروح كقانون ذي شعور مستند إلى قدرته تعالى وإرادته، ووجوده مستمر ودائم بهذه الصيغة فقط.

نستطيع إعطاء مثال يقرّب هذا إلى الأذهان: إن للشمس ضياء وشعاعاً وألواناً، ونشاهد هذا في القمر أيضا؛ ولكن إن افترضت فناء الشمس فإنك لن تستطيع تصور أي ضوء أو نور في القمر. فالنور الموجود في القمر أثر أو عرض من الأضواء الأصلية الموجودة في الشمس. فإن تخيّلنا فناء الشمس فلا يبقى هناك مجال لدوام واستمرار النور في القمر. فهل تستطيع في مثل هذه الحالة المساواة بين الشمس والقمر؟ كلا. والقرآن يصف القمر قائلا ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان:٦١) ويصف ضوءه ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس:٥) و﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح:١٦)، بينما يصف الشمس بأنها ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٦) و ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (النبأ:١٣). صحيح أن هذا المثال وهذا التشبيه لا يناسب مقام الألوهية السامية. ولكن كانت هناك حاجة إلى تشبيه مادّيّ لكي تستطيع الأذهان فهم الموضوع.

وسيعطي الله تعالى البقاء والخلود إلى الأجساد أيضا إضافة إلى الأرواح في الآخرة. الله باق... وهم باقون... ولكن بقاءهم مرهون وقائم به تعالى، إن أراد أفناهم جميعاً. أما وجوده هو تعالى فقائم به وبذاته... يمكن أن يفنى الجميع... أما الذات الأقدس فهو منـزه عن جميع العوارض ومبرَّأ منها.

يقول الله تعالى في آية: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢١)، ألا يكون الله تعالى بهذا منحازاً إلى قِسم من عباده؟

نقول أولاً إن الله تعالى إن إنحاز إلى قِسم من عباده فليس من حق أحد أن يقول له "لماذا فعلت هذا؟" لأن الله تعالى هو مالك الملك،[1] وهو المتصرف بنا وبكل شيء، ولا يملك أحد أي حق لأي ادعاء أو لأي اعتراض عليه ﷻ. فهو مالك كل شيء والمتصرف بكل شيء حسبما يشاء. لذا فعندما يتم توجيه سؤال متعلق به سبحانه، فيجب أن يكون السؤال في غاية الأدب وفي غاية الاحترام. فالكل في قبضة تصرفه وهو مالك ومليك كل الملك.[2] وليس من حق أحد توجيه أي سؤال بهذا الأسلوب، لأنه يكون منافياً للأدب الواجب تجاهه تعالى.

ولكن يمكن أن يُقال: "إن كان الله تعالى يوجهني إلى الهداية أو إلى الضلالة، إذن فعلى أيّ أساس وعلى أي مبدإ أو حكمة يؤاخذني؟ ذلك لأنه هو الحاكم المطْلق فما حِكمته يا تُرى في هذا الأمر؟"

أجل! إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. فقد ذكر هذا الأمر في مواضع مختلفة وبشكل متكرر في القرآن الكريم.[3] فالمشيئة الإلهية هي الأساس، والذي يجب الانتباه إليه في هذا الخصوص هو أن الهداية والضلالة من خلق الله تعالى، ولكن السبب يعود إلى مباشرة العبد. غير أن مباشرة العبد ضعيفة إلى درجة يمكن إهمالها، وإرجاع كل شيء إلى الله تعالى خالق جميع الأكوان. لنوضح هذا بمثال:

إننا نقوم بأعمال معيّنة كالشرب وتناول الطعام. ونتيجة لهذا الأكل والشرب تدخل بروتينات وفيتامينات ومعادن مختلفة إلى أجسادنا وتأخذ أماكنها وتجري تأثيراتها وتوفي بوظائفها فيها. وهذه المسائل قائمة على أسس حساسة بحيث أن قيام الإنسان بوضع

[1] انظر: فاطر: ١٣؛ الزمر: ٦؛ الشعراء: ٣٩؛ الزخرف:٥١؛ الملك:١.
[2] آل عمران: ٢٦؛ المائدة: ١؛ إبراهيم:٢٧؛ البروج: ١٦.
[3] انظر: الأعراف: ١٨٦؛ الكهف: ١٧؛ الزمر: ٣٧.

اللقمة في فمه لا يكفي لتحقيقها. وحتى لو فرضنا أنه يكفي، فإن مجرد وضع اللقمة في الفم يحتاج إلى قوة في اليد ودراية في الدماغ. وكل هذه الأمور معطاة من قبل الله تعالى.

والإنسان ما أن يضع اللقمة في فمه حتى يثير الله الغدد اللعابية فيترطب الفم، وما أن يترطب الطعام في الفم حتى تُعطى الإشارة إلى الدماغ الذي يقوم بإرسال الشفرات إلى المعدة: "انتبهي! عليكِ بافراز العصارات اللازمة، لأن النوع الفلاني من الطعام في طريقه إليك". وهنا تستعد المعدة بكل غددها وبكل خدماتها وتبدأ بالعمل. وحتى هذا الجزء من العملية لو قام عقل الإنسان بحسابه والتفكير به لَمَا استطاع إلا تناول جزء منه. وقد يتناول الإنسان ويبلع طعاماً عن طريق الخطأ.

تقوم المعدة بالوظائف العائدة لها فتذيب ما تستطيع إذابته كالنشا والكلوكوز. ولا ينتهي الأمر هنا، فعندما يكون الطعام في طريقه إلى الأمعاء يتم إرسال شفرة: "الأطعمة التالية في طريقها إليك" أي الأنواع الصلبة التي لا يمكن هضمها إلا بتدخل الأحمضة. ولا دخل للإنسان في المرحلة التالية أيضا. ثم تذهب المواد السليلوزية إلى الأمعاء التي تبدأ بالفعالية، فإذا كان قسم من هذه المواد -مثل غلاف التفاح- لا يمكن هضمه لعدم وجود أنزيم يُذيبه تم طرحه خارج الجسم. كل هذه الأمور تجري بدقّة تامة ونتيجة شفرات التخابر المتبادلة حول ما يمكن أو لا يمكن إذابته وهضمه في المعدة، ثم يأتي دور الكبد التي تقوم بإيفاء المئات من الوظائف الملقاة على عاتقها.

فكما ترون فإن دخول لقمة واحدة إلى جسم الإنسان يستتبع ويستلزم حدوث آلاف من العلميات لكي تنقلب إلى شيء مفيد للجسم، ولا دخل للإنسان في أي عملية من هذه العمليات العديدة. فإذا قام إنسانٌ جاحد وقال: "لقد تناولت لقمة وقمت بخزن الحديد والفحم في جسدي، وإرسال إلى كل خلية ما تحتاجه منها. فمن احتاج إلى الفيتامينات أرسلت له تلك الفيتامينات، ومن احتاج إلى بروتينات أرسلت له البروتينات، كما قمت بتعيير السعرات ودرجات الحرارة وهيأت كل شيء، وسقت لكل شيءٍ ما يعينه على البدء بنشاطه وفاعليته" إن قال مثل هذا الكلام ألا يكون مدّعياً الشرك أي المشاركة في أفعال الله تعالى وإجراءاته؟.

قد يكون الأنسب هنا التفكير أو قول ما يأتي: "هناك يدٌ غَيبية تقوم بتحقيق كل

هذه الفعاليات الدقيقة الحافلة بالأسرار. فما أن أضع اللقمة في فمي حتى تبدأ سلسلة من الأشياء الغريبة بالحدوث. لذا فلا دخل لي في عملية هضم هذه اللقمة. فالله تعالى هو الذي خلق هذا العمل وخلق الهضم وما بعده". عندما نقول هذا القول لا نكون قد أسندنا عمل الإنسان إلى الله، بل ربما أسندنا عمل الله إلى الله. فما يعود للإنسان في هذا الخصوص ليس إلاّ مباشرة ضئيلة جدّاً، لذا لا يملك حق إسناد هذا العمل إلى نفسه.

لنأتِ إلى موضوع الهداية. إن الهداية مسألة مهمة جدّاً، وإرادة الإنسان في الحصول عليها والوصول إليها إرادة جزئية جدّاً، وتتألف من إظهار اللياقة والاستحقاق لهذه الهداية. فمثلاً: كثيراً ما أرغب في نقل جميع مشاعري وأحاسيسي بكل انشراح قلب إلى جماعة المستمعين، ولكن ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ﴾ (الإنسان:٣٠). فلا أوفّق في هذا ولا أستطيع إلاّ نقل شيء ما على قدر الإمكان. وكم من مرة أردت نقل الأحكام الإلهية والأحكام القرآنية بكل إخلاص قلب، فإذا بي أعجز عن هذا. وكم من مرة تمنيتُ أن أصلي صلاة خاشعة بحيث أنسى نفسي وأنقطع تماماً عن هذا العالم في وجد وفي استغراق، فلا أوفَّق إلا بنسبة واحد من الألف. إذن فلا يوجد في يدي -إن كنت مخلصاً- سوى رغبة مجردة، وما وراءها في يد الخالق. اللهم رحمتك نرجوا، لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك، فنهلك.

ولو تأملنا مليّاً لرأينا أن الأذواق الإيمانية ولذائذها، والشوق إلى الجنة والرضا بكل ما جاء من عند الله، والشوق إليه ليست إلا مواهب إلهية يضعها الله تعالى في جوانح الإنسان. وكل ما يعمله الإنسان هو المباشرة فقط. لذا نرى سعد الدين التفتزاني يقول في هذا الخصوص: "الإيمان شمعة يوقدها الله تعالى في روح الإنسان الذي يستعمل إرادته الجزئية في الحصول عليه". جُعلنا فداء لمن يوقد عندنا هذه الشمعة! أي إنك لا تملك في مثل هذا الموضوع الخطير سوى استعمال إرادتك الجزئية فكأنك تقوم فقط بلمس زرّ فإذا بحياتك كلها يغمرها النور. ويشبه هذا قيامك بالضغط على زرّ الكهرباء لثريّا تحوي آلاف المصابيح الكهربائية. أي إن مثل هذا التوجّه الصغير للإرادة الإنسانية الجزئية باتجاه الإيمان، ومثل هذا العمل الضئيل... يكون وسيلة لإيقاد نور الإيمان.

أجل! نحن مضطرون إلى فهم هذه المسألة على مثال تناول لقمة الطعام ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ

إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان:٣٠) و﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (المدثر:٣١). إذن فلا توجد إرادة تعلو على إرادته سبحانه وتعالى، فهو يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

والخلاصة أن معظم الأمر يعود إليه تعالى، ونصيبنا من الأمر شيء ضئيل إلى درجة أنه يمكن إهماله، لذا فإن الادعاء بـ"أن الأمر راجع إلينا" يعد جرأة غير مقبولة.

هناك حديث يقول "تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادة سَنَة"، فما طريق التفكر وأصوله وطريقته؟ وهل هناك وِرد وذكر خاص به؟ وأي الآيات أكثر دعوة للتفكر؟ وهل يحل الدعاء الصامت محل التفكر؟

أعتقد أنه عندما تم توجيه السؤال تم إعطاء الجواب عليه أيضا. صحيح أن هناك حديثاً ضعيفاً يذكر أن تفكر ساعة خير من عبادة نافلة لمدة سنة: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»[1]، ولكن هناك آيات عديدة في القرآن الكريم تؤيد هذه المسألة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَٱلاَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠).

أجل، إن النظام المذهل الذي تجري ضمنه حركات الشموس والأقمار وشروقها وغروبها لآيات لأولي الألباب. ففي هذه الآية دعوة صريحة للتفكر وللتأمل. وقد قال رسولنا ﷺ في هذه الآية: «لقد نزلتْ عليّ الليلة آية، وَيْل لِمن قرأها و لم يتفكر فيها».[2]

وعن أمنا عائشة رضي الله عنها أتاها رسول الله ﷺ في ليلتها، بعد فترة قال: «ذرِيني أتعبد لربّي ﷻ» قالت: فقلت والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تَعَبّد لربك، فقام إلى القربة فتوضأ و لم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح. قالت: فقال: يا رسول الله! ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: «ويحكَ يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَٱلاَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠)». ثم قال: «ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها»[3].

---

[1] المصنوع لعليّ القاري، ٨٢/١ ؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٧٠/١.

[2] صحيح ابن حبان، ٣٨٦/٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٤/٢؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٩٧/٤.

[3] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٤١/١؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤٩٧/٤.

إن هذه الآية ومثيلاتها تعد رائدة ومرشدة وفاتحة لطريق الفكر والتأمل، ولها دلالات خاصة في إيضاح أبعاد التفكر في الإسلام. ولكن يجب معرفة معنى التفكر. أولاً يجب أن يستند التفكر إلى معلومات أولية، وإلا فالتفكر الجاهل والأعمى لا يؤدي إلى شيء. ومثل هذا التفكر المنغلق لا يؤدي بعد حين إلا إلى الملل، ثم يدع الإنسانُ التفكر. لذا فمن الضروري للإنسان أن يعرف الموضوع الذي يتأمله ويتفكر فيه معرفة جيدة، وأن تكون الأمور التي ستكون موضعاً للتأمل حاضرة وجاهزة في ذهنه، أي يجب أن يملك معلومات مُسبَقة حولها لكي يستطيع أن يفكر تفكيراً منظماً ومَنهجياً.

فإذا كان يعرف ولو شيئاً معقولاً حول الأقمار والنجوم وحركاتها وعلاقاتها بالإنسان، ويعرف شيئاً عن الفعاليات المدهشة للذرات التي تشكل الإنسان، وعن حركاتها.. في هذه الحالة عندما يفكر هذا الإنسان بهذه المواضيع يمكن أن نطلق على هذه العملية عملية تفكر وتأمل. ولا نستطيع أن نقول لمن يذكر شيئاً عاطفياً أو شعرياً حول حركة الشمس أو القمر إنه شخص مفكر، بل نقول عنه إنه شخص ذو خيال. كذلك لا يمكن إطلاق صفة التفكير على بعض الطبيعيين، أي الذين يُرجعون كل شيء إلى الطبيعة. أما العديد من الكتّاب والشعراء المشهورين في عهد الجمهورية فلا يستحق منهم إلا عدد ضئيل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة صفة المفكّر. أما هذا العدد الضئيل فقد حُوربوا وطوردوا ولم يسمح للمجتمع أن يعرفهم ولا أن يشتهروا.

في هذا العهد هناك عدد قليل من الذين حاولوا نبش الوجود وماهية الأشياء، ولكنهم لم يستطيعوا أبداً الوصول إلى حقائق الأشياء. صحيح أن الإنسان عندما يقرأ شِعر شعراء الطبيعة ووصفهم لخرير الماء ولقطرات الأمطار وهمهمة الأشجار وتغريد الطيور يُحس كأنه في الجنة، ولكن لكونهم محرومين من حس الآخرة ولكونهم أعداء الماضي وجهلاء الحاضر فإنهم لن يصلوا إلى أي نتيجة، بل يبقون ضمن نطاق هذا العالم الظاهري، ولا يستطيعون النفاذ إلى خلف أستار هذا العالم وحجبه، لأنهم يشبهون مسافراً بقارب صغير ذي مجداف واحد يدور حول نفسه في محيط شاسع لا نهاية له. وترى انسداداً وانغلاقاً في كل ناحية من نواحي تفكير هؤلاء. وما يطلق عليه هؤلاء على أنفسهم من صفة التفكير لا يعدو عن شعورهم باليأس والألم أمام هذا الانسداد

والانغلاق. ومن الطبيعي ألا تكون هناك أي فائدة من مثل هذا النمط من التفكر.

من أجل التأمل والتفكر يجب أولاً توفر معلومات أولية، ومعرفة لحقيقة الوضع الحالي، وإجراء تراكيب فكرية متلائمة مع الذات، أي "غير مقلّدة". وتوفر خزين فكري ورغبة ومعاناة للألم في سبيل البحث عن الحقيقة. والشخص الذي يستطيع التفكر على هذا النحو وبشكل مستمر، يستطيع الوصول إلى أشياء وآفاق جديدة. وعندما يجعل هذه الآفاق الجديدة بداية لحملةٍ فكريةٍ أخرى يستطيع الوصول إلى نتائج جديدة والى عمق فكري أبعد. ثم يستطيع تحويل فكره ذي البعد الواحد أو ذي البعدين إلى فكر ذي ثلاثة أبعاد أو أكثر، أي يصبح مع الزمن "ذا الجناحين" في عالم الفكر، فيصل إلى مستوى الإنسان الكامل.

إذن فالأساس الأول للتفكر هو التعود على القراءة وعلى مطالعة كتاب الكون، ثم فتح صدره وقلبه للإلهامات الإلهية، وعقله لمبادئ الشريعة الفطرية والنظر إلى الوجود بعدَسة القرآن الذي يُعد الكتاب المقروء للكون. هذه هي شروط التفكر، وإلا فإن النظر السطحي إلى الأشياء، ومعرفة أن هذا النجم هو الزهرة، وأن مغيب الشمس سيكون هكذا، وأن المرّيخ في الموضع الفلاني... الخ، مثل هذا الجمع العشوائي للمعلومات الذي لا غاية له ولا هدف لا يمكن أن يكون تفكراً ولا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة أو إلى غاية. ومن المشكوك استحقاقه لأي ثواب.

والسبب في كون ساعة من التفكر والتأمل تعادل كذا سنة من العبادة، هو أن الإنسان يستطيع في ساعة واحدة من التفكر الصحيح المثمر تغذية أسس إيمانه وتقويته، فتبرق في نفسه أنوار المعرفة وتومض في قلبه المحبة الإلهية، فيصل إلى الأشواق الروحية ويطير في أجوائها.

وهكذا فإن أي إنسان يسلك هذا الطريق من التفكر يستطيع الوصول إلى مرتبة لا يصل إليها شخص آخر -محروم من هذا الأسلوب في التفكر- في ألف شهر[1]، أي يحصل هذا المتفكر على مكاسب كبيرة. أما من لم يستطع التوجه إلى ربه بهذا الشعور والفهم فإنه إن

---

[1] عن أنس «تفكر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة» (الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع الهمذاني، ٧٠/٢).

ولّى وجهه قبل المشرق والمغرب مئة سنة لا يستطيع تسجيل خطوة واحدة إلى الأمـــام، ولا يعادل ما فعله ساعةَ تفكرٍ واحدة. ولكن هذا لا يعني أن قيامه بالعبادة مئة سنة ذهب سدى، فلن يُضيع الله أجر ركعة واحدة ولا سجدة واحدة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـــرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلـــزال:٧-٨)، أي أن كل شخص سيلاقي جزاء ما عمله. وعلى هذا الأساس فإن هذا الشخص أدى وظيفة عبوديته وأسس نوعاً من العلاقة بينه وبين ربه، ولكنه لم يصل إلى المرتبة التي يتم التوصل إليها بالتفكر. أجل! إن مثل هذا المستوى من التفكر قد يقابل مئة عام من العبادة.

هناك سؤال آخر مطروح وهو "أيوجد هناك وِرد أو ذكر خاصّ يشكل أساســاً أو وسيلة للتفكر؟ وهل يستطيع وِرد أو ذِكر معيّن توسيع تفكر الإنسان؟"

يتعلق هذا أيضا بمقدار الشعور والفهم والاحساس الذي يتم به هذا الورد أو الذكر. مثله في ذلك مثل مطالعة كتاب الكون. فالدعاء الذي يتم بشعور وإحساس والمناجـــاة الضارعة المملوءة عاطفة ووجداً تستطيع فتح أكثر المفاتيح صدأ داخل الإنسان. غير أنني لا أستطيع ذكر من أين وكيف يتم اختيار مثل هذا الورد أو الذكر. ذلك لأن هذا الأمر يختلف حسب القابليات وحسب الاستعدادات، كذلك حســـب إيمـــان الأشـــخاص وقناعاتهم. لذا فمَن أراد قرَأ ورد "الجوشـــن" ومـــن آراد قـــرأ "الأوراد القدســـية" أو "المأثورات" أو الأوراد التي كان يقرأها الشيخ الشاذلي أو أوراد الشيخ الكيلاني أو أحمد الرفاعي أو أوراد أحمد البدوي قدس الله أسرارهم. وعندما يقرأ الإنسان أوراد هـــؤلاء السادة العظام يحس وكأنهم في جانبه وبالقرب منه، فلا يشبع من لذة الأشواق التي تغمر قلبه. كم أتمنى لو أن الجميع قرأوا هذه الأوراد واستفادوا منها. لأنهم يجـــددون بـــذلك أنفسهم ويقوون صلتهم بالله تعالى.

وأمر آخر في هذا الخصوص: أتَحلّ الآيات الداعية إلى التفكر والمقـــروءة بشـــكل صامت مكان التفكر؟

إن لم يستطع الإنسان فهم ما يقرأه ويردده فلا يستطيع الانسجام معه والتعمق فيه. يتحقق له الثواب، ولكن لا تتحقق ناحية التفكر هنا. والتفكر يأتي من كلمة "الفكـــر"، أي عملية ضم الوقائع بعضها مع البعض الآخر وإجراء تركيب بينها. صحيح أن وضع

علاقة بين السبب وبين النتيجة أي بين العلة والمعلول وتقوية العلاقة بين العبد والخالق يعد تفكراً، إلا أن الأوراد التي لا توصل إلى مثل هذه العلاقة المقدسة وإن كانت هذه الأوراد تعود إلى رجال كبار وعظام إلا أنها لا تعد تفكراً ولكنها تعد ثواباً. ولكي تُعد تفكراً فإنها متعلقة بدرجة قيامها بإثارة الروح والقلب وبدرجة تعميق علاقتنا مع ربنا وتقويتها.

ندعو من الله التوفيق، ولا ننسى أن نذكر بأن التفكر هو من أندر الأمور في أيامنا الحالية. فإن قلنا بأن إنساننا الحالي مقصر جدّاً في هذا الأمر فلا نكون مبالغين أبداً.

هناك حديث نبوي يقول: "من تمسك بسنتي عند فساد أمّتي فله أجر مائة شهيد"[١] فهل توضِّحون كيفية تعلم السنة السنية وتطبيقها حسب شروط هذا العصر؟

الكتب الموجودة بين أيدينا تناولت هذا الأمر بالتفصيل وبينت كيف أن السنة هي الطريق الموصل إلى الحق[٢]. أجل لقد قامت السنة ببيبان هذا الطريق وحثتْ عليه حثّاً كبيرا. ولو اجتمع آلاف الأولياء وآلاف الأدمغة وحاولت وضع طريق أو مبدإ لَما بدت هذه الطرق ولا دساتيرها إلا كبارقة ضوء خافتة أمام أضواء أصغر مسألة من مسائل السنّة النبوية. لذا فما زال المئات من المرشدين والمئات من أهل الحقيقة يكررون المرة تلو الأخرى وينبهون بأن طريق السنّة هو طريق الدين.

إن النبي ﷺ الموجَّه والمراقَب من قِبل الله تعالى والمرسل إلينا ليعلمنا الحياة هو الذي شرح لنا كل شيء اعتباراً من الفروض والواجبات والسنن وصولاً إلى المستحب والمباح وآدابها. جاء في أحد الأحاديث القدسية: «عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إن الله قال: من عادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترَضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمَع به وبصره الذي يُبصر به ويدَه التي يبطش بها ورِجلَه التي يمشي بها، ولإن سألَني لأعطينَّه ولَئن استعاذني لأُعيذنَّه»[٣].

أي إن الله تعالى يريه الأشياء بشكلها وبوضعها الصحيح. ويوفقه لتقييم الأمور تقييماً صحيحاً، ويفتح له من كل شيء درباً إلى الحقيقة. فإن رأى الهداية طار إليها،

---

[١] كتاب الزهد الكبير للبيهقي، ١١٨/٢؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٣١٥/٥؛ المسند للديلمي، ١٩٨/٤؛ فيض القدير للمناوي، ٢٦١/٦.

[٢] انظر: المكتوبات للإمام الرباني فاروق السرهندي، رقم المكتوب: ٧٥، ٩٤، ٢١٠، ٢٦٠؛ المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، المكتوب الخامس؛ واللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة الرابعة، اللمعة الحادية العشرة.

[٣] البخاري، الرقاق ٣٨؛ المسند للامام أحمد، ٢٥٦/٦.

وإن رأى ضلالة هرب منها. عندما يسمع صوتاً يدعو إلى الحق يستجب له ويبدأ روحه بالسموّ. عندما يتكلم يوفقه الله لقول الحق. عندما يعمل يسوقه الله إلى الأعمال النافعة وإلى الخير والجمال. أي أنه يسوقه على الدوام إلى الطريق المؤدي إلى الجنة ولا يدعه لحظة لنفسه. ولأنه يهدف للحصول على رضا الله تعالى في كل أعماله، فإن الله يحركه على الدوام ضمن دائرة مرضاته. لذا فإن الله تعالى جعل حياة الرسول ﷺ والأشخاص المهمّين الذين جاءوا بعده تحت مراقبته وسد أمامهم جميع الطرق الخارجة عن طريق مرضاته، وجعل طريق السنة هو الطريق الوحيد المفتوح أمامهم.

والآن لا يوجد طريق غير طريق السنة يؤدي إلى الهدف بشكل مضمون لا شبهة فيه. لذا فمن الطبيعي أن يكون إحياء السنة عند انتشار الفساد، أي إحياء الطريق الذي يبين الفرائض والواجبات والسنن، والقيام بأي خدمات وجهود لجعله سالكاً من جديد ومضموناً وآمنا حتى يوم القيامة، تعد خدمات وجهوداً مقدسة تَرفع أصحابها إلى مرتبة الشهداء، بل هناك العديد من بين هؤلاء من يحصل على أجر عدة شهداء في كل يوم من أيام عمره. أما الذين يحاولون من بين هؤلاء إحياء أركان الإيمان فهم يكسبون ثواباً أكثر من ثواب مائة شهيد.

أجل هناك مسائل في السنة السنية مَن أحيا مسألةً واحدة منها كان له أجر مائة شهيد. فكما أن هناك نوعاً من الغِيبة يكون أشد من قتل إنسان أو من الزنا[1]، لأن الغيبة التي تزرع الفساد في المجتمع وتؤدي إلى الاضطراب والفوضى فيه أشد من غيبة شخص اعتياديّ، فهنا يكون الإثم أكبر من هذا الإثم الفرديّ، كذلك ففي المسائل التي دخلت فيها الأمة إلى الفساد وتعطلت جميع أجهزة الدولاب الإسلامي، فإن القيام بإحياء أي مسألة دينية في مثل هذا الفساد الضارب أطنابه في كل مكان سيكسب ثواب مائة شهيد بل ربما ثواب ألف شهيد.

أما إنجاز مثل هذه الأعمال في يوم مبارك وفي لحظة مباركة فقد يكسب صاحبها ثواباً أكبر. والله تعالى يذكر في القرآن الكريم أن الله يعطي ويزيد من فضله وإحسانه

---

[1] انظر: الحجرات: ١٢؛ المسند للديلمي، ١١٦/٣.

على من يشاء من عباده[1]. نسأل الله تعالى أن يجعل من نصيبنا الاستمرار في هذا الطريق بشكل دائم وأن يوفّقنا إلى الخدمة بإخلاص.

نحن سعداء ومحظوظون جدًّا. فعندما يتم ذكر خدماتنا نقول: "إن الوظيفة الملقاة على عاتقنا إنما هي فضل وإحسان إلهيّ". أجل فقد وُظّفنا في هذا العهد الذي اختلط فيه الحابل بالنابل بوظيفة مقدسة وغالية. وإن إحياء هذا الدين بكل مؤسساته وبكل كادره وبكل جماعته عملٌ لا نظير ولا مثيل له في العالم. وهو من جانب آخر استمرار لوظيفة الرسول ﷺ ومتابعة لدعوته. وإن ظهور فخر الكائنات ﷺ تنـــزلاً منه في رؤى العديد من تلاميذه المعاصرين وزيارته لبعض مؤسسات الخدمة الإيمانية والقرآنية ليست إلا من كرامات السنة السنية وخدمة هذه السنة، وليس نتيجة أي ميزة شخصية لأي شخص.

وإن حصول الأشخاص والجماعات والمؤسسات على حصص أعظم من هذا الثواب على قاعدة «الدالُّ على الخَير كفَاعله»[2] ليس إلا فضلا آخر من الله ﷻ، وهو ما يُنتظر منه ومن رحمته الواسعة الشاملة. ولكن إنْ لم يقم الذين أوصلوا الخدمة الإيمانية والقرآنية إلى هذا المستوى بالمحافظة على المستوى نفسه من الإخلاص والحماس ستؤخذ الأمانة منهم وتودع إلى آخرين، أي سيتم نبذهم ورفضهم. ونحن إذ ندرك ونقدر العناية الربانية نعرف بأننا إن بذلنا كل طاقاتنا وصرَفنا كل جهدنا واستفدنا من اللطف والرعاية الإلهية فإننا نستطيع اجتياز الامتحان ونكون مظهَراً لألطاف أخرى.

وكم نتمنى أن يستمر أصدقاؤنا حتى يأتيهم اليقين بنفس الهمة وبنفس الحماس والوجد في خدمة القرآن والإيمان... هذه الخدمة التي تكسب في كل آن ثواب شهيد.

---

[1] انظر: آل عمران: ٧٣؛ المائدة: ٥٤.

[2] مسلم، الإمارة ١٣٣؛ الترمذي، العلم ١٤؛ أبو داود، الأدب ١١٥.

ما رأيكم فيما يقال حول العثمانيين؟ ولماذا أسلم الأتراك؟

في السنوات الأخيرة كيلت لهم وافتراءات غريبة ولا تخطر على الخيال ضد العثمانيين. ويشير رئيس المشيخة العثمانية الأخير العلامة "مصطفى صبري" رحمه الله في كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" إلى موضوع مهم إذ يقول: "لا يمكن أن تشاهد أمة أخرى في تاريخ البشرية عدوة لآبائها وأجدادها مثل أمّتنا".

فالخَلَف في كل أمة يمدح سلفه سواء أكان رجل علم أو رجل اجتماع أو ولياً أو أديباً. فمثلاً كتب "بَطليموس" بعض الكتابات حول الجغرافية وحول علم "الكوزْموغرافية"[1] ثم جاء "كوبَرنيك" وذكر بأن قسماً من كتابات "بطليموس" خاطئ، ولكنه ذكر ذلك في صيغة مؤدبة: "لتسعد روحك يا بطليموس! صحيح أن هناك أشياء خاطئة فيما كتبته. ولكن لم يكن أمامك طريق آخر، فقد كانت معارف وعلوم عصرك بذلك القدر، وما كان بإمكانك تجاوز ذلك".

بعد "كوبَرنيك" جاء "غاليلو" ثم "أنشتاين"، وقد مدح أنشتاين كلا من "كوبرنيك" و"غاليلو"، فقد عدهما من مؤسسي قواعد علم الفلك، وشكرهما مع قيامه بتصحيح ما رآه من أخطائهما، ولكن لم يقم بلعنهما. أجل، هكذا يفكر الغرب.

انتقل رقم الصفر من الهند إلى الأناضول، وانتقل من الأناضول بيد المسلمين إلي أوروبا التي كانت تستعمل الأرقام الرومانية. والحقيقة ما كان في الإمكان إجراء العمليات الرياضية والهندسية بهذه الأرقام. وقام مسلمو الأناضول بإيصال الصفر إلى أوروبا. وما أن وصل الصفر إلى هناك حتى دبت الحيوية في الأرقام. ومع أن الأوروبي تصرف بجحود نوعاً ما نحو رجال العلم عندنا إلا أنه قدّر وقيّم تقييماً جيداً موضوع استعمال الصفر والمبادئ الجديدة التي جاءت مع الرياضيات. ولولا الصفر لَما استطاعت

---

[1] وهو يشمل علم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا. (المترجم)

أوروبا حل أي معضلة علمية، ولما استطاعت غزو الفضاء. صحيح أن ما أُهدي إليهم كان "صفراً" إلا أن نتائجه كانت مهمّة جدّاً.

أما أمتنا أقول لكي أعطي فكرة وجيزة: إن الإمام الغزالي جاء إلى الدنيا عام ١٠٥٨م، أي قبل ألف سنة تقريباً. ولكنه سبق ثقافة عصره وعلومه، فقد ذكر أشياء مهمة حول الفلك والطب والهندسة. حتى أن "جب" قال عنه: "أنا لا أعرف في تاريخ الإنسان شخصاً آخر مثله استطاع أن يستوعب ثقافة عصره استيعاباً جيداً ثم نقلها إلى الأجيال بعده".

ولو قمنا بجمع كتب فخر الدين الرازي رحمه الله ووضع أحدها فوق الآخر لتجاوز ارتفاعها ارتفاع قامتنا. فما كتبه في التفسير فقط يزيد على ستة آلاف صفحة. وقد حسبوا عدد الصفحات التي كتبها في حياته فظهر أنه كتب في كل يوم من أيام حياته –مع سنوات طفولته– (١٥–٢٠) صفحة. قد يبدو هذا لكم شيئاً بسيطاً، ولكن حاولوا أن تكتبوا صفحة واحدة، عند ذلك ستجدون بأن عليكم صرف نصف ساعة أو أربعين دقيقة. أما إن كان الموضوع موضوعاً علمياً وجادّاً ويحتاج إلى تدقيق وبحث فإنه يأخذ وقتاً أطول.

لقد سبق هؤلاء علوم عصرهم بعصر كامل أو بعصرين أو بثلاثة عصور. فقد ثبّتوا أنظارهم إلى الأفق والى ما وراء الأفق، ولكن الكسالى الذين جاءوا بعدهم عاشوا على ميراثهم الغني و لم يضيفوا شيئاً جديداً.

جاء مثلاً بنو موسى وأسسوا في بغداد أكبر مرصد معروف آنذاك. وبينما كان الأوروبي آنذاك يحسب أن الشياطين يأتون بالأخبار من القمر ومن النجوم، كان هؤلاء يكتشفون أشياء جديدة في علم الفلك. وعندما ذهب المسلمون إلى الأندلس أضافوا الشيء الكثير في ساحة العلم. ولكن أوروبا أعلنت فيما بعد الحروب الصليبية علينا وشغلونا و لم يعطوا لنا فرصة التفكير والرقي. ثم حسب المعجبون بالغرب أن كل شيء جاء من الغرب، وهكذا قطعوا صِلَتهم بجذورهم وبثقافتهم وبماضيهم وبكتابهم ونأوا بأنفسهم عنها.

كل ثقافة تكون نتيجة لثقافة قبلها إذ تأخذ منها، وتكون أيضا مقدمة للثقافة الآتية بعدها. وتلاحق الثقافات يشبه بناء بناية، فأنت تأتي وتضع لبنة فيها ثم يجيء غيرك

ويضع لبنة أخرى، وهكذا ترتفع البناية. فهكذا كان تقـــدم العلـــم والفلســـفة مـــن "كوبرنيك" إلى "غاليلو" ومنه إلى "نيوتن" ثم إلى "أنشتاين".

وبعد كل هذا الكلام الطويل أريد تناول موضوع العداء للعثمانيين. يقولون لماذا لم يقم العثمانيون بتشييد مداخن المصانع بدلاً من تشييد المآذن؟

لا يملك الإنسان سوى الضحك من هذا السؤال الأحمق. لأن مداخن المصانع لم تكن موجودة آنذاك حتى في الأحلام. كان بناء الجوامع والمآذن أكبر بناء آنذاك، لذا قاموا ببنائها. ثم إن الجميع يعلمون -وحتى الأعداء- بأنه لولا قيام "الانكشاريون"[1] باستعمال القوة التي أعطتها لهم الأمة ضد الأمة نفسها لَما تأخرنا أبداً عن الغرب. ثم ألا نقاسي الآن من المشكلة نفسها؟[2] لقد كان العثمانيون سادة في زمانهم. كانوا من الذين يحافظون على التوازن الدولي ويؤسسون السلام الدولي. ويستطيع من شاء إنكار هذا، ولكن رجال العلم المنصفين في الغرب يعترفون الآن بهذا.

إن العداء للعثمانيين نتيجة لاستغفال الغربيين لنا وللمقلدين عندنا الذين يقلدون الغرب تقليداً أعمى. فمثلاً أطلق الفرنسيون في وقت من الأوقات على السلطان "عبد الحميد الثاني" لقب "السلطان الأحمر". وما لبث الصحفيون عندنا أن أخذوا هذه الصفة ونشروها في صحفهم بعناوين بارزة. أجل، فجميع السباب والشتائم الموجهة إلى أبائنا وأجدادنا إنما ترجمت من الغرب. لذا فتكاد تكون جميع الألفاظ القبيحة المستعملة ضد عظمائنا ألفاظ لقيطة لا نسب لها وأوروبية المنشأ. وكم كنّا نتمنى لو أن هذه الأمة قدّرت أسلافها كتقدير الأوروبيين لأسلافهم. ثم إننا لا نستطيع القول بأن العثمانيين استغلوا الإسلام، ذلك لأن العثمانيين ارتبطوا بالإسلام وتعلقوا به في جميع عهودهم.. في عهود قوتهم وفي عهود ضعفهم.

---

[1] الانكشاريون: مؤسسة عسكرية وضعها "أورخان" للمشاة في الدولة العثمانية أدّت خدمات جليلة للدولة العثمانية في أدوارها الأولى، وهي أدوار النهوض والتوسع والتقدم. ثم فسدت هذه المؤسسة وأصبحت عائقاً كبيراً أمام الدولة العثمانية، إذ بدأ رؤساء وقواد الانكشارية بالتدخل السافر في سياسة الدولة وتبديل السلاطين وإيقاع المذابح حتى استطاع في الأخير السلطان محمود الثاني القضاء عليها وتأسيس مؤسسة عسكرية بديلة أطلق عليها اسم "النظام الجديد". (المترجم)

[2] يشير المؤلف إلى وقوع ثلاثة انقلابات عسكرية منذ ١٩٦٠ حتى ١٩٨٢ في تركيا. وكل انقلاب عسكري أخر تقدم البلد وأثار عدم الاطمئنان وعدم الثقة وأخر الاقتصاد في البلد. (المترجم).

ليس العثمانيون فقط بل كان "طُغرل بَك" -عمّ آلب أرسلان- يدخل إلى مجلس الخليفة العباسي "القائم بالله" بكل أدَب، مع أن هذا الخليفة كان في حال من الضعف بحيث لم يكن يستطيع تمثيل الخلافة والدفاع عنها. والحقيقة أنه لم يكن مضطراً لإبداء كل هذا الاحترام والأدب لهذا الخليفة، غير أنه فعل ذلك لأنه كان يرى أن هذا الشخص الماثل أمامه يمثل خليفة النبي ﷺ. لذا قال له بأنه يلوذ به وأنه في انتظار أي أمر يصدر منه للدفاع عن المعاني النبوية وعن الإسلام. قال له هذا ووضع جميع إمكانياته في يده.

كان القائم بالله هو الخليفة، ولكن محافظ الخلافة والمدافع عنها كان القائد "طُغرُل بَكْ". كان قد أسلم آنذاك من الأتراك ألف عائلة وكان "طُغرل بَك" زعيمهم ورئيسهم. وهذه السطور التي نقلتُها بتصرف قليل عن المؤرخ المعروف "إسماعيل حامي دانِشمَنْد" مهمة جدّاً من ناحية إظهار سلوك أمتنا تجاه الإسلام. وأنا الآن أتساءل ما علاقة هذا التصرف للقائد "طغرل بك" بالاستغلال؟ إن ربط هذا التصرف النبيل لـــ"طغرل بك" بالاستغلال إنما هو جهل بأمّتنا المجيدة.

كان هذا الروح موجوداً في أساس الدولة العثمانية؛ عندما قطع "الغازي أَرطُغْـــرل" الأناضول من أقصاه إلى أقصاه ثم استقر بالقرب من "سُوكُت". كـــان يحمـــل رايـــة الإسلام. فلم يصدر عنه أي شيء ضد المسلمين، وكان عظيم التوقير للخليفة. وعنـــدما استقر "قايِي بُويُو" قرب "سُوكُت" كانت هناك إمارات أخرى في الأناضول وكان هناك نـــزاع دائم بينها، ولكن "أرطغرل" ومِن بعده "الغـــازي عثمـــان" وجّهـــوا نظـــرهم وجهودهم نحو البِيزنطيين و لم يدخلوا في فوضى هذا النـــزاع.

وكانت هذه الاستراتيجية تؤمّن من جهة توجيه أنظار المسلمين نحو الهدف الأصلي، وتزيل من جهة مخاوف وقلق المسلمين منهم، لأنه كان من الممكن أن يكون أول عمل يقوم به الغازي عثمان هو محاولة توحيد المسلمين، ولكنه كان يتصرف بحكمة بالغة في ضوء الوصية التي أخذها من والده ومن والد زوجته الشيخ "أَدَب عَالي" وبالدراية والحكمة التي كان يتّصف بها هو نفسه. لذا كان يقول: "لو عرف المسلمون أن الكفر هو البديل الوحيد أمامهم فإنهم سيتّحدون معي، وهكذا نستطيع التغلب على الكفار والفجار".

لذا فقد اختار البيزنطيين كهدف له. و لم يتعرض للمؤمنين أبداً و لم يتدخل أبداً في

النـــزاعات الموجودة بينهم قائلاً: "إن هدَفي هو البيزنطيون، وسنفتح القسطنطينية عاجلاً أم آجلاً بإذن الله تعالى". إن القول بأن إسلام هذا الشخص المملوء حماسة للإسلام لم يكن إلا من ضرورات السياسة الطبيعية[1] "جيوبولوتيك" هو إما جهل أو سوء نية. إن الدولة العثمانية كانت مظهراً لفضل ربانيّ لم يتيسر لأي عائلة أخرى، لأنها حملت راية القرآن ستة عصور بكل إخلاص. وكانت من أطول الدول عمراً. ولو لم يتم طعنها من قِبل بعض الخوَنة الداخلين قبل مئة وخمسين سنة تقريباً لكان من المحتمل فتح بلدان أخرى من العالم.

كان العثمانيون متعلقين بدينهم حتى في أضعف أدوارهم. كانت هناك مسرحية قبيحة للكاتب الفرنسي "فُولتير" يهاجم فيها رسولنا الحبيب ﷺ. وكانت فرنسا تريد تمثيلها في المسارح في ذلك العهد الذي كان يطلق على الدولة العثمانية اسم "الرجل المريض". ولكن هذا الأسد المريض عندما علم بوجود نية الهجوم على سيّده ونور عَينه ﷺ زأَر ضدّ فرنْسا، حيث أرسل السلطان عبد الحميد الثاني -المتَّهم بأنه السلطان الأحمر، حاشاه- بَرقية إنذار لفرنسا قائلاً فيها: "لو قمتم بتمثيل هذه المسرحية التي تستهدف رسولي ﷺ ورسول جميع المسلمين، فإنني سأثير جميع العرب وجميع المسلمين ضدكم".

كم كنّا نتمنى أن يملك العالم الإسلامي مثل هذا الوعي الشعور. وقد أثارت هذه البرقية مَوجةَ ذعر في فرنسا بحيث أنها لم تستطع تمثيل هذه المسرحية على مسارحها. وهنا أرادت إنكلتره تمثيل هذه المسرحية في بلدها، فأرسل الأسد الجريح بَرقيّة إنذار لها فأحجمت إنكلتره أيضا عن تنفيذ نيتها وتراجعت عنها... هكذا كان أسلافنا الأماجد.

أجل! يجب إسكات الأصوات المنكرة المتعالية ضد الدولة العثمانية التي كانت ترتجف لو حطت ذرة تراب على لحية رسولنا ﷺ. فالدولة العثمانية تحتل محلاً مرموقاً في التاريخ الإسلامي بعد عصر الصحابة، لأنها قاتلت ستة عصور تحت راية الرسول ﷺ وتحت راية القرآن. ألف ألف رحمة عليهم.

---

[1] السياسة الطبيعية GEOPOLITICS: علم يبحث في تأثير العوامل الطبيعية كالعوامل الجغرافية والسكانية والاقتصادية في السياسة الخارجية للدولة. (المترجم)

هل توجد مشارب ومدارس مختلفة في الإسلام؟ وهل حدث مثل هذا الخلاف بين الصحابة الكرام؟ وما الفكر الذي يوحّد بينها؟

المشرب كلمة عربية تأتي من جذر "الشُرب". أما المعنى الدارج لدى العامة فهو اختلاف الناس في فهم الفروع لنفس الحقيقة. لذا نستطيع النظر إلى اختلاف الوسائل والطرق في طرق الدعوة إلى الإسلام وإلى الإيمان وإلى القرآن على أنها مشارب مختلفة. أي أن الهدف واحد ولكن الطرق الموصلة إليه مختلفة.

لذا يجب تأييد ومساعدة كل من يخدم الإيمان وهذا الدين ويعمل على إعلاء شأن الإسلام سواء أكان في المشرق أم في المغرب، ومهما كان مشربه. صحيح أن الطرق والمسالك قد لا تكون نفسها، ولكن المهم هو الهدف والغاية.

هناك أسباب عديدة في اختلاف هذه الطرق. فالبيئة التي ينشأ فيها الإنسان، والثقافة التي يأخذها لها تأثير كبير عليه. كما أن لكيفية تجلي الأسماء الله الحسنى تأثيراً عليه. لذا فظهور مشارب مختلفة أمر طبيعي، وقد ظهرت في السابق ولا تزال تظهر.

لم يكن مشرب عليّ كرم الله وجهه كمشرب أبي بكر ﵁، ولم يكن مشرب الفاروق عمر بن الخطاب ﵁ كمشرب أبي ذر الغفاري ﵁، بل كان هناك اختلاف كبير بينهما، مع أنهم كانوا تلاميذ المدرسة النبوية نفسها. فعُمر ﵁ كان رجل دولة ورجل إدارة وتنظيم من الطراز الأول، بينما كان أبوذر ﵁ شخصاً انفراديًّا.

ويُفهم من هذا أنه حتى في العهد النبوي الذي تم فيه توحيد الدين والتأليف بين المشارب لم تَنْمحِ الأذواق والمشارب المختلفة، ولم يحاول أحد القيام بمثل هذه المحاولة. والحقيقة أن محاولة توحيد المشارب يصادم الفطرة الإنسانية. ذلك لأن الذين خُلقوا بطبائع مختلفة لا يمكن أن يفكروا بالطريقة نفسها. وطبعاً هناك احتمال قوي لظهور مصاعب وتعقيدات ومشاكل عديدة عند محاولة فرض القوة في محاولة التوحيد.

يمكن أن نقول إن الذين يرومون توحيد المذاهب لم يفهموا هذه الناحية الدقيقة في الفطرة الإنسانية، ولم يدركوا الطبيعة الإنسانية وتناسَوا الاستعدادات البشرية الموجودة.

فإن بدأت القابليات المختلفة التي خلقها الله بالعمل والظهور حسب الحكم الإلهية التي اقتضتها فلا بد من ظهور مذاهب مختلفة.

لذا فقد كان لا بد لهذه القابليات المختلفة أن تُظهر نفسها في الفقه في شكل مذاهب أبي حنيفة والشافعي والمالكي والحنبلي والأوزاعي والثوري والزهري...الخ من المذاهب. وكان لا بد لها من الظهور في الطرق الصوفية التي تخاطب قلب الإنسان ومشاعره ووجدانه، وتسعى لخدمة الشريعة الغرّاء وخدمة الدين الإسلامي المبين اعتباراً من عهد النبوة إلى يومنا هذا مستهدفة تربية الروح والقلب وتصفيتهما والسموّ بهما.

كان سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم –رحِمهما الله– من أوائل الصوفين. ثم جاء أبو يزيد البِسطامي ثم جنَيد البغدادي، ثم عبد القادر الكيلاني الذي فتح عهداً جديداً وكان إنساناً عملاقاً ثم الشيخ شاه النَّقشَبندي؛ كل واحد من هؤلاء كان يمثل مَشْرباً مختلفاً ومزاجاً مختلفاً، ولكنهم كانوا جميعاً كأضواء وكدَرجات مختلفة من اللون نفسه، وحاولوا جميعاً إحياء الحقيقة التي جاء بها الرسول ﷺ.

إن وضعتُم طريقة محي الدين ابن عربي بجانب طريقة الإمام أحمد الفاروق السرهندي الملقَّب بالإمام الرباني لَرأيتم فَرقاً واضحاً بينهما؛ فالوَليّ الكبير الإمام الرباني يعد ممثلا لـــمَسلك الصحابة وطريقهم وهو قطب المذهب الفاروقي. وهو باتفاق الجميع من أفضل من فهم الحقيقة الأحمدية ﷺ. وكان أفضل من فهم الظاهر والباطن للشريعة الأحمدية والوحدة والتناسب الموجود بينهما. ولا نزال نحس في قلوبنا نور الضياء الذي نشره قبل أربعمائة سنة.

عارض هذا الإنسان العملاق محيي الدين ابن عربي في مواضع عديدة فقال "ليست 'الفتوحات المكية'، بل 'الفتوحات المدنية'"، إذ فضل التمسك بطريق النبوة وطريق الصحابة وهو طريق أهل السنة والجماعة، لذا فهم يمثلون طريق الحقيقة الأحمدية.

والحقيقة أن هذه المسألة مسألة مشرب وذوق. صحيح أن ابن عربي قال بـــ"وحدة الوجود" إلاّ أنه بدلا من معنى "لا وجود لأي موجود سوى الله" كان يعني "لا وجود حقيقيّ وقائم بذاته سوى الله". أي كان يُومئ إلى "وحدة الشهود" من بعيد.

حاولتُ أن أبين لكم من خلال استعراضي لمشارب هؤلاء العظام استحالة اتّحاد

المشارب والأذواق.

فإذا أتينا إلى المسألة التي تشكل صلب السؤال، أقول بأن المشارب والمذاهب ستبقى ما بقيت هذه الدنيا وستختلف فيما بينها. ولن يستطيع أحد الحَيلولة دون هذا. ولكن من الممكن دائماً الاتحاد في الهدف والغاية مع اختلاف الطرق والمسالك، أي يمكن أن تختلف التعابير والألسن، ولكن الحقيقة التي يتم شرحها حقيقة واحدة، كما قال الشاعر:

عباراتُنا شتَّى وحُسْنك واحد وكلٌّ إلى ذاك الْجَمال يُشيرُ[1]

الكلمات مختلفة والتعابير شتّى والأجواء متعددة، ولكن الجمال الذي تصِفه هذه الكلمات هو الجمال نفسه. أجل! فما دام الهدف الأساسي رضا الله تعالى، ومَحبة الشريعة الأحمدية ﷺ موجودة في القلوب، والروح تتحرك بهذا الشعور وتعدّه أساساً وقاعدة، وإن وجدت الاختلافات والاحتكاكات فإن التفاهم والاتفاق ممكن في كل حين. فإذا كان اليوم هناك أُمور تصلح لتأمين وفاق واتحاد في ظل فهم إسلامي صحيح -وأنا أعتقد أنه موجود- فيجب الوقوف عندها والاهتمام بها.

يمكن أن يتم هذا الاتفاق والاتحاد وتجاوز المشارب إما على الصعيد العاطفي أو على الصعيد الفكري والمنطقي. بالنسبة للصعيد العاطفي قد يكفي لتحقيق هذا الائتلاف اجتماع الجماعات الإسلامية المختلفة وتكوينها اتحاداً ما وإن كان صورياً. ولكن لكون الإنسان لا يستقر على حال، وهو في تطور فكري وروحي دائم، فإن هذه الوحدة العاطفية الضعيفة ضعف خيط قطني قد لا تكون كافية. لذا فإنه متى ما تبين عدم كفاية هذه الرابطة الضعيفة، على الجماعات الاجتماع حول مائدة واحدة ومحاولة تأسيس وحدة فكرية ومنطقية. فلكي ننقذ الحق من براثن الباطل، ولكي نتخلص من الذل تجاه الكفرة والفسقة، ولكي نؤمّن صعود الأمة المحمدية إلى المستوى اللائق بها بين الأمم ونشر حقائق القرآن المعجز البيان في العالم كله يجب الاتفاق على الصعيد الفكري والمنطقي.

فإن أردنا إيضاح المسألة بأمثلة ملموسة نقول بأنه كان هناك اتفاق واتحاد عاطفي بين جماهيرنا قبل ٢٠-٣٠ سنة. وكان هذا الاتفاق والاتحاد رد فعل للتيار الإلحادي والشيوعي، أي كان هناك في جانب زمرة تنكر الله تعالى ورسوله ﷺ والقرآن الكريم،

---

[1] البرهان في علوم القرآن للزركشي، ١٦٠/٢.

وتجمَّع في الجانب المقابل كل معارضي الشيوعية. ويشبه هذا اتفاق الدول الحرة ضد الشيوعية. فتجمّع في الجانب المعارض للشيوعية هم المؤمنون الذين يحاولون نشر أسس الإيمان، وكذلك القوميون الذين اتخذوا الفكرة القومية أساساً لهم.

أما في الساحة السياسية فقد تجمّع ألوان وأصناف عديدة من معارضي الشيوعية واتحدوا واتفقوا ضدها. لذا كنا نرى في الجانب المعارض للشيوعية من يقرأ المجلات الإسلامية بجانب من يتابع المجلات القومية. كان بعضهم يتحدث بحماس وبلسان العاطفة بينما كان البعض الآخر يتحدث بلغة العقل والمنطق. في مثل هذا الجو العاطفي كان الكثيرون يقولون: "مهما حدث يجب أن نُحافظ على وحْدتنا ضد الملحدين والمنكرين".

فقد كان الاتفاق آنذاك مؤسساً على العاطفة تماماً، لذا جاء وقت لم يعد فيه هذا المفهوم للأخوّة كافياً. تقدم المسلمون على الصعيد الفكري والعاطفي.. فكّروا وبحثوا وقرأوا فتقدموا، وأدركوا معظمها الأفكار المضادة للإسلام، لذا فقد جمعهم الفكر المشترك والعمل المشترك والدفاع المشترك، وقد ظلوا لفترة طويلة معاً تحت السقف نفسه تماماً.

وكما اجتمع الملحدون والمنكرون لله ولرسوله تحت سقف واحد، كذلك اجتمع هؤلاء المسلمون مع أنصارهم على صعيد عاطفي تحت سقف واحد. ومن يدري فقد يكون قد توفرت لهم آنذاك فرصة كافية للتمييز بين الأسود والأبيض وبين الغث والسمين. أجل لقد شاهدوا وأدركوا جيداً. بينما كانت قلوبهم وعقولهم تحوم حول مدنية المدينة وحول الحقائق الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ، كانت عقول الآخرين وقلوبهم بعيدة جدّاً عنهم وفي وادٍ آخر. وهكذا بدأت روابط هذا الاتفاق بالتقطع، إذ تبين أن المشاعر والعواطف مختلفة ومتباينة.

بعد هذه الفترة ظهرت أن الروابط العاطفية ليست كافية، لذا اتجه كل فريق إلى جهة معينة وتفرقت بهم السبل. فالاتحاد والائتلاف كان بحاجة إلى أسس فكرية ومنطقية. أما من جهتنا فإننا نشاهد الصحوة الإسلامية في تركيا وفي البلدان الإسلامية الأخرى، ونرى وجوب قيام كل إنسان بالواجب الملقى على عاتقه لتهيئة ما يمكن تهيئته للمستقبل. وإلى جانب هذا نعتقد بعدم جواز تناسي ضرورة الارتباط بأسس معينة.

أولاً: يجب على الجميع التخلي عن محاولة إدخال الآخرين في مشربه وقسرهم على

التفكير مثله. فكل خدمة في طريق الحق تستحق الثناء. فكما يتقبل أرباب المهن المختلفة وأصحاب الفنون المختلفة بعضهم البعض الآخر ويتداولون ويتبادلون ثمار جهود الآخرين ويتعاونون في سبيل هدف مشترك، كذلك على أصحاب المشارب والأذواق المختلفة إبداء الفهم نفسه والمرونة نفسها، والابتعاد عن التصلب في فرض طرق معينة ما دام الهدف المنشود مشتركاً. لذا فما يجب عمله هو القيام بالثناء على كل من يقدم خدمة في ساحته وقبول كل من يقول: "إن كل من يذكر الله تعالى ويسعى من أجله ويبجّل رسولنا ﷺ فهو أخي".

ولكي لا تبلعنا الرأسمالية أو الشيوعية، ولكي لا نقع في بئر الإلحاد علينا أن نؤمّن اتفاقاً ما ولو كان صورياً. فالإنجليزيّ حقق وحدة "الأنكلوسكسون والغال" لكي يؤمّن مستقبله. مع أن هذين العنصرين "الإنجليز والغال" يكره أحدهما الآخر وينفر منه نفوراً كبيراً. ومع ذلك فلم يظهر بينهما أمام العيان أي خلاف أو نــزاع حتى اليوم، لأنهما جلسا وتفاوضا واستعرضا نقاط الخلاف بينهما وكذلك النقاط المشتركة ونقاط الالتقاء بينهما، وأخذا بنظر الاعتبار مستقبل إنكلتره، لذا تم التنازل عن بعض الأمور في هذا السبيل.

ما يعنينا في هذا الموضوع من وجهة نظر دعوتنا هو أننا جميعاً باختلاف مشاربنا وأذواقنا نؤْمن بربّ واحد، ورسولنا واحد، وكتابنا واحد، وقبلتنا واحدة، وطريقنا واحد. إذن نستطيع أن نقيم وحدتنا على هذه الأسس المنطقية السليمة وليس على أساس عاطفي مجرّد. فهذه الأسس القوية المشتركة فيما بيننا تقضي وتوجب الوحدة بيننا. أما الزعم بخلاف هذا فليس إلا همسات النفس الأمّارة ومعاذيرها.

ونحن الذين عقدنا العزم على إيصال كنــز نفيس إلى مكان معيّن إن كان علينا أن يتبارز بعضنا مع البعض الآخر، فلنتبارز تلك المبارزة الملعونة بعد قيامنا بإيصال ذلك الكنــز وتلك الأمانة إلى أصحابها. ولكن علينا أولاً أن نفكر بحاضر ومستقبل هذه الأمة الكريمة فلا ندعها نهباً للملحدين وللفسقة.

ثانيا: الطريقة الثانية في هذا الموضوع هي ألا يقوم أحد بإكراه الآخرين على سلوك طريقه. بل لندع كل واحد يعمل بالطريقة التي يفضّلها ويراها أصلح من غيرها، لأنه من المعروف أن من الصعب على الكثيرين تغيير أفكارهم، بل يستحيل ذلك في كثير من

الأحيان. وبما أن الإجبار ليس طريقاً سليماً، بل يؤدي إلى مشاكل وانشقاقات لا يمكن التئامها، بينما التسامح واللين والتفاهم بالحسنى هو الطريق الذي أوصانا به القرآن. والذين يتبعون طريق الحكمة والموعظة الحسنة يحلون مشاكل مستقبلية مهمة.

شيء آخر يجب الوقوف عنده وهو: بما أن المشارب والأذواق المختلفة لا تتّحد، لذا فإن كل من يعمل في سبيل الإيمان والقرآن يؤدي في الحقيقة خدمة مهمة. فهناك مثلاً كثير من الأقلام اللامعة التي تقوم بتناول حياتنا الاجتماعية ومشاكلها بالتدقيق وبالبحث عن حلول لها. والإسلام بحاجة إلى مثل هذه الحلول. لذا فلندع هؤلاء يقومون بحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، ولنقم نحن بما نستطيع القيام به. فكما تمت حمْلة تَكيّف وتوفيق في العصر العباسي، كذلك يجب أن تتم مثل هذه الحملة اليوم، ولتكن مقاييس وموازين أهل السنة والجماعة هي الحكم فيما نأخذ وفيما ندَع وفي التراكيب والحلول الجديدة، ولنحاول إنشاء عالم جديد أو في الأقل تهيئة الأسس للوصول إلى هذا العالم الجديد.

لنفرض أن هناك مجموعة أخرى لها جوانب يمكن انتقادها من زاوية أهل السنة والجماعة، ولكن في هذا الموضوع يمكن الاستفادة منها، بل يمكن حتى الاستفادة من الجوانب الإيجابية للغرب بعد الأخذ بنظر الاعتبار كرامتنا وعزتنا وكذلك عداوتهم لنا وإجراء حساباتنا على هذا الأساس. والحقيقة أن كل مذهب باطل يحتوي على جزء صغير من الحق، وهو مَدِين في وجوده وبقائه لهذا الجزء الحق. لذا يمكن أخذ ذلك الجزء الصغير من الحق ومن الحقيقة، بل يجب أخذها.

لأشرح هذه المسألة بمثال: هناك مذهبان خارج أهل السنة والجماعة يمثلان منذ القديم قطبين متعاكسين وهما المعتزلة والجبرية. فمذهب المعتزلة يقول: "إن العبد خالق لأفعاله". أما المذهب الجبري فيقول: "الله خالق كل شيء، والإنسان مسيَّر مثل آلة". فلهذين المذهبين وجهتا نظر متعاكستان تماماً حول إرادة الإنسان وحول خلق الله تعالى للأفعال. فالمعتزلة يقولون إن الإنسان يخلق أفعاله، ولا يتدخّل اللهُ تعالى في هذا الأمر. وأصحاب الفلسفة العقلية "راسيوناليزم" في أيامنا الحالية يفكرون أيضا التفكير نفسه. أما الجبرية فترى العكس تماماً ولا تعطي للإنسان أيّ حرية أو اختيار أو إرادة. بل تراه مكتف اليدَين والرجلَين وهو على مثال قول الشاعر:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له   إياك إياك أن تبتلّ بالماء

أما أهل السنة فقد أخذوا جزء الحقيقة الموجودة من هذا المذهب مع جزء الحقيقة الموجودة في المذهب الآخر ومزَجوهما معاً ليُخرجوا بتركيب آخر؛ فقالوا للمعتزلة: "أجل! هناك إرادة للإنسان، لأن آيات عديدة في القرآن تدلّ على هذا. فالإنسان يعمل عملاً صالحاً بإرادته ويستحق الجنة من أجل هذا. هذه الإرادة موجودة لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم:٣٩). ولكن دون أن ننسى أنّ مشيئة الله أساس في هذا الموضوع حسَب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ اِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (التكوير:٢٩). كما أن مساحة الإرادة التي تذكروها ضيّقة إلى درجة قد يكون وجودها أو عدم وجودها سواء. ولكن الإرادة –كشرط عادي– موجودة وهي الأساس في الثواب والعقاب والإثم والصلاح.

كل ما أريد قوله من هذا الشرح، أن هناك حبّة من الحقيقة في النظام الرأسماليّ وكذلك حبة من الحقيقة في النظام الشيوعيّ. هذه الحبة هي التي تقوم الشيوعية باستغلالها، إذ تقوم باستغلال الملكية العامة واستغلال زعمها الدفاع عن الفقراء، أي أنها تنافق في هذا الموضوع. وهي الأنظمة التي تقود الجماهير الآن. أما الإسلام فجميع أنظمته وجميع مبادئه حق وحقيقة وعدالة مَحْضة. فهو مجموعة من المبادئ التي تؤمّن الوحدة والإتفاق.

أما المشارب فإننا نقول بأن كل مشرب يحوي جانباً من الحقيقة. لذا فمِن الخطأ تناسي أن الله تعالى خلق الناس بمشارب مختلفة وأذواق مختلفة. ومن الخطأ محاولة التصدي والعمل ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومحاولة جمع جميع المياه المتدفّقة في جداول مختلفة في جدول واحد، فهذه محاولة خيالية. بل على كل واحد منا محاولة نشر الأنوار القرآنية والإيمانية، كل في ساحته، ولا يصرف جهده في النزاع مع الآخرين. فإنْ لم يستطع الاتفاق مع الآخرين فعليه في الأقل ألاّ يُثير نزاعاً. ويجب أن يحذر تماماً من النزاع والخصام مع المسلمين وانتقادهم واغتيابهم، بل عليه أن يتعلم كيف يثني على كل عمل خيرٍ وأن يكون ظهيراً لكل من يذكر الله. فإن فعلنا هذا فإننا نأمل بعون الله تعالى تأسيس تعاون واتحاد واتفاق فيما بين المسلمين.

يقال إن الاسلام دين يلائم العقل والمنطق، ولكنه يستند إلى النصوص وهذا يستوجب التسليم والإذعان، فهل توضّحون الموضوع لنا؟

أجل هو كذلك، فالإسلام موافق للعقل والمنطق وهو يستدعي الإذعان والتسليم كذلك. ذلك لأن العقل والمنطق لا يأتيان بمعنى مضادّ للإذعان وللتسليم. فقد يكون شيء ما منطقيّاً، ويستلزم التسليم به. كذلك لا يستطيع أحد الادعاء بأن شيئاً ما إن اقتضى التسليم فهو لا بد غير منطقي، فالمنطق لا يقبل مثل هذا الادعاء. والآن لنشرح هذا الموضوع في نطاق العقل والمنطق.

لقد تناول الإسلام المسائل التي يجب الإيمان بها بكتابه الذي يقرأ الكون ويشرَحه لنا بشكل عقليّ ومنطقيّ. وبعد القيام بإثبات ألوهية وربوبيته تعالى بهذا الشكل، تناول النبوة المتلازمة مع هذه الألوهية والربوبية ونتيجة ضرورية لها بأدلة مقنعة جدّاً، إذ لا بدّ من أنبياء يقومون بالإرشاد وبإعلان وشرح هذه الألوهية والربوبية، ثم شرَح هذا بأدلة عقلية ومنطقية قوية. وبعد الموت يجب أن يبعث الناس ليحيوا حياة أبدية، وإلا كانت غريزة حب الخلود المعطاة لهم عبثاً ودون معنى. وبما أن الله تعالى منـزه عن العبَث، إذن فلا بد من إهداء مثل هذه الحياة الأبدية للإنسان. والذي خلق الوجود أول مرة هو الذي سيخلق هذا الخلق الثاني مرة أخرى.

القرآن كلام الله، ولو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بآية واحدة مشابهة لآياته لَما استطاعوا ذلك. وما دام هو كلام الله تعالى، إذن فالصحف الأولى بشكلها الأصلي النقي -أمثال التوراة والإنجيل والزبور التي أقرّ بصدقها القرآن- من كلام الله تعالى أيضاً.

لن ندخل في شرح مفصل لهذه المواضيع التي سبق وأن تناولناها في مواضع أخرى بشكل مفصّل، ولكننا أشَرنا إليها لإعطاء فكرة عنها. وبعد القيام بالإثبات والبرهنة على جميع مسائل العقيدة بشكل عقلي ومنطقي نصل إلى موضع لا يمكن السير فيه بأرجل المنطق وأدواته، لأن معاني الحقائق التي يحسها الإنسان في وجدانه وقلبه من القوة بحيث أن جميع الأدلة تبقى ضعيفة باهتة بجانبها. فهذا الموضوع موضوع مستوٍ، وهو أمر

طبيعي جداً، فالشخصيات السامقة أمثال الإمام الرباني بعد أن أتَمّوا "السير من الله" ذكروا أيضاً أن الإنسان يحتاج إلى أدلّة. ولكن هذا أمر يعود إلى مثل أولئك الأشخاص من المستويات الرفيعة ولا علاقة له بأشخاص من أمثالنا.

إن جميع أفعال الله تعالى وإجراءاته مستندة إلى العقل وإلى المنطق، كيف لا وهو العليم والحكيم، لا يصدر منه أي عبث. وقد رأينا أن الإنسان عندما يعمل في ساحات علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والفيزياء الفلكية يصل بفضل قوانين هذه العلوم إلى مبادئ ثابتة. ونحن نشاهد أن ما يفعله وما ينجزه أمهر شخص وأعلمه يبقى شيئاً باهتاً بالنسبة إلى صنع الله. إذن فللّهِ تعالى حكمة في كل فعل، وهذه الحكمة عقلية ومنطقية.

وهكذا فإن آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا تربطنا وتسوقنا إلى الإيمان بالله تعالى. ففي البداية نجد العقل والمنطق وفي النهاية نجد الإذعان والتسليم. وما دمنا قد أذعنا له فيجب علينا اتباع أقواله، وهنا تظهر أمامنا طبعاً المسائل المتعلقة بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج، أي الخصائص المتعلقة بالعبودية.

إن القيام بهذه العبادات مظهر من مظاهر الإذعان والتسليم. ولكن نستطيع هنا تقييم كل هذه المسائل تقييماً عقلياً ومنطقياً وملاحظة الحكم الموجودة فيها. لا شك أن هناك حكماً عديدة في الأوقات التي فرضت فيها الصلاة. ولا شك أن حركات الصلاة بهذا الشكل ليست عشوائية بل هي مقصودة. كما أن الأمر بغسل أعضاء معينة في أثناء الوضوء لا بد أنه مستند إلى فائدة وحكمة. كما أن الصلاة جماعة لها دور مهم في تأسيس الحياة الاجتماعية، وفرض الزكاة له دور إيجابي وحكم عديدة في تأسيس التوازن بين الأغنياء والفقراء. أما الفوائد الصحية للصوم فهي أكثر من أن تعد. وفي أحكام العقوبات في الإسلام دروس مذهلة وحكم عديدة. ولو تم تدقيقها من ناحية العقل والمنطق لَوصلنا إلى النقطة نفسها، وهي الإذعان والتسليم.

لنأخذ الحج مثلاً، لنقل أننا قبِلنا الحج كفريضة منذ البداية لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران:٩٧)، أي أصبح الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلاً من الرجال والنساء. هذه النظرة تبدأ من نقطة الإذعان والتسليم، فنحن نقول "لبَّيك اللّهم لبَّيك" ونذهب إلى الحج ثم ننظر وندقق ماذا

يعطينا الحج في نطاق العالم الإسلامي فنرى أنه مؤتمر إسلامي عالمي على المستويات كافة، وهو يؤسس أرضية خصبة مضمونة لتحويل المسلمين إلى جسد واحد من أقصر طريق. وإن نظرنا إلى القضية من ناحية العدالة الاجتماعية نرى أن اجتماع كل الناس – الفقراء منهم والأغنياء، العلماء منهم والعوام– على صعيد واحد وفي الشروط والظروف نفسها من أجل غاية واحدة، وهي إظهار العبودية لله تعالى، يقوّي يَقيننا بأن الإسلام نظام عالمي ويزيد من ثقتنا به.

إذن فسواء أكانت نقطة انطلاقنا من العقل والمنطق فسنصل إلى الإذعان والتسليم، أو كانت نقطة انطلاقنا من الإذعان والتسليم فسنصل إلى العقل والمنطق. فالنتيجة واحدة، ومن ثم فالإسلام عقلي ومنطقي من جهة، وإذعان وتسليم من جهة أخرى. ففي أمر معين يتم الانطلاق من العقل والمنطق ليتم الوصول إلى الإذعان والتسليم، وفي أمر آخر يتم الانطلاق من الإذعان والتسليم ليتم الوصول إلى العقل والمنطق. وما كان النظام الإلهي الذي وضع أمامنا الكون ككتاب مفتوح إلا أن يكون بهذه الخصائص.

يقال إن الإنسان عندما لم يستطع إيضاح وتفسير بعض الظواهر الطبيعية اخترع فكرة الدين. فهل تقدُّم المدنية يزيل الحاجة إلى الدين؟

يدّعي أعداءُ الدين بأن المفاهيم الدينية اخترعتْ من قبَل الإنسان كنتيجة لشعوره بالعجز أو إظهاراً لامتنانه. وخلاصة ما يذكرونه هي:

هناك حوادث تقع في الكون لا نعرف ماهيتها ولا نستطيع تفسيرها بالقوانين الفيزيائية والكيميائية. فلِكي يحلّ الإنسان هذه المعضلة أسند هذه الحوادث -كما فعل في الماضي أيضاً- إلى خالق. كذلك أضاف الإنسان قدسية إلى بعض الحيوانات المفيدة له، ثم تطور هذا فأسبغ عليها صفة الألوهية. وكون نهر "الكنج" مقدساً لدى الهنود ونهر "النيل" مقدساً لدى المصريين، وإضفاء القدسية على البقَر في الهند... الخ يرجع كله إلى ارتباطه بمنفعة الإنسان. ولم يكن موقف الإنسان تجاه الخوف يختلف عن هذا. فخوفه الكبير أو رعبه من بعض الأشياء ساقه إلى تقديسها لكي يصل إلى الأمان منها. وفي بعض الأديان إلهان، إله للخير وإله للشرّ، أي تم تقسيم الحب والخوف بين هذين الإلهين. وفكرة الجنة والنار تنبع من هذا الأساس. والدين في الأصل -بزعْمهم- تسرية وسلوان بُرجُوازيّ. وهو شيء مخترع من قبل رجال الدين، وأفيون للشعوب وللجماهير التي يقوم بتخديرهم...الخ هذه الادعاءات والمزاعم.

فهل الدين كما يقول هؤلاء شيء مخترع فيما بعد لشرح الأمور الغامضة أو ليكون ملجأ وتسرية وسلواناً؟ كلا، على الإطلاق. فــ"الدين" كلمة عربية، تدل على عدة معانٍ منها الإطاعة أو الجزاء أو الطريق. وقد وجدت هذه المفاهيم في تعريف الدين، فهو طريق وصراط، وفيه إطاعة الله تعالى، وفيه أيضاً المكافأة لمن أطاع والعِقاب لمن عصى.

أما التعريف الشرعي له فهو "الدين وضعٌ إلهيّ سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات".[1] يخاطب الدينُ أصحابَ العقول، وهكذا يكون الإنسان قد

---

[1] التعاريف للمناوي، ص ٣٤٤.

قام بأعمال الطاعة بإرادته. فالدين يعطي الإرادة حقها ولا يشلها. والطريق الذي يوجه إليه الدين هو طريق للخير المطلق، وليس الخير الذي يراه هذا أو ذاك، بل للخير الحقيقي نفسه.

يقوم الدين بهذا التوجيه من ناحية العقيدة أولاً؛ فقد يستطيع الإنسان بعقله التوصل إلى وجود خالق لهذا الكون. ولكن الإيمان على النحو الصحيح وبالمستوى اليقيني يأتي بعد أن يستمع إلى صوت النبوة الهادر وهو ينعكس على وجدانه الذي خُلق مستعدّاً ومتهيئاً للاستجابة إلى هذا الصوت الذاكر لله. ثم إن النبي عندما يأتي، يأتي مجهَّزا بالأدلة التي تثبت أنه مُرسل من قبَل الله تعالى. فإذا كان هذا النبي مرسلاً بكتاب معجِز يستمرّ إعجازه إلى يوم القيامة، إلى جانب العديد من المعجزات المؤيِّدة له، فهل يبقى بعد ذلك مجال للشك أو الشبهة؟ يتمكن الإنسان آنذاك أن يعرف كيف يؤمن بالآخرة وبالقدَر والأمور الأخرى التي يجب الإيمان بها، كما يقوم النبي بشرح وإيضاح ما غمض من هذه الأمور.

وتقوم العبادة بحفظ هذا الإيمان نضراً في القلوب، لا يذبل ولا يتفسخ ولا تصيبه الشيخوخة والبِلَى. فالإيمان بلا عبادة يفقد نوره ورَونَقه وشَوقه وعِشقه، فلا يبقى للشخص منه سوى الفخر بعظمائه السابقين المدفونين تحت أطباق التراب. فتراه يذكر دائماً مناقبهم وأنهم كانوا علماء صالحين وشيوخاً عظماء. لا شك أن ذكرهم بالخير شيء حسن، ولا سيما في هذه الأيام التي كثر فيها توجيه الشتائم إلى الأجداد، إلا أن هذا لا يكفي ولا يضمن للإيمان الاستمرارَ والدوام.

الصلوات الخمس التي نسعى فيها للمثول بين يدي الله تعالى تُجدّد إيماننا، كما تجدد عهدنا الذي عقدناه مع الله وتقوّيه، ولكن بشرط أن نستشعر آيات القرآن عند تلاوتها والتسابيح عند قراءتها في كل ركن من أركان الصلاة. وإذا تسرّبت العادة والإلفة إليها وأدت إلى ذبولها وأفقدتها روحها، فإن هذه الصلاة لن تعني سوى إسقاط للفرض فقط، دون أن نحصل من ورائها على الفيوضات المترقَّبة.

لذا نرى أحد رجال الروح العظماء عندما يصل ذات مرة في سجوده إلى حال يستشعر فيها حلاوة الصلاة يقول "ليتني استطعت صلاة مثل تلك الصلاة مرة أخرى" ويُضيف بعدها "لقد كانت صلوات الصحابة كلها مثل تلك الصلاة". فقد كان كل ركن

من أركانها يحمل إليهم رسالة جديدة من الله تعالى. أما الإلفة فلم تكن تجد لها مكانا في صلاتهم. كما كانت عباداتهم الأخرى تتم في نفس الحالة الروحية الرفيعة. لذلك يجب على من يحج البيت أو يؤدي الزكاة أو يصوم أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينهل من هذه العبادات قوة معنوية دافعة ومحركة ومقوية لإيمانه.

الجانب الآخر من الدين متوجه نحو المعاملات. فيجب أن تنظم فعاليات المؤمن الاقتصادية حسب مرضاة الله تعالى، أي لا بد أن يكون القرآن والسنة المقياس في تحديد مبادئ التجارة وأسسها. وهذا من شأنه أن يكون قوة دافعة للإيمان، لأن الالتزام بهذه المبادئ يتم بقهر النفس ورغباتها والاستسلام لإرادة الله تعالى وأوامره.

لنفرض أن مؤمناً يريد بيع بضاعة ما، فعليه بيان العيب إن وجد في بضاعته، ولكن يعرف أنه إذا ذكر العيب فسيقلّ ربْحُه أو سيَخسر، وعلى الرغم من ذلك سيحسّ بانشراح في قلبه لأنه أطاع الله تعالى. وعندما يقف أمام ربه في الصلاة سيكون انشراحه القلبيّ هذا عاملاً إيجابيّاً في حصوله على فيض معنوي من الصلاة، وهكذا يتجدد إيمانُه ويزيد نضرة. هذه هي الوسائل التي توصلنا إلى مرضاته تعالى.

وقد أمرَنا الله سبحانه بابتغاء الوسائل إليه، وأكّد النبي ﷺ أهميتها في قصة الثلاثة الذين حُبسوا في المغارة وذكروا أعمالهم الصالحة كوسائل لنجاتهم منها. فكان أحدهم بَرّاً بوالديه، والآخر عفيفاً في موقف حرَج للغاية، والثالث مراعيا للحق أشد رعاية. وقد تضرعوا إلى الله أن يتقبل أعمالهم الصالحة هذه وسيلة لنجاتهم. فأنجاهم الله فعلاً وتدحرجت الصخرة الضخمة التي سدّت باب المغارة فخرجوا سالمين.(1) ومن الأهمية بمكان أن يتشبه المسلم بأخلاق الرسول ﷺ قدْر طاقته، ويتتبّع سلوكه وتصرفاته في كل شيء، في مأكله ومشربه وقيامه وقعوده ومنامه وعبوديته.

وإذا كان الله تعالى قد حرم الربا، فيجب علينا الابتعاد عنه والهروب منه حتى ولو أعطَونا بكل قرش ألفاً، والقيام بالتصرف نفسه حيال جميع الآثام صغيرها وكبيرها، لأنها ستعود إلينا يوم القيامة كشعلة نار متّقدة.

ما نستخلصه من كل هذا هو أن الدين كل كامل لا يقبل التجزؤ والانقسام، أو

---

(1) أنظر إلى: البخاري، البيوع ٩٨؛ مسلم، الذكر والدعاء والتوبة ١٠٠؛ أبو داود، البيوع ٢٩.

بعبارة أخرى إن ما يقبل الانقسام والتجزؤ لا يُعد ديناً. فالدين يشبه شجرة باسقة، العقائد جذورها، والعبادات وما يتعلق بها أغصانها، والمعاملات أزهارها، والعقوبات حارسها، والأوراد والأذكار هي العناصر التي تغذّي هذه الشجرة من تحت ومن فوق. والدين بوجهه الكامل هذا موضوع من قبَل الله تعالى ومبلَّغ من قبَل النبيّ ﷺ.

كان من الممكن أن يتوجه وجدان كل إنسان إلى ربه ليتلقى منه روح الدين بشكل مباشر ودون وساطة. ولكن بما أن أرواح الجميع لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الصفاء المطلوبة فقد اصطفى الله تعالى من بين عباده أنبياء: ﴿اَللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج:٧٥).

والله تعالى يجعل مهمة الرسالة إلى من يشاء من عباده من الملائكة أو من الناس. وقد اصطفى من بين الملائكة -الذين لا يعلم عددهم إلا الله والذين هم في ركوع وسجود وتسبيح منذ أن خلقهم- جبريلَ الأمين عليه السلام ليبلّغ رسالته إلى الرسول ﷺ. وطوال ٢٣ سنة قام جبريل عليه السلام بمهمة نقل الوحي إلى الرسول ﷺ، وكان النبي ﷺ يصغي إليه بكل جوارحه مع احترام بالغ. وقد تأسست بينه وبين جبريل عليه السلام طوال هذه السنوات صداقة حميمة بحيث أن جبريل عليه السلام عندما زاره لآخر مرة بكى الرسول ﷺ. أجل، كان الله تعالى يختار هؤلاء لأداء رسالته.

وقد تم اصطفاء الأنبياء الآخرين بنفس الصيغة ومن أفضل الناس وأكثرهم استعداداً لأداء الرسالة. فقد كانت معادن الجميع من الذهب الخالص. وكما كان الرسول ﷺ "مُصطفى" بهذا الشكل كان الصحابة الذين تتلمذوا عليه من المصطفَيْنَ الأخيار. وهكذا وبوساطة هذه السلسلة الذهبية انتقل الدِّين إلينا.

وكما تعرض نبيُّنا ﷺ لمختلف أنواع الأذى في سبيل تبليغ الدين، تعرض الأنبياء الآخرون أيضاً إلى صنوف شتّى من العذاب والأذى واضطروا إلى مجابهة جميع المصاعب، ولم يفعلوا ذلك في سبيل الحصول على أيٍّ من أعراض الدنيا، بل لو قام الرسول ﷺ بالتخلي عن دعوته لأصبح من الأغنياء ولَوَصل إلى كل ما يشتهيه الإنسان من نعم هذه الدنيا.. لَتزوج من أجمل النساء ولأصبح من زعماء مكة. ولكن ما قيمة كل هذه الأمور أمام النبوة؟

لقد عُرج به إلى السماوات وتناثرت النجوم كالحصى تحت قدمَيه وهو في طريقه إلى ربه. وبعد أن شاهد هناك من صور الجمال ما لم يشاهده أحد من قَبلُ ولن يشاهده من بعد رجع إلى أمته ليرفعها ويسمو بها. فأي إنسان يفارق تلك الأماكن بعد أن شاهد الجمال كل الجمال وذاق القرب كل القرب؟ ولكنه رجع... إلى أين؟ إلى دنيا كانوا يفرشون فيها على طريقه الأشواك ويرمونه بالقاذورات ويقذفونه بالحجارة حتى تدمى قدماه... إلى المدينة التي كان يواجهه فيها الاستهزاء اللاذع والإهانة المريرة. إذن لم تكن المصلحة الشخصية أو الخوف وراء تجشمه كل أنواع العناء في سبيل دعوته وتبليغ رسالته. إن إنساناً لم تستطع مناظر الجنة أسر قلبه ففضل الرجوع إلى أمته لا يمكن أن يكون رجل منفعة أو مصلحة.

إن الله تعالى غنـــيّ عن كل شيء، وليس في حاجة إلى عبادتنا، ولكننا نحن بحاجة إلى أن نعبده. ولكي يعيش الإنسان الذي اختاره خليفة له في الأرض من بين جميع المخلوقات الأخرى حياة متوازنة، فقد أمره بالعيش بالأسلوب الذي خطه القرآن الكريم. وبعبارة أخرى فإنه تفضَّل علينا وأهدى إلينا منهجاً مضيئاً اسمه الدين بسبب عجزنا عن إدارة أنفسنا إدارة صحيحة، ولكي لا ننـــزلق إلى دروب منحرفة وخاطئة. فأمرنا أن ننظم أنفسنا ونَبنِيها حسب تعاليمه ومقاييسه حتى نتمكن من تشغيل جميع المواهب المكنونة في أنفسنا للسموّ إلى الأعالي.

أجل! نحن بحاجة إلى الدين. ولو تمكن الإنسان من معرفة حاجاته الحقيقية ووعى أنه ما خلق إلا مرشحاً للسعادة الأبدية، ولو استطاع استخدام جميع لطائفه وقابلياته وتَنْمِيَتها لدَعا من الله هذا الدعاء ولو بكلمات مختلفة: "يا رب! أرسل لنا نظاماً من عندك لكي ندير به أنفسنا ونحفظها من الزلل ومن سلوك الطرق الخاطئة، وأنقِذنا من التيه بين الطرق المتعرجة والملتوية التي لا تؤدي إلى أيّ مكان".

لقد سار حتى كبار الفلاسفة وعقلاؤهم سَيراً مترنحاً ومتعثراً ولم يتمكنوا من الوصول إلى الحقيقة أبداً، بينما العامي فينا الذي مشى متتبعاً آثار أقدام الرسول ﷺ لم يخطّ خطوة واحدة في الفراغ، بل عاش في كل مرحلة من مراحل حياته كإنسان يعرف نفسه ويراعي حقوق الآخرين، لأنه يتطلع إلى مرضاة الله، ويقتدي برسول الله ﷺ الذي

هو المَثَل الأعلى له، ومن ثم يستغل كل لحظة من رأسمال عمره كبذرة أنبتت سبع سنابل.

لم يكن الدين مخترعاً من قبل عقل الإنسان استجابة لمطالبيه. أما المظهر الضروري للدين الذي يبدو كذلك فنابع من كونه نظاماً فطرياً يلائم طبيعة الإنسان، وكونه شعورا مغروسا في فطرة الإنسان منذ البداية. فقد خُلق الإنسان بطبيعة محتاجة إلى تعاليم الدين. بفضل الدين فقط يدرك الإنسان الحقيقة والصواب في العقيدة والمعاملات، وبفضل الدين فقط يُصبح أهلا للجنة حيث ينصهر في بوتقته وينضج شيئاً فشيئاً حتى يصل في النهاية إلى هيأة تمكن الرسول ﷺ من معرفته وأخذه بيده وضمه إلى أمته تحت لواء الحمد يوم القيامة.

عندما سئل الرسول ﷺ كيف سيعرف أمته يوم الحشر الأعظم أجاب قائلاً: «ما من أمّتي من أحد إلاّ وأنا أعرفه يوم القيامة». قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: «أرأيت لو أن رجلاً كان له خيل غُرٌّ مُحَجَّلة بين ظهرانَيْ خيل بُهْم دُهْم ألم يكن يعرفها؟» قالوا بلى. قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غُراًّ مُحَجَّلين من أثر الوضوء».[1] نحن بحاجة إلى أن نُعرَف هكذا، ونحن المحتاجون إلى الدين وإلى نفحاته التي تهب الحياة.

لقد جاء الدين بأسس إيجابية تحتضن الحياة بأكملها. والنظرة التي ترى الدين شيئا قاصراً نظرة ضيقة. والذين يحاولون رفع الدين من الحياة ووضعه على الرف سيدركون يوماً ما الجريمة التاريخية التي يهمّون باقْترافها، وسيندمون على فعلتهم هذه. إن هذا الخطأ يُرتكب في كثير من البلدان شرقاً وغرباً ويتم الاعتراف بارتكابه. غير أن الدين هو روح الحياة ولن يستطيع أحد إنكار ذلك.

للدين أصول وفروع، أما الأصول فلا يمكن مسها بأي تغيير على الإطلاق. وما من فرق بين ديننا والدين الذي كان عليه آدم عليه السلام من حيث الأصول. إذ إن أسس العقيدة واحدة في جميع الأديان السماوية. ولعدم وجود نص فإنني أحذَر من إصدار حكم قاطع،

---

[1] البخاري، الوضوء ٣؛ مسلم، الطهارة، ٣٥-٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٣٠٠.

ولكن يمكن القول بأن أصول الدين هي نفسها بالنسبة للملائكة أيضاً، أي أن جميع الملائكة يؤمنون بما نؤمن به، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر والبعث بعد الموت. أما الفرق ففي درجة الإيمان ومرتبته.

والأمر نفسه ينطبق على العبادات كذلك. فما من دين سماوي صحيح أتى دون أن يلزم أبناءه بالعبادة. وقد تختلف هيأة أدائها حسب الشعوب والعهود، لأن الله ﷻ قد حدد لكل أمة عبادة ملائمة لطبيعتها وظروفها وزمانها. أجل، قد يختلف الشكل، ولكن المضمون ووجود العبادة كأصل ثابت لا يتغير أبداً.

ولنأخذ عقيدة الآخرة على سبيل المثال، فإننا نجدها في جميع الأديان السماوية. فهي من الضروريات التي تحدث عنها كل نبي لأمته تفصيلاً أو إجمالاً. ولولا هذه العقيدة التي تحث الإنسان على الخير وتنهاه عن الشر لزالت الميزة التي تميز الدين عن أي نظام اقتصادي أو اجتماعي بشري. فالدين يبني الكثير من أحكامه وتعاليمه على الإيمان بالبعث بعد الموت.

لو لم يكن هناك إيمان بالآخرة لما كان للعبادات ولا للأذى الذي يتعرض له الإنسان في سبيل الدين، والتضحيات التي يقدمها، ولا لأي عقيدة أو إيمان فائدة له، ولخلع عن نفسه الكثير من الفضائل التي يتحلى بها. فالإيمان بالآخرة هو الذي يحثنا على الالتزام بالفضائل، لأننا نؤمن بأننا إن عملنا مثقال ذرة خيراً أو شرّاً فسنراه هناك.

ثم إننا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سنرى فيها جمال ربنا سبحانه، هذه الرؤية التي لا تعادلها حتى حياة الجنة كلها. و من أجل الوصول إلى هذه الهبة الكبرى وبالشوق الذي يشتعل في نفوسنا تنصقل أرواحنا وتسوقنا لسلوك الطريق القويم المؤدي إلى هذا اللقاء دون انحراف.

يقوم الأنبياء بأمر من الله تعالى بنسخ الشرائع السابقة بالنسبة للفروع ورفع أحكامها، وقد جرت سنة الله على هذا النحو، وهو مرتبط بنسبة تقدم الوعي لدى الإنسان ونضوجه. فالبشرية كانت تعيش دور الطفولة في عهد آدم عليه السلام بينما شبَّه النبي ﷺ نفسه بشمس العصر، أي أن البشرية كانت قد وصلت في عهده إلى دور النضج والكمال، وبدأت تميز الحق من الباطل تمييزاً جيداً، ومن ثم تمسكت بالحق الذي جاء بعد

الباطل تمسكاً قويّاً.

كما جاءت فروع الدين مناسبة وملائمة لهذه المرحلة، والله تعالى بحكمته الواسعة هو واضع هذه الفروع. لذلك نرى مئات المصالح والحكم في أشكال العبادات لهذا الدين، أي إن شكل العبادة عنده مناسب لجماعة ناضجة وواعية. أما الأديان الأخرى فقد تعرضت للتحريف وللتبديل وفقدت هويتها الأولى. وحتى لو حافظت على هويتها لما كانت ملائمة للعهد الحالي. ذلك لأن الله تعالى حدد الدين الذي يرضى عنه وهو الإسلام.

وخلاصة القول، لم يكن الدين أبداً نتيجة لخوف الإنسان من الآفات الطبيعية كالسيول والصواعق. كما لم يكن كذلك نظاماً اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً يهدف إلى حل مشاكل الإنسان الاجتماعية والاقتصادية ليوصله إلى السعادة والرفاه. و لم يكن إفرازاً للطبيعة البشرية كما ادعى "رينان" و"روسو"، بل هو مجموعة قوانين إلهية تكفلت بسعادة الإنسان في الدارين. إن سعادتنا وراحة بالنا مرتبطتان به، وبه يمكن دوام ارتباطنا بالقوانين، وبوساطته يمكن الوصول إلى الجنة وإلى النظر إلى جمال الله تعالى. ومهما ترقت المدنية فإنها تعجز حتى عن تأمين السعادة الدنيوية للإنسان، فكيف تستطيع إذن أن تحل محل الدين؟!!

كيف تم انتقال الإنسان إلى قارة أمريكا؟

هذا موضوع الساعة في هذه الأيام وهو موضوع نقاش وحوار. ومع أن السؤال يبدو بسيطاً إلاّ أن الهدف والغاية من توجيهه ليس بسيطاً، ذلك لأنهم يحاولون أن يقولوا لنا: "أنتم تقولون بأن الناس جميعاً من نسل آدم وحواء عليهما السلام، ولكن كيف جاء هؤلاء الناس الذين ولدوا من أب واحد وأم واحدة إلى هذه القارة الجديدة؟ فلو كان الأمر كما تقولون لما استطاع هولاء الوصول إليها. وهذا يدل على نشوء كل إنسان في منطقته الخاصة به نشوءً ذاتيا، أي هناك عملية تطور".

إذن، تحت هذا السؤال الذي يبدو بسيطاً للوهلة الأولى يكمن مثل هذا الفكر الإلحادي. أجل، إننا نقول بأن الناس جميعاً من نسل آدم وحواء عليهما السلام. ولا نقول نحن هذا، بل يقوله الله ﷻ، لذا نؤمن بهذا من كل قلوبنا.

يحاول العلماء الماديون منذ سنوات بنظريات متعددة مناقضة ما يقوله القرآن حول الخلق، ولكننا رأينا -كما ذكرنا ذلك بالتفصيل في موضعه- بأن هذه النظريات التي طرحت من قبَل هولاء تهافتت الواحدة بعد الأخرى وظهر أن ما ذكره القرآن هو الصحيح من الناحية العلمية. ولن ندخل في هذا الموضوع الآن، بل نحيل من يرغب في ذلك إلى ما قلناه بالتفصيل في هذا الصدد. ولكن نكتفي هنا بالقول بأن الناس جميعاً هم من نسل آدم وحواء عليهما السلام. والنظرية الداروينية التي ادعت العكس تتعرض كل سنة إلى سيل جديد من نبال المعارضة العلمية. ولا ننسى هنا أن الداروينية ليست إلا نظرية فحسب.

وقد يرى البعض أننا نحاول حشد أدلة عديدة أكثر من اللازم ضد هذه النظرية المبنية على أسس ضعيفة جدّاً. ولكننا معذورون في هذا لأن الفكر الإلحادي الخبيث الكامن تحتها من الخطورة بحيث يبرر قيامنا بحشد كل هذه الأدلة ضدها بل يجبرنا على ذلك. والمنظر الحالي هو أن نظرية التطور ولدت منذ البداية ميتة، ولم تسر فيها الحياة أبداً، وتعرضت حتى الآن لسهام مئات وآلاف من العلماء المؤمنين حتى لم يبق فيها مكان

صحيح غير مجروح، وحُكم عليها بالإعدام مئات المرات. لذا فإن هجومنا عليها لم يكن إلا بسبب قيام بعض أهل الضلالة بمحاولة إحياء هذه النظرية واستغفال بعض الشباب بها.

لقد تعرضت دنيانا هذه عدة مرات إلى تغيرات كبيرة. فالجيولوجيون يقولون مثلاً بأن البحر الأبيض المتوسط كان عبارة عن بَرّ قبل عشرة آلاف سنة. وإن كثيراً من أقسام البر حالياً كانت بحاراً. فإن كان ما يقولونه صحيحاً، فمعنى هذا وجود حضارة ودول في المكان الحالي للبحر الأبيض المتوسط آنذاك. ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة لقارة أمريكا وقارة استراليا، أي من المحتمل أن هاتين القارتين كانتا متّصلتين بالقارات الأخرى للعالم، وإن المحيطات التي تفصلهما الآن كانت أراضي برّية. فإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية علمنا أن انتقال الإنسان إلى قارة أمريكا وغيرها من القارات كان ممكنا ومتيسراً.

ثم إن تاريخ الإنسانية أقدم مما يُتصور، فقد نشرت قبل مدة مقالات حول العثور على هيكل عظمي لإنسان عاش قبل ٢٧٠ مليون سنة، بينما عمر أقدم هيكل عظمي للقرد تم العثور عليه حتى الآن يرجع إلى ماقبل ١٢٠ مليون سنة، أي هناك فرق أكثر من نصف الفترة الزمنية بينهما. بينما نجد أن بعض الأحياء المائية التي تعيش في أعماق البحار كالطحالب باقية كما كانت تماماً قبل ٥٠٠ مليون سنة. والنحلة الحالية، هي كما كانت تماماً قبل ٥٠٠ مليون سنة.

فالعلماء يشيرون بهذه الأرقام التي يعطونها إلى أن ظهور الوجود وكذلك ظهور الحياة أقدم مما كان يتصور سابقاً. لذا لا يجوز إعطاء أحكام عن عهود تاريخية هي أقدم من العهود التي يعرفها علماء التاريخ، وفي الأقل إعطاء احتمال لما ذكرناه وإجراء التقييم على ضوء هذه الاحتمالات، لأن أصحاب النظرة المعاكسة لنظرتنا لا يملكون أي دليل يعتد به لنقض نظرتنا.

عندما تقابل الفرنسيون مع أهالي "مايا" ذكر هؤلاء للفرنسيين بأن تاريخهم القديم المكتوب يذكر بأن أرض بلدهم كانت ملتصقة ببَرّ بلد آخر، وأن طوفاناً وزلزالاً أدّى إلى اختفاء ذلك البلد وأغرقه في البحر. أما هم فقد بقوا في الأعالي. وهناك إشارة مماثلة

لهذا في تاريخ الهند، فهم يذكرون حدوث طوفان كبير انفصل إثره البر المجاور لهم وفصل بينهما المحيط. قد تكون قارة استراليا هي البر الذي انفصل وابتعد عنهم. إذن فإن رحيل الإنسان إلى قارة أمريكا أو استراليا لم يكن صعباً أو مستحيلاً كما يدّعون.

ويمكننا القول أخيراً بأننا حتى لو قبلنا برّ الأرض كما هو موجود حالياً، فإن الوصول إلى تلك القارات ليس صعباً. ذلك لأن مضيق "برنك" كثيراً ما تتجمد مياهه بحيث يمكن المرور إلى أمريكا من روسيا. ثم إن هذه المسافات يمكن قطعها حتى بالسفن البدائية. ونحن نعرف أن السُّيّاح المسلمين استطاعوا الوصول إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، أي قبل وجود السفن الحديثة، وأنهم شحنوا حتى جيادهم على سفنهم واكتشفوا أمريكا. وهذه الحقيقة يشير إليها الكثير من المحققين. إذن، فإن انتقال الإنسان إلى أمريكا وتكاثرهم هناك لم يكن عملية مستحيلة أو حادثة غريبة وخارقة للعادة، بل كانت حادثة اعتيادية.

أما بالنسبة إلى نقض الداروينية، فقد قيل الكثير كجواب على الأسئلة المثارة حولها، وتم طبع العديد من الكتب والبحوث العلمية حول نقضها. فمن أراد معرفة ذلك فعليه مراجعة تلك الكتب.

كيف نتصرف تجاه إخوتنا الذين انحرفوا عن الدعوة وأصبحت علاقتهم بها باردة؟

هناك إخوان لنا فترت علاقتهم بالدعوة لأسباب شتى. ويمكن أن يقع هذا الأمر في كل وقت، ولكنهم مع ذلك يبقون إخوة مؤمنين بالنسبة لنا. وكل ما يستحقه المؤمن من منـــزلة واحترام حسب تعاليم القرآن والسنة يكون جارياً بالنسبة لهم وينطبق عليهم. إذن فالمقياس هنا -كما في كل شيء آخر- هو القرآن والسنة. لا نستطيع أبداً أن نغتابهم، لأن الغيبة حرام، وتعد مثل أكل لحم الأخ، أي يستوي هنا قيامك بإهانته قولاً أو فعلاً وبين سلْقه في قِدر ثم أكل لحمه. هناك حالات تجوز فيها الغيبة، وكتب الفقه تشرح هذه الحالات بالتفصيل، إلا أنني لا أوافق على الاقتراب من تلك الحالات ومن تلك الحدود. فالقليل من الناس من يستطيع التصرف بتوازن في تلك الحالات.

فليس من الصحيح قيام كل شخص باستعمال ذلك الحق والاقتراب من تلك الحدود. هذه ناحية من نواحي هذه المسألة، أما الناحية الأخرى، فهي أن ما نقوله بحق ذلك الأخ سيصل إلى أذنه في يوم من الأيام، فيكون هذا سبباً في ابتعاده عنا أكثر فأكثر. ولكوننا نحن المتسببين في هذا فالمسؤولية تعود إلينا. وليس هذا بالإثم الهين، ذلك لأنه ما من شخص يملك صلاحيةَ إبعادٍ وحقَّ وحرمانَ أيّ فرد من هذه الدعوة ومن هذه الخدمة الإيمانية المباركة. وقد لا يكتفي هذا الشخص بالابتعاد عن الدعوة التي كان في السابق يُفديها بروحه، بل ينقلب عدوّاً لها. ولما كانت الخصومة للدعوة الحقة ذنباً كبيراً وعظيما فإن المتسبب في مثل هذه الخصومة سينال الإثم نفسه.

كثيراً ما يقوم بعض الناس بنقد الدعوة أو الخدمة التي لا يكونون ضمن دائرتها ويستهينون بها. فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار فإن من الحكمة توقع جميع التصرفات من هؤلاء الأشخاص المبتعدين عن الجماعة وذلك بنسبة ابتعادهم، فذلك هو قدَرهم المرّ وحظّهم التعس. وهذه نتيجة مؤلمة ولا نستطيع إلا الشعور بالرثاء والشفقة على أمثال

هؤلاء. ووظيفتنا هي أن نتصرف كما كنا نتمنى أن تتصرف الجماعة نحونا لو كنا في موقفهم، أي لا نستكثر عليهم مثل هذه المعاملة.

والرسول ﷺ كان يفعل الشيء نفسه، إذ لم يقل شيئاً ضد من وقع في الزلل في ذلك العهد أو في الوهم، أو فقَد قابليته على العمل وعلى أداء الخدمة. ولم يغتب أشخاصاً كان يعرف نفاقهم أمثال عبد الله بن أُبيّ بن سلول وقبل ظاهرهم، ولم يقل ضده كلمة واحدة مع أن الصحابة طلبوا منه قتله بعد قيامه بإشاعة حديث الإفك ضدّ أُمّنا عائشة رضي الله عنها، بل قال بأنه لن يجعل الناس يقولون بأن محمداً يقتل أصحابه. ولو قمت بتدقيق جميع كتب الأحاديث لما وجدت لرسول الله ﷺ في حق أي مؤمن أي كلمة قد تزعجه أو تنال منه. فإن استطعت العثور على مثل هذه الكلمة فإنني سأتخلى عن كل ما قلتُه سابقاً أو ما سأقوله مستقبلاً. كلا لن تجد كلمة واحدة في هذا الخصوص. وهذا هو المقياس الذي يجب أن يكون مقياسنا لأنه مقياس لن يضلّ، أي يجب ألاّ نغتاب إخواننا ولو بكلمة واحدة.

وإذا نظرنا إلى العلامة المفكر بديع الزمان سعيد النورسي نرى أنه عندما ابتعد عنه بعض تلاميذه لفترة من الزمن ثم عادوا ورجعوا إليه مدحهم وركّز على رجوعهم فقط وأثْنى على مستواهم أثناء الرجوع، وهذا هو ما بقي في ذاكرتنا عنهم. بقي في ذاكرتنا أنهم رجعوا. ولكن كان من الطبيعي أن هذا الرجوع سبقه فراق وبُعد ولكن ذلك الزعيم الكبير الذي كان دقيقاً جدّاً في جميع كلامه وتصريحاته ركّز فقط على رجوعهم، ولم يكتب سطراً واحداً عن مفارقتهم وابتعادهم. ومع أن العديد من الأشخاص في عهده افترَوا عليه وهاجموه، إلا أنه لم يقل كلمة واحدة صريحة تُفيد الغيبة ضدّ أحد منهم ولم يذكر بصراحة اسم أحد منهم، لأنه عد هؤلاء الأشخاص إخواناً له من جهة الإيمان ولم يقابل تهجمهم عليه بكلمة واحدة. وكون أي إنسان مؤمناً ومتخذاً موقعه ضد الكفر، وفي النتيجة استحقاقه للجنة ليس من الأمور التي يمكن التهوين من شأنها. لذا فكما نهرب من الأفاعي والثعابين، علينا أن نبتعد ونتجنّب ونحذر من اغتياب إخواننا.

من الممكن النظر إلى المسألة من زاوية أخرى. فالعقوبات التي تطبق في الظروف

الاعتيادية في الإسلام لا تطبق في جبهة القتال، أي أن من يسرق أو يزني أو يفتري في جبهة القتال لا تطبق عليه عقوبات هذه الأفعال. والحكمة من هذا الحيلولة دون لجوء ذلك الشخص -وهو يحاول إنقاذ نفسه- إلى الأعداء. ماذا يحدث إن التجأ إلى الجبهة المعادية؟ أما هو فيقع في خسران أبَدي، أما نحن فنكسب عدوّاً يعرف جميع أسرارنا، وكِلا الأمرَين خسارة لنا. لذا كان من الضروري التعامل مع هؤلاء في منتهى الحكمة وبأجمل أسلوب.

مثلاً قد يبتعد عنا أحد إخواننا بسبب الخوف أو بسبب الرغبة في منصب. لمثل هذا الشخص نستطيع أن نذكر بأننا نتفهم دواعيه وأنه أراد الحيطة، ونعم ما فعل، ولكننا لا نستطيع مجاراته في هذا. وهكذا فإننا لا نسد المنافذ إزاءه، فقد تتجدد علاقاتنا معه بعد سنوات. وقد يفهم الحقيقة فيما بعد ويرجع إلينا، فإن اعترف بأنه كان على خطأ وأننا كنا على صواب، عندئذ نقول له" أنت محق الآن أيضا".

ثم يجب علينا ألاّ ننسى أن الشخص الذي يغتاب إنساناً آخر يفقد ثقة المستمعين له. والجماعة التي تهتزّ فيها الثقة بين أفرادها لن تستطيع أبداً حمل أمانة الحق الثقيلة.

ثم قد يوجد أشخاص لهم علاقات مع ذلك الشخص الذي تتم غيبته كوجود قرابة أو مودة أو فكر مشترك، عند ذلك تثير هذه الغيبة حساسية لدى هؤلاء وهذا لا يؤدي إلا إلى خسارة في جبهتنا. ثم إننا لا نقول اليوم كل ما نريد قوله، فلَنا كلام نقوله في الغد، فلا فائدة من قوله اليوم.

قد يقوم هو بالإساءة إلينا باغتيابنا، ولكن علينا ألا نقابله بالمثل. إذ يجب أن نكون بعيدين جدّاً عن الانتقام لكرامتنا الشخصية، أو نتورط في مسائل شخصية. يجب أن نفدي كل شيء في سبيل دعوتنا السامية. ففي الوقت الذي يهاجَم فيه رسولنا ﷺ ويُفتَرى عليه وعلى الإسلام، لا نستطيع جعل كرامتنا موضوع الساعة، بل لا نستطيع أن نجد الوقت حتى لمجرد التفكير في ذلك. إن أفضل معونة يمكن تقديمها اليوم لأي إنسان هي المعونة المقدمة لإنقاذ حياته الدينية. ووظيفتنا نحن هي الإسراع لنجدة إخوتنا وإعانتهم.

هل توجد درجات ومراتب بين أسماء الله تعالى وصفاته؟

لو لم تكن أسماؤنا موضوعة من قِبَل آبائنا وأمّهاتنا، بل حسب المهارات التي سنكتسبها فيما بعدُ لَكان اسم البعض خبّازاً، والبعض الآخر نجاراً... الخ. أي لكانت الأسماء دالّة على مهارات حامليها. وقد تكون هذه الأسماء بصيغ المبالغة، فالذي يقوم بوظيفة الستر بشكل اعتيادي "ساتر"، أما من يقوم بهذا بشكل كامل ودون نقص فهو "ستّار"، ومن يحمد يكون اسمه "حامد"، أما من يقوم بوظيفة الحمد بشكل كامل فهو "حمّاد".

ولكن أسماءنا لا تعطى لنا حسب مهاراتنا المستقبلية، بل حسب رغبات آبائنا وأمهاتنا، حتى أننا نسمى بأسماء لا تتناسب ولا تتلائم معنا. قد يبدو هذا التشبيه سمجاً وغير جميل، ولكن ما بيدنا حيلة، لأننا نضطر إلى هذا في سبيل توضيح الحقائق المجردة وإفهامها.

أما أسماء الله تعالى الحسنى فقد تم إخبار عباده بها من قِبل رسله الكرام. وهي تتعلق بإجراءاته تعالى في الكون. فمثلاً هناك جمال واضح في الكون، جمال متداخل بعضه مع البعض الآخر كتداخل ألوان قوس قزح، جمال نشاهده في السهول والبساتين والجبال والأزهار والعيون والحواجب. والشعراء ترنَّموا بالصورة الخارجية فقط لهذا الجمال منذ آلاف السنوات، ولا يزالون يترنّمون، ولكنهم لم يعبّروا إلا عن جزء صغير مما يمكن أن يعبّر ويقال عن الجمال. ولا شك أن هذا الجمال الذي نعجب به كل هذا الإعجاب ولا نتمكن من التعبير عنه حق التعبير يستند إلى اسم من أسماء الله تعالى وهو اسم "الجميل".

ثم نرى أن الرزق يوزَّع في الكائنات حسب نظام دقيق. فاعتباراً من الخلية إلى وحيد القرن تتم تغذية كل حي برزق مناسب. فالعبادة والذكر والتسبيح هو رزق الملائكة، واللحم رزق الإنسان، والعظم رزق الجن. وهذه الفعّاليات التي نشاهدها في موضوع الرزق تستند دون شك إلى اسم "الرزاق".

ولو لم نكن نعلم أن "الجميل" و"الرزاق" من أسماء الله تعالى، ولكن شاهدنا أفعاله

وإجراءاته لَدعوناه وقلنا له "أنت جميل" "وأنت رزّاق". والأمر نفسه وارد بالنسبة لأسمائه الحسنى الأخرى. وهكذا فالله تعالى بعد أن أظهر إجراءاته لنا سمّى نفسه بهذه الأسماء الحسنى لكي لا نقع في الخطأ أو في الوهم. غير أن هذه الأسماء الإلهية الحسنى أسماء توقيفية، أي أننا لا نستطيع اختراع أسماء من عندنا حول الله تعالى.

هذه الأسماء الحسنى تستند إلى صفات إلهية معينة. ونستطيع أن نقول استناداً إلى المثال الذي سبق وأن ذكرناه أنه لا يمكن إعطاء اسم "الخبّاز" لمن لم يكن من صفته صنع الخبز، ولا إعطاء اسم "النجّار" لمن لا يعمل في أعمال النجارة. أما الله تعالى فقد بصم على وجه كل موجود بصمة الجمال لكي نعرف أن صفة الجمال موجودة عنده، لذا يستطيع كل من كان في مستوى معيَّن أن يشاهد "الجميل" في كل منابع الجمال.

ومثيل هذا جميع "الأسماء" ترجع إلى صفات معيّنة. وهذه "الصفات" ترجع إلى "الشأن". فإن استعملنا هذا في حق البشر عبّرنا عنه بالقابلية والاستعداد، ولكن لا يجوز استعمال مثل هذا التعبير بحق الله تعالى. إذن فالأفعال تستند إلى الأسماء، والأسماء إلى الصفات، والصفات إلى الشؤون الإلهية، والشؤون الإلهية إلى ذات الله ﷻ. نقف هنا لنقول كما قال رسول الله ﷺ: «ما عرفناك حقّ معرفتك يا معروف»[1] أو كما قال أبو بكر الصديق ﷺ «العجزُ عن الإدراك إدراك»[2]، نقول هذا وننحني بكل أدَب وخشوع.

هو ﷻ موجود.. نشعر حتى نخاع عظامنا بوجوده، ولكننا نعجز عن إدراكه. ليس هناك أظهر ولا أبْيَن منه، ولكنه مع هذا هو الموجود المجهول. نكتفي هنا بهذه النظرة السطحية حول الفرق بين أسمائه وصفاته، ونؤجل التفصيل في هذا الموضوع إلى فرصة أخرى.

---

[1] فيض القدير للمناوي، ٢/٤١٠؛ أقاويل الثقات لمرئي بن يوسف، ص ٤٥.

[2] إحياء علوم الدين للغزالي، ٤/٢٥٢؛ المقاصد الحسنة للغزالي، ص ٥٤؛ شرح سنن ابن ماجه للسيوطي، ١/١٠٣؛ فيض القدير للمناوي، ٦/١٨١.

هل يمكن أن تشرحوا لنا كيف نحافظ على جيلنا ضدّ عمَليات التخريب التي تقوم بها الجهة المعادية؟

منذ عهد آدم ﷺ وحتى اليوم اختار الكفر طريق التخريب والهدم، واختار أصحاب الإيمان طريق البناء والتعمير. واليوم يجري الشيء نفسه، لذا نرى مفكر العصر الأستاذ النورسي رحمه الله الذي أحس هذا في أعماق قلبه يقول: "لو كان هناك توازن بين هاتين القوّتين، ولو كانتا تملكان الإمكانيات نفسها لسجلت جبهتنا فتوحات كبيرة".

لا تقوم الجبهة المعادية إلا بعمليات التخريب، إذ تقوم باستغلال مشاعر الإنسان وغرائزه لجره وإسقاطه في شباك الشهوة، وتثير فيه الرغبات لتجعله أسيراً وعبداً لحياة مادّية بَحْتة، وتزيّن له المنصب والجاه وتجعله هدَفاً للحياة. وهكذا تقوم بعمليات هدم وتخريب واسعة بوسائل بسيطة، فتغوي أجيالاً من الشباب. ولو كانت الأمور تجري بهذه البساطة في جبهتنا لتمّتْ أعمال باهرة بعد كل هذه الجهود المبذولة، مع أننا نقوم بإعادة بناء وبعملية تعمير لقلعة كبيرة جداً تهدّمت جدرانُها وحصونها منذ قرون عديدة.

فكِّروا معي، لقد اهتزت قواعد التوحيد في هذا البلد وفي بعض البلدان الإسلامية الأخرى، وظهر الكفر بالله وإنكاره، وهُوجِم الرسول ﷺ واستُهين بالدين، ونُبذ القرآن الكريم جانباً مع كونه مصدر النور والحق، مع أن العديد من غير المسلمين اضطروا إلى الاعتراف بأنه كتاب معجِز. بل فقدَ الدين حتى عند بعض المتدينين أولويتَه وثقله، وأصبح الوضع بائساً بكل معنى الكلمة. في مثل هذا العهد تكثر الواجبات، كما تكثر قيمة تلك الواجبات وأهميتها. الجبهة المعادية تقوم بسحب حجر واحد أو لبِنة واحدة، وهذا يكفي لكي يسقط بناء كامل وينهدم. بينما نقوم نحن بإنشاء بناء لبنة لبنة وحجراً حجراً، كما نقوم بحراسة الجزء المشيد من البناية. ولكن يجب علينا أن نذكر أيضاً أننا نشاهد في عملنا هذا يد العناية الربانية. وهذه الأسطر تذكّرني بإحدى ذكريات العالم "باسْكال".

لقد كان إنسان وَجد وعِشق، ولكنه لم يكن محظوظاً. يقول أحد مفكرينا عنه إنه أضاع فرصة الركوب على الباخرة الأخيرة و لم يستطع اللحاق بها. لقد اقترب من ميناء محمد ﷺ ولكنه لم يستطع رمي نفسه في أحضان ذلك النور. هذا موضوع آخر، وما أريده هنا هو إيراد إحدى ذكرياته لإيضاح مسألة متعلّقة بنا. يقول باسكال "كنتُ راكباً عرَبة يجرّها حصانان. وكانت العربة تسير بمحاذاة نهر السين، وفجأة فقدت السيطرة على الحصانين، فبدآ بالعدْو نحو النهر بجنون.. لم يكن هناك أي أمل في النجاة، إذ كان مقدراً لي أن أنقذف في النهر. ولكن حدث شيء غير متوقع، إذ انقطعت الصلة بين الحصانين وبين العربة وسقط الحصانان في النهر. أما أنا فقد تم إنقاذي بيَدَين نورانيتَين حيث بقيت أنا والعربة على حافة النهر".

بتأثير هذه الحادثة عاش باسكال حياته الباقية في أحد الأدْيرة. وبعد أن قضى حياته حتى ذلك الحين في لهو ومجون، قضى بقية حياته في الدير كراهب متأملاً ومفكراً. أما نحن فقد رأينا هذه الأيدي النورانية، وأيدي الرعاية، مئات المرات في الحوادث التي جرت معنا، وليست مرة واحدة كما حدث لباسكال. لذا فإننا نحمد الله تعالى حمداً لا نهاية له على نعمه ورعايته.

وبينما يقوم الطرف المعادي بتخريب الشباب بأفلامه ومسرحياته وخماراته وبأماكن الرقص، فإننا نرشد الشباب ونطلب منهم أشياء صعبة كما تبدو في الظاهر، إذ نقول لهم "صلّوا وصوموا وسَيطروا على أنفسكم ونـــزواتها، لا تعيشوا لأنفسكم، بل ضحّوا أنفسكم وعيشوا من أجل الأجيال القادمة". ومع كل هذه المطالب الصعبة ظاهرياً نرى إقبال آلاف الشباب علينا، وقيامهم بالتمسك بمبادئ الإسلام. لقد قلنا قبل سنوات بأن التفكك والانهدام سيكون مصير الاتحاد السوفيتي والصين. لقد أصبح هذا من المعلومات الاعتيادية الآن. ومسائل عديدة قيلت في الأمس و لم يفهمها أحد حق الفهم ونراها الآن متحققة. فهناك تبدلات وتغيرات مهمة جدّاً نشاهدها في المنطقة المجاورة.

لقد بدأت الإنسانية تذوب أمام الدين كذوبان الثلج أمام أشعّة الشمس. وبدأت جبهة الكفر تفقد مواقعها في الأماكن المرتفعة وتنحدر إلى أسفل. أما جبهتنا وصفّنا فهو يتسلق بسرعة إلى الأعلى. وفي ربع القرن القادم ستتغير أمور كثيرة وسيأخذ العالم

الإسلامي موقعه اللائق به بين الأمم إن شاء الله تعالى. لقد بدأ الكفر بفقد مواقعه وسيطرته، وبدأنا نحن بتنظيم صفوفنا وبأخذ المبادرة.

علينا أن نقوم بما يجب علينا القيام به. أما حفظ أجيال الشباب فهو شأن من شؤونه تعالى. ونحن نأمل من رحمته الواسعة أن يصون هذا الجيل الناشئ الذي ظهر ونشأ نتيجة جهود وآلام ومعاناة كبيرة، وألاّ يدَع الأفراخَ الصغيرة فريسة للوحوش. ولو لم تمتدّ يد عنايته ورحمته لَما كان هذا بمقدورنا. أجل لقد وهب ﷻ لنا إحسانا ولطفاً، وساقنا إلى مجالات لا نعرفها. وبعد مدة أدركنا أنه كان من الواجب علينا الدخول إلى تلك الساحة. ونحن ندعو الله تعالى أن يديم لنا عنايته ومعونته حتى إنجاز هذا العمل كاملاً غير منقوص، إنه على كل شيء قدير.

كيف نستطيع صيانة أنفسنا من أخطار نزوات الشباب؟

من أهم مشاكل إنساننا الحالي بقاء معظمهم تحت ضغط عواطف الشباب التي تؤثر على مشاعرهم السامية. وقد أصبح من الصعوبة بمكان القيام بتمثيل الإسلام وحقائقه مثلما أراده الرسول ﷺ. ولكن هناك نواح إيجابية في الكفاح في مثل هذه الظروف. فكلما زادت الصعوبات وادلهمت الخطوب زاد ثواب العاملين وأجرهم.

ألم تكن قسوة الظروف التي أحاطت بنضال حمزة ﷺ هي التي سمت به إلى مرتبة سيّد الشهداء؟ ألم يشاهد قلة عدد المسلمين وكثرة عدد الكفار؟ ومع ذلك اندفع إلى القتال بقوة إيمانه ولم يعبأ بالموت. لقد كان هذا وسيلة للسمو به إلى مرتبة سيد الشهداء.

إن الآثام التي تزعجنا الآن كانت موجودة أيضاً في عهد الصحابة. فالنساء كنّ يطفن حول الكعبة عاريات. وكان الخمر والرشوة والميسر والربا ينخر في جسد المجتمع. ولكن الصحابة أداروا ظهورهم لكل هذه الفواحش وتوجهوا إلى الإسلام. كانوا بشراً، يحملون مشاعر وغرائز البشر. ألم تكن تَضْحيتهم بكل أهواء النفس هي التي سمت بهم وجعلتهم أعظم العظماء؟ لقد هجروا الفواحش جميعها واختاروا سلوك حياة طاهرة وساروا خلف الرسول ﷺ على الرغم من جميع المخاطر التي كانت تحف بهم. فاكتسبوا فضائل كبيرة واستحقّوا بذلك أن يكونوا نجوم هداية لمن جاء بعدهم.

وهذه المهالك والمخاطر موجودة اليوم أيضاً. لذا فقد دُعي مفكّر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النورسي يوماً بـــ"رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك". ولو نادى الرسول ﷺ جيل هذا القرن لقال "تعالوا! تعالوا يا جيل المهالك والمخاطر"، لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياة الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسة المكلفة بإسناد كل هذه الوحدات الاجتماعية، وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدة واحدة، وقمنا بإصدار تقييم حولها، لَكان هناك وصف واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف "سيّء جدّاً".

أينما تذهب أو تتجول لا تستطيع الحيلولة دون التلوث ببعض الإثم. لا تستطيع أن تعبر في الحياة الاجتماعية من جهة إلى أخرى دون أن ينثلم روحك عدة مرات ودون أن تتعكر حياتك القَلْبية. إن العيش اليوم مسلماً أصبح أصعب من المشي على الجمر. إذن فنحن جيل مثل هذا العهد المهلك والمفجع. وأهواء النفس المركبة في طبيعتنا تترصدنا كالعقرب لكي تلدغنا. وهذه الأهواء والشهوات تتغذى وتتقوى على الدوام من المحيط الفاسد الذي ولدت فيه وترعرعت. ومن المحتمل في كل آن وحين أن يقوم هذا العقرب بلدغنا وتسميمنا.

ومع كل هذا فإننا نتقبل هذه المغارم من أجل مغانمها، ونجد السلوى في المغانم التي تكسبها لنا، بل نفرح، ذلك لأننا في الوقت الذي نستطيع فيه تجاوز هذه المصاعب تكون مكاسبنا كبيرة بنفس النسبة. فإن كان الصحابة وفقوا إلى تجاوز تلك الشروط الصعبة، فاستحقوا أعلى المراتب، فإننا نأمل من صاحب الرحمة الإلهية ﷻ أن يوفّق المؤمنين الحاليين ويعينهم لكي يصلوا إلى السعادة نفسها. لا شك أن هناك أخطاءً وذنوبا ارتكبناها دون قصد في هذا الزمن الذي تزاحمت فيه الآثام وسهل الدخول إليها والتلطخ بها، ولكن واجبنا هو عدم مفارقة باب الرحمة الإلهية والاستمرار والثبات.

واسمحوا لي هنا بسرد إحدى ذكرياتي كوسيلة للتعبير عن مشاعري. عندما كنت طفلاً كان لنا كلب يقوم بحراسة أغنامنا وبملازمة باب بيتنا وعدم مفارقته. كنت أعجب من إخلاصه وألعب معه وأطعمه. لا أناقش هنا مدى الصواب في هذا من الناحية الصحية، وإنما أريد نقل بعض مشاعري. وذكريات الطفولة هذه كثيراً ما ترد إلى خاطري فأرفع يديّ بالدعاء إلى ربي وأتضرع إليه قائلا "اللهم كما كنتُ صديقاً لذلك الكلب لإخلاصه، فاغفر لهذا القطمير[1] الواقف على بابك، والذي لم ينظر إلى بابٍ غير بابك.. اغفر له وارْحمه". نحن نقر ونعترف بتقصيرنا ونواقصنا، ولكننا في الوقت نفسه نأمل من الرحمة الواسعة أن تغفر لنا. واعْترافُنا هذا إشارة من إشارات ندمنا وتوبتنا، والله تعالى يقبل الرغبة الصادقة في التوبة ولا يردها. كان هذا تلخيصاً للواقع. والآن لنقف قليلاً حول الأمور التي يجب الانتباه إليها.

---

[1] هو اسم كلب أصحاب الكهف. والمؤلف المحترم كثيرا ما يطلقه على نفسه لنيل رحمته سبحانه. (المترجم)

أولاً: يجب المشي بكل حذَر على مثل هذه الأرضية الزلقة والخطرة من جميع الأوجه. فكما يتم المشي بكل حذر في الأراضي المزروعة بالألغام أو في مدينة للأعداء، كذلك يجب إبداء الحذر نفسه عند التجول في الأسواق والشوارع اليوم.

ثانياً: قبل الخروج إلى الشارع يجب الاستعانة بكل ما يصفّي مشاعرنا وأحاسيسنا. قد يكون هذا قراءة أو مشاهدة أو الاستماع إلى شيء أو محاسبة عميقة للنفس، أي يجب ألاّ نخرج قبل الدخول إلى مثل هذا الجو الروحي.

ثالثاً: عدم البقاء وحيداً، بل الخروج دائماً مع صديق يعيننا على نفسنا ويحفظ حيَويّة أرواحنا ويقظتها.

رابعاً: علينا أن نصحب معنا في رواحنا ومجيئنا وفي الأماكن التي نبقى فيها قدر الإمكان الموادّ والعناصر أو أي شيء له علاقة بحياتنا الروحية ويقوم بوظيفة الصيانة والحفظ والتذكير. فهذه المواد تكون ستراً يحجبنا عن الآثام وتكون وسيلة للمراقبة وللتذكير الدائم. والشخص المملوء بمشاعر المراقبة والتذكير نادراً ما يقع في الإثم.

خامساً: عند اقتراف أي ذنب أو عند الوقوع في أي خطأ يجب الندم وإعلان التوبة حالاً. لأن قلب المؤمن يجب أن يكون أقل القلوب حملاً للذنوب وأقصرها مدة مكث. فالأخطاء فيه مؤقّتة وزائلة، وهي كالغيوم التي تحجبنا عن الشمس فترة قصيرة. وكلما تأخرت التوبة كلما اسودت الأرواح وانفتحت السبل للذنوب والآثام الأخرى وسهل اقترافها. ومن ثم يجب الحيلولة دون ذلك والإسراع باللجوء إلى رحمة الله تعالى ومغفرته مهما كان شكل الإثم وحجمه.

جاء أحد الصحابة مسرعاً إلى النبي ﷺ وقد هاله أمر قائلاً: "يا رسول الله، لقد هلكت، لقد أصبت من امرأة قبلة، فافعل بي ماشئت". فلم يجبه رسول الله ﷺ ولكن الوحي سرعان ما نـــزل بالآية الآتية، وكأن العرش اهتز أمام هذا القلب المنكسر ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيّ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى للذَّاكِرِينَ﴾ (هود:١١٤).[١]

---

[١] أنظر إلى: البخاري، تفسير السورة، ١١، ٣، مواقيت الصلاة ٤؛ مسلم، توبة ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤٩/١.

أما صلاة التهجد فهي النور في عالم البرزخ.. وهي من أسرع العوامل في محو السيّئات، لأنك تتوجه فيها لربك في أحلى ساعات الليل المظلم البهيم بالدعاء والتضرع بقلب يتقلب بين الخوف والرجاء سيلقى دون شك قبولاً حسناً من قبل الله تعالى، ولكن بشرط أن يتم هذا التضرع والدعاء بإخلاص ونية صافية. ففي الوقت الذي يغفر لنا الله تعالى زلاّتنا وأخطاءنا التي وقعنا فيها بين كل صلاتين عندما نقف بين يديه في الصلاة ونعلن له عبوديتنا له بكل خشوع، فإن علينا السعي إلى كسب رضاه بالنوافل والتهجد.

ففي الوقت الذي نرى أننا محاصرون بالآثام من كل جانب، ونحزن لهذا، نرى وجود إيجابيات تستطيع إزالة آثار تلك السلبيات. وحالنا الآن التي تشبه حال الصحابة تعطي لنا دافعاً قويّاً للتشبه بهم. صحيح أنهم كانوا يحسون بأنفاس الوحي، إلا أننا إن أمكننا التخلص من قيود الزمان استطعنا أخذ أماكننا في الصف المحمدي خلفهم فنضمن بذلك خَلاصنا. ندعو من الله تعالى ألاّ يخيب رجاءنا... آمين.

كيف تقيّمون توصية الرسول ﷺ بضرب النساء؟

لا توجد هناك توصية من الرسول ﷺ بضرب النساء. فالكل يعلم ما قاله في حجة الوداع. ولكن السؤال متعلق بما ورد في آية ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ (النساء:٣٤). وهذه الآية توصي الرجال بما يأتي:

أولاً: أول ما يفعله الرجال تجاه النساء الناشزات والخارجات عن الطاعة والمتصرفات بخشونة ورعونة هو القيام بنصحهن. ما دام النساء يعشن معكم ويقمن بإنجاز ما تريدونه منهن، ويدمن نسلكم، إذن عليكم أن تكونوا مرشدين لهن. تقومون بإزجاء النصح لهن ومحاولة الارتفاع بهن إلى المستوى الإنساني اللائق بهن. قد يكون فيهن بعض الضعف وبعض الميول التي قد لا تعجبكم، عند ذلك عليكم أن تساعدوهن وتوضحوا لهن طريق الاستقامة. قد يحاولن استعمال فِتْنتهن، ولكن وظيفتكم الأولى هي إيصالهن إلى مستوى الشعور برقابة الله تعالى. وهذا هو باختصار معنى ﴿فعِظوهنّ﴾.

ثانياً: إنّ غُرف النوم هي الأماكن التي قد تستغلّها المرأة لإحكام نفوذها وسيطرتها على الرجل. فإن وُفّقت المرأة ووصلت إلى بُغيتها هذه في غرفة النوم، واستعبدت الرجل فيها، لم يستطع ذلك الرجل توقع أي طاعة أو استجابة منها في الأمور الأخرى. فإن استطاع الرجل استعمال إرادته وعدم الاستسلام والإذعان في هذه الساحة التي تعد ساحتها وعدم الوقوع في قبضتها هناك، سهُل عليه قيادة المرأة من الناحية النفسية. ولكن عليه أن يفعل ذلك دون تجاوز حدود الأدب، وفي ظل من الكتمان، بحيث لا يشعر به أحد في البيت أو في خارجه. وهذا أمر حسّاس، لذا يجب عدم سلوك طريق الإفراط أو التفريط، بل المحافظة دائماً على التوازن حتى يمكن الوصول إلى نتيجة مرضية من كلا الطرفَين.

ويجب على الرجل ألاّ يترك غرفة النوم، وألا ينام في فراش آخر، بل يكتفي بإدارة ظهره لها حيث تتجلى هناك درايته في استعمال إرادته. وهكذا يستعمل الرجل سلاحها

نفسه تجاهها ويغلبها به ولا يدَع لها فرصة استغلال سلاحها. وتجاه مظاهر أنانيتها تظهر شخصيته ويقول "أنا لن أذوب أمامكِ".

غير أننا يجب أن نذكّر هنا بأن الآيات عندما تذكر هذه الخطوات تذكرها ضمن ترتيب وتسلسل معيّن. ومع أن أبا حنيفة يرى أن "الواو" هو للجمع المطلق إلا أن الجمهور يرى أن هذا الحرف يفيد التتابع والترتيب، أي يجب أن يتم النصح أولاً، فإن لم يفد النصح شيئاً هجَرها في المضجع. فهذا هو ما نفهمه من ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

ثالثاً: قد لا يفيد كل ما جاء أعلاه، بل تستمر المرأة في نشوزها وعنادها، وهنا أي في المرحلة الثالثة يعطى للرجل حق ضرب المرأة، ولكن ضمن تحديدات معيّنة، إذ لا يجوز أن يسبب الضرب أي أذى كبير للمرأة، وهذا هو مفهوم ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

إذن يجب أن ننظر إلى الموضوع آخذين بنظر الاعتبار هذه المراحل أو الخطوات الثلاث. وإنّ إهمالها وتكثيف النظر في الضرب فقط -سواء تأييداً أو معارضة له- أمر بعيد عن التوازن، لأن الضرب ليس أساساً وقاعدة مقررة. فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذَئِرْنَ النساء على أزواجهن. فرخّص في ضربهن.[1]

وبعد مدة امتلأ بيت الرسول ﷺ بالنساء الشاكيات من ضرب أزواجهن، وقامت زوجات الرسول ﷺ الطاهرات بإخباره بالأمر، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وجمع الصحابة وقال: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»[2]

وهكذا حسم الموضوع، أي عندما أعطى الرخصة في البداية مهّد الطريق للشكوى، وعندما جاءته الشكاوى منَع الضرب. فهناك أحاديث كثيرة حول عدم الضرب تفصل ما أجملته الآية. فمثلاً انتقد الرسول ﷺ تصرف الرجال الذين يضربون نساءهم ثم يقعون عليهن

---

(1) أبو داود، النكاح ٤٣.

(2) أبو داود، النكاح ٤٣.

في الليل كالبهائم فقال: «يَعْمِدُ أحدُكم، يَجْلِدُ امْرأتَه جَلْدَ العَبد، فلَعَلَّه يُضاجعُها مِن آخِرِ يَومِه»[1] كأن رسول الله ﷺ يقول: "أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبدَ؟! يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره."

إن الضرب هو العلاج الأخير وعندما لا يبقى هناك طريق آخر، أي عندما لا تفيد الخطوة الأولى ولا الثانية. فهو علاج استثنائي ولا يطبَّق إلا على من كانت فطرتها وطباعها لا تستقيم إلا بالضرب. ويجب ألا يكون الضرب مؤذياً أذى بالغاً لها، لأن الرسول ﷺ يقول: «إذا ضرَب أحدُكم فلْيتّق الوجه»[2]. الوجه أفضل مرآة لتمثيل رحمانية الله تعالى، ففيه خطوط تمثل هذا المعنى، لذا يجب عدم الضرب على الوجه. والحقيقة أن الغاية من الضرب هي إثارة كبريائها وكرامتها وتحريكهما. لذا يجب استعمال أصغر ما يمكن استعماله لهذا الغرَض. وأنا الآن في عمر ٥٣ سنة عند كتابة هذه السطور، ومع ذلك لا أزال أذكر كيف أمسكت معلمة الابتدائية بأذني قائلة: "وأنت كذلك؟!"، كلما تذكرت هذا المشهد تذكرت تلك النصيحة والأثر النفسي الذي تركه هذا التنبيه في ضميري.

قلنا إن الضرب هو آخر طريقة للعلاج يتم التوسل به في إصلاح المرأة، وأنه يجب ألاّ يؤذيها. وهنا علينا أن نذكر أن الرجال سيكونون مسؤولين أمام الله إن قاموا بالضرب المبرح أو استعملوا الضرب في غير نية الإصلاح.

فكما نستعمل سبيل النصيحة لها ونأمل أن نصلحها ونقومها بالنصيحة والكلام الجميل، وكما نستعمل أسلوب الهجر في الفراش دون أن نجرح كرامتها بل نفكر فقط في إصلاحها، كذلك إن كان الضرب الخفيف يؤدي إلى صلاحها استعملناه. ولكن ليس معنى هذا أن نقوم بضربها كما يُضرب الحيوان إن عصَتْ أو نشزتْ، فهذا أسلوب فظ وجاهل ولا هدَف له، وهو يضع الإنسان أمام مسؤولية كبيرة تجاه الله تعالى. وهذا شيء وارد بالنسبة لجميع أشكال التربية. فالمعلم لا يستطيع ضرب تلميذه خارج إطار التأديب والإصلاح، وإلا كان مسؤولاً.

---

[1] البخاري، تفسير سورة ٩١ (والشَّمس) ١.

[2] أبو داود، الحدود ٤٠.

والآن أتساءل، بأي عقل وبأي منطق يمكن أن نعارض الضرب الذي يأتي في المرحلة الأخيرة وبعد تجربة جميع وسائل النصح والإرشاد والهجر وفشلها؟ ولنفرض أن الضرب أدى إلى صلاح امرأة واحدة من بين كل مائة امرأة، فلماذا يقوم الدين الإسلامي بسد الطريق أمام هذا الإصلاح؟ فهذه طريقة للتربية والإصلاح. وعندما أذن الرسول ﷺ بالضرب أذن في ضمن هذا الإطار. وعندما منع الضرب كان يمنع الضرب المبرح والقاسي، ويحفظ المرأة من مشاعر الحقد والانتقام.

وقد يخطر على البال في هذا الخصوص سؤال: إذا كان يحق للرجل ضرب المرأة الناشزة والمعاندة، فلماذا لا يحق للمرأة ضرب الرجل الناشز والمعاند؟

الرجال قوَّامون على النساء[1] حسب الآية الكريمة. ومناط القوامة بما فضّل الله بعضهم على بعض. فالرجل يفضل المرأة في نواح عديدة. ولكن يجب تقييم هذا التفاضل والنظر إليه كالتفاضل الموجود بين أعضاء الجسم الواحد. فإذا كان الرجل مثلاً في موقع العين، كانت المرأة في موقع الأذن. وإذا كان الرجل في مرتبة الدماغ، كانت المرأة في مرتبة القلب، أي هناك رابطة وثيقة بينهما. فالقلب يضخ الدم ليعيش الدماغ، وإذا حدث نـــزيف في الدماغ مات القلب. فحياة كِلا العضوَين متداخلة، وهما يشكّلان عضوين مختلفين ولكن لجسد واحد. ومع هذا فإننا لا نستطيع إنكار تفوق الرجل على المرأة إن نظرنا إلى الموضوع نظرة كلّية وشاملة. الرجل يقضي عامَه كاملاً في فعّالية ونشاط، ويقوم أحياناً بأشقّ الأعمال. وهو أقوى من المرأة من الناحية الجسَدية والنفْسية. وتُسند أشقّ الأعمال إلى الرجل حتى في الغرب، فعُمّال المناجم من الرجال على الدوام.

أما المرأة فهي تحيض -بحكم طبيعة تكوينها- أياماً معدودة كل شهر، وفي حالة النفاس تبقى ملازمة للفراش ما يقارب الشهرين. وهي أضعف من ناحية القوة الجِسْمية وقوة الإرادة. ولا تستطيع حضور جميع المحافل الاجتماعية في جميع الأوقات. وعندما تفقد أثمن كنوزها لا تستطيع النظر إلى وجوه الناس في المجتمع. لذا كان عليها أن تتصرف بحذَر شديد، ولا تستطيع الخروج إلى سفر طويل وبعيد دون مُصاحبة محرم لها.

---

[1] أنظر إلى: النساء: ٣٤.

فإذا أخذنا كل هذه الأمور بنظر الاعتبار وأموراً أخرى كذلك لم نر حاجة لذِكرها ويعلمها الجميع، ظهرت لنا حقيقة تفوق الرجل على المرأة بشكل لا يمكن إنكاره. ومع ذلك فإن من نافلة القول أن المجتمع يحتاج إليهما معاً. المرأة تسبق الرجل في حدسها وشفقتها وحنانها، لذا وُكّلت إليها رعاية الأطفال. والأب لا يستطيع القيام بهذا، ولكنه أقوى تحمّلاً ضد الضغوط الخارجية للأحداث، لأنه مؤهَّل للقيام بأشقّ الأعمال.

عندما يبدأ الطفل بالبكاء في الليل قد يضطر الأب إلى ترك غرفة النوم إلى غرفة أخرى. ولكن الأم تُسرع إلى غرفة الطفل، وقد تبقى معه حتى الصباح، لأنها تحمل حناناً لا يوصف نحو طفلها. وقد اشتهرت قصة رمزية بأن أحد الأولاد ذبح أمَّه وقطعها أوصالاً. وعندما بدأ بتقطيع قلبها جرح يده فصرخ دون إرادة "آه يا أمي!" فتكلم قلب الأم "لبيك يا بني!". طبعاً هذه قصة رمزية ولكنها عظيمة الدلالة على حنان الأم. ولا يشكّن أحد أنه إن ظهر مثل هذا الوحش وظلَم أمه ثم تورط في مشكلة، فإن أمه ستكون أول من تبادر إلى نجدته والوقوف إلى جانبه، أي أن المرأة تسبق الرجل في هذا المجال العاطفي. وإذا تم هذا السبق في مكانه الصحيح يكون وسيلة لخير كثير.

المرأة هي التي تربّي النشء الجديد. فبتربية وتعليم جيدين ترفع هذا النشء إلى أوج الإنسانية. والرجل يقضي أكثر أوقاته خارج البيت. أما المرأة فهي في البيت منذ الصباح وحتى المساء مشغولة بأطفالها وتربيتهم التربية الصحيحة. والأمهات هن مربّيات الأبطال والرجال العظام ومفاخر الإنسانية. فإن قامت المرأة بالعمل ضمن المجال الذي تظهر فيه ميزاتها وقابلياتها، وقام الرجل بالعمل ضمن ساحة قابلياته كانت الأسرة جنة من جنان النعيم.

الرجل بلا امرأة ناقص، والمرأة بلا رجل ناقصة. لذا فإنه ما إن تم خلق آدم عليه السلام في الجنة التي تحتوي كل شيء بأكمل وجه حتى خلقت له أُمّنا حوّاء. ولو كانت حواء أول الخلق لَخُلق لها آدم، لأنه لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر. تقوم المرأة بتدبير الشؤون الداخلية للبيت، والرجل يقوم بالشؤون الخارجية. وإذا كان لعمل الرجل جوانبه الصعبة فيجب أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لعمل المرأة. ولكن قوامة الرجل في البيت المستندة إلى قاعدة "المغانم بحسب المغارم" تضع على كاهل الرجل مسؤولية ثقيلة

أخرى. لذا كان الإنفاق على المرأة وعلى الأولاد وتحمل جميع مصاريف البيت ضمن واجبات الرجل ومسؤولياته.

إن حقوق المرأة المقدمة من قِبَل أنصار المرأة (Feminists) لا تفيد إلا في الهبوط بمنـــزلة المرأة من مكانها السامي وإهانتها وجعلها تحت الأقدام. واسترجال المرأة عملية حمقاء تشبه تجول أحدهم عارياً في الشتاء ولبس المعاطف في الصيف. فالمرأة عزيزة ما بقيت في موقعها الصحيح. والرجل يستحق الاحترام ما بقي داخل حدوده ولم يتجاوزها. والذين يريدون تبديل مواقعهم يتعرضون إلى لعنة الرسول ﷺ، لأنهم يصادمون الفطرة. فالفوضى التي تحصل في الجسم عندما تتغير أماكن أعضائه، فتكون الأذن على الركبة والأنف في وسط البطن والعين تحت الرِّجْل.. مثل هذه الفوضى تحصل عندما يستبدل الرجل والمرأة مكانيهما. فالمرأة يجب أن تبقى امرأة، والرجل يجب أن يبقى رجلاً. فهذا هو حكم الفطرة. والذين يبذلون جهودهم لتبديل هذه المواقع إنما يحاربون الفطرة وطبيعة الأشياء.

لقد انتشر في أيامنا تفسير الإسلام بالعلوم، كيف تنظرون إلى هذا الأمر؟

أجل، لقد تم اعتياد النظر إلى جميع الحوادث والأشياء بمنظار العلوم بفروعها المختلفة، أي أصبحت هذه العلوم مثل عدَسة تفحص جميع الحوادث والأشياء ومنها المسائل الدينية. فمثلاً عندما نقول "إن الله تعالى موجود" نقول إن علم الفيزياء يشير كموضوع علمي بحت إلى وجود الله تعالى، وإن علم الكيمياء بالقوانين الفلانية والطرق الفلانية يشير إلى الشيء نفسه، وإن علم الفيزياء الكونية يعلن في المسائل الفلانية وجود الله تعالى. وأحياناً نأخذ هذه العلوم جميعها والحوادث الجارية على مستوى الذرة وعلى مستوى الكون، ونفتش عن الأدلة التي تبرهن على وجوده ﷻ وعلى وحدانيته.

لقد سبق وأن قرأت كتابا بعنوان "الطب محراب الإيمان" فأعجبني العنوان كثيرا، إذ أنني لا أتصور أن يَدرس أيّ إنسان علم الطب ثم لا يؤمن بالله. ففي محراب هذا العلم هناك مسائل إيمانية عديدة، ذلك لأن الإنسان مخلوق بدقة مذهلة تُحيّر العقول وعلم التشريح يبين هذا. فإذا نظرتَ إلى أي عضو من أعضاء الإنسان ذهلت من روعة تركيبه، فلا تملك إلا أن تقول: "الله أكبر"، وهكذا فالطب محراب الإيمان حقّا.

عادة ما نقوم بإيضاح ديننا استناداً إلى علوم مختلفة. ونستعمل العلوم كوسيلة لجلب الأنظار إلى إعجاز القرآن. فمثلاً نرى أن المراحل التي يعيشها الجنين في بطن أمه موضَّحة في القرآن. وهي تتطابق تماماً مع المراحل التي توصَّل إليها العلم الحديث. فكيف كان باستطاعة شخص أميّ أن يصل إلى هذه الحقائق العلمية قبل ١٤ قرناً دون أن يملك الأجهزة الحديثة وأجهزة أشعّة إكْس والأجهزة الأخرى التي لولاها لَما أمكن الوصول إلى معرفة هذه المراحل؟ فلو كان هذا الأمر متعلقاً بقدرة إنسان لَما كان ممكناً. إذن فالقرآن الكريم لا يمكن صدوره من الرسول ﷺ. ونتوصل بعد كل هذه الأدلة العلمية إلى أن القرآن هو كلام الله تعالى.

وعندما نُبَرهن بالأدلة على أن القرآن هو كلام الله، فإننا نبرهن أيضاً على نبوة محمد ﷺ. وهكذا نستطيع تناول المسائل الأخرى للإيمان على هذا المنوال. ولكوننا فصلنا الكلام سابقاً في موضوع إعجاز القرآن فإننا نكتفي هنا بهذا القدر ولا نرى حاجة للتفصيل ولكننا نريد هنا أن نقول:

إننا نراجع مختلف العلوم ونشرح ديننا بواسطتها، لأن عقل الإنسانية الآن مرتبط بها. وأعداء الدين من أصحاب الفكر المادّيّ يحاولون استعمال العلم كوسيلة للإلحاد والإنكار. لذا فنحن مضطرون لاستعمال السلاح نفسه لإزالة الأوهام والشبهات التي تجول في أذهان البعض من المخدوعين، وإثبات أن العلم لا يناقض ولا يعادي الدين. وبعبارة أخرى فعلى عكس قيام المادّيّين من أمثال "ماركس" و"أنجلز" و"لِينِين" بتقييم العلم وجعله واسطة للإنكار والإلحاد فقد وجب علينا أن نستعمل العلم كأداة إثبات وبرهنة على صحة الدين.

وأنا لا أجد أي محظور في هذا الأمر، بل إنني أدعو دعاة الإيمان إلى التزود بهذا السلاح، لأن آيات القرآن الكريم تأخذ بِيَدنا وتجول بين النجوم والمجرّات لتعرّفنا ببدائع السماوات وبدائع الكون، وببديع صنع الله تعالى وقدرته وسلطانه. وتُلْفت أنظارنا إلى أعضائنا وروعتها، وتبسط أمام أنظارنا الوجود بأكمله، وتذكّرنا بأن العلماء هم الذين يخشَون الله حقّاً، أي تقوم الآيات القرآنية بتشويقنا لاستحصال العلم، وتُومئ إلى مسائل علمية أخرى، وتدعو الإنسان إلى التأمّل والتفكر في ملكوت السموات والأرض.

ولكن يجب ألا يغرب عن البال أبداً أن هذه المسائل ينبغي أن تتم حسَب الروح القرآني، وإلا نكون قد قُمنا بتحريف القرآن باسم القرآن. لذا فهناك نقاط يجب أن نضَعها نصب أعيننا من ناحية المنهج.

أولاً: يجب استعمال هذا الأسلوب في شرح حقائق الإسلام كوَسيلة وأداة فقط، والابتعاد عن محاولة استعماله لإظهار عِلمنا والتّفاخر به، لأن القضية تتغير آنذاك، ولن يكون لكلامنا أي تأثير على المستمعين. فهذه الحقائق النورانية الخارجة من أفواهنا تَفْقد أنوارها وترجع إلينا كالِحة إن لم تكن النيّات في قلوبنا خالصة وصادقة. وإذا كان كلامنا موجَّها لا لإقناع المخاطبين بل لإلزامهم وإفحامهم فإننا لن نستطيع كسب

قلوبهم أبداً ولن نكون مؤثِّرين إيجابيّاً. وإنْ تصرفنا بعكس ذلك استفاد الذين يحتاجون إلى هذا الموضوع من المستمعين دون أن نشعر، لأننا في هذه الحالة كنّا نحمل نية إيصال الحقائق إلى الآخرين وليس إبراز أنفسنا. وأحيانا ترى أن حديثا بسيطاً منك تعتقد أنك لم تُوفِّ فيه الموضوع حقَّه أثَّر في نفوس الحاضرين أكثر من خطبة بليغة خطبتَها في مُناسبة أخرى. إذن فإن الغاية الوحيدة عند شرح هذه المواضيع يجب أن تكون موجَّهة لاستحصال مرضاة الله تعالى ومخاطبة الناس حسب عقولهم.

ثانياً: يجب ألا ندخل في عقدة أن الجميع يتكلمون عن العلم وعن التقنية، وألا تكون هذه العقدة وراء شرحنا للمواضيع الإسلامية. فهذا أمر غير صحيح. كما يجب ألا نبدو ونحن نتناول هذه المواضيع وكأننا نرتاب في مبادئنا، لذا نتهالك للاستعانة بهذه العلوم لتقويتها. فهذا يشكل عدم احترام لمبادئنا. أما اعتبار العلم والتقنية أصلا ثابتا ومبادئنا شيئاً تابعاً يحتاج إلى تصديق العلم فأمر غير مقبول أبداً.

نستطيع تلخيص الموضوع كما يأتي: إن العلوم تعد وسائل لكنس الغبار المتراكم على الحقائق الكامنة الموجودة في ضمائرنا. أما إن قُمْنا –والعياذ بالله– بعدّ ما تشير إليه العلوم حقائق، وجعلنا الآيات والأحاديث تابعة لها، وتعسفنا في التأويل والتفسير لكي تتطابق الآيات والأحاديث معها، فإننا سنسوق أنفسنا ومخاطبينا إلى الشكّ والارتياب في المواضيع التي لا يتم الاتّفاق عليها بينهما.

بينما يجب أن يكون أسلوبنا كالآتي: إن كلام الله تعالى وكلام رسوله حقّ لا ريبَ فيهما. والعلوم صحيحة بقدر تلاؤمها معهما، وغير صحيحة بدرجة انحرافها عنهما. وحتى القسم الصحيح من العلوم لا يُعد قواعد أو مستنداً تستند إليه الحقائق الإيمانية. فهي تلعب دوراً في زيادة التأمّل والتفكّر في المسائل الإيمانية. أما الذي يضع نور الإيمان في قلوبنا فهو الله ﷻ. وهذه النتيجة التي تتحقق بفضل نعمة الله لا يمكن توقعها من العلوم. ومثل هذا التوقع والأمل ينـــزل ضربة قاتلة بحياتنا القلبية والروحية بحيث لا يفلح بعدها من تلقّاها. ذلك لأن مثل هذا الشخص الذي يقضي عمره في جمع الدلائل الكونية حول الله يتصرف طوال عمره هذا كشخص مرتبط قلبه بالطبيعة وقوانينها المادية ومفاهيمها. سينظر إلى الماء وسينظر إلى جمال الربيع، ولكن لن تنبت في قلبه نبتة

إيمان خضراء. وطوال عمره لن يحسّ بوجود الله تعالى في وِجدانه ولو مرة واحدة خارج الأدلة التي جمعها. ومع أنه قد يبدو في الظاهر وكأنه ليس من "الطبيعيّين" إلا أنه يقضي عمره كله كـــ"طبيعيّ" (Naturalist).

لذا يجب النظر إلى العلوم وإلى جميع الأدلة العلمية وعدّها تابعة واعتبارها وسيلة لإزالة الغبار فقط عن الحقائق. وعندما ينفث الشيطان وسوسته في الصدر يمكن الرجوع إلى هذه الأدلة لإزالة هذه الوسوسة. لأننا نقول بأنّ نور الإيمان في قلوبنا قوي إلى درجة أن أصحاب هذه الأدلة لن يستطيعوا إضافة أي شيء ولا زيادة هذا النور.

الإنسان مؤمن بالإيمان المستقر في قلبه، ليس بالمعلومات المتراكمة في عقله. لذلك فإن ما يستطيعه هذا الإنسان المشغول بجمع الأدلة في الآفاق وفي الأنفس هو تحقيق قَفزة صغيرة فقط. فإن لم يستطع الخلاص من أسر هذا لم يستطع الترقّي أبداً في مدارج القلب والروح. أما إن نَحّى هذا جانباً -بعد وصوله إلى مرحلة معيَّنة- وسار في نور القرآن فإنه سيصل إلى الانشراح القلبي الذي يطلبه وتملأ الأنوار قلبه وروحه. يقول أحد المفكرين الغربيّين "لكي أؤمن بالله حقّ الإيمان فقد شعرتُ أنّ عليّ أن أَرْمي ورائي بجميع الكتُب التي قرأْتُها".

لا شك أنّ تأمّل كتاب الكون وتأمل الإنسان كتابَ ماهيته وقراءة الكتب التي تشرح هذه الأمور شيءٌ مفيد، ولكن ما أن تقوم هذه الكتب بإيفاء حق وظيفتها، على الإنسان أن ينحّيها جانباً ويبقى وحده مع إيمانه. وكل ما شرحناه آنفاً مسألة مستندة نوعاً ما إلى تجربة شخصية. والذين لم يمرّوا بتجارب وجْدانية لتعميق الإيمان قد يبدو لهم هذا الكلام شيئاً نظريّاً. ولكن الأرواح المشتاقة إلى ربّها ﷻ والتي تملأ الأنوارُ لياليها يفهمون ما نقول.

يتعرض موضوع الحريم في الدولة العثمانية إلى انتقادات كثيرة، فهل تشرحون لنا ما يفيد بهذا الخصوص؟

إننا مرتبطون ومفتونون بالتقاليد المحافظة الإسلامية التركية الجميلة إلى درجة أننا لا نرتضي عَرضَ نسائنا أمام أنظار الآخرين. أما أدعياء التقدم المعارضون لهذا فلا يزالون يتخذون المرأة موضوعاً للشائعات المتعلقة بالحريم. ولكن ما الحريم؟ لوسألتهم هذا السؤال لأجابوا بأن القصص التي يحكيها الغرب نتيجة للحقد المرير الذي يحمله ضدنا قصص صحيحة، فقد كان الحريم -حسب زعمهم- وكأنه محل للإستيلاد أي مثل مزرعة لاستيلاد الحيوانات... وهذا بُهتان وافتراء.

لقد بدأنا منذ عهد "التنظيمات" نتلقى معلوماتنا حول الحريم لا من مصادرنا بل من المصادر الغربية. وكان هذا خطأ كبيراً. قبل أيام قلت لأحد الألمان: "اخرج إلى الأسواق وإلى المكاتب فستجد كثيرا من الأفلام والمسرحيات والكتب التي تحتوي على الروايات التي تورد قصص الحريم في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وحتى في الدول الآسيوية وتشرح أجواءها القذرة. ولكنك لن تجد قصة حريم واحدة قذرة أو خبراً عن حادثة فحش حدثت في حريم قصور السلاطين منذ فتح إسطنبول، أي طوال خمسمائة سنة، فضلاً عن حدوثها في التاريخ الأقدم. لم يسمع أحد بمثل هذه الحوادث لا بسبب صرامة التدابير المتخذة، بل لأن حوادث الفحش لم تحدث في الحريم عندنا".

لم تحدث هذه الفواحش ليس في حريم السلاطين فقط، بل حتى في حريم الأغنياء، لأن الحريم عندنا كان مثال العفة والطهارة، ويعكس الموقع المتميز للمرأة عندنا. المنكرون لفضائل تاريخنا حالوا بيننا وبين رؤية الجمال الذي يحفل به تاريخنا. والحقيقة أن التفريق بين أماكن اجتماع النساء واجتماع الرجال وعدم تجويز الاختلاط غير المشروع بينهما هو محاولة لوضع التوازن نتيجة الضعف الموجود في الرجل وفي المرأة. ولم يكن الحريم مكاناً مقدساً وذا حرمة فقط، بل كان حائلاً دون فساد العائلة ودون اختلاط الأنساب ومظهراً لروعة التقاليد الإسلامية-التركية.

خلاصة القول: إن الحريم كان ركناً تفوح فيه رائحة الأزهار والورود وعطر الفضيلة والأخلاق.

(المؤرخ التركي "إلهان مراد")

إن غرفة النوم عندنا مكان متميز، لأنها المكان الذي تتعين فيه الأنساب وتصان. والعائلة تتشكل هناك بكل سرها وخصوصيتها. لذا لا تفتح هذه الغرف للضيوف ولا يُدعى إليها أحد. ليس الأجنبي فقط، بل حتى أفراد البيت الآخرون لا يدخلونها متى ما شاؤوا. وهي تحمل خصوصية إلى درجة أننا حسب التربية التي تلقّيناها نرفض طلب من يريد تكريمنا ويعرض علينا النوم في غرفة النوم. وما الداعي إلى هذا مع أن الغرفة هي غرفة اعتيادية كسائر الغرف؟ إن معظم عاداتنا تختلف عن عادات الغرب. والأدب شامل عندنا حتى في هذا التفصيل الجزئي. والحريم بهذا المعنى لم يكن شيئاً خاصّاً بالعثمانيين. فلِكلّ واحد منا حريم في بيته. فالذي يريد نقد أجداده في هذا الخصوص ويرميهم بحجر إنما يرمي نفسه في الحقيقة.

الحريم لدى العثمانيين كان يحمل معنى أكثر خصوصية، وهو عدم السماح للجميع بالدخول إليه، وكذلك إحاطته بأسوار عالية كما هو ملاحظ في بعض القصور. فقصر "طُوبْ قَابِي" مثلاً بناية كبيرة اتخذت فيه احتياطات لعزل قسم الحريم عن أنظار الأجانب حيث كانت ساكنات هذا القصر والجواري يستطعن التنــزه والاستراحة والترفيه عن النفس ضمن الدائرة المشروعة في باحاته وحدائقه. وكانت الغاية من هذا التنظيم هي حفظ النساء والجواري من أن تقع عيونهن على شيء غير لائق. كانت هذه النساء والجواري يعشن حياتهن الاعتيادية وحياة اللهو ضمن الدائرة المشروعة.. لا ينظرن إلى الخارج ولا يرين سوى أزواجهن وحلائلهن ومحارمهن.

والحقيقة أن الرجال المنتسبين إلى القصر كانوا يعيشون الحياة نفسها، وكانت هذه الشروط منطبقة عليهم أيضاً. فهم أيضاً كانوا يعيشون حياتهم خلف أسوار القصر ويتمتعون بالمتع الحلال. فإن كان هذا العيش يعدّ أسراً في القصر فقد كان الرجال أيضاً أسرى. فإن كان هؤلاء المنتقدون ينتقدون هذا الأمر فأرى أنهم لا يعرفون ماذا ينتقدون. وإن كان النقد منصباً على كثرة النساء الموجودات في القصر فأمر يحتاج إلى بعض التفصيل.

أجل كان هناك من سلاطين آل عثمان من كانت له زوجتان أو ثلاث، هذا صحيح، ولا نستطيع أن نقول شيئاً خلافه، ولا نحس حاجة لهذا، فليس الغرب ولا

نظرته أو رأيه قاعدة لكل شيء عندنا. فقد مرّ دَور كان الغرب يفكر على نحو مختلف. أما الآن فهو ينتقد تعدّد الزوجات، وغداً قد ينتقد طراز تفكيره الحالي.

ثم إن من يحق له القول في هذا الخصوص قد قاله، فالله تعالى قد أعطى الرجال -بعد توفّر شروط معينة- رخصة التزوج بأربع نساء. ولم يكن سلاطين آل عثمان فقط هم الذين استعملوا هذه الرخصة حتى يكونوا هدَفا للنقد. فالرسول ﷺ وصحابته الكرام والعديد من العظماء عندنا كلهم استعملوا هذه الرخصة. لذا فلا يحق لأحد أن يجعل من هذه الرخصة التي أعطاها الدين موضوع نقد. وقد كان فيهم من يملك زوجتين أو ثلاثاً ويقضي ليله بالعبادة ونهاره بالصوم. ولكوننا تناولنا موضوع تعدد الزوجات عند الحديث عن تعدد زوجات الرسول ﷺ فإننا نكتفي هنا بهذا القدر. ولكن إن اقتضى الأمر قمنا بتناول هذا الحكم الديني بشكل مستقل ومفصل.

أحد المواضيع التي تثار وتنتقد عند ذكر مسألة الحريم هو موضوع الجواري. وقد سبق وأن فصلتُ الكلام في موضوع الرق الذي تركه الإسلام مفتوحاً، وحكمةَ ذلك، لذا سأتناول هذا الموضوع بإيجاز شديد للتذكير فقط.

الجواري هنّ النساء الأسيرات في أثناء الحرب. وكان المسلمون يأخذونهن إلى بيوتهم ويربينهن ويعلمونهن الطريق الموصل إلى سعادة الإنسان وكماله، ويتكفلون بجميع حاجاتهن المادية والمعنوية. وإذا اختارت إحداهن دين الإسلام تم إطلاق سراحها في الغالب. وإذا ولدتْ ولداً لصاحبها أطلق عليها اسم "أم الولد" وأصبحت حرّة. أما مسألة استفراشها فلها شروط معينة، منها ألا يكون لها زوج، وأن تكون جاريته وحده فلا يكون لأحد حصة فيها.

فإذا كان لا بد من تناول هذه المسألة المرهفة، نقول إن هناك ناحية المشاعية في موضوع أسرى النساء (الجواري)، وإن صاحب الجارية في الإسلام يزيل هذه المشاعية ويصونها منها فيحفظ كرامتها، ثم يفتح أمامها الطرق المؤدية إلى الحرية. فإذا عرفنا أن هؤلاء الجواري يؤخذن إلى البيوت وإلى القصور ويقابلن هناك حياة لم يكن يجدنها في بيوتهن في السابق علمنا عبث القيام بنقد هذا التصرف.

نحن نشاهد كيفية معاملة الأسرى في أيامنا الحالية هذه. إذ يؤخذون إلى أماكن

تشبه الاصطبلات وكأنهم حيوانات، ويلاقون هناك أسوأ أنواع الظلم والعذاب، ويحس القائمون بهذا الظلم فرَحاً سادياً. وقبل مدة شاهد العالم بأسره كيف عامل جندي إسرائيلي شاباً فلسطينياً. أما القتل الجماعي الذي قام به الغرب فمعلوم لدى الجميع. وبعد مشاهدة هذا السلوك الوحشي للغرب نلتفت إلى المسائل التي ينتقدونها فلا نملك إلا أن نقول إن هؤلاء لا يعرفون معنى الإنسانية، ولا كيف تتم معاملة الإنسان، لذا لا يفهمون معنى الأمر الإسلامي حول المعاملة الإنسانية. ولأنهم لا يفهمون المعاملة الإنسانية فإنهم ينتقدون التصرف الإنساني. والحقيقة أن هذا الجهل مع كونه غير غريب على الغرب بل يتلاءم معه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، إلا أنني أستغرب هذا من مقلدي الغرب من أبناء بلدنا.

ماذا يريدون منا أن نفعل بالأسرى الذين نأخذهم في الحرب؟ هل نطلق سَراحهم لكي يتسلحوا مرة أخرى ويهجموا علينا؟ هل نفعل هذا في الوقت الذي يحتفظون بالأسرى الذين يأخذونهم منا في الحرب؟ هل يريدون أن يأخذوا منا الأسرى كيفما شاءوا واستطاعوا ثم ينتظروا منا إطلاق سراح أسراهم استناداً إلى شهامتنا ومروءتنا؟ ألا يكون هذا غفلة وحمقاً؟ ثم إن كنا لا نريد توقيع أي جزاء أو عقاب لترهيب العدو فلماذا نحاربهم إذن؟ ولماذا يتم هلاك آلاف من الأفراد؟ ولماذا تترمل آلاف النساء ويتيتم آلاف الأطفال؟

إن الذين يدخلون الحرب إنما يأخذون كل هذه النتائج بنظر الاعتبار، أي يتقبلونها سلفاً، فدخولهم الحرب والوقوع في الأسر هو أحد نتائج الحرب. لذا أليس من الأفضل والأكثر إنسانية أن تتم معاملة الأسير حسب الإسلام وقواعده؟ إذن فعندما يقوم الأعداء بأخذ الأسرى منا، فإننا نأخذ الأسرى منهم بالمقابل. والآن ماذا سنعمل مع هؤلاء الأسرى؟ هل سنطلق سراحهم أو نقوم بقتلهم؟ كلا، بل نقسمهم ونوزّعهم بين المسلمين، وعندما يرَون الجوّ المعنويّ للإسلام في هذه البيوت تَلِين قلوبهم نحو الإسلام وتنشأ الصداقات الفردية. وأمام هذه المعاملة الإنسانية ودون استعمال أي إكراه سيُقبلون على الإسلام طَوعاً. وعندئذ تظهر المروءة الإسلامية حيث تنفتح أمامهم طرق الحرية، لأن صاحبه لن يرتضي أن يستعبد أخاه المسلم، لأنه يعرف مدى ثواب تحرير

الرقَبة في الإسلام. ثم هناك ذنوب يكون تحرير الرقبة أول شرط من شروط التوبة. وهكذا فهناك طرق عديدة تنتهي بالأرقّاء إلى باب الحرية.

إننا نعامل الأسرى معاملة إنسانية، ونحاول تربيتهم تربية إنسانية، ونساعدهم على تأسيس التوازن بين الدنيا والآخرة، ونبذل كل ما في وُسعنا لهدايتهم إلى الإسلام، وأوله معاملتهم بشكل إنساني. وكان هذا هو ما يحصل في القصور ولا سيما بالنسبة للنساء. فهل حاولت إحدى النساء الهرب من أحد هذه القصور بسبب سُوء معاملتها؟ هل هناك مثال يمكن تقديمه في هذا الخصوص؟ كلا لا يوجد حتى مثال واحد.

ثم لنحاول بحث النتائج التي تمخضت عنها هذه المعاملة الإنسانية وهذا الطراز من السلوك في التاريخ. هناك مصطلح "الموالي" في التاريخ. وهم الناس الذين حصلوا على حريتهم فيما بعد. وقد ظهر من بينهم رجال عظماء سنذكرهم بكل احترام حتى يوم القيامة، منهم أسامة بن زيد ﷺ الذي كان الرسول ﷺ يحبّه كحبه لأحفاده. وقد اختاره الرسول ﷺ وعيَّنه قائداً على الحملة التي جردها ضد البيزنطيين. وكان من بين الجنود صحابة كبار وأجلاء أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بينما كان أسامة آنذاك في الثامنة عشر من عمره وكان من الموالي. وكان والده زيد بن حارثة ﷺ قائداً في معركة مؤتة واستشهد فيها.

كان نافع ﷺ الذي ربّى شخصاً مثل الإمام مالك من الموالي أيضاً. أمه مرجانة أَمَة ابن عمر ﷺ. «عن عبد الله بن عمر قال: حضرتني هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:٩٢)، فذكرت ما أعطاني الله ﷻ فلم أجد شيئاً أحب إلي من مَرجانة جارية لي روميّة، فقال: هي حرّة لِوَجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكَحتُها».[1] فقد قام عن عبد الله بن عمر ﷺ بتحريرها قربة إلى الله تعالى، ولكي يكون من الذين ينفقون مما يُحبّون. ثم تزوجتْ مرجانة من أحدهم وولدت نافعاً. فكان عبد الله بن عمر ﷺ يُحبّ نافعًا ويضمه إلى صدره، ثم أخذ بيده وربّاه وجعله –وهو علاّمة الأمة– يرقى في العلم حتى وصل إلى ذروته. ونافع هذا الذي يعد من النجوم

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٦/٦ (رقم الحديث:١٠٨٩٢).

المضيئة في العالم الإسلامي كان من الموالي.

نستطيع ذكر العديد من العظماء الذين كانوا من الموالي منهم الإمام أبو حنيفة ومسروق وطاووس بن كيسان وغيرهم، حتى أن عالِمَين في العهد الأمويّ كانا يتذاكران أسماء العلماء، فعدّا واحداً وخمسين عالماً كان خمسون منهم من الموالي.

فاذا كانت هذه القصور تربي وتنشئ مثل هؤلاء الأشخاص –وكانت فعلاً تقوم بهذا الدَّور– إذن دَعُونا نتخلّى مؤقّتاً عن حرّيّتنا ونتربَّى هناك ثم نعود إلى حريتنا. لذا لا نرى أي موجب لأي انتقاد في هذا الخصوص، يكفي أن نتخلص من الأفكار المسمومة التي حُشيتْ بأدمغتنا من دون فحصٍ أو تدقيق.

أطلقوا على السلطان عبد الحميد الثاني لقَب "السلطان الأحمر" فهل كان كذلك؟

عندما ارتقى عبد الحميد العرش كانت جميع أنحاء الدولة تغلي بالمشاكل. من هذا الجانب كان يشبه كثيراً عليّ بن أبي طالب الكرّار ﷺ وعهده. يقول مفكّر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله: "إنّ الفتَن الكبرى التي حفل بها ذلك العهد كانت تتطلب شخصا عملاقا كعليّ ﷺ لمواجهتها. وفعلاً واجهها".

الموقف المتصلب للأمويين والفتن التي سببها الخوارج أدّت إلى اضطرابات كبيرة في المجتمع. لذا كان من الضروري أن يتصدى لهذه المشاكل رجل عملاق وشهم في ذروة الإخلاص والتضحية، رجل زاهد لا يقيم للدنيا وزناً... رجل مثل علي بن أبي طالب ﷺ. لذا نَدَبَ القدر عليّاً ﷺ لهذا العهد المضطرب. وكان الأمر نفسه بالنسبة لعبد الحميد الثاني. فهو أيضاً أتى في عهد فتنة وفساد. وكان رجل دهاء وذكاء وتدبير باتّفاق الجميع. وهناك مؤرّخون حسبوا أن التدابير التي اتخذها دون داع كانت نتيجة أوهام منه، وعدّوا السلطان عبد الحميد رجل أوهام وتخيّلات. أما الذين أفرَطوا وأساءوا الأدَب فقد عدّوه شخصاً جباناً.

عندما ارتقى العرش كان منظر الدولة العثمانية كما يأتي، تونس مضطربة وتغلي كالقِدْر، والفرنسيّون والإيطاليون يصولون ويجولون في المغرب ويوقدون نار الفتنة فيها، وكانت مصر تترقب أحداثاً جساماً. وكان الاضطراب سائداً بين العرب، أي كانت الظروف مهيّئة لهزيمة الدولة العثمانية في أي حرب دولية تدخلها.

لم تكن ظروف جزيرة "كِرِيت" مختلفة. فالولاة المعيّنون فيها لم يكونوا يستطيعون إنجاز أي شيء. فالجَيش كان مكتفاً، لأن الغرب كان جاثماً هناك ككابوس مخيف، ولم تكن لدَيه نيّة مغادرة الجزيرة. وفي البَلْقان كانت المداخلات الروسية وقيامها بإثارة الفتن واضحاً. فالسلاف كانوا دعاة الأمم البلقانية للانفصال عن الدولة العثمانية، وكانوا يستعملون البلغاريين للوصول إلى هذا الهدف.

وفي الأناضول كانت جماعة "الدونمة"[1] في نشاط محموم. لقد غيروا أسماءهم إلى "محمد" و "علي" ولكن نفوسهم وقلوبهم لم تتغير أبداً، ولم تهدأ أحقادهم، وكان هذا الحقد والغيظ كافياً لإشعال نار الفتنة في كل مكان. وكما كان اليهود أعدى أعداء الرسول ﷺ في المدينة، وكان ابن سبأ وجماعته أعدى أعداء الإسلام في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه كذلك كان الدونمة أعدى أعداء السلطان عبد الحميد الثاني. كان مِدْحَت بَاشا من هؤلاء الدونمة، وكانت أوروبا وراءه وهو يقوم بإنجاز مهمته في إيقاد نار الفتنة.

كان الأرمن قد أسسوا جبهة معادية في الداخل وفي الخارج، وكان "السُريان" يجدونَ مَن يحركهم للثورة. وبدأت بعض القوميات والعناصر التي حاربنا معاً في صفّ واحد وخندق واحد طوال عصور عديدة تتهيأ لضربنا من الخلف. لم يكن من السهل أبداً اتخاذ تدابير ناجعة لكل هذه المشاكل. لذا فإن نجاح عبد الحميد في إبقاء الدولة واقفة على قدمَيها طوال ٣٣ عاماً يعد بحدّ ذاته أمراً مهمّا. فلَو لم يقدِّم أي خدمات أخرى لكان نجاحه هذا فقط كافياً لبيان مدى كفاءته. كان أعداؤه قساة لا يرحمون، ولم يكن حواليه صديق أو رجل دولة كفء. لم يكن مستبدًّا، بل كان يريد تطبيق النظام والدقّة -اللّذَين كانا سمة من سماته الشخصية- على المجتمع. وحاول بذلك أن يكسب كل وحدة من وحدات الحياة الاجتماعية التي بدأت بالتسيّب والتحلل نظاماً يَقِيها من الاستمرار في الهبوط والتردّي. أي إن لم يفد هذا في ترقية المجتمع فإنه على الأقلّ يمنع توجهه إلى الأسوأ، وكان هذا يقتضي منه أن يكون ملتزماً بالنظام. ومع ذلك رأَيْنا بعضاً ممن نحبّهم ونحترمهم من الكتّاب والشعراء قد قيّموا عبدَ الحميد تقييماً خاطئاً، فكتبوا مقالات وأشعاراً في نقده. ولكنهم بعد أن رأَوا تردّي الدولة وسقوطها بعده عرفوا خطأهم واعترفوا به واعتذروا عنه.

ليس هناك من سلاطين آل عثمان -إن استثنينا السلطان محمد الفاتح- من خدم العلم والمعارف مثل خدمته. فهو شخصية نادرة من زاوية خدمته للعلم والمعارف. فلأول مرة فُتحت في عهده المدارس على النمَط الحديث؛ فمدرسة "قَبَه طَاشْ" و"كوللي" مدرستان فقط من المدارس التي فتحها في إسطنبول.[2] كان عبد الحميد أول

---

[1] الدونمة: هم جماعة من اليهود ادعوا الإسلام في الظاهر و لم يدخلوا فيه حقيقة. (المترجم)

[2] فتح السلطان عبد الحميد الثاني -ولأول مرة- الكليات والمعاهد الآتية: كلية الطب، جامعة الهندسة، كلية

من دخل في حوار جدي مع العالم الإسلامي، إذ أنشا سكّة حديد الحجاز حتى المدينة المنورة. لذا يعد محقّقاً لحلم السلطان سليم في الواقع العمَلي. لأن ثمرات الفتوحات التي أنجزها السلطان سليم ما كانت لتقطف إلا بمثل محاولات التقارب والحوار العملي مع العالم الإسلامي، ولكن الشروط لم تكن ملائمة في عهد سليم، لذا كان هذا من نصيب عبد الحميد. ذلك لأن نتائج فتوحات سليم وثمراتها ما كانت لتؤتي أكُلها إلا بهذا الحوار والتقارب. ولكن سكّة الحديد التي لم يتم تحقيقها في عهد سليم نتيجة للظروف والشروط السائدة آنذاك تحققت -وإن كانت متأخرة- في عهد عبد الحميد.

وفي هذه الأيام التي كيلت مدائح كثيرة للجسر المنشأ على البوسفور[1] حتى عده البعض العجيبة الثامنة بعد عجائب الدنيا السبعة.. هذا الجسر كان قد تم تصميمه في عهد عبد الحميد؛ أي كان سلطاناً بهذا الأفُق الواسع والنظرة السديدة. ولكن الظروف لم تساعده في إنشاء هذا الجسر، بل بقيت تصاميمه الكاملة محفوظة في الأرشيف. وانتقل خبَرها إلى الصحف قبل أيام من قبل أحد المؤرّخين الباحثين، مما أكّد مدى قوة فراسة السلطان عبد الحميد.

لم يستطع أحد ممن كان حول السلطان فهم قيمة أفكاره المستقبلية، لذا ظهر الكثير من المشاكل وعدم التفاهم، إذ كانت خَطَواته محسوبة لخمسين سنة قادمة. ولكن رجال الدولة المحيطين به كانوا قصِيري النظر ولم يفهموه جيّداً. ولم يتغير هذا الأمر في أيامنا الحالية. فهناك الآن رجال دولة يقدّمون اقتراحات وأفكاراً للعشر السنين القادمة، ولكن جهودهم تتعرقل من قِبَل رفقائهم.

يقولون عنه إنه كان "السلطان الأحمر" وأنا أرى أن هذا اللقب الذي وُضع من قِبَل الفرنْسيّين كان من المفروض أن يؤدي لدينا إلى انطباع إيجابيّ عنه. لأن الفرنسيين لم يكونوا أصدقاء. وهكذا فإن هذا الافتراء الذي رمَوه به تُرجم إلى لُغتنا من قِبَل بعض التعساء عندنا من الذين حسبوا سبّ الأجداد وشتْمهم مَفخرة لهم. ولكن التاريخ هو الذي سيقرّر عما إذا كان عبد الحميد شعلة من الذكاء والدهاء أم سلطاناً أحمر؛ بل بدأ

التجارة، كلية العلوم، كلية الآداب، كلية الحقوق، كلية العلوم السياسية، كلية الزراعة والبيطرة، أكاديمية الفنون الجميلة، معهد المعادن والغابات، معهد المعلمين العالي، معهد اللغات. (المترجم)

[1] وهو جسر يربط بين قارة آسيا وقارة أوروبا. (المترجم)

بإعطاء هذا القرار، إذ لم يكن له أي علاقة لا من قريب ولا من بعيد بهذا اللقب.

قُتل عمّه السلطان عبد العزيز وأرادوا إخفاء هذه الجريمة فزعموا أنه انتحر. قام مِدْحَتْ باشا وبعض مِن أعوانه بقتل السلطان عبد العزيز. وكانت محاولة إظهار الجريمة وكأنها انتحار من السذاجة بحيث أنها ما كانت لتخدع صبيّاً صغيراً. فعندما قُتل عبد العزيز قصّت شرايين رسغيه وقيل إنه انتحر هكذا. ولكن إن قص شريان أحد رسغيه فبأيّ يد استطاع قصّ شريان رسغه الآخر؟ ثم إنّ بعض شرايين عنقه كانت أيضاً مقصوصة. فكيف يمكن أن يكون هذا انتحاراً؟! ثم ما السبب الذي دعاه إلى الانتحار؟ كل ما قيل في هذا الخصوص عبارة عن أكاذيب وعن افتراءات.

ثم شكلت هيئة للتحقيق هذا الموضوع. وبعد قيام هذه الهيئة بتدقيق التقارير المقدمة لها أصدرت قرارها بإدانة مِدْحَت باشا وأعوانه وأصدرت حكم الإعدام بحقّهم. فكيف يكون عبد الحميد سلطاناً أحمر وهو الذي استعمل صَلاحيته فخفف أحكام الإعدام هذه عن قاتل عمه الذي كان في الوقت نفسه أعدى أعدائه، وخفَّفَ هذه الأحكام إلى سجن مؤبّد ونفاه إلى الطائف. وهنا هبّت الاستخبارات السرية الدولية في محاولة لأنقاذ مِدْحَت باشا الذي كان من "الدُّونْمة" وتهريبه من السجن. عند ذلك أصدر عبد الحميد أمراً مشدداً إلى والي الطائف بأنه إن تم تهريب مدحت باشا من السجن فسيكون هو مسؤولاً مسؤولية كاملة عن مثل هذا الإهمال الخطير.

وبدأ الوالي كل يوم يتلقى أخباراً عن محاولات التهريب هذه حتى سئم من ازديادها. لذا يحتمل أنه لكي يخلص نفسه من عقاب منتظر قام بخنق مِدْحَت باشا في السجن. فالمسألة غير متعلقة بعبد الحميد من قريب أو بعيد. ثم كان يستطيع تنفيذ حكم الإعدام عليه، ولا سيما أن مِدحَت باشا حاول اللجوء إلى دولة أجنبية، وهو عمل يرقى إلى مرتبة الخيانة. لقد كانت الرحمة لدى عبد الحميد رحمة كبيرة إلى درجة أنها أصبحت حالة مرضية عنده، فلم يرغب أبداً في إراقة دم أي شخص، وهذه الرحمة والشفقة هي التي منَعتْه من مجابهة "جَيش الحرَكة".[1]

---

[1] جيش الحركة: هو الجيش الذي أرسله الاتحاديون من مدينة سلانيك إلى اسطنبول لكي يحمي بزعمهم "المشروطية الثانية" التي كانت قد أعلنت في الدولة العثمانية ضد مؤامرات السلطان. لأنهم اتهموا السلطان بأنه كان المدبر لحوادث

كان محمود باشا[1] شخصا ساذجا لا يكاد يفهم شيئا. و لم يكن يعرف أصول إدارة الدولة أكثر مما يعرفه أي فلاّح في الحقل. وعندما دخل المجلس النيابي (مجلس المبعوثان) فيما بعد كان يغطّ في النوم. كان رئيس المجلس النيابي يحاول أحيانا إيقاظه من النوم لكي يتخلص من الحرج أمام الضيوف الأجانب. مثل هذا الشخص الخالي من الشعور بالمسؤولية تجاه مشاكل البلد وشؤونه إلى درجه الغطيط في النوم في المجلس كان قد جمع حواليه مجموعة من شذاذ الآفاق[2] جاء بهم من مدينة "سَلاَنِيك" إلى إسطنبول. وعندما سمع قائد حامية قصر "يِلْدِزْ" بهذا النبأ هرع إلى السلطان وطلب منه السماح له بتشتيت هذا الجيش. كان السلطان على علم بهذا الأمر منذ البداية، ولكنه لم يقبل طلب قائد حرسه ورد طلبه قائلا بأنه لن يسمح بإراقة دماء أمّته. بينما كان جيش الحركة بعيدا عن النظام العسكري، وكان وجود محمود باشا على رأسه دليلا على هذا. و لم يكن أكثرية جنود هذا الجيش يعرفون سبب مجيئهم إلى إسطنبول، وكان قسم منهم يحسبون أنهم جاءوا لحماية السلطان.

أجل! لم يكن السلطان ضحيّة أحد.. بل ضحية رحمته وشفقته. ولو لم يقابل التصرفات الهوجاء لـــ"جمعية الاتّحاد والترقّي" بمثل هذا التصرف الإنساني الرحيم لكان له معهم تصرف آخر.

ثم إنه لم يكن يتوقع أو يفكر بأن الاتّحاديّين سيتسبّبون في فواجع ومآس كبيرة، لذا قيمهم ضمن تفكيره الإنساني؛ أي أنه لم يتوقع أبدا من هذه الجماعة التي تصدت لقيادة الأمة صدور ما صدر منهم بعد ذلك. وكان يتوقع أن أخاه السلطان رشاد سيستمر في نفس طريقه. لذا نرى أن جانب التوكل عنده تغلب على جانب التدبير. وهكذا ذهب ضحية مُروءته.

الشغب التي قام بها بعض العسكريين فيما عُرف في التاريخ بـــ"حادثة ٣١ مارت"، بينما كان السلطان بريئا من هذه التهمة. وقد طلب قائد حامية قصر السلطان من السلطان السماح له بتشتيت جيش الحركة، لأن هذه الحامية كانت أقوى بكثير من ذلك الجيش. ولكن السلطان رفض لأنه لم يرغب بإراقة قطرة دم واحدة من أجله. (المترجم)

[1] محمود شوكت باشا: قائد جيش الحركةالذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني. أصله من بغداد. اغتيل فيما بعد من قبل جمعية الاتحاد والترقي عندما كان وزيرا للحربية. (المترجم)

[2] كان الجزء الصغير من هذا الجيش –أي جيش الحركة– يتألف من جنود نظاميين. أما القسم الأعظم فكان من المتطوعين من مختلف الأقليات غير المسلمة كالبلغار واليونان والصرب...الخ. (المترجم)

ويوجد للسلطان عبد الحميد الثاني جانب معنويّ وروحيّ. وكان في هذا الجانب كبيرا، تماما مثلما كان كبيرا في الجانب السياسي كرجل دولة من الطراز الرفيع. ومن النادر لمن يتبوأ مثل هذا المنصب النجاح في تحقيق مثل هذا التوازن بين الدين والدنيا، والسلطان عبد الحميد الثاني من هؤلاء الأفذاذ. عندما ذهبنا إلى الحج كان هناك شخص مسنّ يقوم بخدمتنا، وعندما سمع منا اسم السلطان ارتجف من شدة توقيره له، وأخبرنا بأن السلطان حجّ عدة مرّات وذكر أسماء المواضع والأماكن التي أقام فيها، بينما لم يحجّ السلطان -في ظاهر الأمر- طوال حياته.

وكما ذكرنا في بداية الموضوع كان الفرنْسيون أول من أطلقوا عليه لقب "السلطان الأحمر - Le Sultan Rouge" فقام الأرمن بنشر هذا اللقَب في صحفهم. لذا كان على من يستعمل هذا اللقب أن يفكّر بالفم الذي تلقف عنه هذا اللقب وقام يكرره دون إدراك أو تثبت... عليه أن يفكر بهذا وأن يخجل. أجل!... إنه كان سلطانا أحمر بالنسبة للخفافيش المصابة بداء عمى الألوان. بينما هو بالنسبة إلينا سلطان عِملاق... أسكنه الله فسيح جناته.

الله تعالى واحد، ولكنه في كل مكان... أيمكن إيضاح هذا؟

الله تعالى واحد أحد، ومع ذلك فهو موجود وحاضر بعلمه وقدرته في كل مكان وفي كل زمان. وعندما نقول هذا لا نعني أنه تعالى يشغل حيزاً مكانياً كسائر الأجسام. عندما نقول إنه واحد أحد فإننا نشير إلى جلاله وإلى عظَمته ونعبّر عنهما. وعندما نقول إنه في كل مكان نقصد أنه موجود برحمانيته ورحيميته وعلمه وقدرته في كل مكان وهو -بلا تشبيه، فللّه المثل الأعلى- كأشعّة الشمس التي مع أنها تلامس رؤوسنا إلاّ أنها بعيدة عنا ولا نستطيع الوصول إليها. أي أن الله تعالى مع أنه يحيط بنا بصفاته هذه، وأقرب إلينا من حَبل الوريد إلاّ أننا لا نملك الوصول إليه في علْيائه. أجل! إن الله تعالى يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

إذن فالله تعالى الذي هو أقرب إليّ من حبل الوريد لا بد وأنه حاكم ومسيطر في كل مكان وخارج حدود الكمّية والكيفية. فهو ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال:٢٤). إذن فهو أقرب إلي من قلبي. فإن قلتُ: "إن الله في قلبي" فهو كلام صحيح. لأنه يعلم عني أكثر مما أعلم عن نفسي، ثم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧). أي أن الله تعالى هو الذي رمى في معركة بدر وفي غيرها من المعارك باسم الرسول ﷺ. إذن فهو يؤثّر في كل شيء حتى في الرّمْي. إذن فهو في كل مكان حسب هذه الآية وغيرها من الآيات وهي تبين لنا أن الله تعالى حاضر ومسيطر في كل مكان بقدرته وعلمه وبرحمانيته ورحيميته وبجماله وجلاله وبعلمه وإرادته وبسائر صفاته الأخرى.

وهو مع هذا واحد أحد وذلك حسب الآيات العديدة في القرآن وحسب اقتضاء الحقائق الكونية. ولو كان هناك إلَهان -حاشاه- لفسدت السماء والأرض. وهذا هو ما يسجله القرآن الكريم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢). أي لتصادمت النجوم وانفجرت، وتصادمت الذرّات بعضها مع البعض الآخر. ولأدّت أشعّة الشمس الواصلة إلى الأرض إلى سلسلة من الفعاليات الأشعاعية لليُورَانْيُوم ولَما بقي هناك شيء حيّ على وجه الأرض.

وكان علماء الكلام السابقون يُطلقون على هذا اسم "بُرهان التمانع". وحسب هذا البرهان فاللهُ واحد ولا يمكن أن يكون هناك إلهان اثنان. لأن شأن أي شيء صغير –كقيادة سفينة مثلاً– يكون مصيره الاضطراب إن تدخّلت فيه يدان اثنتان. ولو وضعت عجلتان للقيادة في سيارة وتركت قيادة السيارة لسائقَين لكان الاضطراب والاصطدام نتيجة مثل هذه القيادة على الرغم من وجود طرق مبلطة وجيدة. لذا كان الاضطراب هو مصير الكون لو تمت إدارته وتنظيمه من قبل أرادتَين مستقلتين وحرّتين.

لذا نرى أن قدراً سرّيّاً يجري في هذا الكون الهائل المنظم غاية التنظيم بدءً من العالم الكبير "الكون"، إلى العالم المتوسط "عالم الإنسان"، إلى العالم الصغير "عالم الذرات". وهذا النظام والتناسق والتناغم الموجود في هذه العوالم يحتاج إلى خطة علمية. ويحتاج إلى قدرة وإرادة لإخراجه من مرحلة التخطيط إلى مرحلة الوجود. ثم يحتاج إلى دوام المراقبة والسيطرة. وكل هذا في حاجة إلى إدارة واحدة وذات واحد أحد. فحتى الإنسان يرفض أن يتدخل أحد في شؤونه الخاصة وفي عمله، وذلك حسب ما يطلقون عليه اسم "قانون ردّ التدخل". فكيف يستطيع أحد أن يتدخل في شؤون الله تعالى في تنظيم الأمور المتداخلة والمعقدة لهذا الكون الهائل؟!

لذا قلنا بأنه لو تدخل في كتاب هذا الكون وفي معمله ومصنعه أو في ساعته يدان اثنتان لفسد الكون بأكمله. وبما أنه ليس كَوناً مضطرباً أو فاسداً، بل هو منظّم غاية التنظيم إذن فصاحبُه ومالكُه وخالقه واحد أحد. والآن لنتناول الموضوع من جانب الضمير:

إن الحوادث الجارية من حولنا تُبَرهن –سواء على مستوى عالمنا الداخلي أم على المستوى الواقعي– بأن الله تعالى هو المستند الوحيد وهو الملجأ الوحيد. ذلك لأنني باعتباري إنساناً عاجزاً وفقيراً أرفع يديّ بالضراعة مُدركاً عجزي وفقري وكأني على خشبة مكسورة في خضمّ محيط هائج واهتف قائلاً: "يارب! يارب!" وأنا أشعر في أعماق قلبي بأن هناك من يسمَعني. ولكي يسمعني لا بد أن يكون حاضراً وناظراً في كل مكان وأن يكون ربّاً للعالمين، بحيث عندما يسمع ضراعتي يسمع في الوقت نفسه ضراعة نملة وحاجتها إليه ﷻ وطلبها منه.

إذن فهو أقرب إلى النملة من نفسها؛ والأدعية المقبولة على مستوى العالم تبيّن هذه الحقيقة. يقول رسول الله ﷺ: «إنّ سلَيمان بن داود خرج هو وأصحابه يستسقون فرأَى نملةً قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي، فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها».[1]

كل موجود في هذا العالم يتوجه إلى الله تعالى ويتقدم إليه بحاجته ويدعوه ويتضرع إليه. والله تعالى يستجيب لهذه الأدعية ويكشف لنا هذه الحقيقة عندما يقول ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل:٦٢). ثم أليست ضمائرنا شاهدة على هذا؟

إذن فالله تعالى موجود في كل مكان يسمع كلّ صوت ويرى حال الجميع ويسرع لنجدة الجميع ويتجلى للجميع برحمانيته ورحيميته؛ لذا فهو عظيم جليل عزيز لا يحتاج إلى مساعدة أحد، لأنه قادر على إنجاز كل شيء وَحْده، خلْقُ الجنة سهْل عليه كسهولة خلق الرّبيع. وينبع هذا من عظمته وجلاله ووحدانيته. وهو في كل مكان وفي كل موضع يرى ويسمع ولكن ليس كجسم يشغل حيزاً في الفراغ أو في المكان، فهو بأسمائه الحسنى وصفاته مبرَّأ ومنـــزَّه عن الكمّية وعن الكَيْفية عندما يكون حاضراً في كل مكان، وهذا تجلٍّ من تجليات أحَديته وجماله ورحمانيّته ورحيميّته.

وهاكم شاهداً على هذا: لو سحب ماء عيني ولم يعط لها الماء لأصبت بمرض جفاف العين، إذن فهو يرى عيني كل دقيقة؛ لذا فهو يرطبها ليحفظها من المرض. إذن فلا بد من وجود من يعطي لي العين لتكون وسيلة لي لرؤية الأشياء ويرى عيني ويعلم ما تراه عيني لتتم كل هذه الأمور. ومثلاً: يجب أن يكون هناك من يقوم بترطيب اللّقمة عند تناول الطعام لكي يتم هضمه ويرسل الشفرات إلى معدتي ويحرك فكّي، ويرسل الغذاء إلى الخلايا التي تحتاجه بشكل عادل لكي تستمر حياتي. لذا نقول: "ان أسماء ربنا تتجلى علينا برحمانيته ورحيميته". ولو لم يكن ربّنا مَوجوداً في كل مكان يسمع ويرى إذن لجفّت اللقمة في فمي ولنـــزلت إلى المعدة وكأنها حجر صلد، ولَما توزّع الغذاء إلى الخلايا بشكل عادل. نفهم من كل هذا أن الله تعالى أقرب إلينا من أنفسنا. أجل!.. فالله

---

[1] المصنف لعبد الرزاق، ٣/٩٥؛ المصنف لابن أبي شيبة، ٦/٦٢.

تعالى بتجليات أسمائه الحسنى أقرب إلينا من حبل الوريد، ولكننا -بخصائصنا البشرية- بعيدون عنه بعداً كبيراً. ولكن كيف نستطيع التوفيق بين هذين الأمرين؟

نشرح ذلك بمثال. إن الشمس قريبة منا جدّاً، ولكننا بعيدون عنها. والشمس واحدة، ولكنها تلاطف رؤوسنا كل يوم بإشعاعاتها المختلفة الأطوال، وتنضج لنا الأثمار على الأشجار. وحرارة الشمس وضياؤها وألوانها هي بمثابة صفات مختلفة لها. فلو كانت لحرارتها قدرة، ولضيائها علم، ولألوانها السَّبعة حواسّ كالرؤية والسمع لَكانت الشمس أقرب إلينا من أنفسنا وأجرت تصرّفاتها معَنا. هذا مع أن الشمس جسم كثيف ومادّي، فهي تحتوي على الهيدْرُوجِين الذي ينقلب على الدوام إلى الهيلْيُوم وتنطلق من تحول ملايين الأطنان من الهيدروجين إلى الهيليوم طاقة كبيرة على شكل أشعاع وضوء يصل إلينا وإلى أماكن أخرى، مع العلم أن الشمس أولاً وأخيراً جسم ماديّ، بينما الله ﷻ منــزَّه عن المادة ومبرأ عنها، فالله تعالى ليس ضوءً ولا أشعاعاً ولا ذرّة، بل هو خالق هذه الموجودات، لذا فهو يختلف عنها.

فالله تعالى مُنوِّر النور، ومُصوّر النور، ومُشكّل النور، فهو منبع النور، وهو خالق النور؛ فكل أنواع الأنوار والأضواء وكل أنواع الحرارة والألوان في قبضة تصرّفه. فإن كانت هذه هي حال الشمس التي هي مخلوقة من قِبَله تعالى فلا شكّ أن الله تعالى الواحد منذ الأزل يكون حاضراً وناظراً في كل مكان.

ثم إن الملائكة الكرام أن تكون موجودة في اللحظة نفسها في أماكن عدة. كما أن الجنّ أيضاً يمكن أن يكون مَوجوداً في عدّة أماكن في نفس الوقت. وكذلك يستطيع الشَّيطان الأكبر التأثير في كثير من الناس في اللحظة نفسها على الرغم من أنه شيطان واحد. لأنه يستطيع إرسال وَسْوسته إلى العديد من الناس في اللحظة نفسها، أي يستطيع التأثير عليهم في نفس الوقت.

فإذا كان لبعض مخلوقات الله تعالى -حتى بعض المخلوقات الحقيرة والعاجزة- مثل هذه القابليات فلِمَ لا تكون لأسماء الله تعالى -وهو الحي القيوم- مثل هذه التجليات ومثل هذا الحضور والرقابة في كل مكان؟

ما "القلب السليم"؟

كلمة "سليم" مصدرها الفعل "سلم"، أي لها الجذر نفسه مع كلمة "الإسلام" والمعنى اللغوي للقلب السليم هو القلب الخالي من المرض ومن أي عارض. أما المعنى الخاص له فهو القلب الذي لا يعرف سوى الإسلام.

ولكي يكون الإنسان صاحب قلب سليم، عليه تطبيق أخلاق المؤمن الواردة في القرآن الكريم. وهذا تعريف عام ويتضمن كل شيء. فقد ورد في الحدي «عن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.. أَمَا تقرأ في القرآن قول الله ﷻ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)»[1]. وقد نـــزل القرآن لكي ينظم الرسول ﷺ حياته على ضوئه أولاً ومن ثم تقوم الأمة باتباع إمامها وتنظم حياتها وفكرها وتصوراتها حسب ما ترى من نبيها. ثم إننا نرى أن القلب السليم هو القلب السالم عن كل ما يضر الناس، ذلك لأنه ورد في الحديث الشريف: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2] وهذا تعريف خاص، ولكنه تعريف ممتاز. فيجب على المسلم ألا يمد لسانه ولا يده لإيذاء أي شخص.

وقد ورد تعبير "القلب السليم" في القرآن الكريم في موضعين وكلاهما متعلقان بإبراهيم عليه السلام. كان إبراهيم عليه السلام متألماً جدّاً من وضع قومه وانحرافهم وضلالهم ولاسيما من وضع أبيه "آزر" وكان اهتمامه بوالده شيئاً طبيعياً وفطرياً. ذلك لأن كل إنسان يحمل في فطرته حبّاً واهتماماً بعائلته وأقربائه، ويزداد حبه كلما كان الشخص قريباً إليه. ولا يوجد هناك ابن صالح يرضى الضلالة والانحراف لوالده، بل يتألم من ذلك ألماً كبيراً، ولاسيما إن كان يحمل روحاً شفّافاً وحساساً كروح نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي كان من كبار الأنبياء. لذا كان إبراهيم عليه السلام يتلوى من الألم بسبب أبيه.

---

(1) المسند للإمام أحمد، ٦/٩١.

(2) البخاري، الايمان ٤؛ مسلم، الإيمان ٢٤.

كان إبراهيم عليه السلام يدعو قومه وأباه إلى دين التوحيد، ولكن قومه -وأباه كذلك- كانوا يعاندون ولا يستجيبون له بحجة أنهم رأوا آباءهم للأصنام عابدين. وكان هذا العذر يرِد على الدوام على لسان كل قوم وفي كل عهد عندما يريدون التهرب من الحقيقة ومن الحق. أمام هذا العناد رفع إبراهيم عليه السلام يديه إلى ربه متضرعاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۞ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدقٍ فِي الآخرين ۞ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيم ۞ وَاغْفِر لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۞ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٣-٨٩).

كان إبراهيم عليه السلام صاحب قلب سليم، والآية الكريمة ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات:٨٣-٨٤) تُؤكّد هذا المعنى. وكان يؤكد -كما جاء في الآية السابقة- أنه لا ينفع في الآخرة إلاّ من أتى الله بقلب سليم. أي أن القلب الكافر لا يمكن أن يصل إلى شاطئ الأمن والسلامة في ذلك اليوم، فلو كان ابن الكافر نبيّاً في مقام إبراهيم عليه السلام فلن ينفع ذلك الكافر هذا. مع أن إبراهيم عليه السلام هو خليل الله وأب لأنبياء عديدين، حتى أن سيد الرسل ﷺ كان يفخر بأنه يشبهه. أجل، كان والد مثل هذا النبي الكريم كافراً، ومع أن مقامه كبير عند الله إلاّ أنه ما كان بإمكانه أن ينفع أباه الكافر.

فإذا نظرنا إلى موضوع "القلب السليم" من هذه الزاوية نكون قد فهمنا معناه بشكل أفضل. فالقلب السليم يجب أن يكون سالماً من الكفر ومن الشرك ومن الشك والريبة والتردد. وإن القلب المملوء كفراً مَهْما تصرف صاحبه بشكل إنساني لن يكون قلباً سليماً. يقول كثير من الناس اليوم: "إن قلبي نظيف لأنني أحب الناس كثيراً وأسعى إلى مساعدتهم"، ولكن هذا ادعاء فارغ؛ ذلك إن كان القلب قد سكنه الإلحاد والإنكار فلن يعد قلباً سالماً ولا سليماً، لأنه يُنكر صاحبَ الكون ومالكه عز وجل، وقلبه مملوء بهذا الانكار. إن حب الناس وحب الإنسانية شيء جميل ومهم، إلاّ أنه يجب فهم الوجه الحقيقي للإنسانية أولاً، ثم يجب أن يكون هذا الإدراك دائميّاً وغير منقطع، ومثل هذا الإدراك مرتبط بالإيمان. فبِدون الإيمان تكون كل صور الخير والجمال والفضيلة إما كذباً أو شيئاً مؤقّتاً؛ لذا فهي دون قيمة.

إن قام شخص بأداء خدمات جليلة إلى وطنه، بل حتى إلى الإنسانية ولكنه إن ادعى أنه لا يعترف بقوانين البلد ولا بنظمه فإنه سرعان ما يتعرض إلى العقاب دون الأخذ بنظر الاعتبار خدماته السابقة. وهكذا فالإنسان الذي ينكر مالك الكون وصاحبه ولا يعترف به فإنه يؤخذ بالنواصي والأقدام ويعاقب، ولا يفيده أي عمل أو خدمة قام بها.

فقد قام أبو طالب برعاية رسولنا ﷺ ثم حمايته مدة ٤٨ سنة تقريباً، ولكنه -مع كل هذا- عندما لم يؤمن لم يحصل على الأمان الإلهي.. حتى إن أبا بكر ﷺ عندما أتى بوالده "أبي قحافة" الذي اشتعل رأسه شيباً إلى رسول الله ﷺ بعد فتح مكة أسلم ونطق بالشهادتَين، بكى أبو بكر ﷺ.. فسأله الرسول ﷺ عما يُبكيه بعد أن أسلم أبوه واهتدى، قال أبو بكر ﷺ إنه كان أقر لعينيه لو أن أبا طالب كان قد أسلم، لأنه كان يعرف مدى رغبة الرسول ﷺ في هذا الأمر، إذ لم ينس موقفه معه وحمايته من المشركين، وقوله له: "اذهبْ يا ابن أخي! فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا".[1]

ثم إن أبا طالب كان قد سلم عليّاً الكرار ﷺ وجعفر الطيار ﷺ "بطل مؤته" إلى الرسول ﷺ. أي سلّمهما إلى أفضل يد وأكثرها أمانا. ولكن هل أفادت كل هذه الخدمات أبا طالب؟ إن كان مات على الإيمان فسيفيده هذا وإلا فلا.

والقلب السليم بهذا المعنى مهم جدّاً. فقد يؤدي الإنسان أعمال بر كثيرة وقد يتصرف بشهامة ويعطي ويبذل بكرم. ولكن يجب أولاً التأكد من سلامة القلب وخلوه من الكفر ومن الشرك.

ويجب ثانيا أن يكون القلب عامراً بالإسلام ومتزيناً بخلق القرآن. فإن لم يكن القلب عامراً بالخلق الذي أمر به القرآن لم يكن ذلك القلب سليماً.. وقلب الإنسان يكون سليماً بدرجة اتباعه لخلق الرسول ﷺ لأنه كان الإنسان الذي تجلى فيه خلق القرآن وجميع تجليات القلب السليم، وإلا فلا يخدع أحد نفسَه. ندعو الله تعالى أن يوفقنا اتباع خلق رسوله الكريم ﷺ والتخلق بأخلاقه.

إننا نأمل ألا يحصر المؤمنون الذين يؤدون اليوم خدماتهم للإسلام في موضوع العبادة والطاعة، وأن يغنوا قلوبهم بها فقط. بل أن يكونوا في الوقت نفسه مستعدين للتضحية

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٤٨/٣.

بفيوضاتهم المادية والمعنوية من أجل السعادة الدنيوية والأخروية للآخرين ويضحّوا بلذّة العَيش الرغيد من أجل أسعاد الآخرين وإنقاذ حياتهم الأخروية. وإن اجتمعوا في مجلس واحد فلكي يقووا من عزيمتهم لأداء خدمة أفضل. وعندما تنصت لكلامهم ترى أن قلوبهم تنبض بغاية واحدة وهي "إعلاء كلمة الله".. وعند ذلك تتأكد بأنهم هم الأشخاص الذين جاءت البشائر حولهم؛ لأنهم مؤمنون حقيقيون وهم ضمان انبعاث أجيالنا في المستقبل، وهم أصحاب القلوب السالمة والسليمة.

وإن موضوع القلب السالم والسليم موضوع مهم، ذلك لأن عدة آيات من القرآن وضعت القلب السليم في مقابل المال والبنين ﴿يَومَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩). إن وضعك في الآخرة متوقف على الأجوبة المعطاة لكثير من الأسئلة:

هل عشت بشكل مرضي؟ هل مت بشكل مرضي؟ هل تبعث بشكل مرضي؟ أتستطيع أن تجد طريقك إلى "لواء الحمد"؟ أتستطيع الوصول إلى "حوض الكوثر"؟ هل يستطيع الرسول ﷺ أن يراك من بعيد ويعرفك؟ ذلك لأن رسول الله ﷺ صرح بأنه سيتعرف يوم القيامة على أمته ويميزها من بين سائر الأمم، وعندما سئل كيف يستطيع ذلك أجاب ﷺ: لكم سيما ليستْ لأحد غيركم، تردون عليّ غُرًّا مُحَجَّلين من آثار الوضوء. ذلك لأن الرسول ﷺ يعرف من ﴿سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح:٢٩). عن نعيم بن عبد الله أنه رأى أبا هريرة يتوضأ رضي الله عنه؛ فغسل وجهه ويديه حتى كاد يبلغ المنكبين، ثم غسل رجليه حتى رفع إلى الساقين. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمتي يأتون يوم القيامة غرًّا محجلين من أثر الوضوء. فمن استطاع أن يطيل غرته فليفعل».[1]

وهذا من تجليات ومن مظاهر أصحاب القلوب السليمة.

---

[1] البخاري، الوضوء ٣؛ مسلم، الطهارة ٣٥.

انتشر الإسلام بسرعة، ولم تستطع أية قوة التغلب عليه مدة ١٤٠٠ سنة، فما أسباب هذا؟ وما سبب الهزيمة الحالية؟

هناك وجهات نظر متعددة حول الفرق بين معنى "الإسلام" ومعنى "الإيمان". ونحن لا نريد الدخول في مثل هذه التفاصيل، فإن عبرنا عن الإسلام والإيمان معاً قلنا إن المسلم هو الذي آمن بالله وبجميع أسس الإيمان والمستسلم لله تعالى، أي أن المسلم هو الشخص المرتبط بكل اخلاص بجميع أوامر الله تعالى فيما يتعلق بتنظيم حياته وحياة اسرته وبحياته الاجتماعية. لم يجد المسلمون في بعض العهود فرصة تطبيق الإسلام من الألف إلى الياء، ولكن إن كانت حماستهم للإسلام والشوق إلى عيشه موجوداً في قلوبهم، فنحن نأمل من الله ألاّ يؤاخذهم. لأن الابتعاد عن الإسلام قطع مسافة كبيرة بحيث لا يمكن الرجوع إليه دفعة واحدة ولابخطوة واحدة. فإن كانوا قد صمموا على الرجوع إلى الإسلام بعزم أكيد وبشوق عارم وبدأوا بوضع الخطط والافكار لمثل هذا الرجوع أنقذوا أنفسهم من المسؤولية: ذلك لأن هناك سبيلين للخلاص من المسؤولية يوم القيامة: أما عيش الإسلام كاملاً أو المجاهدة لإرجاع الإسلام إلى الحياة.

فإن لم يتم أحد هذين الأمرين فلا مهرب من المسؤولية يوم القيامة. كما ستكون حياتهم في الدنيا حياة ذليلة لأن البعد عن الإسلام سيؤدي إلى تسلط الكفر على شعب وساحات حياتهم جميعها سواء الاجتماعية منها أو الاقتصادية أو التجارية أو العسكرية. كما سيكونون مغلوبين في الساحة العلمية والتكنولوجية ثم يؤدون حساب تقصيرهم يوم القيامة.

قد لا تكون عدد السنوات (١٣٠٠) سنة، ولكن كان دور صعود المسلمين لا يقل عن ألف سنة حيث وصلوا إلى ذرى عالية ولاسيما في عهد الخلفاء الراشدين الذي كانت فيه سرعة الصعود مذهلة، وكان رسول الله ﷺ قد اخبر عن هذا العهد فقال: «يأتي على الناس زمان يغزون فيقال لهم فيكم من صحب الرسول ﷺ؟ فيقولون نعم،

فيفتح عليهم. ثم يغزون فيقال لهم هل فيكم من صحب من صحب الرسول ﷺ؟ فيقولون نعم، فيفتح لهم».[1]

وفي حديث آخر يشير الرسول ﷺ إلى هذه القرون الثلاثة السعيدة فيقول: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».[2] وعندما نلقي نظرة على تاريخنا يتبين مدى صدق هذا الحديث النبوي.

استمر عهد الخلفاء الراشدين ثلاثين سنة فقط، ومع هذا فإن المسلمين في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا قد انتشروا في أرجاء الارض. فمن جهة وصلوا إلى "أرضروم" ومن جهة أخرى وصلوا إلى بحيرة "آرال". كل هذا بسبب روح الجهاد الذي كانوا يحملونه كانت افريقيا قد فتحت من أقصاها إلى اقصاها، حتى أن عقبة بن نافع وهو أول قائد إسلامي ذهب إلى هناك واستطاع أن يتم فتح افريقيا في حياته، وعندما توفي كان عمره خمسين عاماً، أي استطاع في سنوات قليلة اكمال فتح افريقيا حتى وصل إلى المحيط الاطلسي الذي كان العرب يطلقون عليه اسم بحر الظلمات ثم خاض البحر قائلاً: "يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك".[3]

كما استطاع جلب البربر إلى صفه في جهاده هذا. لم يكونوا يملكون آنذاك عابرات القارات ولا السفن من حاملات الطائرات، ولا سفناً تستطيع مقاومة العواصف في البحار. بل كانوا يصلون إلى هذه البلدان على ظهور الجمال، وإذا احتاج الأمر للوصول إلى بلد وراء البحار، قطعوا هذه البحار على ظهر سفن صغيرة وبدائية. ومع كل هذا استطاعوا فتح بلدان عديدة في الشرق والغرب وفي زمن قصير. وإذا اردنا عرض الموضوع من الناحية الحسابية قلنا إن ما فتحه المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين يعادل وقد يزيد على ماتم فتحه في عهود الامويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين مع أن فتوحات عهد الراشدين كانت تستهدف في المقام الأول فتح القلوب ونشر الإسلام.

إن من أسرار القدر أن البلدان التي يوجد فيها المسلمون حالياً فتحت كلها في عهد

---

[1] البخاري، المناقب ٢٥، الجهاد والسير ٧٦؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٠٨-٢٠٩.

[2] البخاري، الشهادات ٩، فضائل أصحاب النبي ١، الرقاق ٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٠-٢١١.

[3] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٠٦/٤.

الصحابة. فمع أن الاندلس بقيت تحت ظل الإسلام ثمانية قرون تقريباً لا تجد فيها الآن ما يشبع فؤادك. أما بلدان تركستان وداغستان ومانغوجيستان واوزبكستان فلا تزال المساجد والمآذن والمدارس الدينية موجودة فيها ذلك لأن هذه البلدان فتحت من قبل الصحابة، واعطت هذه البلدان رجالاً عظماء للعلم وللإسلام كالبخاري ومسلم والترمذي وابن سينا والفارابي. لقد عاش الإسلام في هذه البلدان بحق.

ونحن نتمنى أن تعود هذه البلدان "التي اسست قواعدها على الاخلاص وبذرت بذورها بصدق وامتزجت دماء الصحابة بملاطها" إن شاء الله إلى الإسلام وإلى يده البيضاء مرة أخرى.[1] أجل! فنحن كافة ننتظر مثل هذا اليوم ونشعر ونحس بوجودنا في هذه البلدان، ونحن نؤمن بأنه سيأتي اليوم الذي يعود فيه الإسلام الذي غاب عن هذه البلدان إليها... يعود كموجات متلاحقة الواحدة منها إثر الأخرى. وهذا موضوع آخر وموضوع حيوي لا نتناوله حالياً، بل نرجع إلى الصدد.

إذا كان الصحابة قد نجحوا في فتح العالم في مدة قصيرة فلا بد أن لهذا الأمر أسبابه وتقييمه. لقد كان أيُّ واحدٍ من الصحابة محبًّا للدعوة الإسلامية إلى درجة العشق والوجد. ومن نظر إليهم من الخارج ولم يعرف حقيقة الأمر ظنهم من المتهورين إلى درجة الجنون، لأن ما فعلوه كان يذهل العقل فعلاً.

نام علي بن أبي طالب ﵁ في فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة. وهذا يعني أنه رضي منذ البداية بأن يقطع بضربات السيوف ارباً ارباً ولكن ايدي المشركين بقيت معلقة في الهواء عندما علموا بأن الراقد في الفراش ليس رسول الله ﷺ بل هو ابن عمه علي كرم الله وجهه. أما سبب تجمد ايديهم في الهواء فهو من الدهشة. لأن عقولهم لم تستوعب هذا الأمر.

فكيف يقوم شاب في السابعة عشرة من عمره بمثل هذه التضحية التي قد تُودِي بحياته بأبشع صورة؟ لقد ذهل المشركون -ومن بينهم أبو جهل- من هذا المنظر. ثم توجه أبو جهل إلى بيت عبد الله بن جحش وصعد إلى سطح البيت وهناك سمع ثغاء الغنم من داخل البيت فلم يخف عجبه، لأنه لم يكن قد بقي في البيت أي إنسان إذ

[1] كتب المؤلف هذا قبل تحرر هذه البلدان من الاستعمار الروسي. (المترجم)

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة اسرع الجميع بالهجرة.

وفي أحد الأيام مرة عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام على دار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة وأبوابها تصطفق يَبابا ليس فيها ساكن. فلما رآها كلك تنفس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النَكْباء والحُوب

ثم قال عتبة: "أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها!"[1] كانوا يتركون كل شيء ويهجرون بيوتهم وعيالهم وأموالهم وأغنامهم... كل شيء... إذن فكيف يمكن للمشركين أن يفهموا هذا الأمر؟

أجل! فعندما هاجر أبو بكر رضي الله عنه من مكة إلى المدينة لم يأخذ أحداً من أهل بيته... لم يأخذ معه زوجته ولا والده ولا أحداً من أولاده، بل تركهم جميعاً في مكة وهاجر وحده. أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فلم يأخذ معه حتى زوجته رقية رضي الله عنها وهي بنت الرسول ﷺ ونور عينه، ولو قيل لأي منا إن رقية بحاجة إلى من يضحي في سبيلها بنفسه، لاسرع الجميع إلى التضحية بنفسه في سبيلها. ولكنها بقيت في مكة وهاجر عثمان رضي الله عنه وحده إلى المدينة.

كان ذلك العهد عهداً للذين ارتبطوا بصدق واخلاص بالرسول ﷺ. لقد كان اتباعهم وحبهم له مذهلاً حتى أن عروة بن مسعود بعدما قابل رسول الله ﷺ في صلح الحديبية وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضوءه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا اخذوه، رجع إلى مكة فقال: "أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكا قط يعظّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا. واللهِ إنْ تنخَّم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفَضوا أصواتهم عنده وما يُحدّون إليه النظر تعظيما له".[2]

أجل كان هذا هو درجة إكبار الصحابة للرسول ﷺ وحبهم له، بينما كان الرسول

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١١٤- ١١٥.

[2] البخاري، الشروط ١٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٢٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٧٥.

ﷺ يقول لمن يقوم له: «لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظّم بعضهم بعضا».[1] ولكنهم كانوا يقومون له مع هذا، إذ كلما تواضع لهم عظم في أعينهم وزاد حبهم له. يروى أن الرسول ﷺ جفل عندما رأى جبريل عليه السلام للمرة الأولى، وكان هذا في بداية الوحي. يقول أحد عشاق الرسول ﷺ: "لو أن جبريل عليه السلام راى الحقيقة المحمدية من وراء الأستار إذن لغاب عن وعيه". كان الرسول ﷺ يكبر ويكبر كلما ازدادت صلته بالله تعالى ولكنه كان كلما كبر زاد تواضعه وتعمق، إذ كان يعد نفسه إنساناً من الناس ولا يقبل أي معاملة تتجاوز هذا المفهوم ويتضايق منها.

كان هذا هو العهد الذي توحدت فيه قلوب الصحابة وارواحهم مع رسول الله ﷺ إلى درجة أنه ﷺ قال لهم: «المَحْيا مَحْياكم والممات مماتكم».[2] لم يقل هذا الكلام لجبر خواطرهم. بل للتعبير فعلاً عن هذه الوحدة القلبية والروحية. وعندما جاء اليوم الذي قيل لهم أن يهاجروا في أرض الله الواسعة لنشر الإسلام لم يعترضوا ولم يقولوا: لماذا؟... بل هاجروا وانتشروا في أرجاء الأرض من أجل الإسلام ولم يفكروا في العودة إلى وطنهم القديم، بل فضلوا الموت في أوطانهم الجديدة لكي لا يقع أي ظل من الشك على هجرتهم هذه.

عندما حمّ سعد بن أبي وقاص في مكة حزن كثيراً فسأله الرسول ﷺ عن سبب حزنه فقال: "يا رســـول الله أُخلَّف بعد أصحابي؟" وفي رواية أخرى "أتخلَّف عن هجرتي؟"[3] يقول أخشى أن أموت هنا في مكة وليس في المدينة التي هاجرت إليها والتي أصبحت مدينة مباركة بوجودك هناك فيصيب هجرتي بعض الخلل أو النقص. وسبب تعلق الصحابة الكرام بالمدينة المنورة يعود إلى حبهم للرسول ﷺ الذي قرر البقاء هناك. وكانوا محقين في هذا الحب وهذا التعلق. ولكن ما أن صدر إليهم الأمر بالهجرة إلى أرجاء الدنيا لنشر الإسلام لم يبد أحد منهم أي بادرة تردد أو رفض أو إمتعاض. لأنهم كانوا عشاق الحقيقة المتجلية في الإسلام. فعلى مثال مجنون ليلى الذي كان يحوم على الدوام حول ليلى،

---

[1] أبو داود، الأدب ١٥١؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٣/٥.

[2] مسلم، الجهاد ٨٦؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣٨/٢.

[3] البخاري، مناقب الانصار ٤٩؛ مسلم، الوصية ١.

كان هؤلاء الصحابة متعلقين بوجد وعشق بموضوع نشر الإسلام في أرجاء المعمورة للحصول على مرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله الكريم ﷺ.

أجل! ما أن صدر إليهم الأمر حتى توزعوا في أرجاء الدنيا فمنهم من ذهب إلى تبوك ومنهم من هاجر إلى اليمن ومنهم من توجه إلى حضر موت بحماس منقطع النظير.

وعندما جاء اليوم الذي حاولت فيه الدول والامبراطوريات عرقلة مسيرة الإسلام وتوسعه والوقوف أمام المجاهدين، اضطر المسلمون إلى جرد سيوفهم، إذ كانت تقع على عاتقهم مهمة مقدسة وهي مهمة نشر النور في الارض. وعندما استعمل اعداؤهم القوة المادية لصدهم اضطروا إلى اتباع القوة ضدهم.

لقد آن الأوان للجهاد والقتال، ولم يتوانوا عن هذا بل اسرعوا إلى ساحة الحرب... فقاتلوا وقتلوا، ولكن لم يترك أحد منهم الميدان. وابلوا في كل حرب خاضوها بلاء حسناً حتى وصلوا إلى الصين... كانوا كافراد وكمجتمع مثال البطولة التي لا تستوعبها سوى الاساطير.

لم يكن الرسول ﷺ يكلف أي فرد شيئاً فوق طاقته. ومع ذلك كان كل صحابي يأخذ على عاتقه وظائف تكاد تكون فوق طاقته ويتسابقون في هذا الأمر. كان علي رضي الله عنه يشكو من رمد في عينيه عندما عزم الرسول ﷺ التوجه إلى خيبر، لذا فقد أراد أن يبقي علياً في المدينة، فلم يرض علي رضي الله عنه وقال وهو يبكي: "يارسول الله، أتخلّفني في الصبيان والنساء؟ يا رسول، الله ما كنت أحب أن تخرج وجها إلا وأنا معك".[1] وهكذا اشترك في وقعة خيبر وفتح الله خيبر على يديه.

في إحدى المرات التي خرج فيها الرسول ﷺ من المدينة ولّى أمر المدينة ابن أم مكتوم الذي كان من اقرباء امنا خديجة الكبرى رضي الله عنها. إذن فمثل هذا الشخص هو الذي يعفى عن ساحات الجهاد لأنه أعمى ومعذور. وكان من الممكن ألا يشترك في الجهاد طوال حياته. ولكنه خرج إلى الجهاد في أرض الله الواسعة مع الذين خرجوا في سبيل الله، وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ، ولم يثنه أحد عن الخروج بحجة أنه ضرير، إذ اشترك في الجيش المتوجه إلى القادسية على الرغم من تقدمه في العمر. تقول الروايات التاريخية أنهم

---

[1] البخاري، المغازي ٧٨؛ مسلم، فضائل الصحابة ٣٢؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٣/١، ١٨٤، ١٨٥.

حاولوا ابقاءه في الصفوف الخلفية في يوم القتال ولكنه استطاع الوصول إلى القائد سعد بن أبي وقاص وطلب منه بإصرار السماح له بحمل اللواء، وقتل شهيدا في تلك المعركة حسب إحدى الروايات ﷺ.[1]

هذا مثال على الذين هبوا للتضحية بارواحهم في سبيل الله بكل شوق ووجد. لقد كان غياب رسول الله ﷺ فرصة كبيرة لابن أم مكتوم، لأن الرسول ﷺ لو كان حياً لمنعه من الجهاد بسبب عذره، ولم يكن هناك الآن من يمنعه من الجهاد، لذا كان فرحاً لاشتراكه في الصفوف الأولى.

كان أبو طلحة قد شاخ كثيراً وأصابه الضعف، وذات يوم عندما كان يقرأ سورة براءة أتى على هذه الآية ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ استدعى أهله وأبناءه وقال لهم "أرى ربي يستنفرني شابا وشيخا، جهزوني". فقال له بنوه "قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى قُبض، ومع أبي بكر ومع عمر، فنحن نغزو عنك". ولكن أبا طلحة أصر على طلبه قائلا "جهزوني". لم ينفع معه كلام ولا إصرار. لذا قاموا بإركابه على حصان وربطه به جيداً، ولكن جسده الضعيف لم يتحمل عناء السفر الطويل فأسلم روحه ﷺ في وسط البحر.[2] ولعله شكر ربه قبيل وفاته على هذه الفرصة التي أنعمها عليه.

واشترك خالد بن زيد (أبو أيوب الأنصاري) ﷺ في عهد يزيد بن معاوية في الحملة التي توجهت لفتح القسطنطينية مع أنه كان شيخاً كبيراً. فقطع هذه المسافة الطويلة حتى وصل إلى أبواب القسطنطينية. عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان أبو ايوب الأنصاري متزوجاً وصاحب أولاد. وكان قد مرّ ما يقارب خمسين سنة عند خروجه مع الجيش الإسلامي لفتح القسطنطينية في عهد معاوية تحت قيادة يزيد بن معاوية. فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار علمنا أنه كان يقارب الثمانين من عمره عند خروجه للجهاد في هذا الجيش، وقطع كل هذه المسافة الشاسعة من المدينة المنورة إلى اسطنبول على صهوة الجواد. هنا أحب أن أتساءل: ما الهدف الذي كان يسعى وراءه هؤلاء الصحابة وأمثالهم؟ لقد وردت في مدحهم الكثير من الآيات والأحاديث.

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير، ٢٦٤/٤.

[2] أسد الغابة لابن الأثير، ١٨١/٦-١٨٢.

وقد تحدث عنهم القرآن كمهاجرين وأنصار وورد مثلهم في التوراة والانجيل. ولكنهم كانوا قد سمعوا رسول الله ﷺ وهو يقول: «لتفتحن القسطنطنية، فلنعم الامير اميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».[1] إذن فقد كانت غايتهم أن يكونوا جنوداً في مثل هذا الجيش المبارك ويحصلوا على رضا الرسول ﷺ. وإلاّ فما الداعي لكل هذه الرغبة العارمة ولكل هذه المعاناة؟ كان رسول الله ﷺ يشير إلى المرتبة العليا للجيش الفاتح للقسطنطينية وكان هؤلاء الصحابة يريدون الفوز بها ويتسابقون من أجلها.

كانت هذه هي غاية أبي ايوب الأنصاري رضي الله عنه وهدفه، لذا قام وقدم من المدينة المنورة وقطع كل هذه المسافة الطويلة في سفر مرهق ومتعب. ومرت الاسابيع والاشهر و لم يتيسر الفتح. وداهم المرض والتعب هذا الصحابي الشيخ فكان دائم السؤال هل تم الفتح؟ وعندما حضرته الوفاة سأله قائد الجيش يزيد بن معاوية عن حاجته الأخيرة قال: "حاجتي إذا أنا مت فاركب بي ثم سغ بي في أرض العدو ما وجدت مساغا، فإذا لم تجد مساغا فادفني ثم ارجع"، فلما مات ركب به ثم سار في أرض العدو حتى لم يجد مساغا فدفنه بأصل حصن القسطنطينية ورجع.[2]

ومرت ما يقارب ستة عصور فاعطى الله تعالى شرف تحقيق هذه البشارة إلى البطل محمد الفاتح الذي كان بعمر ٢٢ سنة آنذاك. أي كان من نصيبه نيل بشارة الرسول ﷺ ورضاه والقيام بعمل كبير أنهى عهداً وفتح عهداً جديداً في تاريخ البشرية، وبتمثيل الروح الإسلامي على أبواب أوروبا. ومن تجليات القدر الإلهي أن اسمه أيضاً كان من اسم النبي ﷺ إذ كان اسمه محمداً ولقب بالفاتح بعد فتح إسطنبول. لقد طاب روح أبي أيوب الأنصاري وهو يسمع هتاف محمد الفاتح وهو يحمد الله على الفتح ويدخل المدينة على صهوة جواده... لقد كان هو الفاتح... وكان جيشه هو ذلك الجيش.

وهكذا فالذين نذروا أنفسهم سواء لمثل هذا الجهاد والقتال أو للجهاد في ساحة الإرشاد والدعوة والتبليغ عندما يفتحون البلدان تبقى هذه البلدان بأيديهم عصوراً وعصوراً. ولكن عندما يصيب الوهن أي الخوف من الموت قلوب المسلمين –كما

---

[1] المستدرك للحاكم، ٤٢٢/٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٥/٤.
[2] الإصابة لابن حجر، ٢٧٤/٢؛ الطبقات لابن سعد، ٤٨٤/٣.

اخبرنا الرسول ﷺ في أحاديث عدة- يبدأون بفقد هذه البلدان بلداً بلداً.

لقد كنا نملك قبل عصرين أو ثلاثة ثقلاً كبيراً ومكانةً بارزةً في التاريخ الإنساني وفي الميزان الدولي. ولكننا فقدنا اليوم هذه المكانة وهذا الثقل. وليس هناك إلا إيضاح واحد لاغير لهذا الأمر، وهو أننا كنا نحمل روحاً إسلامياً في عهد التفوق وننقاد إلى الله تعالى ونستسلم لأوامره بشكل جدي. أما في عهد التراجع والتخلف فقد احاط الوهن بقلوبنا، أي داخلنا الخوف من الموت والضعف وحب الحياة والتعلق بها والخشية من المستقبل.

لقد حكم المسلمون أرجاء العالم -التي انتشروا فيها بسرعة مذهلة- مدة الف عام تقريباً وأداروها إدارة جيدة. فهل يمكن عزو أسباب هذا النجاح الكبير إلى أي عامل غير عامل واحد وهو أن المسلمين كانوا قد نذروا كل ما يملكونه -سواء أكان مادياً أم معنوياً- في سبيل الله تعالى؟

ونحن نرى الروح نفسه عند جميع المجاهدين والابطال في العالم الإسلامي، إذ لم يتشبثوا و لم يتعلقوا بحب الحياة، بل بحب هبة الحياة للآخرين. لقد كان هدفهم شيئاً واحداً وهو اعلاء كلمة الله في الارض.

نرى هذا عند "آلب ارسلان" وعند "كلج ارسلان" وعند السلطان مراد الأول وعند "محمد الفاتح" و "ياووز سليم"... وفي غيرهم وغيرهم. في معركة "مالازغيرت" الشهيرة لبس "آلب ارسلان" جبة بيضاء ثم وقف أمام جيشه وخطب فيهم خطبة نارية قال فيها إنه يدعو من الله أن تكون جبته البيضاء هذه كفناً له. أي كان يبتغي الشهادة اكثر من ابتغائه النصر، لذا فقد لبس كفنه والتحم دون تردد مع جيش يبلغ اضعاف جيشه، وفي آخر النهار كان قد انتصر ولكن كانت هناك غصة في حلقه، إذ لم تقدر له الشهادة في تلك المعركة.

أما السلطان "مراد الأول" فقد دعا من الله قبيل المعركة أن ينصر جيش المسلمين وأن يرزقه الشهادة. وقد قبل دعاؤه فانتصر جيشه ورزق هو الشهادة.[1] وعندما تلقى

---

[1] انتصر العثمانيون في هذه المعركة وهي معركة "قوصوه" الشهيرة تحت قيادة السلطان مراد الاول ضد الجيش الأوروبي المتألف من البلغاريين والصرب والبولنديين. وبعد انتهاء المعركة تجول السلطان مراد في ساحة المعركة

ضربة الخنجر على صدره وتهاوى إلى الأرض سألوه عن آخر رغبة له فقال جملته الاخيرة بعد النطق بالشهادتين: "لاتنـــزلوا عن صهوات الجياد".

كان للدولة التي انشأها امثال هؤلاء ثقل دولي في جميع العهود، فالانظار كانت مصوبة إليها على الدوام. أجل إن مثل هذه التضحيات التي أبداها هؤلاء الابطال، ووضع رضا الله في المرتبة الأولى هو الذي أمن عيشنا بعزة وحفظ حدودنا.

وعندما فقدنا هذا الروح أحاط الاعداء بنا من الجهات الأربع وبدأوا بالتهامنا تدريجياً. أجل! لقد متنا أولاً في مستوى الروح ثم في مستوى الكرامة ثم في المستوى المادي. والآن بدانا ننتظر المعونة من الدول الكبرى، وأصبحنا نعد تأخير سداد ديوننا لهذه الدول انجازاً كبيراً.

فإن أرادت هذه الأمة الرجوع إلى سابق مجدها فعليها أن تطبق جميع العوامل التي رفعتها إلى الأعالي في السابق دون إهمال أي منها، لأنه ﴿وَأَنْ لَيسَ لِلإنْسَانِ إلاّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ (النجم:٣٩-٤٠).

فقيل له ان أحد نبلاء الصرب يرغب في اشهار إسلامه امامه وانه ضمن الجرحى فذهب السلطان اليه. ولكن كان هذا خدعة من هذا النبيل الذي قام بطعن السلطان بخنجر كان يخفيه بين ملابسه، وهكذا استشهد السلطان مراد. (المترجم)

يتحدثون عن عهد "الفترة"... هل نعيش في مثل هذا العهد؟ وما حكم عهد الفترة؟

عهد "الفترة" هو الفترة الزمنية بين كل نبيين، وهو يطلق في الاكثر على الفترة الزمنية بعد عيسى ﷺ وحتى مبعث رسولنا ﷺ. في هذه الفترة تم نسيان الاسس التي اتى بها السيد المسيح ﷺ، ولم يصل النور الذي جاء به إلى عهد الرسول ﷺ فبقى الناس في ظلام دامس، أو هي الفترة التي لم يتصل فيه النور الذي جاء به السيد المسيح ﷺ مع النور الذي جاء به رسولنا ﷺ، فحدث هناك فراغ مظلم... هذا هو عهد "الفترة"، والذين عاشوا فيها هم أهل "الفترة".

فهؤلاء لم يسمعوا عن الدين الذي اتى به السيد المسيح ﷺ ولم يستفيدوا من أنواره واسراره، ولم يستطيعوا الوصول إلى رسولنا ﷺ في ظل أطياف هذه الانوار. ولكن إن كان منهم من لم يعبد صنماً، ولم يتخذه الها فالاجماع منعقد على أنهم سينالون عفو الله تعالى ومغفرته حتى وإن لم يعرفوا الله تعالى ولم يتوصلوا للإيمان به. لذا فوالد الرسول ﷺ ووالدته سينالان المغفرة إن شاء الله تعالى لكونهما من أهل "الفترة".

ومع أن هناك حديثاً حول إحياء والدي الرسول ﷺ وإيمانهما به، إلا أن هذا الحديث حديث ضعيف إن أخذنا علم الحديث ومقاييسه بعين الاعتبار. ومع ذلك فإن إماماً ومجدداً كبيراً كالإمام السيوطي يقبل هذا الحديث ويقبل وصول والدي الرسول ﷺ إلى الخلاص والمغفرة. صحيح أن الرسول ﷺ قال لحصين والد عمران بن حصين "ابوك وابي في النار" عندما سأله حصين: "أأنت خير أم أبوك؟". ولكن هذا الجواب كان صحيحاً في زمنه، حيث يروى أن الرسول ﷺ ذهب إلى قبر ابويه ودعا الله تعالى أن يقبلهما ضمن امته، وإن الله تعالى استجاب لدعائه فآمن والداه ودخلا ضمن امته ﷺ.

والحقيقة أنه لا حاجة -للإجابة على هذا السؤال- للاستناد إلى هذا الحديث ذلك لأنه لا يوجد دليل ما على قيام أي من الوالدين المحترمين للرسول ﷺ بعبادة الاصنام. فمن الحقائق التاريخية وجود كثير من الموحدين الذين لم يعبدوا الاصنام والاوثان في

ذلك العهد حيث كانوا على دين إبراهيم عليه السلام. ثم أنهما كانا من أهل "الفترة"، وهم من أهل النجاة. فإذا كان أهل الفترة من أهل النجاة فكيف يمكن تصور حرمان والدي الرسول ﷺ من هذا الأمر؟!

ثم أيمكن تصور أن الله تعالى الذي لا يهمل ولا يضيع أي شيء حتى الذرات التي تدخل في جسد الإنسان بل يجعلها في الميزان يوم القيامة، والمنـــزه عن أي عبث... أيمكن تصور أن الله تعالى سيضيع والديّ الرسول ﷺ وكانا هما السبب والوسيلة في ظهور الجسد المادي للرسول ﷺ إلى الدنيا؟

وكما اشرنا سابقاً فإن الله لم يكن ليضيع الموحدين في ذلك العهد من أمثال زيد بن عمرو -عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه- وورقة بن نوفل. لقد آمن هؤلاء بقلوبهم بالله تعالى. قد لا يكونون يعلمون كلمة "الله" فلا يستطيعون قول "يا الله" ولكنهم كانوا يؤمنون بوجود اله واحد وكانوا يتوجهون بدعائهم إليه. لذا فقبيل البعثة المحمدية كان الجو قد أصبح ملائماً ومناسباً. فكان اصحاب هذه الارواح الحساسة شعروا بقرب هطول الرحمة الالهية... شعروا وحدسوا بهذا لذا كانوا يبشرون من حولهم من الناس بهذه البشارة. لذا فنحن نأمل أن رسول الله ﷺ الذي اعطي حق شفاعة واسعة لا ينسى يوم القيامة هؤلاء الاشخاص والافراد الذين كانوا يترقبون مجيئه بفارغ الصبر وبكل وجد وشوق وأن يأخذ بيدهم في ذلك اليوم ليقودهم إلى بر الأمان. كما نؤمن بأن الاشخاص الآخرين في ذلك العهد الذين لم يعبدوا الاصنام سيكونون من أهل النجاة مثل هؤلاء الاصناف تماماً.

هذا هو الجانب الديني للسؤال، وهناك جانب آخر مرتبط بيومنا الحالي وهو الجانب المقصود من السؤال على ما أعتقد.

ان قمنا بمطالعة كتب علم الكلام نرى أنه من الصعب اطلاق صفة "أهل الفترة" على الناس في هذا العهد الحالي. ولكن الاستعجال في اطلاق الأحكام القاطعة من دون روية كافية يكون مخالفاً لنظرة أهل السنة والجماعة وعدم احترام للرحمة الالهية الشاملة والواسعة.

لقد أدركنا عهداً اطفئت فيه شمس الإسلام في كثير من البلدان الأخرى، ومسح من

القلوب اسم الله ورسوله واستعمل العلم كاداة كذب لانكار الخالق ﷻ. وبدلاً أن تعلو كلمة الله والمعرفة الالهية في دور العلم والعرفان بُعث الوجه الكريه للكفر. وبدلاً من استعمال العلم والحكمة كاساس للوصول إلى الله استعمل كقنابل لهدم قلعة الإيمان وجعلها أنقاضاً متراكمة. وهكذا وفي هذا الجو العاصف للكفر والضلالة فقد نسي الشباب طريقهم إلى الجامع وإلى المسجد.

أما الزمرة القليلة التي قبضت واستولت على المحافل العلمية فقد وجهت انظارها إلى الغرب وصرفتها عن تاريخها وعن مفاخرها. فبعضهم عكروا إيمان إنسان عصرنا بنظرية التطور، وبعضهم لوثوا افكار الأمة بالشهوة الجنسية حسب نظريات فرويد وحاولوا حل جميع المشاكل من الزاوية الجنسية ومن منظور الشهوة. ومنهم من افسد الشعب بالمذاهب الفوضوية. كانت هذه المذاهب تفسد افرادنا وامتنا، وكذلك الامم القريبة منا فكرياً وتسممها وتبعدها عن اصولها وعن هويتها وتسفل بها وقد قامت كثير من الجرائد والمجلات والكتب برفع شعارات هذه المذاهب في طول البلاد وعرضها لسنوات عديدة. لذا لا يمكن عد إنسان يومنا هذا خارج عهد "الفترة" تماماً، وإلا كنا قد أغمضنا عيوننا عن الحقائق من حولنا.

اريد هنا نقل حادثة جرت في ذلك العهد لبيان مدى الفقر الروحي الذي زجّ إليه جيلنا:

كان أحد إخواننا في درس ومسامرة مع الشباب... كان يشرح الحقائق العلوية للدين ولكن ما لبث الحديث أن مال إلى الحوادث والاخبار اليومية فتم تناول ما يحدث في العالم الشيوعي والمظالم التي يقترفونها والخطط الجهنمية التي يريدون تطبيقها في المستقبل. وهنا اخذت الحماسة مأخذها من أحد الشباب فاخذ يقول: "يجب قتل كل الشيوعيين في بلدنا فهم مجرمون وقتلة" ولكن ما لبث أن اجابه شاب كان يستمع في ركن من الغرفة بشوق ووجد إلى ما يدور في هذه الجلسة ويتنفس هذا الجو المبارك لأول مرة في حياته... قال هذا الشاب بنفس الحماس والوجد: "ياصديقي!... انت تتكلم عن القتل وعن الذبح. ولو قمتَ في الامس بتنفيذ ما تقوله الآن لذهبت أنا ضحية منكودة الحظ لانني كنت واحداً منهم. ولكنك ترى انني الآن ضمن هذه المجموعة المباركة من الشباب. لقد قطعت مسافة

هي كالمسافة بين الأرض والسماء منذ الامس وحتى اليوم، أي في يوم واحد. وأقسم لكم أن من بين من تطلقون عليهم اسم الجبهة المعارضة والاعداء هناك الآلاف من الناس الذين ينتظرون الخلاص مثلي، فهؤلاء لا ينتظرون منكم الصفعات، بل ينتظرون منكم الشفقة والحنان، فلو مددتم ايديكم إليهم أصبحوا مثلكم. فالمهمة الاصلية أهي القتل أم الإحياء؟" اثرّت هذه الكلمات الصادقة والمخلصة على الحاضرين حتى بكى بعضهم.

أجل! هذا هو الجيل الذي رأيناه والذي بكينا بسبب ضلالتهم، والقسم الاكبر منهم بريئون. إذ انحرفوا إلى الضلالة عندما لم يستطيعوا معرفة الحق. وأنا أعتقد بأن عدم عدّهم من أهل "الفترة" يكون مناقضاً للرحمة الالهية الواسعة والشاملة.

وردت في البخاري ومسلم الحادثة الآتية: عندما جئ بالاسرى كانت من بينهم امرأة. وكانت هذه المرأة تركض ذات اليمين وذات الشمال وما أن تجد طفلاً حتى تحتضنه، وعندما ترى أنه ليس الطفل الذي تبحث عنه تتركه وتبدأ بحثها من جديد. كان رسول الله ﷺ يراقب هذا المنظر بعين دامعة. واخيراً عثرت على طفلها وضمته إلى صدرها بحنان بالغ. هنا قال الرسول ﷺ لمن حوله من اصحابه وهو يشير إلى تلك المرأة: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».[1]

لذا فنحن مضطرون للتفكير بتسامح أكثر. ولا يذهبن بأحد الظن بأننا نحاول اظهار رحمة زائفة اكثر من الرحمة الإلهية وإننا أصبحنا من قاطعي التذاكر للجنة ولكننا ننظر من زاوية أهل السنة والجماعة المؤمنة بالحديث القدسي «إن رحمتي سبقت غضبي».[2]

وهناك جانب آخر مهم جداً للمسألة يتعلق بنا: إننا لم نستطع تقديم الحقائق بصورة مشبعة لشبابنا... لقد اهملنا شبابنا وشباب العالم أجمع مع أنهم يحتاجون إلى الرسالة التي نحملها كحاجتهم إلى الهواء والماء.. وعندما نقارن حالنا مع حال الصحابة الكرام الذين حملوا مشعل الهداية إلى جميع أنحاء الأرض في مدة قصيرة، ومع حال وجهود التابعين الذين أتوا من بعدهم يظهر بوضوح مدى كَسلنا وخمودنا وجمودنا. لقد كان ديدن

---

[1] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، التوبة ٢٢.

[2] البخاري، التوحيد ٢٢؛ مسلم، التوبة ١٥.

الصحابة والتابعين البحث عن القلوب والأنفس المحتاجة إلى الهدي والنور وجعلوا ايصال هذا النور إلى الناس غاية حياتهم.

إن العالم اجمع في حاجة إلينا. والاستجابة لندائهم وظيفة كل المسلمين، وهذا هو الجانب المتوجه إلينا من هذه المسألة. فلنسائل أنفسنا: هل قمنا كمسلمين باداء هذه الوظيفة؟ فإن كنا لم نؤدها، إذن كان علينا الاجابة على أسئلة كثيرة، وتقديم الحساب حول أشياء كثيرة.

بأي شيء نُمتحَن في الدنيا؟ هل نمتحَن بفساد وحدتنا واجتماع كلمتنا؟ وهل امتحن الصحابة بعضهم ببعض؟

يقول الله تعالى في إحدى الآيات ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ (الأنعام:٥٣) إذن فإن الناس يمتحنون بعضهم ببعض، ونستطيع درج هذه المسألة في عدة نقاط:

الأولى: يُبعث من بين الناس نبي، ويكون هذا النبي امتحاناً للناس من حوله. وحدث هذا عند بعثة رسولنا ﷺ، لأن بعض الناس قالوا آنذاك: كيف يُبعث يتيم أبي طالب نبياً وهو الفقير الذي لا يملك أتباعاً أقوياء. ولو كان هناك نبي يبعث لكان هذا مسعود بن عروة في الطائف أو الوليد بن مغيرة في مكة.

ومع أن قريش كانت قبيلة أصيلة، إلاّ أنها لم تكن أقوى القبائل آنذاك مع أن النبي يجب أن يبعث في أقوى القبائل لكي تستطيع قبيلته الدفاع عنه والمحافظة عليه.

كما قالوا: كيف يُبعث من يأكل مثلنا ويمشي في الاسواق، إذ يجب أن يكون المبعوث ملكاً من الملائكة. والامتحان لايزال وارداً بالنسبة لبعض الناس حتى في الوقت الحالي، إذ يقولون: كيف يكون من تزوج تسع زوجات نبياً؟

تتحد كل هذه الأقوال واشباهها في النقطة نفسها، وهي أن الناس يمتحنون بعضهم ببعض. والامتحان هو غاية مجئ الناس إلى الدنيا. إذ تتم غربلتهم لكي يتميز اصحاب الارواح الطيبة عن اصحاب الارواح الخبيثة، ولكي يتميز الماس عن الفحم ويظهر بوضوح من يحمل روحاً شيطانياً ومن يحمل روحاً ملائكياً، وهكذا تتحقق الغاية من خلق الدنيا. ولو لم يكن هناك مثل هذا الامتحان لما تميز روح أبي بكر الشبيه بالماس عن روح أبي جهل الاسود سواد الفحم. أي لولا هذا الامتحان لما لمعت الحقيقة الأحمدية ولما ظهرت ولا انجلت ولا انقلبت إلى شمس تبهر العيون.

عندما تناول الرسول ﷺ الناس شبههم بالمعادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام بشرط أن يفقهوا روح الدين. فالإسلام يتناول الناس ويذيبهم مدة معينة في

بوتقات معينة، ثم يوحدهم مع ارواحهم ليصلوا إلى ذواتهم، أي يستخرج من فطرتهم توجههم إلى الحقيقة من القوة إلى الفعل. ولكن المعادن تحتفظ على الدوام بخصائصها، فالذهب يبقى ذهباً والفضة تبقى فضة والنحاس يبقى نحاساً. والفرق هو في تخلص هذه المعادن من شوائبها لتكون معادن صافية ونقية. والمحن والامتحانات هي عملية تخليص هذه المعادن من الأشياء العالقة بها والغريبة عنها وتصفيتها.

الثانية: إن الشيطان يقوم بتزيين بعض الشرور فيغوي بها أناساً لاتتوقع غوايتهم. وقد يوجد بين هؤلاء الذين يصبحون آلة في يد الشيطان اشخاص لهم بنية معنوية في مستوى جيد. إن تزيين السوء، وتقبيح الخير واظهاره بشكل مشوه وكريه قد يبدو عملاً بسيطاً ولكنه عمل كسبي وتخريبي كبير بحيث يمكن نسبته إلى الشيطان. ولهذا اطلق صاحب الشريعة اسم "المزين" عليه.

كما نُمتحن من قبل الاهواء النفسية ومن قبل الأنفس الشيطانية باثارة شعور المنافسة. حتى أن الشعور بالغبطة الذي يبدو شعوراً بريئاً ويسوق الناس للتنافس في خدمة الدعوة، ولكنه إن انقلب بعد ذلك إلى شعور بالمنافسة الصرفة عند ذلك يمكن الحديث عن وجود امتحان.

فمثلاً إن أصبحت جهود شخص ما وسيلة لهداية الناس اكثر من شخص آخر، فإن قام هذا الشخص الاخير بحسد الشخص الأول إذن عليه أن يدرك بأنه ضمن امتحان كبير.

مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢) إلا أنه يقول في آية أخرى ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص:٥٦) إذن فالله تعالى هو الذي يهدي. إن المرشد يقوم بفتح الطريق والارشاد إلى السبيل القويم واضاءة هذه السبيل باضوية قوية و"بروجوكتورات" كبيرة لكي يقبل الناس على هذا الطريق القويم ويجدوا الحق ولا ينحرفوا عنه. ولكن في النتيجة الاخيرة فالله هو الذي يهب الإيمان للقلوب. ولايوجد لهذا وجود خارجي، أي لا يمكن أن نقول إنه (موجود) في ساحة القدرة والإرادة. بل له وجود علمي وإضافي (اي نسبي).

ومن جملة هذه الامتحانات أن الله يهب لأحدهم فصاحة وقوة بيان بحيث يستطيع هذا الشخص إيضاح حقائق القرآن بأفضل أسلوب وباجمل بيان، فيحسده بعضهم،

ويتحسر قائلاً "لماذا لم أوهب أنا مثل هذه القابلية؟" فهذا أيضاً امتحـــان مـــن جملـــة الامتحانات وعاقبته وخيمة.

صحيح أن الله تعالى اختار جميع رسله، ولكنه أيضاً فضل بعض هؤلاء الرسل على بعضهم ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣) فهذه الآية تثبت ماذكرناه، فالله تعالى خص بعض رسله بفضائل معينة ورفعهم إلى درجات لايبلغها انبياء آخرون. إلا أن فضيلة النبوة في معناها العام فضيلة لاتدانيها في الدنيا أي فضيلة أخرى. وعدم وجود بعض الفضائل الخاصة عند بعض الأنبياء لاتجرح نبوتهم أبداً.

من الممكن الاتيان بامثلة أخرى كثيرة حول سؤال لماذا؟ الذي يحمل عنصر الشكوى والحسد: لماذا لا أستطيع أنا تقديم خدمة اكثر للدعوة؟ لماذا لا أستطيع القيام باعطاء معونات مادية اكثر؟ لماذا لايصغي إلي خلق اكثر؟... وغيره مئات من انواع سؤال "لماذا". والحقيقة أن مثل هذه الأسئلة ليست إلا ضربات موجهة ضد وحدة الصف. والله تعالى يدعو المؤمنين منذ البداية إلى الابتعاد عن جميع الطرق المؤدية إلى النـــزاع والآية الكريمة ﴿وَلاَتَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ (الأنفال:٤٦) نتناول هذا الموضوع فقرة فقرة.

تخاطب هذه الآية المؤمنين فتوصيهم قائلة لاتدخلوا في أي نزاع مادي أو معنوي، بل حاولوا الإتحاد حول نقطة مشتركة ولا تقعوا في نزاع حتى لو كان حول أمر ايجابي. ولاتدعوا الحسد ولا التنافس ولا الغبطة أن تقودكم إلى النـــزاع، وإلا فشلتم وذهبت قوتكم. إن ثمرة العمل الفردي تبقى في مستوى الفرد. أما الاعمال المنفذة في ظل وحدة الجماعة فتكافأ برحمة الله تعالى العامة، وهكذا يكتسب كل فرد ثواب جماعة كاملة.

فمقابل ثمرة العبادة الفردية المعطاة لكل فرد فإن الأيدي المرفوعة إلى السماء بالدعاء في العبادة الجماعية ونبض القلوب معاً والمعاناة الجماعية وطلب الشيء نفسه جماعياً يؤدي إلى تنـــزل الرحمة الالهية الشاملة على الجماعة باسرها، وهذا ما لا يمكن الوصول إليه فردياً. في الحركة الفردية كل ما يستطيعه الفرد هو أن يصبح رئيساً لاسرته، ولكن إن استقامت صفوف الجماعة وتساندت أصبحت قوة مؤثرة بمقياس المجتمع، ويشعر كل فرد ضمن مئات الآلاف من الافراد الموجودين تحت قبة هذه الجماعة بأنه يمثل قوة امته، وتتم المحافظة عليه ضد القوى الخارجية بهذه القوة. فإن انفصل الفرد عن هذه الوحدة

وعن هذا الصف وحاول تشكيل ملجأ فردي خاص به، زالت تلك القبة من فوق رأسه وتحولت إلى مظلة صغيرة يرفعها الفرد فوق رأسه. ثم تظهر وتتجلى حقيقة الحديث «كما تكونوا يُولَّى عليكم»[1] أي سرعان ما تتجرع الأمة نتائج هذه الحقيقة المؤلمة.

فإن كان المجتمع مجتمعاً خيراً وعلاقته قوية مع الخالق ﷻ عند ذلك سيحترمنا الآخرون وعلى مثال ماجرى لرسولنا ﷺ وصديقه أبي بكر ﷺ في الغار فإن الله سيكون الثالث إن كنا اثنين والرابع إن كنا ثلاثة، والخامس إن كنا أربعة، والسادس إن كنا خمسة، والسابع إن كنا ستة..الخ لأن الله تعالى وعد بنصر المؤمنين.

ولكن إن تصرفنا بشكل منفرد أي لو كنا حتى اثنين و لم نتعاون و لم نتساند كما يجب، فإن الله تعالى سيحرمنا من البركة التي ينـــزلها على الجماعة، أي لن يكون الثالث لنا في هذه الحالة ولن يساعدنا. فهنا يرد موضوع المعية نتيجة الترقي. أي أن الفرد الأول والثاني والثالث...الخ يجب أن يكونوا افراداً اصحاء فيكونوا مجتمعاً صحياً لكي يعاون الله تعالى مثل هذا المجتمع ويأخذه تحت حمايته الخاصة وتحت عنايته، فيتخلص الفرد من عبء حفظ نفسه بمظلته الخاصة لأنه يدخل ضمن حماية وأمن سماوي.

أجل، إن الجماعة عامل فعال ووسيلة كبيرة للحصول على التوفيق الالهي. فلو قضى إنسان حياته منعزلاً في مكان ما أو على قمة جبل وقضى وقته في الصلاة والصيام وانفق كل ما في يده على المساكين وأدى الحج وذرف الدموع على الحجر الاسود وصلى صلواته في مكة أو في الروضة المطهرة التي أجر الصلاة فيهما يحسب اضعافاً مضاعفة، إلا أن الأجر والثواب الذي سيناله من الله تعالى يبقى أيضاً في المستوى الفردي.

ولكن ما أن يضع يده مع يد الجماعة ويوسع قلبه وسعة امته. والقرآن الكريم يقول وهو يتحدث عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل:١٢٠)، أي أنه نظر إلى إبراهيم عليه السلام وكأنه -وهو فرد واحد- أمة كاملة تصويراً لهمته العالية.

فكم يكون لطف الله تعالى وعونه كبيراً لمجتمع متألف من اشخاص من ذوي الهمم العالية. ومع أن همم المؤمنين تكون عالية إلا أن الناس لايعدون موفقين كثيراً عند امتحان

---

[1] مسند الشهاب للقضاعي، ١/٣٣٦١؛ الفردوس للديلمي، ٣/٣٠٥؛ كشف الخفاء للعجلوني، ١/٣٣٦.

بعضهم ببعض. إذ نرى أن حسابات شخصية صغيرة وبسيطة تكون عائقة أمام أسباب الوحدة والاتفاق وجمع الكلمة الذي له حرمة عظيمة كحرمة الكعبة المشرفة. وهذا الأمر يعوق ويحول دون مجئ العناية الالهية التي يحتمل مجيئها في كل آن.

كان القدماء يقولون "بقدر الكد تُكتسب المعالي"، ومع أن هذا ليس بحديث إلا أنه من جوامع الكلم. أي أن جميع النجاحات –المادية منها والمعنوية– تكون متناسبة مع المشقات ومع الجهود المبذولة في سبيلها. أجل! فمن يدري مقدار الألم والمعاناة التي تتحملها البذرة تحت التربة حتى ابراز رأسها كنبتة فوق التراب، إذ تنشق وتتحمل الآم اختراق التربة وتستعد لاستقبال الشمس وتتهيأ لها. فكل هذه الجهود والآلام هي آلام الولادة والنضال في سبيل الوجود واكتساب حياة جديدة، لذا فهي مهمة جداً.

كلما انهمرت علينا نعم الله تعالى وتوفيقه لنا كلما زاد ثقل مهمتنا، وعلينا أن ندرك تماماً أن هذه المرتبة العالية التي خصنا بها بكرمه لا تعود لفضيلة أو قابلية شخصية فينا أبداً، وانما يجب أن ننظر إليها كلطف إلهي. إن الخير وصور الجمال تمر، وعندما تمر تقوم بطرق ابوابنا لأننا في حاجة إليها اكثر من الآخرين ولا نستطيع أن نكون مظهراً لهذا الجمال باشخاصنا.

وعلينا ألا ننسى أن هذا اللطف والكرم الالهي الذي ينهمر من فوق رؤوسنا وينفذ إلى اعماق كياننا انما يأتي باسم الجماعة، إذ لا يستطيع أحد أن يدعي أنه صاحب الفضل في هذا.

الثالثة: والمنفعة المادية من صور الامتحان في كيان الجماعة. والنـــزاعات والخصومات الموجودة بين السياسيين تنبع من هذه الناحية ومن هذه الافكار السلبية والمخربة التي تستند إلى النـــزاع حول المنافع المادية. ذلك لأن هناك عيوناً كثيرة ترنو إلى مناصب معينة وهناك اصحاب اهواء وشهوات لاتعرف الشبع يلهثون وراء منافعهم ومصالحهم الشخصية مما يؤدي إلى ظهور الخلاف والنفاق فتنقلب الوحدة إلى تفرقة وخلاف وخصام. بينما يجب أن تؤدى جميع الاعمال وجميع التضحيات لوجه الله تعالى دون انتظار جزاء أو شكور من أحد، ولو تم هذا لاجتاز الكثيرون امتحان المنافع المادية المؤدية إلى الشقاق والخصام.

لقد اجبنا بهذا الجواب لأن السؤال كان متعلقاً حول الامتحان المتعلق بالوحدة وضم الصفوف، لأنه لا يمكن تحديد صور وأشكال الامتحانات التي يتعرض لها الإنسان، ولا يمكن تعدادها هنا واحدة واحدة. ويسأل صاحب السؤال عما إذا تعرض الصحابة الكرام إلى امتحان بعضهم ببعض، إذن لنقف قليلاً حول هذا الموضوع.

ما كان من الممكن اعفاء الصحابة عن مثل هذا الامتحان. ذلك لأنهم نالوا اعلى المراتب في الحياة المعنوية فكان لزاما عليهم أن يتعرضوا إلى اصعب امتحان. ولاسيما في الادوار التي ظهرت فيها اجتهادات عديدة حول كيفية إدارة الدولة، ولكن مع ثقل الامتحان وقسوته فلم ينحرف صحابي عن التماس طريق الحق. وعندما تبين لبعضهم أنهم لم يكونوا على الحق اغمدوا سيوفهم في ظرف لم يكن من السهل أبداً اغمادها.

لقد أدركت أمنا عائشة رضي الله عنها خطأها عندما وقفت أمام الإمام علي بن أبي طالب ﵁، وتذكرت حديثاً عن الرسول ﷺ في هذا الموضوع ورجعت وهي نادمة أشد الندم.[١]

كان الزبير بن العوام ﵁ رجلا شجاعاً وشهماً. عندما أسلم كان في التاسعة من عمره. كان عمه يلفه في حصير ثم يشعل الحصير ويطلب منه الرجوع عن الإسلام. ولم ينفع كل هذا التعذيب والاذى في دفعه للتنازل عن أي شيء. كان الرسول ﷺ يقول: "إن لكل نبي حوارياًّ، وإن حواريَّ الزبير بن العوام".[٢] ملفتا الانظار إلى شجاعته وشهامته.

كان الزبير ابن صفية عمة الرسول ﷺ وفي أحد الأيام رأى الرسول ﷺ الزبير بن العوام وصهره وابن عمه علي بن أبي طالب يمشيان معاً في ازقة المدينة، ولكن الرسول ﷺ الذي اخبره الله تعالى عن مستقبل هذين الشابين المتحابين كان يعرف أن ابن عمته الزبير سيقف أمام صهره وابن عمه علي، فقال الرسول ﷺ للزبير: "والله لتقاتلنه وأنت ظالم له". ومرت السنوات الطوال ونسي الزبير هذا الكلام، ودارت الأيام ووجد الزبير نفسه يوم الجمل أمام علي بن أبي طالب ﵁ وجها لوجه حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال علي بن أبي

[١] الصحيح لابن حبان، ٢٥٨/٨؛ المستدرك للحاكم النيسابوري، ١٢٠/٣؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٤١٠/٦.
[٢] البخاري، كتاب الجهاد والسير ٤٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤٨.

طالب له: "يا زبير نشدتك الله أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا، فقال "يا زبير ألا تحب عليا؟" فقلتَ "ألا أحب أبن خالي وابن عمي وعلى ديني" فقال "يا زبير، أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له". فقال الزبير "بلى والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك".[1] نـــزلت كلمات علي رضي الله عنه على رأس الزبير رضي الله عنه كالصاعقة.

أجل لقد تذكر ذلك الحديث الذي حدثهما الرسول ﷺ قبل وسنوات. ادخل سيفه في غمده حالاً، واحتضن علياً وطلب منه العفو والصفح. ثم ركب جواده وترك ميدان القتال. ولكن أحد الشقاة ضربه من خلفه وقتله ثم حز رأسه واتى به إلى خيمة علي رضي الله عنه، كان ينتظر مكافأة كبيرة وعندما اخبر حارس الخيمة علياً بالأمر بكى علي ثم قال: "بشِّر قاتل الزبير بالنار، سمعت النبي ﷺ يقول «إن لكل نبي حواريا، وإن الزبير حواريّ».[2] لم يكن علي رضي الله عنه يتكلم من عنده، بل يكرر ما سبق وإن سمعه من الرسول ﷺ.

كما ترون فقد اُمتحن الصحابة أيضا، ولكنهم عندما اقتتلوا فيما بينهم اقتتلوا في سبيل الحق باجتهاد منهم، وعندما تبين لهم أنهم ليسوا على حق توقفوا عن القتال وجنحوا للسلم. لم ينتقد أحد منهم القدر، ولو قاموا بمثل هذا النقد لتضاعفت المصيبة. وكلما تعرضوا للامتحان من قبل الله تعالى حاولوا الوصول إلى الحق في ظل المعاني القرآنية وباستعمال فطنتهم.

كانت بين أبي بكر وعمر محاورة أغضب فيها أبو بكرالصديق رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه. ولكن ما لبث أن أحس عمر بالندم والحزن مما وقع فطفق يبحث عن أبي بكر الذي ذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما وقع ليجد للمشكلة حلا. فقال رسول الله ﷺ: "أما صاحبكم هذا فقد غام" أي سبق بالخير.

وما لبثا أن شاهدا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقبل عليهما ليسأل رسول الله عما يفعله لكي يصفح عنه أبو بكر لأنه آذاه بكلامه. فغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول:

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٤١/٧-٢٤٢.

[2] المسند للإمام أحمد، ٨٩/١، ١٠٢؛ المعجم الأوسط للطبراني، ١٣٠/٧.

"والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم". فقال الرسول ﷺ مبينا للعالم كله مكانة أبي بكر عنده: «هل أنتم تاركون لي صاحبي! هل أنتم تاركون لي صاحبي! إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت»[1]

ولكن ما نريد هنا التأكيد عليه هو التزام الصحابي بالحق في كل الظروف والاعتراف بذنبه لقد كان الصحابة يبحثون عن الحق ويفضلونه ويرجحونه على كل شيء آخر ويسعون لوحدة الصف في كل الظروف.

لم يقم علي بن أبي طالب ﷺ ببيعة أبي بكر ﷺ مدة ستة اشهر وكان من حوله من محبيه يريدون منه باصرار المطالبة بالخلافة. وبعد انقضاء ستة اشهر وبُعيد وفاة فاطمة الزهراء رضي الله عنها جاء إلى مسجد المدينة وذكر أمام الحاضرين في المسجد بأن امتناعه عن بيعة أبي بكر ﷺ مدة ستة أشهر لم يكن مبعثه معارضته له، وأن مجيئه اليوم لم يكن بدافع الخوف، وأنه تأكد الآن بأن حق الولاية والإمارة يعود إليه وأنه جاء لمبايعته ﷺ.

يجب أن يكون الإنسان وقافاً عند الحق. وكان الصحابة يطلقون صفة "الوقاف عند الحق" على عمر بن الخطاب ﷺ. فلم يكن مهما عنده ما يفكر به في أي مسألة من المسائل، لأنه ما أن يذكر له أحد آية أو حديثاً لتصحيح رأيه في تلك المسألة حتى يرجع حالاً عن رأيه الشخصي ويلتزم بالحق.

كان مرة يخطب من على المنبر في أيام خلافته فطلب من المسلمين ألا يغالوا في مهور النساء، لأنه كان يرى وجوب التخفيف عن الشباب وتيسير أمر الزواج لهم. ولّما نـــزل من المنبر عرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، لَكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: كتاب الله، فما ذاك؟ قالت: نهيت الناس آنفا أن يتغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إحدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ (النساء:٢٠). استمع عمر ﷺ بكل ادب إليها. والحقيقة أن نصيحته لم تكن خطأ إلا أن حساسيته وادبه دفعه إلى قول: "كل أحد أفقه من عمر"،

---

[1] البخاري، تفسير السورة (٧)، ٣.

ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: «إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، فليفعل رجل في ماله ما بدا له».[1]

حاشا لله فما كان عمر ﷺ يجهل دينه، ولكن إن مفهومه للحق وارتباطه به كان عميقاً إلى درجة أنه لم يشأ أمام كلام تلك المرأة سلوك طريق التأويل أو الاعتراض، بل قبل الحق بكل بساطة.

لم تنجز الأعمال الكبيرة والمسائل الهامة إلا من قبل أمثال هؤلاء الاشخاص العظام. وكلما كنا قريبين من روح الصحابة اقتربنا أكثر من توفيق الله تعالى لنا.

حسب قاعدة تناسب العلية فإن ثقلاً معينا وفي عهد ما يحتاج إلى عضلات قوية لرفعه، ويحتاج إلى نفس قوة العضلات لرفعه في عهد آخر أيضا، فالاذرع الضعيفة تعجز عن رفع تلك الاثقال.

فكما نحتاج لنـــزن كيلوغرام واحد إلى وضع كيلوغرام مثله في الكفة الأخرى من الميزان، كذلك فإن الحقائق الكبرى التي احتاجت في ظهورها إلى اشخاص من نمط الصحابة، تحتاج اليوم كذلك إلى مثل هذا النمط لكي تظهر اليوم وتنتصر، أما انتظار انتصار هذه الحقائق وظهورها بوساطة اشخاص ضعفاء لاحول لهم ولا قوة فهو محال. إذن فعلينا أن نكون كالصحابة في التزام الحق وفي التزام الوحدة ورص الصفوف لكي يرى الأعداء أن أبواب الفتنة مسدودة أمامهم، فبينما تبلغ عندنا العواطف ذروتها، يبلغ اليأس عندهم ذروته أيضا. ولايتم هذا إلا إذا تركنا عبادة النفس إلى الالتزام بالحق، فهذا هو الطريق المؤدي إلى الوحدة والى رص الصفوف.

---

[1] كنـــز العمال للهندي، ١٦/٥٣٦-٥٣٨.

كيف يمكن تقييم الدنيا في الظروف الراهنة؟ نحن لا نستطيع تأسيس التوازن بين الدنيا والآخرة. كيف نجح الصحابة في ذلك في عهد النبوة وما بعده؟

الدنيا منـــزل من منازل عديدة نمر بها، فهناك آيات قرانية عديدة واحاديث نبوية كثيرة تعلمنا هذه الحقيقة. فالإنسان يأتي من عالم الارواح إلى رحم الام ومنه إلى حياة الدنيا، وبعد أن يجتاز فيها مراحل الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة ينتقل إلى القبر والى عالم البرزخ ومنه إلى الحشر ومنه إلى الحياة الخالدة الأبدية. أي أنه ضمن هذه الرحلة الطويلة لا يبقى سوى أيامٍ معدودات في الحياة الدنيا.

أجل فالدنيا ليست إلا منـــزلاً واحداً من منازل عديدة للإنسان. ويصور الرسول ﷺ هذا بمسافر قضى ساعة من نهار تحت ظل شجرة ثم تابع سفره،[1] فالإنسان مسافر سفراً طويلاً، ولكي يرتاح برهة في اثناء هذا السفر يقضى وقتاً قصيراً في ظل شجرة، وإلا فالدنيا ليست مقامه أو منـــزله الدائمي. بل هي دار استراحة قصيرة فحسب.

وطننا الاصلي هو في دار الارواح. فقد لبسنا من هناك لباس الجسد وجئنا إلى الدنيا حيث سنعطي فيها شكلا لحياتنا الأبدية ثم نعود إلى وطننا الاصلي. لذا يجب تقييم الدنيا من هذه الزاوية.

والمؤمن إنسان توازن، لذا يجب أن يحافظ على نفسه من الضربات المهلكة للافراط أو للتفريط في هذا الموضوع. والمعيار الواجب اتباعه هنا إعطاء أهمية للدنيا بنسبة البقاء فيها وأعطاء أهمية للآخرة بنسبة البقاء فيها أيضا. والقرآن الكريم يعلمنا فيقول ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧).

ماذا آتانا الله؟ لقد أتانا العقل والقلب والروح والجسد والصحة والشباب ونعماً أخرى لاتعد ولاتحصى، وكلها رأسمال، وبهذا الرأسمال نستطيع شراء الآخرة. ويتم تناول

---

[1] إشارة إلى حديث "ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها". الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجة، الزهد ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠١/١.

الموضوع في آية أخرى هكذا ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة:١١١).

الإنسان هنا هو الطرف الذي يعطي المتاع الزائل والفاني، والله تعالى هو الذي يعطي ويهب الأشياء الخالدة التي لاتزول. ومن أجل هذا العقد يدعونا القرآن أن نبتغي الدار الآخرة. لذا كان من الواجب علينا أن نضع الدار الآخرة نصب اعيننا في كل حركة وفي كل تصرف من تصرفاتنا. لأننا سنبقى هناك بقاءً خالداً. والدنيا هي الكوة الوحيدة المؤدية إليها والطريق الوحيد للفوز بها.

والآية توصينا بألا ننسى نصيبنا من الدنيا، ولكن باسلوب يشعرنا بأن الدار الآخرة هي الاساس وهي التي يجب أن نختارها ونسعى إليها وهي الغاية والهدف. ذلك لأن الآخرة هي الدار التي يتطور فيها الإنسان بجميع جوانبه ويسمو. فإن شبهنا الحياة الدنيا ببذرة، فإن الآخرة هي الشجرة الباسقة العالية نحو السماء والمتولدة من هذه البذرة.

أجل، إن جميع الحواس والمشاعر ستنمو وتتطور بشكل غير محدود فقابلية الرؤية والتذوق والسمع...الخ ستزداد اضعافاً مضاعفة بينما مثل هذه القابليات تبلغ في الدنيا واحداً من ألف تقريباً. ثم إن المؤمنين سيشاهدون جمال الله تعالى أيضا، ورؤية هذا الجمال لفترة تعادل في لذتها لذة آلاف السنوات في الجنة. إذن فعلى الإنسان أن يضع كل هذا نصب عينيه عندما يقوم بعملية اختيار بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة. فهل يستطيع أي عبد أن يفضل أي شيء على سعادة رؤيته لخالقه تعالى؟ علما بأن الحصول على رضوان الله تعالى نعمة لايعادلها أي منصب أو جاه، بل إن الجنة بكل نعيمها وبكل زينتها تبقى باهتة تجاهها.

والقرآن الكريم يعلمنا مدى أهمية هذه النعمة فيقول: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة:٧٢). وجاء في حديث شريف أن الله تعالى بعدما يسوق المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار يقول لعباده المؤمنين: "يا أهل الجنة!" فيقولون: "لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك". فيقول: "هل رضيتم؟" فيقولون: "وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك". فيقول: "ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟" فيقولون: "يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟!" فيقول: "أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم

بعده أبدا".[١]

عندما نضع هذا القسطاس للحياة فإنه لا يتم اهمالها أبداً. ذلك لأنها ستُحب لا من أجلها، بل لكونها جسراً وطريقاً مؤدياً إلى الآخرة، ولايوجد لمثل هذه العلاقة أو الرابطة أي محذور، والحديث الشريف يصرح بهذا ويصف الدنيا بأنها "مزرعة الآخرة". ونستطيع أن نخطو خطوة أخرى فنقول إننا لا نستطيع أن نكون أهلاً للجنة إلا بوساطة الدنيا. ذلك لأن جميع حواسنا ومشاعرنا ولطائفنا وقابلياتنا تنمو هنا وتتوسع، وهكذا نستطيع أن نكون أهلاً لرؤية الله تعالى.

ان الإنسان لا يستطيع رؤية الله تعالى في الدنيا لأنه لايملك هذه المؤهلات و لم يتهيأ لها و لم يصل بعد إلى هذا المستوى من الاستعداد. ولاتتعلق المسألة بابعاد الزمان والمكان أو بغيرها من الأبعاد. فالله تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو يهب إلينا نعمه ويتدخل بارادته في شؤوننا ويتصرف بقدرته اللانهائية. وإذا اردنا التعبير عن هذا تعبيراً تصوفياً نقول: "لا شيء اظهر من الله تعالى، ولكن لا يبدو لأصحاب العيون العمياء". فإن كنا لا نستطيع رؤيته فهذا يرجع إلى قصورنا وازالة هذا القصور في يد الله تعالى، وسيزيله في الدار الآخرة فيستطيع المؤمن رؤية جمال الله ويصل إلى أمله وبغيته الأصلية.

إذن فالدنيا مزرعة تنتج لنا مثل هذه النتائج والثمرات، وعندما ينتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة تزول الأستار النورانية ستراً ستراً فيرى الإنسان عند ذلك ربه. الدنيا عبارة عن تجليات أسماء الله تعالى، لذا لا نستهين بأي شأن من شؤون الدنيا، ذلك لأن حقائق الأشياء ما هي إلا تجليات لأسماء الحق تعالى. وبتعبير مولانا جلال الدين الرومي فإن كل ما يحدث لنا ولارادتنا تشبه راية منصوبة على عمود مرتفع جداً. وعلى هذه الراية التي ترفرف توجد كتابات. والذي يحركها ويرفرفها هو الله تعالى سلطان الأزل والأبد. لذا فإننا ننظر إلى الأشياء والحوادث على أنها بستان تتجلى فيه أسماء الله تعالى وصفاته وهي تحت ارادته وتصرفه. ونشاهد جماله على كل زهرة وعلى كل قطرة ندى فوق هذه الزهور. ويعبر جلال الدين الرومي عن هذا الأمر بتعبير غير واضح للجميع فيقول:

"إن الخيالات التي هي شباك الأولياء إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في

---

[١] البخاري، التوحيد ٣٨؛ مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٩.

حديقة الله".

عرض الله تعالى أمام أنظارنا بعض تجليات أحديته. ثم اوصلنا بلطفه وكرمه وحسب أسرار أحديته لفهم معنى بعض نعمه التي انعمها علينا حسب قدرة افهامنا. لا أنوي هنا شرح هذه المسألة الدقيقة فالذي نريد أن نقوله في هذا الموضوع الذي دخلنا إليه عن طريق غير مباشر هو: أن الدنيا بستان الله تعالى. وإن أنوار ذوي الوجوه النيرة نور البدر تنعكس على مرايا قلوبنا وتتجلى فيها. فإذا كان هذا هو الموقف فإن الأمور التي ننجزها باسم الدنيا عبارة عن موجات التجلي المختلفة الاطوال الآتية منه هو. ونحن هنا لانتناول بالطبع الموضوع بنظرة اصحاب وحدة الوجود أو اصحاب وحدة الموجود. لا نتناوله هكذا ولكننا نؤيد قول الإمام احمد السرهندي الملقب بالإمام الرباني: "ان حقائق الأشياء الحقيقية عبارة عن تجليات أسماء الله تعالى".

أجل! نحن لا نستطيع ترك الدنيا لأننا لا نحصل على الآخرة إلا بوساطة الدنيا. صحيح أنها عبارة عن ركام من الأراجيف والاوساخ، ولكن كم من جواهر نفيسة للحقائق مختبئة في هذه الاراجيف. هناك قصة في "المثنوي" حول محمود الغزنوي. وهي واشباهها قصص رمزية. وقد قام الحكيم الهندي "بيدبا" قبل "لافونتن" بسرد القصص والحكم على لسان الحيوانات. وقام بعده كثير من علماء المسلمين باتباع الأسلوب نفسه في كتبهم، ومن بينهم مولانا جلال الدين الرومي، إذ أورد قصة على لسان محمود الغزنوي وعلى لسان كلبه الرابض أمام بابه. كان كلبه يذهب كل يوم إلى مزبلة أمام القصر ويظل ينبش ويبحث فيها فلا يجد فيها شيئاً يأكله، ومع ذلك يذهب في اليوم الثاني إليها ويظل يبحث فيها عما يأكله حتى المساء. كان هذا ديدنه كل يوم، فقال له محمود الغزنوي ذات يوم: منذ أيام وانت تنبش في تلك المزبلة فلا تجد فيها شيئاً ومع ذلك لاتكف عن الذهاب إليها. الم تسأم وتمل من هذا البحث غير المجدي؟ فقال له الكلب: "لقد وجدت في أحد الأيام في هذه المزبلة عظمة لذا فمن أجل تلك العظمة اذهب إليها كل يوم لعلي اجد فيها عظمة أخرى".

الدنيا في نظر أهل الحقيقة ركام من الاراجيف مثل ركام تلك المزبلة والله تعالى خلط في هذه الدنيا الخير مع الشر والجميل مع القبيح. ولكي لايُسند قبح الأشياء إليه

مباشرة وضع أستار الاسباب، فبقي القبح الظاهري للأشياء وراء هذه الأستار. ولكن الله تعالى هو خالق الجميع وخالق الكل، وتتجلى فيها أيضا ما لا نعلمه أو نحصيه من اسمائه تعالى "الأسماء الالهية لانهائية وهو وحده يعلم عددها، فهناك أسماء لا يعلمها إلا هو إذ لم يعلمها لاي نبي ولا لاي ملك مقرب". وهكذا نقوم نحن بالنبش وبالبحث عن الحقيقة في هذه الدنيا لعلنا نعثر على حقيقة من الحقائق، وقد نبحث بكل شوق في أماكن يظنها الآخرون مزبلة من المزابل.

هناك وجه آخر للدنيا ننفر منه ونتجنبه ونهرب منه، وهو الوجه المقبل على نفسها، لأنها فانية وزائلة، لا تعطيك قطعة واحدة من الحلوى إلا مقابل صفعات عديدة. فهذا الوجه هو وجه اللهو والغرور، وهو الوجه الذي يقبل عليه أهل الدنيا، بينما هو وجه قبيح ننفر نحن منه وكلما زاد البعد عنه كان أفضل.

إذن نستطيع إقامة التوازن بين الدنيا وبين الآخرة من هذه الزاوية. الدنيا زائلة، أما الآخرة فباقية. لم يترك الرسول ﷺ الدنيا و لم ينعزل عن الناس، ولكنه كان على الدوام مع الحق تعالى، كيف لا وهو القائل: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».[1]

علينا أيضاً أن نتصرف مثل هذا التصرف. نستطيع التجول في الاسواق وفي الشوارع مع كونها حافلة بالمزابل، ونستطيع الدوام في المدارس وفي الجامعات كطلبة أو كاساتذة، ونتحمل كثيراً من الاذى المعنوي والمادي ونضحي ببعض مشاعر الفيوضات الربانية. وقد نضحي حتى بالطرق المؤدية إلى الولاية والقرب منه تعالى بشكل ارادي أو غير ارادي. فكما رجع رسول الله ﷺ من الجنة -في اثناء المعراج- و لم يتأثر بزينتها وحسنها بل فضل الرجوع ليختلط بالناس في الدنيا، علينا أن نتخلق بخلق الرسول ﷺ ونحاول تمثيل الحقيقة الكبرى التي جاء بها ﷺ. والذين يقفون في الدنيا كمن يقف فوق جمرات من النار، مثل هؤلاء لا يمكن أن يتطلعوا أبداً إلى الوجه الفاني للدنيا، ولا يمكن أن يشغلوا قلوبهم بها، بل يبقون مع الخلق ولكنهم دائماً مع الحق تعالى.

لم يفكر الرسول ﷺ في الدنيا حتى عندما أقبلت عليه وأصبحت تحت قدميه، و لم

---

(1) الترمذي، صفة القيامة ٥٥؛ ابن ماجة، الفتن ٢٣.

يفكر في الاستفادة منها. فقد رحل عن الدنيا مثلما جاء إليها. عندما جاء إلى الدنيا لفوه بقطعة قماش، وعندما رحل عن الدنيا لفوه بقطعةٍ مثلها.

لقد حاول الرسول ﷺ طوال حياته السنية تأسيس مدنية متوازنة وإقامة عالم متوازن هنا في الدنيا وهناك. و لم يتنازل طوال حياته عن دعوته هذه. لقد سلم نفسه إلى الله تعالى طوال حياته، لذا عاش في اطمئنان يحاول كسب رضا الله تعالى وإنقاذ الإنسانية عن هذا الطريق، فلم يتكدر صفو نفسه بأهواء الدنيا وبملذاتها.

اقام نظام الإسلام وطبقه في بيته، وعندما صدرت طلبات حول الدنيا من قبل بعض نسائه اعتزلهن. حتى أن الرسول ﷺ خيرهن –بأمر من الله تعالى– بين البقاء معه والاكتفاء بما عنده أو تسريحهن بإحسان. حينذاك اختارت زوجات الرسول ﷺ البقاء معه وتحمل شظف العيش معه على نعم الدنيا. في هذه الأثناء دخل عمر ﷺ على رسول لله ﷺ وهو في غرفته معتزل نساءه، فرأى أثر الحصير في جنبه فبكى مما راى فسأله الرسول ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: "إن كِسرى وقَيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله"، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!» [1]

لم يترك رسول الله ﷺ الدنيا، بل قام برؤية وباظهار جميع الحقائق الالهية المتجلية في الكون واسماعها وتوصيلها إلى العالم باسره بجيوشه التي انطلقت إلى أرجاء الأرض تحمل معها الإسلام وتنصب رايته في كل مكان. وارى هنا من الضروري تسجيل نتيجة توصل إليها بعض علماء الاجتماع المعاصرين، إذ قالوا مايأتي:

كانت البشرية قد سجلت حتى عهد رسول الله ﷺ تقدماً مقداره ٢٥%، ولكنها استطاعت بفضله وضمن عهده أي في مدة قصيرة زيادة نسبة التقدم هذه إلى ٥٠%، و لم تستطع البشرية منذ عهده وحتى الآن إلا تسجيل نسبة زيادة بمقدار ٢٥% فقط، أما النسبة الباقية فتصل إليها في المستقبل. وهكذا أثبت أنه هو القدوة والأسوة لجميع الأجيال حتى قيام الساعة. لم ينعزل و لم يترك الدنيا –نكرر هذا مرة أخرى– بل عرف كيف يوجه أمته التوجيه الصحيح ولأي شيء يجب إعطاء الأهمية وبأي نسبة.

---

[1] البخاري، تفسير السورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٩/٣.

ماذا يجب أن يكون مقياس العفو والسماح عند المسلم؟

العفو والسماح والصفح صفة من صفات المسلم، ويجب على كل مسلم الاتصاف بها، فالعفو والصفح يرقق القلوب. وإيصال الحقائق إلى القلوب يتم عن طريقه. ومع ذلك فمهما كانت هذه الصفة جيدة يجب ألا نقع في الافراط أو التفريط في أمرها. بل يجب وجود توازن معقول فيها. كان الرسول ﷺ يعفو ويصفح عن كل خطأ وعن كل معاملة سيئة موجهة إليه ولكن إن كانت هذه المعاملة موجهة نحو حق شخص آخر أو ضد اساس من اسس الدين عند ذلك كان ينقلب إلى أسد هصور حتى يأخذ الحق لصاحبه ويدرأ ذلك السوء عن الآخرين.

لم يقل كلمة عتاب واحدة للصحابة الذين لم يفهموا دقائق أمره جيداً في معركة أحد فتركوا أماكنهم وتسببوا في زعزعة جيش المسلمين، ولم يصدر منه أي تصرف خشن تجاه أحد منهم؛ أما رد فعله تجاه المعاملة الخشنة التي تعرض لها من قبل بدوي فظ بدعوى المطالبة بحقه فكان التبسم ثم الالتفات إلى الصحابة وأمره لهم بأن يعطوا البدوي ما طلب. وليس ماذكرناه إلا مثالان من امثلة عديدة تبين خلقه الرفيع في العفو والصفح، أما العفو العام الذي أعلنه في مكة بعد فتحها فشيء لا يصل إليه خيال إنساننا المعاصر.

كان هناك بعض المسلمين الذين انخدعوا بدعاية اصحاب الافك الذين حاولوا تشويه سمعة امنا عائشة رضي الله عنها التي كانت مثال الطهر والعفاف، ومن بينهم حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ، وبعدما جاء الوحي ببراءة امنا عائشة اقام عليهم حد القذف. ثم مرت السنوات وتقدم حسان في العمر، ولم تعد عيناه تبصران. يقول مسروق بن الأجدع "دخلت على عائشة رضي الله عنها وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشبب بأبيات له، فقال:

حَصان رَزان ما تُزَنّ بريبة   وتصبح غَرثىَ من لحوم الغوافل[1]

---

[1] **حَصان**: عفيفة؛ **رزان**: عاقلة ذات ثبات وقرار؛ **ما تُزنّ**: ما تُتهم؛ **غَرثىَ**: لا تغتاب الناس؛ **الغوافل**: العفيفات.

فقلت لها: لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله: ﴿والذي تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم﴾ فقالت: "كان يذب عن رسول الله".[١]

وكان مسطح من بين من اشتركوا في حادث الافك مع أن ابا بكر ﷺ كان يتعهده وينفق عليه. وعندما ظهر اسمه بين المفترين حلف أبو بكر ﷺ أنه سيكف عن مساعدته لأنه كان غاضباً منه. ولكن سرعان ما نـــزلت الآية ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى القُرْبَى وَالْمَسَاكِين وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٢). وما أن سمع أبو بكر ﷺ بهذه الآية حتى رجع عن حلفه وعن قراره وأدى كفارة اليمين ثم استمر في مساعدة مسطح ومعاونته والاحسان إليه وكأن شيئاً لم يحدث.[٢]

هذه امثلة حول قيام المؤمنين بالصفح عن أفضع واقبح ذنب يمكن أن يرتكب في حق أي شخص. والحقيقة أنهم استطاعوا النجاح في هذا الامتحان الصعب. لذا فكم من درس وعبرة في تصرفات هؤلاء المؤمنين لأصحاب الدعوة في ايامنا الحالية.

على دعاتنا الحاليين النفوذ إلى القلوب وبيان الحقائق بخلقهم الرفيع وبسماحتهم. أما الخشونة والحدة والفظاظة فلم تفد في أي عهد ولاتفيد حالياً. أما خلق الصفح والمسامحة فيستطيع بدفئه اذابة العديد من جبال الثلج. فكم من عدو قرر قتل الرسول ﷺ غيلةً، ثم استطاع بفضل عفو الرسول ﷺ وصفحه البقاء على قيد الحياة ثم الدخول إلى الإسلام ثم أصبح من أصدق أتباعه وأصدقائه. ألم يكن خلق الرسول ﷺ هو الذي ألان قلب عمر بن الخطاب ﷺ؟ ألم يكن الخلق الرفيع للرسول ﷺ هو الذي فتح قلب خالد بن الوليد لنور الإسلام؟

والحقيقة أن الله تعالى يطلب هذا من الذين يحاولون نشر دينه. فمع أنه بعلمه الأزلي يعلم أن فرعون لن يهتدي إلا أنه عندما ارسل إليه موسى وهارون. أمرهما أن يقولا له قولاً ليناً ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٤).

مهما تصرف معارضونا تجاهنا بخشونة وبتعصب فعلينا أن نقابل هذه التصرفات

---

[١] البخاري، المغازي ٣٤، تفسير السورة (٢٤) ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٥٥.

[٢] البخاري، تفسير السورة (٢٤) ٦.

بمرونة وبالشهامة اللائقة بالمؤمنين. فهذا هو ما يوجبه علينا الخلق الذي يعلمنا اياه القرآن الكريم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ (الفرقان:٧٢). إن الدستور الذي يجب أن يضعه المؤمن نصب عينيه على المستوى الفردي هو ما قاله ربنا تعالى ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن:١٤).

فالمؤمن الذي يتمنى ويأمل أن يكون الله معه غفوراً ورحيماً يجب أن يتخلق بهذا الخلق ويجعل العفو والصفح جزءاً لايتجزأ من خلقه. لن يخسر الإنسان الذي جعل شيمته العفو والصفح أبداً في أي مرحلة من مراحل حياته. والذي يضع المستقبل نصب عينيه وهو يعيش حياته الحالية إنسان قد وهبه الله تعالى موهبة خاصة وحكمة. والذين يكونون مظهراً لمثل هذا الفضل سيكونون هم ورثة المستقبل في هذه الدنيا.

هل تشرحون لنا معنى الآية ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)؟

لا يوجد في جوهر وفي لب الدين إكراه. لأن الإكراه يناقض روح الدين، والإسلام يتخذ الإرادة والاختيار أساساً ويؤسس جميع معاملاته على هذا الأساس. لذا ليس هناك أي اعتبار أو قبول لأي عمل أو فعل جرى بالإكراه سواء كان ذلك في أمور الاعتقاد أو العبادات أو المعاملات. ذلك لأن وضعا مثل هذا الوضع يصادم قاعدة «انما الاعمال بالنيات»[1] ولا يتلاءم معها.

وكما لا يرى الإسلام جواز الإكراه في معاملاته، كذلك لا يرى جواز إكراه الاخرين للدخول إلى الإسلام. لأنه يفضل أن يخاطب الناس وهم احرار فمثلا بعد أن يقبل الذميون دفع الجزية والخراج فإن الإسلام يضمن حياتهم، فافق الإسلام في المسامحة افق واسع ورحب.

ثم إن الدين ليس نظاماً يمكن فرضه بالقوة وبالإكراه. لأن أهم شيء عنده هو الإيمان. والإيمان مسألة قلبية ووجدانية صرفة. وليس هناك قوة تستطيع التأثير على القلب وعلى الوجدان. لذلك لا يمكن أن يقبل الإنسان على الإيمان إلا بدافع نفسي داخلي. إذن فلا وجود للإكراه في الدين بهذا المعنى.

لم يحاول الدين منذ عهد ابينا آدم عليه السلام وحتى اليوم إكراه أحد، بل لم يأت الإكراه إلا من جبهة الكفر، حيث حاول ابعاد الناس عن دينهم بالقوة وبالإكراه. ولكن لم يقم أي مسلم بإكراه أي كافر للدخول في الإسلام. هنا قد يرد سؤال إلى الذهن: هناك في القرآن الكريم آيات عديدة تحض على القتال وعلى الجهاد... أليس هذا نوعاً من انواع الإكراه؟

كلا... ليس في هذا أي نوع من انواع الإكراه. ذلك لأن الجهاد هو لصد عملية الإكراه الواقعة من الجبهة المعادية. وهكذا لا يدخل أي إنسان إلى الدين الإسلامي إلا

---

[1] البخاري، بدء الوحي ١؛ مسلم، الإمارة ١٥٥؛ أبو داود، الطلاق ١١؛ ابن ماجة، الزهد ٢٦.

بكامل حريته وارادته. والجهاد الذي فرضه الإسلام هو من أجل حماية هذه الحرية، وما تأسست هذه الحرية إلا بالجهاد.

نستطيع تقييم هذه المسألة من زاوية أخرى بالشكل الآتي: إن حكم بعض الآيات منحصر في أدوار معينة، وقد تأتي هذه الادوار بين العهود المتعاقبة للرقي والكمال وبين عهود التدني والتأخر. ولكن يبقى الحكم منحصراً بذلك الدور مثال على ذلك الآيات الواردة في سورة "الكافرون": ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. فحكم هذه الآيات يشمل دوراً وفترة معينة.

هذه الأدوار والفترات تكون أدوار إيضاح المسائل وإيجاد حل لها. ويجب تقديم هذه المسائل والحلول ومحاولة الاقناع بالكلام والنصح والارشاد دون استعمال أي قوة أو إكراه بحجة إنحراف الآخرين وضلالاتهم وعدم اثارة عداوتهم والتركيز على المحافظة على النفس وعلى هداية النفس وتطبيق الدين على الحياة الشخصية بشكل فردي. أما الاحكام المتعلقة بمثل هذه الادوار فليست شاملة لجميع الادوار بهذا المعنى. ولكن لايعني هذا أن مثل هذه الأخطاء لم تقع في بعض فترات تاريخ الاسلام بل وقعت كثيراً ونحن اليوم نعيش مثل هذا الدور.

ولكن هناك حكم آخر للآية نفسها يشمل جميع الادوار والازمان ويكون سارياً على الدوام وهو الحكم المتعلق بالاقليات الدينية التي تعيش في الديار الإسلامية، فليس لأحد إكراههم للدخول إلى الإسلام. بل يجب أن يكون الجميع احراراً في عقائدهم الدينية.

عندما نلقي نظرة على التاريخ نرى بوضوح أن المسيحيين واليهود عاشوا معنا على الدوام. وباعتراف الغربيين فإن اليهود والنصارى لم يكونوا في أمن وسلام حتى في دولهم مثلما عاشوا بيننا. لقد قبلوا دفع الجزية[1] وقبلوا ذمتنا فقمنا نحن بدورنا بالمحافظة عليهم. ولكن لم يقم أحد بإكراههم على الدخول إلى الدين الإسلامي. وحتى الامس القريب كانت لهم مدارسهم الخاصة ويقيمون شعائرهم الخاصة ويحافظون عليها. والذين كانوا

---

[1] المسلم يدفع الزكاة، والذمي يدفع الجزية مقابل عدم اشتراكه في الجندية وفي الدفاع عن الوطن وعندما أراد الفلاحون في مصر في أحد الادوار التفرغ للزراعة وطلبوا اعفاءهم عن الجندية دفعوا الجزية. (المترجم)

يدخلون إلى محيطهم منا –حتى في ازهر عهودنا– كانوا يرون وكأنهم يعيشون في اوروبا. أي كانت حرياتهم واسعة إلى هذه الدرجة. و لم يكن هناك قيد سوى قيد منعهم من السعي إلى جرنا إلى الإنحراف وعدم اعطاء هذه الفرصة لهم. وكان هذا شرطاً وضرورة للمحافظة على سلامة مجتمعنا.

إن وجود مثل هذه الاحكام المانعة للانحراف في الدين لايعني وجود الإكراه فيه. وهي خاصة للذين دخلوا إلى الدين بكامل اختيارهم وارادتهم. وهم بقبولهم هذه الاحكام اعتنقوا الإسلام. فمثلاً إن ارتد أحدهم عن الإسلام يعد مرتداً وتعطى له فترة للعودة إلى الإسلام فإن لم يعد يُقتل. وهذا عقاب مقابل الاخلال بعهد سبق عقده، وهو متعلق بأمر المحافظة على نظام المجتمع، فالدولة تدار بنظام معين، ولو اتخذت اهواء كل فرد اساساً لما بقي هناك في إدارة الدولة أي نظام. لذا فباسم المحافظة على حقوق جميع المسلمين لم يقم الإسلام بصيانة المرتد وحفظ حياته.

إن من يدخل إلى الدين الإسلامي يتكفل بأداء بعض الاعمال وبعدم أداءِ بعض الأعمال ولا توجد علاقة لهذا الأمر بالإكراه. فكما أن ضحك أحدهم –وهو عاقل وبالغ– في اثناء الصلاة يتم عقابه برد تلك الصلاة وبفساد وضوئه، وكما يعاقب الحاج المحرم الذي يلبس ملابس مخيطة أو يقتل الحشرات بعقوبات معينة. مع أن ذلك الشخص إن ضحك خارج الصلاة، أو لو قتل ذلك الإنسان الحشرات خارج أوقات الحج والإحرام ما كان عليه من بأس أو عقاب. كذلك فإن الإسلام مع عدم استعماله الإكراه للدخول في الإسلام، إلا أنه لا يدع حبل من دخل الإسلام بكامل إرادته على غاربه، فلا شك أن هناك أوامر ونواهي خاصة بالإسلام، ومن الطبيعي أن يطالب الإسلام أتباعه بالخضوع لهذه الأوامر والنواهي. فهو يأمر أتباعه بالصلاة والصيام واداء الزكاة والحج، وينهاهم عن الخمر وعن القمار وعن الزنا وعن السرقة. وهو يعاقب من يخل بهذه الممنوعات عقوبات مختلفة حسب نوع الاخلال. وهذا أيضاً لايدخل ضمن الإكراه ولاعلاقة له به.

ولو فكرنا قليلاً لعلمنا أن مثل هذه التدابير المتخذة هي لصالح الناس. لأن الفرد والمجتمع يحافظ بهذه التدابير على سعادة دنياه وآخرته. فهناك إكراه في الدين بهذا المعنى، أي بمعنى تذليل الصعوبات أمام دخول المؤمن الجنة.

ما حكم إطاعة الإمام؟ فالقرآن يأمرنا بإطاعة أولي الأمر...

أجل، يأمر القرآن الكريم بإطاعة أولي الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٥٩) فالله تعالى يأمرنا بالانقياد إلى أوامر الله تعالى وإطاعته وعدم عصيانه وأن نطيع الرسول. وقد جاءت كلمة الرسول بالالف واللام، أي اطيعوا الرسول المعلوم لديكم وهو محمد ﷺ. والحقيقة أننا نحب الأنبياء والرسل الآخرين ونؤمن بهم، وقد تعلمنا الإيمان بهم وحبهم من رسولنا ﷺ. وعرفنا منازلهم الرفيعة بالمقياس الذي قدمه لنا رسولنا ﷺ.

لقد عرفنا منه المنـــزلة الرفيعة والعالية للسيد المسيح عليه السلام مع أن عقيدة التثليث والكنيسة قامتا بتشويه صورته إلى درجة لم يعد بعدها معروفاً بهويته الحقيقية الناصعة. لقد عرفنا جميع الأنبياء منذ عهد آدم عليه السلام وحتى عيسى عليه السلام بوساطته. إذن فلكي نعرف الآخرين علينا أن نعرفه هو ﷺ أولاً وأن نطيعه وأن ندور في فلكه المنير، عند ذلك ستتوضح كل الأمور وتنجلي.

﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أطيعوا أولى الأمر منكم الذين يسيرون على النهج المضيء للرسول ﷺ. واتبعوا جميع القادة والزعماء سواء أكانوا قادة وأمراء على ثلاثة أو خمسة اشخاص أم على الآلاف أو الملايين ما داموا يسيرون على الصراط الذي بينه الله تعالى ودلّ عليه الرسول ﷺ وعازمين على المضي في هذا الطريق بكل جد واخلاص. ومع أنه لايتم عصيان غير هؤلاء من القادة ضمن حدود ومقاييس معينة، إلا أن الطاعة المطلقة هي للذين يمشون على طريق الرسول ﷺ وسنته الشريفة.

تتحدث الآية عن إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر أي عن ثلاث طاعات متصلة بعضها مع البعض الآخر. لقد اكتسب النبي ﷺ كل عظمته ومنـــزلته الرفيعة لكونه رسولاً لله تعالى. إنه إنسان، ولكنه وسيلة ويا له من وسيلة كبرى في سبيل وصولنا إلى الله تعالى، ونحن متعلقون بهذه الوسيلة عندما نمضي في طريقنا. وهذه الوسيلة الموجودة في يد الرسول ﷺ هي حبل الله المتين الذي إن تمسكنا به وصلنا إلى الله تعالى، لأن

الطرف الآخر من الحبل في يد الله تعالى. والرسول ﷺ يقول وهو يصف لنا القرآن: «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلَق على كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه».[١]

هكذا هو النبي ﷺ هذه درجة امتزاج روحه بأوامر الله تعالى وبواجباتنا تجاه الله تعالى. النبي ليس الها -حاشا لله- ولا يقعد على يمين الله تعالى —سبحانه- مثلما يقول النصارى، ولكنه مرآة مجلوة تنعكس فيها تجليات الله تعالى. أي إنك لن تستطيع مشاهدة الطريق الموصل إلى الله تعالى إن لم تشاهد هذه المرآة.

الطريق الموضوع واضح منور حتى الآن، وسيكون واضحاً منوراً فيما بعد أيضاً ﴿وأولي الأمر منكم﴾ كما أن الرسول ﷺ يحكم بحكم الله ويطلب من المؤمنين إطاعته على هذا الأساس كذلك يجب أن يكون من نطلق عليه صفة ﴿أولي الأمر﴾ عليهم في اثر الرسول ﷺ متبعا طريقه ومنهجه.

فهذا هو الصديق الاكبر وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وعلي الكرار رضوان الله عليهم.. هؤلاء لم يخالفوا الرسول ﷺ طرفة عين، وكان أهون عليهم أن تنخسف بهم الأرض ولايعصون الرسول ﷺ ادنى معصية. والمؤمنون مأمورون بإطاعة امثال هؤلاء الأمراء والانقياد لهم. وبنسبة مخالفة أولي الأمر للرسول ﷺ يفقدون حق طاعة الناس لهم مهما كانت خدماتهم كبيرة. لذا لا تستوجب الامارة الطاعة بشكل مطلق. فإن كان الأمير -بجانب إمارته- متبعاً للرسول ﷺ منقاداً له وجبت طاعته، وكانت هذه الطاعة عبادة. فإن لم يتبع المؤمنون هذه المقاييس المذكورة اعلاه فإن هناك مصالح شرعية وضرورات، فإن كانت خدمة الدين وإعلاء كلمة الله يستوجب الصلح والانقياد والحركة الايجابية، كان على المؤمنين اجتناب أي حركة سلبية مهما كانت ضئيلةً وإن اجتمعت الدنيا عليهم.

ثانياً: إن دائرة الطاعة واسعة جداً ومتداخلة. فالرسول ﷺ يقول: "إذا خرج ثلاثة

---

[١] الترمذي، فضائل القرآن ١٤؛ الدارمي، فضائل القرآن ١.

في سفر فليؤمروا أحدهم".[1] أي يكون أحد الثلاثة اميراً ويسمع الاثنان الباقيان توجيهاته ويطيعانه. فإن كانوا في سفر فإنه يسأل عن جميع نشاطات السفر من قيام وقعود ونوم وجلوس ونشاط ونــــزهة... الخ. فدائرة الطاعة تبدأ من هنا.

الصلاة تعلمنا الطاعة لأن الإمام يركع فنركع، ويسجد فنسجد وراءه. كما يتعلم الجندي النظام كذلك تعلمنا الصلاة -إلى جانب غايتها الاساسية- النظام. ونحن نتعود على الاستماع والانصات عندما نصلي مع الجماعة.

إن المؤمنين الذين ارتبطت قلوبهم وعقولهم بالدعوة لا يمكن أن يتصرفوا في أي شيء يتعلق بالإسلام تصرفاً فردياً. بل يتم تناول ذلك الموضوع تناولاً جماعياً وتتم المشورة بينهم. وإذا استوجب الأمر نقل الموضوع إلى من يثقون برجاحة عقله وتجربته. ثم يتم التصرف حسبما يتم الاتفاق عليه. والطاعة والانقياد واجب هنا. والحقيقة أن إطاعة المؤمنين لأولي الأمر الذين يقومون بتحقيق الشورى انما هي إطاعة لله تعالى.

أجل! فمن أجل الحق ومكانته يجب أن نسمع ونطيع حتى لو كان الامير عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة «اسمعوا واطيعوا ولو استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».[2] ولم يكن آنذاك وحسب التقاليد والاعراف السائدة أن يقوم سيد قريشي بإطاعة عبد أسود. ولكن رسول الله ﷺ كان قد جاء ليهدم جميع العادات الجاهلية. وهذا الحديث وضع في الوقت نفسه السؤال الآتي: هل يجب أن يكون الإمام من قريش؟ أم يجوز نصب عبد حبشي إماماً؟ إذن فهذا الحديث يدل على جواز تولية عبد حبشي وكونه إماماً للمسلمين.

إذن فعلى المؤمنين أن يتشاوروا في كل أمر متعلق بالخدمة الإيمانية والإسلامية وأن يصلوا في النهاية إلى حكم ما، أو يرضوا بحكم شخص موثوق بعقله وتجاربه واخلاصه. ثم يبدأ فصل الطاعة والانقياد. فإن كان العكس وتصرف كل شخص حسب رأيه فالنتيجة النهائية هي الفوضى. وبما أن القلوب لم تتحد ولم تتفق فإن الله تعالى سيحرم هؤلاء من الفضل الذي يسبغه على الجماعة. إن الفرد قد يهدف شيئاً معيناً بفضل

---

[1] أبو داود، الجهاد ٨٠.

[2] البخاري، الأذان ٥٤، الأحكام ٤؛ ابن ماجه، الجهاد ٣٩؛ المسند للامام أحمد، ١١٤/٣.

كفاءاته ومزاياه وقد يحقق الله هدفه ويعطيه ما يصبو إليه.

ولكن هناك أشياء وافضال لا يعطيها الله إلا للجماعة. فإذا كان الناس قد أفسدوا بنية الجماعة وشتتوها، وبدأ كل واحد منهم يتصرف تصرفاً فردياً فإنهم سيحرمون من النعم والالطاف التي يرسلها الله تعالى للجماعة. فصلاة الاستسقاء، وصلاة الخسوف والكسوف وصلاة العيد والاجتماع على جبل عرفات... كل هذه فعاليات جماعية لا تتم إلا بجماعة، و لم تفرض هذه الفعاليات إلا بعد وصول المسلمين إلى مستوى تشكيل الجماعة.

مع أن الصلاة فرضت في مكة، إلا أن صلاة الجمعة فرضت في المدينة، لأنه لم تتشكل في مكة جماعة. وبعد أن شكل المسلمون بعد هجرتهم جماعة عندئذ أصبحت صلاة الجمعة فريضة.

في حين كانت المدينة قد وصلت إلى هذه المرحلة قبل مكة، صحيح أن صلاة الجمعة لم تكن بعد فرضاً، ولكن أسعد بن زرارة كان يجمع مسلمي المدينة يوم الجمعة ويصلي بهم صلاة الجمعة، ذلك لأن الجو في المدينة كان اكثر ملائمة لنشاطات الجماعة من مكة.

الطاعة أمر خاص باحوال الجماعة. فما أن يبدأ الناس بالتصرف بشكل جماعي حتى تكتسب الطاعة والانقياد أهمية كبيرة في كل ساحة صغيرة كانت أم كبيرة.

يجب على المؤمن معرفة معنى الطاعة وتنفيذها. وقد اهتم الرسول ﷺ بهذا الأمر اهتماماً كبيراً وعمل كل ما في وسعه لتطوير هذا الاحساس وتنميته وسنكتفي هنا بإيراد مثال أو مثالين:

كان عمار بن ياسر وخالد بن الوليد رضي الله عنهما مرة في سرية، فجرى بينهما كلام، فوجه خالد كلاماً خشناً لعمار. هنا اعطى الرسول ﷺ ما يستحقه كل منهما. كان عمار من السابقين الأولين، بينما كان خالد امير تلك السرية. فطلب من عمار أن يطيع أميره، في حين لام خالدا بسبب تعرضه لعمار، ذلك لأن عمارا كان قد سبق خالدا في الإيمان.

وفي مرة أخرى بعث الرسول ﷺ جيشا ووصى أفراده بإطاعة اميرهم. وفي الطريق أوقد الأمير نارا، وقال لأفراد السرية: ادخلوها. فأرادوا أن يدخلوها، فقال بعضهم: إنما فررنا منها. فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزالوا

فيها إلى يوم القيامة». وقال للآخرين «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف».[١] ذلك لأنه لا يجوز إطاعة مخلوق في معصية الخالق. إذن فالقاعدة هنا أن الطاعة للأمير واجبة باستثناء معصية الخالق.

ولكي يقوي الرسول ﷺ مفهوم الطاعة جعل على رأس الجيش الذي هيأه للمسير إلى "مؤتة" زيد بن حارثة وهو طليقه وابنه بالتبني،[٢] بينما كان في الجيش اصحاب كبار من امثال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كان شخصاً بارزاً يندر مثله وذلك بالاعمال التي قام بها. كان يكبر اخاه علياً بن أبي طالب رضي الله عنه ثماني سنوات، وكان من اوائل المسلمين. هاجر إلى الحبشة وقرأ القرآن أمام النجاشي فكان تأثيره عليه كبيراً.

كان مؤثراً في حديثه وكلامه وقد آن أوان استعمال سيفه، وكان مبرزاً في هذا المجال أيضا. وعلى الرغم من كل هذه المزايا فقد نصب الرسول ﷺ زيد بن حارثة اميراً عليه. تذكر كتب المغازي بأن جيش الاعداء في معركة مؤتة كان يزيد على مائتي ألف مقاتل. وما كان أمام هذا الجيش اللجب سوى ثلاثة آلاف من المسلمين. إذن فاحسبوا عدد الجنود الذين كان على كل جندي مسلم مقاتلته. يصف الذين كانوا حول جعفر في اثناء القتال أنه لم يحول وجهه والسيوف تنهال عليه من كل جانب وتبتر في كل مرة عضوا منه. كان الرسول ﷺ جالساً في مسجد المدينة يشرح لأصحابه ما يحدث لجيش المسلمين بكل تفاصيله وكأنه يشاهد ما يحدث على شاشة معنوية. ثم أخبرهم أنه رأى جعفراً في الجنة وقد أثابه الله جناحين يطير بهما حيث يشاء. وقال رسول الله ﷺ بعد استشهاد القادة الثلاثة: "لقد رُفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريري صاحبيه، فقلت عم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى".[٣] إذن فهذا هو جعفر رضي الله عنه ومع ذلك لم يكن على رأس الجيش، بل كان الامير عليه زيد بن حارثة، الذي كان في السابق عبداً ثم حرره الإسلام. وكان الجميع يطيعونه.

---

[١] البخاري، الاحكام ٤؛ مسلم، الإمارة ٣٩.

[٢] كما هو معلوم فقد حرم الإسلام بعد ذلك التبني. (المترجم)

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٤٥/٤.

وعندما شاهد المسلمون ضخامة جيش العدو قال بعضهم: "نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له". فتقدم أحد قادة الجيش الأبطال عبد الله بن رواحة وقال بحزم: "يا قوم! إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة". فقال الناس: "قد والله صدق ابن رواحة".[1]

استشهد في مؤتة القواد الثلاثة حتى جاء دور خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي آلمه كل هذا السيل من دماء المسلمين التي أريقت. جاء دور هذا القائد الذي سيفتخر به المسلمون أبد الدهر. لم يكن قد مضى على إسلامه سوى بضعة أشهر حتى وجد نفسه في حومة هذا الوغى، لأنه كان يتحرق شوقاً للاشتراك في هذا القتال. ويذكر بعض كتب المغازي أن الرسول ﷺ لم يرض أول الأمر باشتراكه في هذه الحرب، ثم سمح له بذلك. والآن نحن نتساءل: ماذا استطاع خالد أن يتعلم من القرآن في ظرف هذه المدة القصيرة؟ والى أي مدى تعرف على رسولنا ﷺ؟ إذن فقد عرفه إلى درجة استطاع أن يضحي بمكانته الاجتماعية ويكون تحت إمرة شخص كان عبداً في السابق، ثم انجلى القدر فإذا هو في الصف الأول. إذ ما أن استشهد القائد الأول حتى جاء إلى قيادة الجيش جعفر بن أبي طالب ثم الصحابي عبد الله بن رواحة الذي كان مضاء لسانه مثل مضاء سيفه، ثم استشهد عبد الله بن رواحه ليأتي الدور إلى خالد بن الوليد الذي كان القدر الالهي يمهد لظهوره كقائد كبير في المستقبل.

والآن لننظر إلى الموضوع من زاوية الروح الجماعية والطاعة:

قام الرسول ﷺ بتعليم الطاعة والانقياد عندما قام بنصب عتيق اميراً على الجيش ولاشك أننا يجب ألا نقيم هذا الأمر بالمقاييس السائدة حالياً. ذلك لأن العبد آنذاك كان يُعامل معاملة الحيوان، إذ لا يستطيع أن يجلس ويأكل مع سيده، لأنه كان ادنى مرتبة من أن يفعل ذلك.

وعندما يضع الرسول ﷺ شخصاً كان عبداً في السابق على رأس جيش المسلمين انما

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٢٤٣.

كان يعلمهم اصول الطاعة والانقياد. وكان الرسول ﷺ مهتماً بهذه الناحية وبهذا الموضوع اهتماماً كبيراً إلى درجة أنه قام قبيل وفاته بنصب أسامة بن زيد بن حارثة على رأس جيش تقرر ارساله إلى البيزنطيين لاعطائهم درساً وللأخذ بثأر ابيه زيد. مع أن أسامة كان آنذاك شاباً في العشرين من عمره، وابو بكر وعمر رضي الله عنهما كانا مجرد جنديين في هذا الجيش. وكان النبي ﷺ يريد بعمله هذا هدم عادة أخرى من عادات الجاهلية ونشر روح الطاعة والانقياد، لأن أسامة كان ابن شخص عتيق "أي عبد سابق" وكان من الفقراء. وعندما اراد الرسول ﷺ تعليم صحابته طاعة مثل هذا الشاب الفقير وابن عبد انما كان يرسخ مفهوم الطاعة الحقيقية ويوجه إليها الانظار، فقد اهتم الرسول الكريم ﷺ طوال حياته السنية بموضوع الطاعة اهتماماً كبيراً.

ونحن نأمل من الكوادر الذين جعلوا الدعوة وخدمة الإسلام هدفهم الوحيد في الحياة وتهيأوا لفتح عهد بعث جديد أن ينشأوا في الجو نفسه ويستوعبوا مفهوم الطاعة جيداً. وإلا كان التشرذم والتفتت وكل انواع البؤس والشقاء والخلاف وعدم الطاعة مصير المسلمين.

هذا مع العلم أنه لم يبق في طوق إنساننا الحالي مجال كبير للتحمل وللصبر وللانتظار لذا كان على هذا الكادر الاستقامة على الحق وعبور نفق هذه الازمة بأقصر وقت ممكن لكي يستطيعوا -بانقيادهم وطاعتهم- بعث الامل في النفوس التي قاست الكثير حتى الآن.

عندما نكون منفردين مع أنفسنا يلقي الشيطان في قلوبنا كثيراً من الشبهات والشكوك وتصبح ارادتنا أُلعوبة في يد مشاعرنا حتى نحس بأن صبرنا ينفد ضد المعاصي فبماذا توصوننا؟

أولاً يجب أن نستعيذ بالله من دسائس الشيطان وفتنه وقيامه بتزيين الشرور ونضع جباهنا على الأرض لنكسر غرورنا حيث أن العبد أقرب ما يكون إلى الله تعالى وهو ساجد، وندعو ونقول: اللهم إنا نعوذ بك منك ونلوذ بجمالك من جلالك، وبرحمتك من سخطك، راغبين اليك داخلين في رحمتك.

ان القول بأن الشيطان يتسلط علينا عندما نكون وحدنا هو تعبير عن الحقيقة، فالشيطان يتعرض اكثر ما يتعرض للاشخاص العاطلين الذين لايقومون بأي نشاط ديني ولايحملون همّ الدعوة إلى الله. لذا علينا أن نبدأ من نقطة البداية هذه ونبحث عن طرق النشاط والبعد عن العطل والفراغ.

ومادام الشيطان يستفيد في الاكثر من عطلنا وفراغنا فيوسوس في صدورنا ويزين الشرور في اعيننا ويحضنا على اقتراف الاثام، إذن فعلينا أن نشغل دائماً أنفسنا بمشاغل الخير ونحاول سدّ الفراغات التي ينفذ منها إلى أنفسنا وأن نكون على الدوام ممتلئين فكراً وعملا حتى لا ندع له ممسكاً في أنفسنا. إن الشيطان لن يجد طريقاً يوسوس بها في صدور المرتبطين مع الله تعالى والمجددين معه هذه الرابطة من خلال تأمل آفاقي وأنفسي على الدوام. كما لا يستطيع الشيطان أن يتلاعب مع الذين يذكرون الموت على الدوام ولا يستطيع أن يهزمهم.

ولن يستطيع الشيطان فرض نفسه ووسوسته على شخص اتخذ الدعوة ونصرة الدين المبين، وجعله يرفرف على أرجاء الأرض غاية وهدفاً له. ولن تستطيع يد الشيطان أن تمتد إلى قلب مطمئن وعامر بإيمان يقيني.

والخلاصة أننا إن كنا على ارتباط وثيق بربنا فإنه لن يدعنا للشيطان الذي هو عدوه

وعدونا أيضا. فهل من الممكن أن نكون اوفياء لدينه ولايكون هو -حاشاه- وفيا لنا؟ ولكونه اوفى الاوفياء إذن فلن يدعنا منفردين مع اهوائنا، ولن يتركنا للانحلال والتفسخ. فهو يقول في كتابه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة:٤٠). إذن فهل من الممكن أن يصلت علينا الشيطان في الوقت الذي نحن متمسكون فيه بدينه وساعين من أجله؟ كلا، أبداً بل على العكس ففي مثل هذه الاوضاع سيضع على الاقل آية من آياته على لساننا ويرجعنا إلى أنفسنا لنتذكر ونبتعد عن الهاوية التي أعدها الشيطان لنا، مثلما أنقذ بعض صحابة رسول الله ﷺ الكرام، فقد جاءت اوقات تكدرت فيها ابصارهم لكونهم بشراً ودارت فيها رؤوسهم، ولكن ربك اراهم برهانه وآية من آياته وصرف انظارهم إلى الآخرة مرة أخرى.

ولو القى كل من يعمل في الدعوة نظرة متأملة على حياته لرأى كيف أنه اقترب مرات من الهاوية باستعمال إرادته استعمالاً سيئاً أو نتيجة خطأ وكيف مدت العناية الالهية يدها إليه وأنقذته، وبنسبة اخلاصه وصدقه راى عون الله ولطفه حسب سر الاية: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧).

ان ارادتنا جزئية وضيقة وعلى الرغم من هذا فقد جعل الله تعالى هذه الإرادة الجزئية شرطاً عادياً ليقلب بها كل ألاعيب الشيطان. إن قيامنا بقطع الطريق أمام ما يلقيه الشيطان وما تلقيه النفس الامارة بالسوء فينا منذ البداية يعني سيطرتنا على أرض المعركة إلى حدٍ ما. وقد تأتي أوقات تسيطر علينا خيالاتنا إلى درجة لا نستطيع معها حمل ثقلها، ولكننا نستطيع التخلص منها والابتعاد عنها ومحاكمتها، وقد تأتي اوقات وأوضاع لا تكفي لمواجهتها إرادتنا وحيوية قلوبنا، عند ذلك نستمد العون من أشخاص ارتبطوا بالله تعالى ارتباطاً وثيقاً بحيث ما أن تجلس معهم حتى تستمد القوة منهم فتشعر بدفء احاديثهم وهي تذيب الصقيع المتجمد في قلبك. وفي احيان أخرى نكون نحن الجهة التي تدفئ قلوب الآخرين، وتعينهم.

فالله تعالى خلق الإنسان بفطرة تميل إلى الاجتماع مع الآخرين فلا يستطيع الإنسان الاستغناء مادياً ومعنوياً عن مجتمعه، وهنا تقع علينا مهمة عدم الابتعاد عن الأصدقاء الجيدين. لأن الصديق الصدوق يُبقي قلبنا على الدوام حياً بنصائحه وينفث فيه الحماس

والوجد. لذا يجب المحافظة على مثل هذه الصداقة في كل حين، في المدرسة وفي السوق وفي السفر الطويل. ونحن نأمل ألا يسمح حصن مثل هذه الصداقة للشيطان بالتسلل إلى قلوبنا.

وأمر آخر وهو لزوم الاصغاء إلى النصائح التي ترقق القلب، فالنصائح التي تذكرنا بالآخرة وبالعالم الآخر وتبعث فينا الوجد والشوق مهمة جداً، والنصيحة بهذا المعنى هي الدين نفسه. وعندما كان اسلافنا يقومون باعطاء الوعظ في الجامع كان الجامع يمتلئ تماماً. فالإمام الرازي الذي اتقن الفلسفة وعلم الكلام وبرز فيهما كان عندما يعظ على المنبر يعتريه البكاء فلا يفهم السامعون بعض ما يقوله. لذا نعد نحن جماعة سيئة الحظ لأننا حرمنا من امثال هؤلاء الوعاظ. علما بأن الإنسان مخلوق يحتاج إلى خشوع القلب والى دموع العين، وهو محتاج كل يوم إلى الالتفات إلى عالمه الداخلي وتعميق هذا العالم وترقيقه. والبكاء حاجة من حاجات هذا الأمر. والقرآن الكريم يمدح أصحاب القلوب الرقيقة والعيون الدامعة ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ (مريم:٥٨).

لذا فما أحسن أن نقرأ كل يوم بضع صفحات عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممن عاشوا الإسلام بصدق، ونلون حياتنا بهم ونخرج إلى الشارع والى السوق بهذا الروح الممتلئ. فإن فعلنا هذا استقام عالمنا الداخلي من جهة، ووجدنا فرصة مقارنة أنفسنا برجال القلب والروح الحقيقيين من أمثال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ونقول لأنفسنا: "لقد كان هؤلاء مسلمين، ونحن أيضا مسلمون، فلماذا كانوا هكذا ولماذا أصبحنا نحن هكذا؟"

وبهذه المحاسبة والمراقبة الذاتية نستطيع تجديد أنفسنا. فإن فعلنا هذا بضع مرات في الاقل كل اسبوع فنحن نأمل أن يساعد هذا على ترقيق قلوبنا وازالة الصدأ عنها. عند ذلك نستطيع أن نحس في قلوبنا جميع التجليات الالهية المنعكسة عليها بكل انوارها ونكون بعيدين عن وساوس الشيطان. ويحصل هذا إما بالاستماع إلى شخص أو بقراءة القرآن أو بقراءة التفاسير. إننا نحتاج إلى التجديد -الذي لا يوجد لأشكاله حد معلوم- كما نحتاج إلى الهواء وإلى الماء وإلى الخبز.

إذن فحضور مجلس شخص يستطيع بث الخشوع في قلوبنا وطلب النصيحة منه،

وتذكر رسولنا ﷺ واصحابه. هذه هي القوى التي تساعدنا على البقاء ثابتين وحذار أن تقولوا لأنفسكم نتيجة مرض الالفة والعادة انني اعلم هذا الموضوع فماذا يفيد إن قرأته مرة أخرى أو لم أقرأه؟ ولا تقولوا ماذا لو استمعت أو لم استمع؟ لأن هذا غفلة وانخداع. فكما تتكرر الحاجة إلى الطعام والى الشراب، كذلك هناك حاجة متكررة لحياتنا المعنوية ولقلوبنا ولضمائرنا ولأحاسيسنا الأخرى إلى الغذاء، وغذاؤها هو ماذكرناه سابقاً. واستناداً إلى ما سبق علينا أن نلجأ إلى كنف مرشد يستطيع بجوه الروحي أن يذيب كل الشرور ويرينا طرق وسبل تجديد أنفسنا. وقد يمكن تحقيق هذا الأمر أحياناً بالمطالعة أو بالتأمل أو بتذكر الموت وبدرجة نجاحنا في تحقيق هذا نستطيع صيانة أنفسنا من وساوس شياطين الانس والجن. ودعاؤنا الدائم من الله تعالى ان يصوننا من شرور أنفسنا ومن شرور الشيطان. يجب أن تكون هذه هي أدعيتنا وضراعاتنا لكي نبقى ضمن العناية الربانية وصيانتها.

هل كان للمدارس الدينية وللزوايا والتكايا دور في سقوط الدولة العثمانية؟

المدارس الدينية هي المدارس التي تعلم العلوم العقلية والدينية. وقد قامت باداء مهمتها في العهود التي اهتمت بترقية العقل وتهذيب القلب والوجدان. أما الزوايا فهي بيوت الله المقدسة التي تمثل الحياة الروحية للرسول ﷺ. في هذه البيوت رُفع اسم الله تعالى وفتحت أبواب التأمل والمنافذ المؤدية إلى معرفة الله تعالى. وفي هذه البيوت انهدمت جدران النظرة الطبيعية المادية جذاذاً وبانت من ورائها اضواء النور الالهي. وكانت تؤدي مهاماً معينة تقوم بها بعض البيوت الآن. كما قامت المساجد أيضا باداء قسمٍ من هذه المهام وقدمت خدمات جليلة ذات ابعاد شتى في هذا الموضوع. لذا لا يمكن انكار الخدمات التي قدمتها هاتان المؤسستان المباركتان للأمة الإسلامية أبداً. ثم بقيت هذه المؤسسات تحت انقاض دنيا تهدمت فوقها. أو بقيت تحت رمادها. لم تكن مشكلتنا انهدام الامبراطورية، بل افلاسنا الروحي.

وكم من المؤلم أن الذين يديرون الدولة لم يستطيعوا فهم هذا ولا يستطيعون حالياً. وإلا فلم تكن المدارس الدينية وحدها حسب ادعاء البعض وراء انهدامنا وهزيمتنا على العكس من هذا إذ عندما سقطت المدارس الدينية سقطت الأمة. لأن المدارس الدينية كانت تقوم في تاريخنا بنفس وظائف المدارس المتوسطة والثانوية والجامعات والمؤسسات الاكاديمية العليا.

وكان الخلفاء الراشدون من اوائل ومن أكابر وفي مقدمة من تخرجوا في المدرسة النبوية. وكان المسجد النبوي هو المدرسة التي تخرج منها هؤلاء العظام. وفي هذا المسجد الأول انفتح الطريق لكي تنقلب المعابد إلى مدارس واستمرت على هذا المنوال. وأصبحت المساجد أماكن لتعليم التفسير والحديث والفقه، ويتذاكر فيه علم الكلام بل كل العلوم الكونية وكل الحوادث والأشياء بحذافيرها. فكما كان عصر النهضة في

اوروبا عهداً للبحث والتدقيق وعهد تنوير، فإن عهد النهضة عندنا بدأ بمحمد ﷺ ونما في عهد الخلفاء الراشدين ودخل في القرن الرابع مرحلة ارتفاع عمودي وسريع. فمن المجلب للنظر أن رجالاً أمثال ابن سينا والبيروني ظهروا في القرون (٤-٥) للهجرة. فبعد مرور أربعة قرون فقط على بعثة الرسول ﷺ ألّف عظماء الإسلام كتباً بقيت تدرس في الجامعات الأوروبية بعدهم بقرون. وأوروبا مدينة في عهد نهضتها ثم ثورتها الصناعية إلى هذه الكتب بمقياس كبير، واسست اوروبا حكمها وقوتها وسيطرتها على العالم بالاستفادة من هذه الكتب فقد لعبت الكتب الطبية خاصة لابن سينا والرازي والزهراوي دوراً كبيراً في تشكيل العقلية العلمية في الغرب ولم يكن من نصيب أي كتاب علمي في الغرب البقاء في التداول عدة عصور، بينما بقيت كتب ابن سينا ثمانية قرون وكتب الزهراوي الف عام حجة في علم الطب في اوروبا.

تُعد مدارس نظام الملك من افضل دور العلم التي انتجتها المساجد فمن جهة كانت تمثل الروح والمعنى الذي اتى به الغزالي ومن جهة أخرى كانت تعمل على نشر علوم ذلك العصر. أي أن العقول كانت تتنور بالعلوم الصرفة والقلوب بالعلوم الدينية، ومن امتزاج القلب والعقل المثير لهمة الطالب نشأ عظماء امثال ابن سينا والرازي والبيروني والبطاني والزهراوي. كان كل منهم عالماً في ساحته فمنهم من اهتم بعلم الفلك ومنهم من اهتم بالبحث عن علم الفلك والقوانين الفيزيائية، ومنهم من حاول قياس محيط الأرض باستعمال علم المثلثات وباستعمال جا "جيب" وجتا "الجيب تمام" مع الادوات البدائية لذلك العصر. كما توصلوا إلى أن الأرض تدور حول الشمس وذلك قبل ظهور كوبرنيكوس وغاليلو بـــ(٧٠٠-٨٠٠) سنة. وبينما كان العالم الغربي يعيش في الظلام وفي الجهل، كنا نقوم بصنع اجهزة والات وساعات تشتغل بنظم هيدروليكية، فقد وضع "قره آميدي الجزري" قبل ٨٠٠ سنة تقريباً كثيراً من الاجهزة والالات الاتوماتيكية التي تعمل بالنظم والقوى الهيدروليكية، وحتى في تلك العهود القديمة استطعنا عمل خيول آلية تتحرك، بينما لم يكن الغرب قد اكتشف حتى كيفية عمل الساعة وكانوا يتساءلون عندما يرون الساعة أيوجد فيها جن؟ فالمدارس الدينية عندنا كانت تقود التقدم العلمي آنذاك.

وبجانب هذه المدارس الدينية كانت هناك الزوايا والتكايا التي كانت تفتح أمام الإنسان كوة إلى العالم الآخر وتنشر النور في القلوب، فقد ظهر آنذاك رجال التصوف العظام الذي كان منهم من يقول: لو بقيت لحظة واحدة محروماً من رسول الله ﷺ إذن لهلكت. كان هؤلاء المتصوفون والأولياء مشاعل مضيئة للناس. فكما حول نهر النيل الصحراء حواليه إلى أراضٍ خضراء وبساتين يانعه، كذلك كان الرجال العظام يسقون روح الشعب ويربونه.

أجل لقد امتزجت التكايا والزوايا مع المدارس وتعاونتا في ترقية روح الإنسان وقلبه وعقله ولطائفه كافة ودفعه ليصل إلى مرتبة "الإنسان الكامل". إذن فقد كانت المدارس والزوايا والتكايا في تلك العهود تقوم بإيفاء وظائفها كاملة. ولكن دارت الأيام وانتهت هذه العهود الذهبية. وأصبحت هذه المدارس بدلا من البحث عن الجديد تكتفي بنقل ما كتبه القدماء فبدأت مثلا تكتفي بشرح ما قاله ابن سينا والبطائي والإمام الغزالي ومن الطبيعي أن مثل هذا التوجه لن يساعد على ظهور امثال الغزالي والبطاني. وساد كل مكان من يعيد كالببغاء ما قاله القدماء. ولعدم ظهور علماء حقيقيين ضاق افقنا وانسدت السبل أمامنا. وانقلبت كل ناحية إلى نوع من الثقوب السوداء تبتلع الأمة. يجب أن نقول هذا ونعطي كل شيء حقه أمام التاريخ.

لذا نقول إن الزوايا والتكايا ادت وظائفها كاملة طوال ١٠-١٢ عصراً ونشرت النور في أرجاء الأناضول، وملأت صدور وقلوب الناس بالشوق والوجد وكانت تلك عهوداً ذهبية. وأنا لا أدري أكانت المدارس الدينية والزوايا بنفس المستوى؟ هل كان فيها أناس عظماء؟ أم اكتفوا بترديد ما قاله القدماء ووجدوا السلوان في ذكر كراماتهم؟ فإن كانت الحياة الدينية قد انقلبت إلى نوع من "الفولكلور" والمدارس إلى أماكن للقيل والقال والزوايا والتكايا إلى أماكن تجري فيها المراسيم فمعنى هذا أنها كانت قد قضت نحبها وانتهت.

أجل! نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أن المدارس الدينية قد فقدت وظائفها بعد عهد معين. لقد كانت تؤدي دورها ووظائفها طالما كانت مثل الغنم تأكل ثم تقلب ما اكلته إلى لبن سائغ للشاربين. ولم تكن هذه العهود التي قامت باداء واجباتها عهوداً

قصيرة أبداً.

اما في العهود التي عجزت عن اداء دورها ووظائفها فقد أصبحت هذه المدارس – مثل كل شيء آخر– بلاءً لامتها ولدولتها ولحكامها.

ان المدارس الدينية التي لم تتوافق مع الدين ومع دولة الدين لم تكن مدارس حقيقية ولا التكايا تكايا حقيقية. ومهما كانت أسماء المؤسسات التي نبذت العلم وعادت دينها ودولتها فهي مؤسسات دب فيها الفساد من الداخل، وما لم تجدد نفسها وتعود إلى نفسها مرة أخرى فإن الفساد سيستمر وسيشتري، ثم إن الفساد الموجود في الاساس سينتقل إلى الجدران والى السطح. إن المدارس والمدارس الدينية هي اساس الحياة الاجتماعية فإن لم يكن الاساس قوياً ومتيناً لا تستطيع الدولة الوقوف على أرجلها. وهذا هو ماحدث للدولة العثمانية، أي أن المدارس الدينية والتكايا لم تكن هي التي هدمت الدولة العثمانية، بل كانت ضمن القوى التي حافظت عليها واسندها. ولكن عندما انهدمت هذه المدارس انهدمت الدولة التي كانت تستند إليها. هذه النهاية الأليمة نهاية طبيعية فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾ (الرعد:١١).

ألا تشرحون لنا معنى الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:١٥٥).

هناك العديد من التفاسير المفصلة لهذه الآية، نحيل إليها من يرغب في تفسير مفصل أما نحن فسنتناول هنا شرحاً موجزاً للآية لكي لا نرد طلب السائل. وقد يكون ما نقوله إعلاماً للمعلوم لبعض الاصدقاء. ولكن لما كان كل ما يتعلق بالقرآن الكريم مهما بالنسبة إلينا لذا فسنتناول هذه الآية بشرح موجز.

هنا يتم القسم، الله تعالى يقول: إننا سنمتحنكم بالخوف الذي سنرسله إليكم وسنبتليكم به. سنصلت عليكم أهل الدنيا لنرى من يخاف منكم ومن لايخاف واظهاره إلى الوجود الخارجي. والله تعالى بعلمه الازلي يعرف هذا، ولكنه يريد اظهار من يخاف ومن لايخاف منكم للوجود الخارجي لأن القدرة والإرادة متعلقتان به. الخوف أحد صور الامتحان فالإنسان يخاف من الزلازل ومن الجوع ومن الظمأ ومن الاعداء الماديين والمعنويين، وهذا الخوف امتحان له.

والنوع الثاني من الامتحان هو الامتحان بالجوع. وقد تعرضت الأمة المحمدية لمثل هذا الامتحان الشديد في عهود معينة. وقد انحسر اليوم هذا الامتحان صحيح هناك بعض الجوع والبؤس، ولكن هذا يرجع في الاكثر إلى اسراف الإنسان وسوء استعماله وهو صفعات تنبيه له. علماً بأن الاجيال السابقة، ولاسيما الذين عاشوا في القرنين الماضيين تعرضت إلى افظع اشكال الجوع نتيجة تصلت الاعداء الخارجيين والداخليين. كما لا تزال هناك بعض البلدان الافريقية يسود فيها الجوع، نتيجة لسوء استعمال الموارد هناك وهو صفعات تنبيه لهم. ولانني شرحت هذا بالتفصيل في مناسبات أخرى فلا اعيده هنا.

أما النقص في الاموال فقد يكون نتيجة الآفات الطبيعية، أو لزوال البركة، وهو إحدى صور الامتحان، وظاهرة التضخم المالي من ضمن هذا الأمر. أما النقص في الأنفس فيأتي بمعنى القتل أو حرمان الإنسان من العيش كإنسان محترم. وكما يمكن أن

يتعرض العالم الإسلامي إلى امتحان في موضوع النقص في الأنفس نتيجة لجهادهم في صد العدوان الخارجي، كذلك يمكن أن يتعرض من يعيش الحياة الإسلامية إلى عزلة من المجتمع فيعيش وكأنه مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة وهو امتحان من هذا النمط. كل هذه امتحانات وابتلاءات من قبل الله تعالى يتعرض لها المؤمنون.

وقد يمتحننا الله تعالى بنقص في الثمرات نتيجة للآفات التي تصاب بها البساتين. أو يمتحننا بنقص في ثمرات كل انواع الاعمال والجهود التي نبذلها. وهذه الامتحانات إما امتحانات نتيجة الذنوب والآثام التي اقترفناها فهي تنبيه وتحذير لنا، أو هي امتحانات لرفع درجاتنا ومراتبنا عند الله تعالى، فهي إذن لطف من ألطافه.

لا يظهر الصبر والصدق إلا نتيجة الامتحان. فالذين يصرون أن يبقوا ملازمين باب الله تعالى مهما تعرضوا للأذى هم الذين ينجحون في هذا الامتحان. أما الذين يتركون هذا الباب عند أقل محنة ويبدلون طريقهم واتجاههم فهم الذين يرسبون في هذا الامتحان.

عندما كان الرسول ﷺ يتعرض إلى بلاء أو مصيبة كان يسرع فيتوضأ ثم يقف للصلاة والآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٣) تعلمنا هذه الحقيقة.

فإن أحاطت بكم البلايا وضاقت عليكم أنفسكم فعليكم بالصبر وبالصلاة فهما طريق الخلاص. عليك أن تصر على اسنانك أولاً وتصبر، ثم عليك الاصرار على العبودية والتوجه إلى الله تعالى. من المحتمل أن الله تعالى يريد بهذه الامتحانات أن يظهر للعيان مدى وفائنا وتحملنا وصدقنا وصبرنا ليعلمنا قيمنا الحقيقية وكذلك ألطافه علينا. أي سيقيس مدى قوة صبرنا وصدقنا بنوع ردود فعلنا وسلوكنا في اثناء هذه الامتحانات ويعرفنا بأنفسنا. وذلك لكي لا يكون للناس حجة على الله. وربما سيعترض العبد بعد هذا القياس والتقييم لنفسه ويقول: يارب! كم كنت شخصاً متقلباً!.. لقد امتحنتني مرة وسددت أمام وجهي الباب مرة فيئست وتحولت عن بابك وانصرفت عنك. بينما كان عليّ أن أبقى ثابتا في مكاني أمام بابك لا أتحول عنه ولو تكررت أمامي المحن، وأن أصارع أعداءك. لو دفعت جيوشي للهزيمة مئات المرات لكان عليّ أن أعتصم بك

وأقول: أنت غايتي يارب. لو هدمت بيتي على رأسي، أو حرقت قلبي بألم فقد أولادي وأموالي لكان عليّ إلا انحرف عن بابك. لو ابتليتني بالأمراض من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وبدأت أئن من الآلام والاوجاع لكان عليّ عندما أستطيع النطق بكلمتين أو ثلاث أن أقول أيضا: انت غايتي يارب. وبدلاً من اكون هكذا وأقول هذا لم أستطع الصبر، واهتززت ورجعت وتركت بابك. فما اعظم جنايتي وما اكثر تلوني وتقلبي.

والعبد يُمتحن حتى وإن كان على الحق وسائراً على الصراط المستقيم، فهناك احاديث كثيرة على هذا، فالله تعالى يمتحن عبده بالمصائب وبالبلايا لكي يذهب العبد إلى ربه طاهراً نظيفاً ويستحق الدخول إلى المراتب العليا للجنة.

سنتعرض نحن أيضا للغربلة عدة مرات وسنمتحن، وهكذا ينفرز الفحم عن الماس والردئ عن الجيد. والامتحان ضروري ولاسيما في أيامنا الحالية، فالحيلولة دون التلون والتحول المحتمل في المستقبل لا يمكن إلا بالتعرض للمحن في هذه الايام. لذا فإن الامتحان عامل مهم لمن ينوي أن يهب نفسه لتحمل عبء الدعوة إلى الله. والله تعالى هو الممتحن الآن وفي المستقبل وما علينا إلا الثبات والصبر والتزام بابه بكل صدق.

ما السبب الكامن وراء محاولة الابقاء على نظرية دارون حية على الرغم من ظهور نقائصها وعدم صحتها؟

من المستحيل العثور على نظرية أخرى غير نظرية دارون بُعثت بعد موها. فقد ماتت ثم بُعثت، والآن هناك محاولات لاحيائها بعد أن دخلت في مرحلة الاحتضـــار. فبينمـــا يقوم بعض رجال العلم ببذل كل جهودهم للدفاع عن أفكار دارون نرى البعض الآخر من رجال العلم وهم يوجهون سهام نقد قاتلة لنظرية دارون ويمزقوها إرباً إرباً، ويقولون بأن الإيمان بهذه النظرية ليس إلا انخداعاً لا غير. هذا هو المنظر الحالي في المحافل العلميـــة العالمية ولكن الظاهر أن النظرية ستبقى لمدة معينة حية في الميدان. وقد كتب بـــالامس وحتى اليوم الآلاف من الكتب حول هذا الموضوع في الشرق والغرب ولاتزال تكتـــب وستكتب في المستقبل أيضاً.

ولنقل منذ البداية بأن الثقافة في الشرق وفي الغرب قائمة على قاعدة واحدة وهي قاعدة الفلسفة المادية. فالمادية في أمريكا لاتقل عن مادية روسيا، علما بأن الثقافة الغربية اليوم قد انـــزلقت بمعظمها إلى اجواء الثقافة الأمريكية. وعندما ذكرنا كلمة الشرق كنا نشير إلى الناحية الجغرافية ولم نكن نقصد منها الفكر، وكما ذكرنا في معرض الاجابة على سؤال سابق بأن الشرق والغرب قد تجاوزا اليوم المفهوم الجغرافي، لذا فنحن ننظر إلى روسيا باعتبارها جزءاً من الغرب.

كلا الطرفين لهما النظرة نفسها تقريباً للدين وللعلم أيضاً. نظرة الغرب إلى الدين هي نظرة "روسو" و"رينان" وهي أنه وحدة صغيرة ضرورية للحياة الاجتماعية. أي أن الدين لم يكن عندهم في أي وقت غاية وهدفاً. بل عدوه وسيلة واحدة من الوسائل العديدة لسعادة الإنسان، لذا يجب اعطاء الرخصة له. وقد وصلت روسيا اليوم[1] إلى هذه النظرة. ومع أن هذه النظرة يمكن عدها بداية للتحلل في النظام الروسي إلا أنها

---

(1) ذكر المؤلف هذا سنة ١٩٨٢ م.

ليست المفهوم الصحيح للدين في نظرنا.

كما أن نظرتهم إلى جميع شعب العلم وفروعه هي النظرة نفسها. هذا هو وضع العالم اليوم. ومع ذلك فهناك الكثير من العلماء من ذوي النظرة المادية تناولوا نظرية دارون بالنقد والتجريح، حتى لم يدعوا فيها ناحية سليمة. ومع أننا نرى هذا الأمر واضحاً وصريحاً في البلدان الاوروبية وفي أمريكا، إلا أنه لايزال شيئاً مخيفاً في روسيا ويجري في صمت.

أجل، لاتزال روسيا والبلدان المرتبطة معها تصر على هذه النظرة، أي الدفاع عن هذه النظرية، لأن هذه الدول اقامت قواعدها الفاسدة على المادية التاريخية، لذا كان من المهم جداً بالنسبة إليهم أن تكون نظرية دارون صحيحة، والحقيقة أنه ما أن تنهدم الفلسفة المادية والمادية التاريخية حتى تظهر الميتافيزيقية إلى الأمام، وسيقوم الإنسان آنذاك بمراجعة القيم الروحية والمعنوية اكثر من مراجعتهم للقيم الاقتصادية والمادية. وهذا يعني آنذاك انتهاء النظام الفكري وانهدامه المرتبطين به. لذا يقومون بدفع نظرية دارون إلى المسرح من حين إلى آخر. وسيستمر هذا لبعض الوقت.

أما في تركيا فالمدافعون عن هذه النظرية والساعون إلى خدمة هذا الفكر وهذا المبدأ هم بعض اساتذة الجامعات وبعض أعضاء السلك التعليمي إذ يقومون عند تدريس مادة "البيولوجيا" "علم الأحياء" بتقديم هذه النظرية وكأنها هي الحقيقة بعينها فيفسدون بذلك العقول الغضة.

ولن أقوم هنا بتحليل هذه المسألة تحليلاً علمياً مفصلاً، فقد تناولتها بالتفصيل في إحدى المحاضرات. ثم تناولها بعض الاصدقاء بالتحليل من ناحية العقيدة، وظهرت جهودهم هذه بشكل كتب ومجلدات مفيدة. لذا أدع تفاصيل هذه المسألة إلى هذه الكتب لكي أتناول الموضوع بما يناسب مساحة السؤال والجواب.

يقول أنصار هذه النظرية: تكونت الاحماض الامينية في المياه ثم تكونت الأحياء من ذوات الخلية الواحدة كالاميبا ثم تطورت إلى الأشكال المختلفة للأحياء. وبتعرض هذه الأحياء إلى عمليات التطور وصلت إلى أحياء في مرحلة متطورة كالقرود "والبعض يذكر الكلاب" واخيراً ظهر الإنسان كمرحلة اخيرة من التطور. وقدموا وجود بعض

المتحجرات في بعض الاماكن دليلاً على صحة هذه الفرضية، كما جعلوا هذه المتحجرات منشأً وأصلاً وسلفاً لاجناس وانواع عديدة من الأحياء. فمثلاً جعلوا بعضها سلفاً للحصان والأخرى لقناديل البحر والأخرى للطحالب، وقالوا بأن هذه الأحياء أخذت أشكالها الحالية بعد مرور آلاف السنوات عليها.

ولكن المكتشفات الأخيرة التي توصل إليها العلماء تكذب هذا الزعم، فالحشرات التي يصفها العلماء بالأحياء العنيدة حافظت على نفس أحوالها وأشكالها القديمة منذ ظهورها قبل ٣٥٠ مليون سنة وحتى الآن.

والمفصليات والزواحف وعقارب البحر لا تزال تحمل نفس أشكالها واحوالها التي كانت عليها قبل ٥٠٠ مليون سنة، أي بنفس أشكال متحجراتها تماماً، ولا يوجد هناك اقل فرق، فهذا ما يقوله علماء الحيوان أنفسهم. فإذا لم يكن هناك أي تغير أو تبدل حتى في الأحياء الدنيا، إذن فإن قدم الحصان أيضاً لم تتغير مثلما يدعي الدارونيون. والإنسان يحافظ كذلك على شكله السابق منذ أن خُلق. وبينما ادعى التطوريون أن الآلاف من الأحياء قد تعرضت للتغير والتبدل إذا بأحياء تعيش منذ ٥٠٠ مليون سنة تظهر أمامنا فتكذب ادعاء هؤلاء وتقول: "كلا... نحن لم نتغير و لم نتبدل و لم نتطور".

ويقول هؤلاء أيضا إن تطور الأحياء وتبدلها يتم عن طريق المصادفات. ويتم هذا التغير بشكل بطئ عبر الزمن. وإن تطور وتبدل كل كائن مرتبط بالظروف والشروط التي يوجد فيها. فعلاقة الدنيا بالشمس وبعدها أو قربها منها وكيفية دوران الأرض حولها والتغيرات الحاصلة في هذا الدوران وبما ينتج عنه من اختلاف الفصول... كل هذه عوامل لها تأثيرات ايجابية أو سلبية على الطفرات. لذا تتحقق التغيرات الحاصلة حسب هذه الشروط. مثلا كان الحصان قبل ملايين السنوات حيواناً صغيراً له خمسة أظافر في القدم. وبعد مروره بكل هذه السنوات كبر حجمه وأصبح بظلف واحد.

والحقيقة أنهم لايملكون في هذا الموضوع برهاناً جدياً، يتكلمون عن مخلوق عاش في الماضي ويدعون أنه كان حصاناً، مع أنه لا توجد أي علاقة لهذا المخلوق مع الحصان، فالله تعالى خلق ذلك الحيوان، ثم أنهى نسله بعد زمن معين، فلا يوجد الآن مثل هذا الحيوان. والآن لماذا نتقبل كون ذلك الحيوان حصاناً؟ لقد خلق الله تعالى ذلك الحيوان

في ذلك العهد، ثم خلق الحصان بعده بعهود، فلماذا نربط بين هذين الحيوانين ونسند أحدهما إلى الآخر؟

لقد تم العثور على النحل وعلى العسل قبل مائة مليون سنة. وقد تبين أن النحل قبل مئة مليون سنة كان يصنع العسل ويخزنه في نفس الأشكال الهندسية التي تعملها الآن. أي على الرغم من مرور مائه مليون عام فلم يتغير شيء فالنحل لا تزال تعمل العسل على النمط نفسه. أي لم يتغير طوال هذا الزمن لا دماغ النحل ولا طريقة عمل العسل، كما لم يتغير أي شيء في بنية النحل وأعضائه. فإذا كان هناك أي تغير فأين مثل هذا التغير؟ كان يجب أن يشار إلى مثل هذا التغير. وتقع مهمة ووظيفة الاشارة إلى هذا التغير على أنصار التطور.

قبل سنوات قام أحد أنصار الداروينية الحديثة فاعلن للعالم اكتشافه لجمجمة تحمل بعض الصفات الإنسانية وكذلك بعض الصفات القردية. وقدم هذه الجمجمة كدليل على الانتقال من الحالة القردية إلى الحالة الإنسانية ولكن بعد مضي سنوات تبين الوجه الحقيقي للمسألة. فقد تبين أن الفك الاسفل من جمجمة قرد قد أضيف إلى جمجمة إنسان حقيقي. أي تم تشكيل جمجمة واحدة من جمجمتين. ثم وضعت هذه الجمجمة لمدة معينة في حامض لكي تبدو جمجمة قديمة ثم زرعت اسنان إنسانية في الفك الاسفل وتم برد هذه الاسنان، ثم قدموا هذه الجمجمة كدليل على وجود الحلقة الوسطى بين القرد وبين الإنسان. وقد كادت عملية التزوير هذه تخدع الاوساط العلمية.[1] ولكن بعض العلماء انتبهوا إلى عملية التزوير هذه ونشروها في الصحف والمجلات. وقد انعكس هذا الموضوع في الصحف التركية أيضاً ونشرت حوله مقالات عديدة.

إن أتينا إلى الطفرة، فهذه النظرية تقول إن نسل الأحياء يصيبه التغير إن تعرضت الأحياء إلى الطفرات، وإن هذه التغيرات هي التي تشكل الاساس لظهور الانواع المختلفة من الأحياء. لقد توضح في هذه الأيام بعد تقدم علم الجينات وعلم الكيمياء الحيوية أن

[1] لقد خدعت هذه الجمجمة المزيفة التي أطلقوا عليها اسم (إنسان بيلتداون) العلماء مدة أربعين عاما تقريبا وكتب حولها مايقارب نصف مليون مقالة في مختلف المجلات العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي البلدان الأوروبية حتى تم اكتشاف زيفها عام ١٩٥٢ في بريطانيا. (المترجم)

الطفرات القائمة على المصادفات العشوائية لا يمكن أن تؤدي إلى تحسن والى تطور الأحياء وتكاملها. إذن فالطريق مسدود أمام هذا الادعاء.

منذ سنوات تجري المحاولات والتجارب العديدة حول تهجين الحمام والكلاب. ولكن الكلاب بقيت كلاباً. صحيح أنه حدثت بعض التغييرات الجسدية، فمثلاً يتغير شكل الانف أو الفم، ولكن الكلاب لاتتحول إلى حمير مثلا، و لم يتحول الحمام إلى طائر آخر بل بقي حماماً. وكانوا قد أجروا من قبل تجارب عديدة على ذباب الفاكهة "دروسافيللا" ولكن هذا الذباب بقي ذباباً، و لم يحصل الذين أجروا هذه التجارب على شيء فتركوا هذه التجارب خائبين واليأس يحيط بهم.

ولكن كانت هناك فائدة واحدة لهذه التجارب، فقد أدرك العلماء جيداً أنه لا يمكن الانتقال من نوع إلى آخر في عالم الأحياء وذلك لوجود هوات واسعة بينها لا يمكن الانتقال خلالها. ثم إن الحلقات الوسطى تكون دائماً عقيمة. فمن المعلوم أن البغل ليس بذكر ولا بأنثى، وفي هذا الوضع لا يمكن للبغل العمل على استمرار نسله. فكيف تيسر إذن الوصول من مثل هذه الحلقات الوسطى بواسطة الطفرات إلى كائن مثل الإنسان؟ وكيف يتيسر ظهور مثل هذا الكائن الممتاز الذي سيستمر نسله حتى يوم القيامة؟ إن هذا الأمر ليس بعيداً عن العقل فقط بل حتى عن الخيال، وليس له أي سند جدي.

عثروا قرب جزيرة مدغشقر على متحجرة سمكة، وعندما أجروا البحوث عليها تبين لهم أنها عاشت قبل ستين مليون سنة، وقرروا دون أي تريث أنها من الاسماك المنقرضة. وبعد فترة قصيرة صاد أحد صيادي الاسماك بالقرب من الجزيرة نفسها سمكة من نفس هذا الصنف من الاسماك التي قالوا إنها قد انقرضت. وقد شاهدوا أن هذه السمكة تشبه تلك السمكة التي عاشت قبل ستين مليون سنة مئة بالمئة ودون أي تبدل أو تغير، وهنا أيضاً رجع أنصار التطور بخفي حنين. فالسمكة الحية افسدت السيناريو الذي أُعِدَّ حول السمكة المتحجرة من قبل التطوريين.

ولكن على الرغم من كل هذا فلكون التطور أحد القواعد الرئيسية للمادية التاريخية وعنصراً من عناصرها وسنداً للمادية فقد اصر ماركس وانجلز على قبول النظرية التطورية. لذا نرى أن الماديين يناصرونها مناصرة عمياء وإن تناقضت مع العلوم ولن

يتخلوا عنها أبداً.

ان هؤلاء يرون أن كل مسألة يجب أن تُحل وتوضح بالنظرة المادية فقط، إذ لا يستطيعون أبداً أن يقولوا: "إننا لم نستطيع إيضاح هذه المسألة، إذن فلا بد أن هناك قدرة معنوية خارجية" وكل الجهود التي يبذلونها هي في سبيل التخلص من مثل هذا الاعتراف. وهذه الجهود والمحاولات اليائسة ابعدتهم كثيراً عن العقل وعن المنطق وعن السلوك والتصرف المعتدل إلى درجة اجبرتهم إلى الكثير من التزوير والخداع والاعيب المنطق التي لاتليق لا برجل العلم فقط بل حتى بالإنسان العادي.

وهذا أدى في النتيجة إلى أنهم يضطرون في كل مرة إلى البحث عن فجوة ليختبئوا فيها وقد احمرت وجوههم من الخجل. ولكن هناك عقول غضة تأثرت بهم مع الاسف. ولكن حبل الكذب قصير، وحبل هؤلاء اقصر من هذا الحبل. يقال إن مجنوناً واحداً يستطيع عندما يلقي حجراً في بئر أن يشغل اربعين عاقلاً فلا يستطيعون اخراج ذلك الحجر، وهذا هو ماحدث في هذا الموضوع.

لقد افاد دارون دنيا العلم من حيث لايدري، فتصنيف الانواع وترتيبها نتاج من نتائج بحوثه وكان هذا التصنيف دليلاً ضمن الادلة الأخرى حول مدى النظام والانسجام المذهل الموجود في الكون. إذن فما أجل قدرة الله تعالى الذي خلق هذا الكون في مثل هذا النظام البديع الذي لا يسمح لأحد أن يفسده. إن الهداية في يد الله تعالى، وبينما ازددنا نحن إيماناً ببحوث دارون، فقد انحرف دارون ببحوثه هذه إلى الضلالة.

عند ظهور كل دعوة كان افرادها يؤمرون بالرحلة المقدسة. فهل تعد الرحلة اليوم من بلد إلى آخر لخدمة الحق رحلة مقدسة؟

المقصود من الرحلة المقدسة هو الهجرة. والهجرة مسألة عظيمة تنطوي فيها معانٍ كبيرة وحقائق كبيرة. فكما تعني هذه الكلمة الهجرة من بلد إلى آخر كذلك تعني الهجرة من مبدأ ومن عقيدة إلى مبدأ وعقيدة أخرى، وتعني أيضاً هجرة الإنسان من نفسه إلى نفسه، ولا ادري هل أستطيع أن اوفي حق هذه الكلمة وما تحمل من معانٍ عميقة أم لا، ولكني سأقوم بعرض ما أستطيعه مستعيناً بالله تعالى وبلطفه وإحسانه.

الهجرة أساس مهم في كل دعوة كبيرة. ولا بد من تثبيت النقطة الآتية: لا يوجد رجل دعوة كبرى، ولا رجل فكر كبير ولا رجل تحمل عبء وظيفة عظيمة -وانا أعني ما أقول- لم يهاجر. لقد ترك كل رجل دعوة البلد الذي ولد فيه وذهب من أجل دعوته إلى بلد آخر. واكثر الجوانب بركة وأهمية في موضوع الهجرة هي أنها أمر من الله تعالى: ذلك لأن هناك بعض المعاني الآتية بهذه الهجرة تكون لها أهمية خاصة للشخص المهاجر الذي يقوم بخدمة الدعوة. ومع أن أحداً لم يطلق صفة "النبي السائح" على إبراهيم عليه السلام فإن هذه الصفة صادقة في حقه، ففي ذلك العهد الذي كانت المواصلات فيه صعبة جداً فإننا نسمع صوته في بابل حيث يرن فيها صوت دعوته، ثم إذا بنا نراه في أرض كنعان، ثم في سوريا حيث كان فرعون موجوداً فيها. يقول بعض المؤرخين إن الموجود هناك كان حاكما ظالماً اسمه"صادوق". وهنا تبتهل زوجته الطاهرة سارة إلى الله أن يحفظ هذه الفئة المؤمنة من بطش الظالمين.

إذن فقد كان إبراهيم عليه السلام يسيح في أرجاء الأرض ومعه زوجته ليهمس في إذن كل من يصادفه ويدعوه إلى الله وحده. ثم لا نلبث أن نراه قرب الحرم الشريف الذي كان قد تهدم تماماً. أي ذهب إلى موضع مكة المكرمة التي سينشأ فيها سيد الرسل محمد ﷺ والتي فيها محراب المؤمنين وقبلتهم المقدسة إلى يوم القيامة والتي يعدّ خرابها من اكبر علامات قيام الساعة.

جاء إبراهيم عليه السلام إلى الحرم الشريف فرأى أن السيول المادية والمعنوية قد هدمته، أي أن سيول الضلالة تعاونت مع سيول المياه التي هجمت من جبال البطحاء. وكأن الله تعالى قد رفع الكعبة المشرفة إليه (بمادتها ومعناها) في تلك الأيام السوداء.

قرر إبراهيم عليه السلام اعادة بناء الكعبة مع ابنه فوق اسسها المتبقية. ثم أذّن إبراهيم يدعو الناس إليها فاستجاب له اصحاب الضمائر الحية واسرعوا إليها. ويقول بعض المحققين إن الأذان المحمدي قد استنبط من اذان إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (سورة الحج:٢٧). ومقام الحرم الشريف مقام عالٍ يستطيع فيه الإنسان أن يؤسس علاقة مع ربه، وطواف الناس حول هذا البيت تصور فوق كل تصور، فقد قال الرسول ﷺ: «إذا قال الإمام ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فقولوا "آمين" فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[١]

والكعبة مطاف لجميع الروحانيين والملائكة حتى سدرة المنتهى. وعندما نقوم نحن بالطواف حول الكعبة نكون تحت نظر الله تعالى ورعايته ونشترك في الطواف مع ارواح الأنبياء. في مثل هذه البقعة المباركة ولد رسولنا ﷺ، وكانت هذه البقعة من اهم أماكن الهجرة الطويلة لإبراهيم عليه السلام، وسكن وكأنه أنهى هجرته هناك. هنا انبثقت الشجرة التي كانت هي الغاية من هذه الهجرة وتفرع فرعان كبيران منها وهما متوجهان نحو الأبد. أحد هذين الفرعين اعطى ثمراته عدة مرات. أما الفرع الآخر وهو فرع اسماعيل فقد اعطى ثمرة لو وضعت في إحدى كفتي الميزان لرجحت على جميع الأنبياء العظام وكانت مفخرة للاجيال القادمة. هذه الثمرة هي محمد ﷺ الامين الصادق صاحب الفطنة الكبيرة. وهي نتيجة هجرة إبراهيم عليه السلام وثمرتها.

لماذا اطلق لقب "المسيح" على النبي عيسى عليه السلام؟ إن أحد معاني "المسيح" هو السائح في الارض، وهو من صيغة "الفاعل" أي الشخص الكثير السياحة. وقد بحث عيسى عليه السلام هنا وهناك عمن يسلم قلبه للحق وللحقيقة، وحصل نتيجة سياحته الطويلة هذه على اثني عشر حوارياً. قبل عيسى عليه السلام هؤلاء الحواريين كتلاميذ له متوجها نحو فتح

---

[١] البخاري، تفسير السورة (١)، ٢؛ ابن ماجة إقامة الصلاة والسنة فيها، ١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٣٣.

العالم بهم واداء الامانة العظمى التي حملها وتحقيق دعوته الكبيرة بهم. فإن تذكرنا أن أحد طلابه خانه فمعنى هذا أنه خرج لفتح العالم بوساطة أحد عشر طالباً من طلابه. ومع أنه لا يُعرف أين ولد السيد المسيح، ولكننا نعرف إلى أين توجه في هجرته المقدسة. وهناك كتب تاريخية تذكر أنه وصل في هجرته وسياحته إلى اواسط الأناضول. لقد ساح في أرجاء فلسطين وفي شبه الجزيرة العربية، وعندما بلغ عمره ٣٣ عاماً ترك هذا العالم الفاني، ورفع إلى عالم أسمى إلى عالم خاص به. لقد ساح في اجزاء كثيرة من العالم اكثر من كثير من السياح. باحثاً عمن يصغي إلى صوت دعوته من اصحاب القلوب السليمة.

شب موسى عليه السلام في قصر فرعون، ومع أنه تعود على حياة القصور الناعمة، إلا أنه كان أيضاً رجل هجرة. ولو بحثنا ودققنا حياة الأنبياء العظام لرأينا الهجرة سمة مشتركة بينهم.

لا شك أن اكبر مهاجر ضمن هؤلاء المهاجرين المباركين هو رسولنا ﷺ. لأن الهجرة -مثلها في ذلك مثل جميع الأمور- وصلت عنده إلى الذروة.

لقد جمع في عبوديته البداية والنهاية معاً أي أنه بدأ بالعبادة باكمل وجه و لم يسبقه أحد فيها، لقد كان يرافق جبريل عليه السلام في السماء وفي الأرض يجالس الاعرابي ويشاركه على نفس المائدة.

لقد كانت هجرته من مكة إلى المدينة هجرة شاقة ولكن ذات معانٍ عميقة. ونحن لانعرف كيف تناول الأنبياء الآخرون موضوع الهجرة، أما هو ﷺ فقد كان يعاهد ويصافح وهو يشترط ويقول "على أن تهاجر". بل كان يُنظر في تلك الأيام إلى من لا يهاجر من دون سبب أو مانع نظرة المنافق. و لم يتمكن وليد بن الوليد وعياش بن ربيعة وسلمة بن هشام من الهجرة لبعض الأسباب المانعة. لقد كان هؤلاء الثلاثة من السعداء غير المهاجرين لذا حاول الرسول ﷺ أن يملأ هذه الثغرة الموجودة خارج ارادتهم في حياتهم بالدعاء لهم. لقد كان يرفع يديه بالدعاء بعد الركوع قانتا: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين.. اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها سنين كسني يوسف" حتى أنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:١٢٨)».[1]

---

[1] البخاري، تفسير السورة (٣)، ٩؛ مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، ٥٤.

أجل، يدعو ربه ويتضرع إليه، ذلك لأن هؤلاء كانوا من اوائل من اسلموا. كان عياش اخا لأبي جهل من جهة الام، ولكن ما أن نطق بالشهادتين حتى وضعت القيود في يديه وفي رجليه، وبقي على هذه الحال حتى فتح مكة مقيداً بالحديد ومعرضاً للاهانة وللضرب من قبل أخيه الكبير أبي جهل ومن قبل ابنه عكرمة الذي تشرف فيما بعد بالإسلام وأصبح من أبطال اليرموك. أما سلمة بن هشام فكان اخا لابي جهل من قبل الاب. وأصبح أيضاً مقيداً بالحديد في يديه وعنقه. أما الوليد بن الوليد فكان الشقيق الاكبر لخالد بن الوليد، وابن الوليد بن المغيرة. والغريب في الامر أن جميعهم كانوا مسلمي فخذ مخزوم. لقد بذلوا كل ما في وسعهم للوصول إلى رسول الله ﷺ والهجرة معه ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على الصعاب والعقبات التي وضعت أمامهم. لذا كان الرسول ﷺ يرفع يديه بعد الركوع في صلاة الفجر ويدعو لهم بالنجاة وكان أحياناً يدعو لهم في صلاة الظهر والمغرب والعشاء أيضا.

لقد كانت الهجرة مهمة بالنسبة للرسول ﷺ بحيث أنه كان يوصي كل من يصافحه بأن يهاجر، ويدعو لكل من عجز عن الهجرة بأن ييسر له الله الهجرة. عندما مرض سعد بن أبي وقاص في مكة بعد فتحها قلق جداً، وأظهر قلقه هذا لرسول الله ﷺ الذي عاده في مرضه هذا قائلاً له: "يا رسول الله أُخلَّف بعد أصحابي؟ أتخلَّف عن هجرتي؟"[1] أي مع أن مكة مقدسة ومباركة إلا أنهم كانوا يقلقون خشية بقائهم بعيداً عن أرض هجرتهم.

الهجرة عمل صالح يحوز على رضا الله تعالى، لأن الشخص المهاجر يقوم بتضحية كبيرة في سبيل الله. والإنسان يحب عائلته وأولاده وعياله والوطن الذي ولد فيه حباً كبيراً، فكم من شاعر ترنم في شعره بوطنه واشتكى من داء الصلة ومن وحشة الغربة، فهذا احساس موجود لدى الجميع، ولكونه احساساً فطرياً فإن الإنسان لا يستطيع أن يقلعه من قلبه. لذا نرى بلالاً وهو يبكي عندما يتذكر مكة، على الرغم من جمال المدينة وينشد اشعار الشوق لها. ولم يكن شوق أبي بكر ﷺ وغيره اقل من هذا الشوق. لقد هاجروا إلى المدينة بسبب عقيدتهم ودعوتهم ولكن الشوق إلى ديارهم كان يحرق قلوبهم.

---

[1] البخاري، مناقب الانصار ٤٩؛ مسلم، الوصية ١.

فشخص مثل أبي بكر ﷺ الذي لم يفكر لحظة واحدة في فراق الرسول ﷺ كان أيضاً يشتاق إلى مكة ويتأوه من فعل المشركين الذين تسببوا في ترك دياره ووطنه. وكان يقول لمكة حينما ودعها: "أما والله لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إليّ وأكرمها على الله. ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت".[1]

وهذا شعور بالشوق والحنين. لذا يجب علينا أن نتناول موضوع الهجرة النظر إليها من هذه الزاوية أيضا. فالصحابة ولدوا في مكة وترعرعوا هناك وتعودوا عليها. ثم كان هناك البيت الذي بناه أبوهم إبراهيم عليه السلام والذي كان يأتي لزيارته الآلاف من الناس من اقاصي الأرض كل سنة، وكانوا هم سدنة هذه الكعبة وسادالها، فمنهم من أخذ على عاتقه إطعام الزائرين، ومنهم من أخذ على عاتقه سقاية الزائرين بماء زمزم، ومنهم من اخذ على عاتقه الاهتمام بالاضاحي التي يقدمها الزائرون. كان لكل منهم مهمة يؤديها. وعادة يصعب على الشخص ترك ما تعود عليه، فنحن مثلاً تعودنا على تذوق المشاعر العميقة التي يبعثها فينا شهر رمضان والصوم والافطار واداء صلاة التراويح فيه. وكذلك تنتابنا مشاعر واحاسيس عميقة عند ذهابنا إلى الحج وعودتنا منه ومشاعر الفراق -وإن كان شيئا مؤقتاً- المثارة في نفوسنا. وقد جرب الكثير منا ولعدة مرات هذه المشاعر.

بينما كان الصحابة يتركون اوطانهم ومساكنهم وأولادهم وعيالهم. فمثلا عندما هاجر عمر رضي الله عنه لم يأخذ معه زوجاته. وعندما هاجر أبو بكر رضي الله عنه لم تكن معه ابنته عائشة رضي الله عنها ولا نعرف أين بقيت هي وزوجات أبي بكر رضي الله عنه اللواتي لانعرف حتى اسماءهن، وأين بقي والده الاعمى أبو قحافة. كيف تركهم كلهم وذهب؟ هل نستطيع أن نتهم هؤلاء الذين كانوا مثالاً للرحمة والشفقة بقساوة القلب؟ كلا... كان كل منهم مثالاً للرحمة والشفقة وكانوا يملكون علاقات عائلية قوية. ولكن الهجرة في سبيل الحق كانت تسبق كل شيء.

لذا ابقى هؤلاء كل ما يملكون في مكة وهاجروا. كان منهم من يهاجر جهاراً نهاراً وعلناً ومتحدياً الجميع. وكان منهم مَنْ لايعرف شيئاً سوى أنه يهاجر في سبيل الله، أي كان يخطو ويشد الرحال نحو شيء غامض ومجهول. كانوا يملكون في وطنهم الذي

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٨٣/٣؛ مسند أبي يعلى، ٦٩/٥.

يفارقونه كل شيء: المساكن والأولاد والعيال والمال. وكان الفقر والوحشة والغربة والوحدة تنتظرهم في البلد الذي يتوجهون إليه. إذ لم يكن معلوماً لديهم آنذاك أن أهل المدينة الأوفياء سوف يرحبون بهم ويضمونهم إلى صدورهم. وبينما كانوا يمثلون هم قوام الإنسانية، فقد ساعدوا كذلك في ظهور جماعة متميزة هي جماعة الأنصار.

وهكذا أصبح الأنصار –حسب مقياس مكانة المهاجرين المباركة– يتعلمون صفة الحواريين من المهاجرين، والمهاجرون يكتسبون صفة النصر والتآزر من الأنصار. لم تكن سمة حياة هاتين الجماعتين متوافقة ولا طرز حياتهم، وكان تفكيرهم مختلفاً. ولم يكن مستوى الحوار بينهما المستوى نفسه أبداً. لذا فقد عانى المهاجرون الكرام الشيء الكثير فانطبعت حياتهم كلها بطابع الهجرة ومع ذلك فلم يرجع أحد منهم سوى شاعر بائس واحد إلى مكة حيث لم يكن إيمانه قوياً بدرجة كافية. أما الباقون فلم يفكر أحد منهم بالرجوع إلى مكة. إن الهجرة التي عمقت إيمان الصحابة الكرام والتي اعطت للمسلمين وللإسلام لوناً متميزاً أصبحت اليوم أيضاً من مواضيع الساعة.

والهجرة تكسب طلاب القرآن الشيء الكثير. ذلك لأن كل شخص يترك إلى جانب الاثار الايجابية في البلد الذي ولد وترعرع فيه بعض الاثار السلبية كذلك. فلكل واحد ذكريات سلبية أيضاً في قريته أو بلدته وبين أقرانه فهناك أيام تشاجر فيها معهم، أو تصرف تصرفاً غير جيد تجاههم وهذه الأمور لاتتلاءم مع الوقار الذي يجب أن يتحلى به بعد أن يأخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى الله. ذلك لأن مثل هذه التصرفات الصبيانية السابقة –التي لامفر منها في مرحلة معينة من العمر– قد تبقى عالقة في اذهان البعض وتلقي بظلالها على مهمته وعلى الدعوة وتكون سبباً وعاملاً في بعض التقييمات السلبية تجاهه.

فمثلاً كان المكيون يقولون عن النبي ﷺ: يتيم أبي طالب. أجل! كانوا يطلقون على فخر الكون صفة "يتيم أبي طالب"، يريدون بذلك التهوين من شأنه ومن رسالته، يريدون استعمال يتمه كسلاح ضده، يودون أن يقولوا: "ويحك! أهذا الذي كان يركض معنا في الازقة وهو صبي ويمشي بيننا في الاسواق يدعي أنه صعد إلى السماء واتى باخبار فوق عقولنا من هناك؟". هذا علما بأن الله تعالى كان يهيئه منذ صغره

لمهمة النبوة والرسالة ويصونه ويحفظه من كل شيء يمكن أن يلقي ظلا على مهمته هذه، وهاكم مثالا على ذلك، يقول النبي ﷺ: "ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله ﷻ منهما. قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان. قال نعم. فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير. فقلت ما هذا؟ فقالوا: فلان قد تزوج بفلانة. فجلست أسمع، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الثانية مثل ذلك".[1]

أجل! كان الله تعالى يهيئه لشيء معين. اشترك في صباه في تعمير الكعبة بعد أن انهدمت بفعل السيول. كان ينقل الأحجار. وما كان من المتصور أن يتخلف عن مثل هذا العمل المشرف. وفي أثناء العمل قال العباس للنبي ﷺ: «اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة. فما أن هم ليفعل ذلك حتى خر إلى الأرض مغشيا عليه وطمحت عيناه إلى السماء، وما أن أفاق حتى صاح بلهفة: "إزاري إزاري.." فشد عليه إزاره ولم يره أحد مكشوف العورة بعد ذلك أبدا».[2] لقد كان الله تعالى يصونه من كل شيء لا يليق به لأنه كان يهيئه لحمل رسالة كبرى. ولكن مع كل هذا كان مشركو مكة يدعونه بيتيم أبي طالب. في مثل هذا الجو الذي لم يكن الرسول ﷺ يجد نصراً وتأييداً من أهل مكة فتح الأنصار صدورهم له، وفتحوا أبواب بلدهم وابواب بيوهم له، واستسلموا له كليا عندما طلب منهم البيعة في بيعة العقبة الثانية قائلا: «تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».[3]

وهكذا وجد الرسول ﷺ نفسه بين أناس يعرفون قدره ويرونه مثل شمس الضحى

---

[1] السيرة الحلبية، ١/٢٠٠.

[2] البخاري، مناقب الانصار ٢٥؛ مسلم، الحيض ٧٦.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٥٦-١٦٣.

صافيا مضيئا، ويحترمونه الاحترام الواجب له. كانوا يرونه نبياً منذ أول يوم عرفوه ويوقرونه كما يجب أن يوقر النبي.

كما كان الصحابة الكرام ﷺ يهانون في بلدهم مكة، فلم يتيسر للمكيين معرفة قيمة بلال الحبشي ﷺ إلا بعد فتح مكة. مع أنه هو وكثير من امثاله واصحابه من الرجال من ذوي القلوب والنفوس الطاهرة كانوا يتعرضون في مكة –نتيجة النظرة الاجتماعية السائدة– إلى صنوف عديدة من الاذى والاهانة. ولكنهم أصبحوا في المدينة جماعة مكرمة وعزيزة، حتى أن الأنصار كانوا يتوسلون بالرسول ﷺ ويطلبون منه أن يكون المهاجرون شركاء لهم في اموالهم ومساكنهم. وكان هذا جانب آخر من جوانب الهجرة.

هذا علماً بأن هؤلاء المهاجرين كانوا محط اهتمام خاص للنبي المختار ﷺ. هذا الرسول الذي قاد الهجرة قد اعد للرسالة من صغره وتحت حماية الله تعالى وصيانته.

وبالنسبة إلينا فإن الهجرة مهمة جداً من ناحية الدعوة. ذلك لأن كل واحد منا له اخطاء حسب مقتضى الطبيعة البشرية وقد تثار في حقنا بعض الاقاويل، لذا كان من الافضل الهجرة من الاماكن التي كنا فيها. لأنه مهما كانت النيات صافية فمن الضروري عدم وجود أي لطخة في صورتنا في اذهان المخاطبين، بل يجب أن تكون مثال الأمن والاطمئنان والثقة في نفوسهم. ولا يتيسر هذا إلا عندما نكون بين اشخاص لايعرفون اخطاءنا ونواقصنا السابقة، ونكون عندهم كمن نـــزل من السماء إليهم حسب التعبير الشعبي الدارج، فهذا مهم جداً.

ومشيئة الله ﷻ بتهجير جميع المرشدين والمجددين يظهر أن الهجرة قانون الهي، فكأن الله تعالى اجبر جميع المرشدين والمبلغين على الهجرة بمقتضى هذا القانون. فمثلاً يظهر أحدهم في الجبال الشم للولايات الشرقية للأناضول، ولكن نسمع صوته يدوي في غربي الأناضول أو في اسطنبول. ونحن نرى الإمام الغزالي وهو يكثر من سياحته ونرى الإمام الرباني وهو يسيح في طول الهند وعرضها. وعندما ندقق حياة هؤلاء العظماء الافذاذ نجد للهجرة مكاناً بارزاً فيهم.

ان الترحال المقدس يحتل الآن من زاوية الدعوة أهمية اكبر مما كان في السابق. فإن قام أخ مؤمن بالهجرة إلى ديار الكفر فيجب ألا ننظر إليه باستهجان. صحيح أنه لا

توجد الآن "مدينة منورة" ولكن ستكون هناك مدن تحاول تقليد مثال "المدينة"، وبتعبير آخر لكي نستطيع المثول بين يدي "صاحب المدينة" علينا أن ننشئ "مدناً" عدة. ولكي نستطيع أن نقول "لقد تركنا مدننا خلفنا يارسول الله لكي نحضر إلى مدينتك" فهناك حاجة إلى مدن هجرة. لذا لا نستطيع أن نستخف بموقف الذين رحلوا إلى أرجاء الأرض لنشر الإسلام وهاجروا في هذا السبيل. ذلك لأنهم لم يفعلوا هذا لسبب مادي أو لمصلحة شخصية. لقد كان هدفهم هو نشر الإسلام والحصول على رضا الله تعالى.

ان الذين هاجروا في سبيل دعوة الحق سواء من تركيا أو من سائر أنحاء العالم الإسلامي سيلقون أجرهم حسب نياتهم حسب قاعدة "انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى". ونحن ندعو من الله تعالى أن يأخذ هؤلاء مواضعهم بجانب المهاجرين الأولين، أي أن الله تعالى سيحشر المهاجرين مع المهاجرين والأنصار مع الأنصار. وعندما سينادي يوم المحشر: "ليجتمع المهاجرون" فإننا نأمل أن يكون هؤلاء خلف المهاجرين الأولين من الصحابة. فمن يعرف ماذا سيجد أمامه؟ ايجد أمامه ابابكر ﷺ أم عمر بن الخطاب ﷺ أم عثمان ﷺ؟

قد لا نستطيع في كل مرة تحقيق فكرتنا التي هاجرنا من أجلها، ولكن طالما كانت نيات المهاجرين خالصة في سبيل الله فإنهم سيُعدون رابحين وفائزين. ولنشرح هذا بحديث عن رسول الله ﷺ حيث يقول: «من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه».[1]

أجل! إن كان أحدهم يتحرق شوقاً لخدمة دين الله ودعوته ويخطط لايصال دين الله حتى اقصى الأرض ويدعو قائلا "لنذهب ولنر ولنشاهد ولنعلم ولنرشد ولنمش على طريق الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وعلى اثر رسولنا ﷺ مفخرة الإنسانية – لننجز مهمتنا هذه.." مثل هذا الشخص حتى أن توفي في بلده فإننا نأمل أن يسجله الله تعالى في سجل المهاجرين.

ندعو الله تعالى أن يعطي للذين يصرفون اعمارهم في سبيل الإسلام والعالم الإسلامي ثواب المهاجرين وثواب الشهداء، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

[1] مسلم، الإمارة ١٥٧؛ الترمذي، فضائل الجهاد ١٩؛ النسائي، الجهاد ٣٤.

هل الشفاعة حق؟ ومن يستطيع الشفاعة وإلى أي مدى؟

أجل، الشفاعة حق، وهناك العديد من الآيات والأحاديث حولها ممّا يدل على أنها حق. وسنتناول هذه الآيات والأحاديث عندما يأتي موضعها. ولكن سنتناول أولاً الشق الثاني من السؤال: من يستطيع الشفاعة وإلى أي مدى؟ لأن الإجابة على هذا الشق يشكل جوابا للشق الأول كذلك.

يستطيع الأنبياء والأولياء والشهداء الشفاعة كل حسب المستوى الذي وهبه الله تعالى لهم وسيشفعون، غير أن الذروة هنا هي لرسول الله ﷺ ذي الفطنة العظمى. فقد وهب كل نبي دعوة مستجابة وشفاعة فاستعملوها في الدنيا، أما رسول الله ﷺ فقد ادّخرها للآخرة، لذا سيكون في الآخرة صاحب الشفاعة العظمى إذ ستجتمع أمته من "الحمّادين" تحت "لواء الحمد" لكي يقوم صاحب "المقام المحمود" بالشفاعة التي سينال منها كل فرد من هذه الأمة المحمدية حصته حسب استحقاقه.

الدنيا فانية وليست خالدة، والمشاكل والمصاعب الموجودة ستكون -بوجه من الوجوه- كفارة للذنوب. ولكن سيأتي على الناس يوم رهيب بئيس لا توجد فرصة لأي عمل منقذ، وهو ما ندعوه نحن بالآخرة. هنا سيبرز رسول الله ﷺ صاحب "الشفاعة العظمى" ليشفع للإنسانية جمعاء. ولا شك أن لهذه الشفاعة حدود، كما أن الشفاعة لا تتم إلا حسب مشيئة الله تعالى وبإذنه فقط: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ اِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢٥٥).

وهذا شيء طبيعي جداً، ذلك لأن الشفعاء قد يتصرفون عاطفياً ويفرطون فيطلبون من الرحمة الإلهية رحمة أكثر من المعقول، ولا يتلاءم هذا مع الأدب الواجب تجاه الله تعالى. لذا فقد وضع ﷻ ميزاناً ومقياساً لهذا الأمر، يتضح بموجبه من يستطيع الشفاعة، ولمن يستطيع وبأي مقياس يستطيع. وكما أن في كل أفعال الله تعالى وإجراءاته عدالةً وتوازناً، كذلك هناك عدالة وتوازن في موضوع الشفاعة التي سيقبلها الله تعالى في الآخرة من الشافعين. ولو لم يتم وضع حدود بهذا الشكل لاستعمل بعضهم الشفاعة

بشكل غير متوازن. فلو كانت الشفاعة دون حدود لأدّى هذا عند بعضهم -عندما يرون الناس وهم يحترقون في جهنم- إلى إثارة عواطف الرحمة والشفقة عندهم فيطلب دخول الجميع من كفار ومنافقين ومجرمين إلى الجنة. ولكن مثل هذا الطلب يعد تجاوزاً على حقوق بلايين المؤمنين.

لو تركت الشفاعة لعواطف الأشخاص لكان هناك احتمال استفادة الآثمين والمنحرفين والكفار منها. وهذا يعني شمول الرحمة للكفار الذين يحملون ذنوباً بإنكار كل النظم وكل الحكم وكل الجمال الصادر من الله تعالى في هذا الكون وإهانته وتزييفه، بينما يرتكب الكافر في كل لحظة من لحظات حياته جريمة كبرى لا يسعها الكون. لذا فإن إبداء الرحمة نحو مثل هؤلاء الأشخاص من ذوي الأرواح السود المظلمة يعد عدم احترام للرحمة نفسها.

قال الرسول ﷺ بأنه ادّخر شفاعته لأصحاب الكبائر من أمّته. فهو هنا -كما في كل شيء- إنسان توازن. والأمة بأجمعها وجدت سلوانها في هذا الحديث وتأمل أن تنال شفاعته. في أحد الأيام عندما كان "الحلاج" يشرح هذا الحديث أخذته الجذبة، فخرج عن حدّه وقال ما معناه "يا سلطان الأنبياء" لماذا وضعت مثل هذه الحدود ولماذا لم تطلب الشفاعة للناس جميعاً؟ فلو أنك طلبت هذا من ربك لاستجاب لطلبك".

ولو كان واعياً آنذاك لعلم أن الرسول ﷺ لم يكن ليقول ذلك الكلام من نفسه: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾. أجل! يجوز أن الرسول ﷺ -كما قال الحلاج- لو طلب من الله تعالى الشفاعة للناس أجمعين لاستجاب له. ولكن الرسول ﷺ كان في غاية الأدب تجاه ربه، فلا يقول إلا ما يقوله ربه ولا يتعدى حدود صلاحياته أبداً. ومن ضمن المقاييس التي وضعها ربه للشفاعة استحقاق الشخص لهذه الشفاعة، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:٤٨). ومن هنا نعلم أن الشفاعة ليست دون حدود وليست للجميع، كما لا يوجد شرط قبول شفاعة أحدهم لآخر. فالأساس هنا هي المشيئة الإلهية الموجودة في كل شأن وأمر. الكافر يبقى بكفره خارج دائرة الشفاعة من البداية. فلا يستطيع أحد أن يشفع له، ولا تقبل منه هذه الشفاعة إن قام بها.

ويعلمنا الله تعالى في القرآن هذا الدعاء حيث تتم الإشارة إلى وجوب الاحتفاظ بالهمة عالية ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤)، أي هب لنا يا رب أزواجاً وذرية صالحين تقر بهم أعيننا.. وهب لنا رفقاء حياة يشدون من أزرنا ويشوقوننا في سيرنا إليك.. وأن يكون أولادنا وذرياتنا وسيلة لانهمار رحمتك علينا بعد وفاتنا بالأعمال والدعوات الصالحة التي يقومون بها.. ولا توصلنا يا رب إلى مرتبة المتقين فقط، بل إلى مرتبة إمام المتقين.

مثل هذا الفهم تعبير عن الهمة العالية، وطلب لصلاحية الشفاعة من الله تعالى ضمن حدودها التي بينها لنا. ولو لم يرد الله تعالى إعطاء هذه الشفاعة لما علمنا طلبها. وما دام أعطانا كيف نطلب وكيف نسأل إذن فسيعطينا ما نسأله. ونحن نتوقع هذا وننتظره من رحمته الواسعة. لذا علينا فهم هذا الأمر جيداً. أجل، إن الاكتفاء بطلب ركن في الجنة دليل على ضعف الهمة، بينما يريد الله أن تكون همتنا عالية فنطلب منه أن يجعلنا إماماً للمتقين ويعطينا صلاحية الشفاعة لهم.

في إحدى الأحاديث الشريفة يرسم الرسول ﷺ لوحة من لوحات الآخرة: «يُدعى نوح فيقال هل بلّغت؟ فيقول نعم. فيُدعى قومه، فيقال هل بلّغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد. فيقال من شهودك؟ فيقول محمد وأمته. فيؤتى بكم فتشهدون أنه قد بلّغ. فذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣).»[1]

أجل فالآية الكريمة تقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣). الشفاعة حق وحقيقة. وجميع العظماء سيشفعون، ولكن في الحدود التي وصفها الله تعالى. وإذا نظرنا إلى وظيفة الشهادة كنوع من الشفاعة فإن أمة محمد بأجمعها ستكون شافعة. أما من ينكر الشفاعة فلا يوجد لهم كسب أو ربح لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأن الله تعالى سيعامل عبيده بالشكل الذي فهموه وعرفوه وتوقعوه منه.

---

[1] الترمذي، تفسير السورة (٢) ٨.

ما "التوبة النصوح"؟

جاء في الآية الكريمة المتعلقة بالتوبة النصوح خطاب إلى المؤمنين: ﴿يَا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (التحريم:٨). هناك ثلاث كلمات يجب الوقوف عندها في هذه الآية وهي الإيمان، التوبة والنصوح.

الكلمة الأولى هي الإيمان، والإيمان هو قبول الإسلام ككل، والإقرار به لساناً والتصديق به قلباً. فإن لم يتم الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به لا يكون الإنسان مؤمناً. المهم بالنسبة إلينا هو المعنى الشرعي للإيمان. ومع ذلك فإن تناولنا المعنى اللغوي للإيمان عرفنا أن كل من يؤمن بالله تعالى يدخل في أمانه. أجل! فالإنسان لا يتخلص من حوادث الدنيا ومشاكلها الكبيرة كبر الجبال ولا من قبضة عذاب الآخرة وويلاتها التي لا تعد مصائب الدنيا بجانبها شيئاً يذكر إلا بالإيمان.

الكلمة الثانية هي التوبة. والتوبة تعني تجديد الإنسان لنفسه وإصلاحا داخليا له، أي إعادة التوازن للقلب الذي فقد توازنه نتيجة الإنكار والتصرفات المنحرفة، أي هروب الفرد من الحق إلى الحق، وبتعبير أدق هروبه من غضب الحق إلى لطفه، ومن حسابه إلى رحمته وعنايته، واللجوء إليه. ويمكن تعريف التوبة أيضا بأنها محاسبة الإنسان لنفسه نتيجة شعوره بالاثم، أي قيام الإرادة بالوقوف أمام النفس ضد استمرار الحياة دون شعور بالمسؤولية، والوقوف أمام الآثام الكبيرة وعدم إعطاء الإذن لها بالمرور.

فإذا كان الإثم يشبه التدحرج إلى هاوية دون ضابط، كانت التوبة هنا هي لملمة النفس والخلاص من هذا التدحرج بقفزة إلى الخارج. وبتعبير آخر فإن الإثم هو إصابة الوجدان والروح بجرح مؤقت نتيجة عدم المراقبة والمحاسبة. أما التوبة فهي شعور بالألم المحيط بالقلب، والقيام بمحاسبة النفس ومراقبتها واكتساب الحواس قوّة جديدة وطاقة جديدة. ولما كان الإثم نتيجة لتحكم وغلبة الشيطان وأهواء النفس على الإنسان كانت التوبة هي دفاع الحواس ضد الشيطان، وهي محاولة إعادة التوازن والتناغم إلى الروح.

وبينما يقوم الإثم بعملية تآكل وتعرية للروح كانت التوبة وقوفاً ضد هذه العملية

بعملية تعمير مضادة بالكلمة الطيبة. لذا فما أجلّ وما أعظم التوبة التي تحرك القلب من قبل أن يأتي اليوم الذي تندهش فيه القلوب والأبصار. فيا ليتنا كنا موفّقين في سدّ كل ثغرة يفتحها الإثم بأنين التوبة وبكائها.

يولد الإنسان طاهراً من كل ذنب ومن كل اعوجاج. والذين ينحرفون عن فطرتهم وعن الطريق القويم يكونون قد قذفوا أنفسهم إلى تربة لا تنبت، لذا فمصيرهم المحتوم هو التفسخ هناك، لأن الآثام تعد عوامل تفسخ للإنسان. وهناك آية حول رجوع الإنسان إلى ربه بعد اقترافه الإثم: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ (الزمر:٥٤). والإنابة هي العودة والرجوع. إذن فالتوبة هي الرجوع إلى الأصل النقي بعد التلوث بالإثم. والحديث الشريف يقول: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نـــزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾".

أي إن فكرة اقتراف الإثم تكون قد بدأت بالتوسع في دماغه، تماماً مثل الشخص الذي بدأ ينـــزل سلماً. فهو ما أن ينـــزل درجة حتى يتهيأ للدرجة الثانية، وما أن ينـــزل الثانية حتى يتهيأ للثالثة، وهكذا فما أن يعتاد الشخص على اقتراف الإثم حتى يفقد الحياء فيسهل عليه اقتراف آثام وموبقات عديدة فيستمر في النـــزول والهبوط إلى أسفل السافلين. لذا قال أحد الحكماء "لكل إثم طريق يؤدي إلى الكفر". والتوبة هي سدّ الطريق أمام مثل هذا الهبوط وتغيير الوجهة للصعود إلى الطريق المؤدي إلى الله تعالى، وبذل الجهد في هذا السبيل.

التوبة هي رجوع الإنسان إلى رَبِّه مرة أخرى بعد ضلاله وانحرافه عن الطريق، ولذا نرى أن الرسول ﷺ يقول في حديثه الذي يورده البخاري ومسلم: «للهُ أشدّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فَلاةٍ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته. فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» [1]

---

[1] البخاري، الدعوات ٤؛ مسلم، التوبة ٥.

ولا شك أننا لا نستطيع إسناد كلمة "الفرح" الواردة في الحديث بمعنى الفرح المعروف لدينا إلى الله تعالى. فهذه الكلمة تفيد هنا معنى آخر يليق بصفة "الغنى المطلق" لله ﷻ، ونعجز نحن طبعاً عن إدراك هذا المعنى، ولكننا نفهم أن الله تعالى يبدي رضاءه لتوبة عبده، وهذا هو المهم.

هناك وجهتان للتوبة: الأولى متوجهة لنا، والثانية متوجهة لله تعالى. ولهذا المعنى يشير الرسول ﷺ عندما يقول: «ويتوب الله على من تاب»[1] فتوبتنا متوجهة نحو الله تعالى، وتوبة الله متوجهة برحمته نحونا حيث يفتح بابه من جديد لنا. عندما ننحرف عن الطريق تنسد جميع النوافذ بيننا وبين الله وجميع المنافذ، ثم نندم ونتحسر "لماذا عملنا هذا؟ لماذا انحرفنا إلى طريق مضاد لفطرتنا؟" وبينما نكون منغمرين في مشاعر الندم إذا بنا نحس بأن النوافذ والمنافذ قد انفتحت لنا من جديد. فالخطوة الأولى كانت توبتنا وبدايتها النية والندامة. أما الثانية فهي توبة الله علينا حيث فتح أمامنا الأبواب والمنافذ قائلاً: يا عبادي! انا لم أنسكم و لم أترككم... وما دمتم تذكرونني فإنني أتقبل توبتكم وإن تكرر منكم نكث العهد. أجل، فهو أرحم الراحمين، لذا فمهما عملنا من سوء، علينا ألا ننسى الالتجاء إليه قائلين "يا أرحم الراحمين ارحمنا... يا غفور يا غفّار اغفر لنا ذنوبنا وتجاوز عن سيئاتنا..."

والكلمة الثالثة هي "النصوح" وهي اسم فاعل على وزن "فعول" وتفيد المبالغة. ومعناها المبالغة في نصح النفس وفعل الخير. وتأتي من جذر "النصيحة"، والنصيحة هي إرادة الشخص خير الآخرين والتفكير الحسن والرؤية الحسنة. وعندما نقول: "الدين النصحية" نقصد التوجه لخير الآخرين ومحبة الخير لهم، والأخذ بأيديهم لمنع انحرافهم. لذا كانت الدعوة إلى الله وإلى رسوله من موجبات هذا الأمر. لذا نطلق اليوم على الكادر النوراني الذي يدعو إلى الله اسم "جيش القدسيين" بتعبير السيد المسيح عليه السلام. وهؤلاء الجنود إن انفطرت السماء فوقهم، وتزلزلت الأرض وانشقت تحت أقدامهم فلن يتخلوا أبداً عن خدمة الإسلام، بل يستمرون كالأبطال في الدعوة وإن كان القبض على الدين قبضاً على جمرة من النار.

---

[1] البخاري، الرقاق ١٠.

أجل، إن الدعوة إلى الله وإلى الرسول وإلى القرآن وإلى الدين الإسلامي وبعث الاطمئنان في القلوب الخالية منه وبعث فكرة الآخرة وجمالها في القلوب التي نسيت الآخرة ويئست منها، وإيقاد الشوق لرؤية جمال الله تعالى في الآخرة والتي تعدل دقيقة واحدة منها آلاف الأعوام من حياة الجنة.. كل هذا الأمر يمكن تلخيصه بكلمة حب الخير، وداخل ضمن "النصيحة" الواردة في حديث الرسول ﷺ من أن "الدين النصيحة". وكما ذكرنا فإن كلمة "النصوح" تعني المبالغة في حب الخير.

وعلى الإنسان أن يحب الخير أولاً لنفسه، وأن يحفظ أولاً نفسه من جميع الشرور والآثام. وحفظ النفس ركن من الأركان الخمسة للحقوق. لذا كان على الإنسان أن يحفظ نفسه من الخمر ومن الزنا ومن الكفر ومن الضلالة. وكل واحد من هذا له علاقة بأحد "الأصول الخمسة" أي على الإنسان أن يحفظ نفسه من أن يكون حطباً لجهنم. فإن عاش كحطب حشر كحطب، ومصير الحطب معروف، والقرآن الكريم يقول إنهم حطب جهنم. لذا كان على كل إنسان أن يكون ذا رغبة قوية في إرادة الخير لنفسه ولا يتم هذا إلا إذا كان حساساً ضد جميع الآثام. أما درجة إرادة الخير هذه فيجب أن تكون بحيث يكره أن يعود إلى الكفر وإلى الضلالة –بعد أن نجاه الله منهما– مثلما يكره أن يقذف في النار.

ومع كل هذا فقد تزل قدم الإنسان. في هذه الحالة ليس أمامه إلا العودة إلى عقله وضميره والقول "إنني لم أصل إلى هذا الوضع إلا لابتعادي عن الله، إذن فلا خلاص لي إلا بالرجوع إليه". يقول هذا ثم يجتهد في تقوية صلته بالله تعالى. وهذا الجهد يشكل جانباً من التوبة النصوح.

والجانب الآخر منها هو ألا يعود الإنسان إلى آثامه السابقة. لأن من يطلب الخير لنفسه لا يفعل هذا. فكما يتمنى الإنسان لأولاده الخير على الدوام ويرغب أن يكون مستقبلهم زاهراً، كذلك يجب أن يريد الخير لنفسه على الدوام. لذا عليه أن يحاول ألا يدخل إلى الأثم منذ البداية، وأن يعد ابتعاده عن الله تعالى جرماً كبيراً وهوة واسعة يصعب سدّها. إن فعل هذا كانت توبته توبة نصوحاً. والله تعالى يقول: ﴿تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ أي يقول للمؤمنين إنكم بإيمانكم تقفون على أرض آمنة، وبهذا الإيمان

استطعتم التفريق بين الأسود والأبيض وبين الخير والشر. لقد آمنتم بالله ووثقتم به واستندتم إليه، فإن زللتم أو انحرفتم لحظة عن الطريق فلا تقعوا في اليأس أبداً، لأن الله تعالى يغفر كل شيء عدا الشرك: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨). لذا يجب ألا تبقوا في الموضع الذي سقطتم فيه، بل عليكم الندم على زلتكم والتوجه إلى الله تعالى لكي تجدوا أنفسكم وترجعوا إليها، وهذه هي التوبة النصوح على ما أعتقد.

وللتوبة النصوح شروط منها:

١- إن كان الذنب متعلقاً بحق من حقوق العبد، فيجب إعطاء الحق إلى صاحبه أولا والاعتذار إليه وطلب العفو منه.

٢- عقد العزم على عدم العودة إلى الذنب نفسه مرة أخرى.

٣- يجب عدم إفساح فسحة من الوقت بين الذنب الذي تمت التوبة منه وبين ذنب ثان، أي يجب ألا تبقى الذنوب دون توبة -كلما كان ذلك ممكناً- ولو لمدة خمس دقائق.

والبعد الآخر للتوبة هو أن الذنب يجب أن يحدث ألماً في الروح ونفوراً في الضمير واشمئزازاً. لأن الإنسان إن اعتاد على اقتراف الذنوب و لم يشعر بألم تجاهها، فإنه إن تاب توبة بلسانه فقط فلا يعدّ هذا توبة بل تكون عبارة عن حركات آلية وعن تلفظ بعض العبارات الخالية من الفائدة. لأن التوبة عبارة عن ألم محض يحسُّهُ الضمير بحيث يجعل الإنسان يتلوى منه. أما التلفظ بالتوبة باللسان فيأتي بعد هذا الإحساس بالندم وبالألم، أي أن التوبة ليست إلا ترنّماً بالندم والألم، ولكن بشرط أن تتعلم كيفيته من صاحب الشريعة الرسول ﷺ فتقول: "استغفر الله العظيم الكريم الذي لا إله الا هو، توبة عبد ظالم لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً". وفي حديث عن رسول الله ﷺ أن على الذي ينوي التوبة أن يقوم ويصلي ركعتين، ثم يضع جبهته على الأرض قائلاً من كل قلبه "يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" أو أدعية مثل هذا الدعاء، أي القيام بالتعبيرعن ندمه بمثل هذه الأدعية.

وهناك دعاء مأثور عن الرسول ﷺ يطلق عليه "سيد الاستغفار" يدعى به صباحاً

ومساءً وهو: "اللّهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت". وقد أضاف بعض السلف "ياغفار، يا غفور" بعد كلمة "أنت" الواردة في الدعاء. ومع أن هذه الإضافة غير واردة في دعاء الرسول ﷺ إلا أن إضافة اسمين من أسماء الله الحسنى للشفاعة شيء جميل.

أجل، إن التوبة هي شعور القلب بالندم. وقيامنا بالاستغفار بهذه الأدعية وغيرها لا تكون مقبولة إلا مع هذا الشعور بالندم. لذا فإن قلنا بلساننا "أستغفر الله أستغفر الله العظيم الكريم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه" من دون إحساس وشعور مرافق لهذه الكلمات صادر من أعماق نفوسنا فإن استغفارنا يكون عبثاً. فعلى الإنسان في الأقل التعبير عن ذنوبه أمام الله تعالى تعبيراً صادقاً من ضميره. لأننا عندما نتوب لا نقوم بعمل هازل ولا بإجراء مراسيم ميتة ولا بفعالية فولكلورية، بل نقوم بإبداء شعور صادق بالندم أمام الله سبحانه وتعالى.

وأخيراً نود الإشارة إلى أن شعائر تجديد النكاح والإيمان التي يقوم بها البعض في المساجد لا أساس لها ولا تكسب الكلمات الواردة فيها المؤمن شيئاً. فموضوع مهم كموضوع النكاح القائم على قواعد جدية لا يفيد فيه أن نقول "إني أفكر في القيام بتجديد نكاحي وإيماني"، كما أن هذه الجملة معرضة للنقد من ناحية اللغة أيضاً، لأنه لا يقول صراحة أنه يريد التجديد، بل يقول إنه يفكر في هذا وربما قام به في المستقبل. وهذا -أعاذنا الله- تعبير خطر جدا. لأن الإنسان إن كان قد تلفظ بكلمة الكفر عن وعي أو دون وعي عليه أن يجدد إيمانه حالا ودون أي تأخير. والحل الوحيد لهذا هو التلفظ بكلمة الشهادة نابعة من أعماق قلبه فيقول "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"، وهذا لا يتحمل التأخير. ولا فائدة من إشغال المسلمين أو التسرية عنهم بأمور غير جدية. يجب أن نتوب توبة جدية، وأن نهتز من قلوبنا لكل خطأ أو زلة فنتوجه إلى الله، وأن نفعل كل هذا ضمن الإطار الذي رسمه لنا رسولنا ﷺ.

هل يمكن الاستفادة الشخصية من وسائل الإرشاد والتبليغ مع أن الآية الكريمة تضع قاعدة الاستغناء:﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾؟

هناك خمسة أنبياء كرام قالوا لقومهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ وهم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط عليهم السلام. وفي مواضع أخرى يعبر إبراهيم وموسى عليهما السلام عن هذا المعنى أيضاً. ولكن هذا التعبير أي ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ وارد في حق الأنبياء الخمسة المذكورين أعلاه. كما عبر الرجل الصالح "حبيب النجار" عن هذا المعنى في سورة "يس" عندما قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس:٢١). ويعبر نوح عليه السلام عن هذا المعنى أيضا في موضع أخر ولكن بكلمات أخرى. أي أن الأنبياء العظام عليهم السلام لا يسألون الناس أي أجر مقابل قيامهم بوظيفتهم في الدعوة إلى الله ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (يونس: ٧٢). إذن فهذا عهد ويمين أعطاه كل نبي لله تعالى، فهم لن يسألوا الناس – مقابل أدائهم لوظيفة النبوة– أي أجر أو نفع.

وعلى كل مرشد في أي عهد كان من العهود والذي أخذ على عاتقه مهمة التبليغ ونشر الحق الاقتداء بالأنبياء العظام. وعلى كل من يقوم بمهمة الوعظ والإرشاد ويقوم بزيارة القرى والقصبات الابتعاد عن قبول أي أجر أو منفعة مقابل خدماته في نشر الحق والحقيقة. أولاً لأن تأثير كلامه في الناس في يد الله تعالى. وقد ربط الله تعالى تأثير كلام هؤلاء بنسبة إخلاصهم وصدقهم وتضحيتهم وعدم انتظارهم أي شيء مقابل أدائهم لوظيفة الإرشاد. لذا كان كلام الأنبياء العظام والأصفياء مؤثراً. فإذا كان الكلام لا يؤثر كثيراً في أيامنا الحالية فلأنه لم يحز على بعض الشروط الضرورية.

أجل، فالله تعالى لا يجعل لكلام الذين يريدون استحصال أجورهم في الدنيا أي تأثير في النفوس. وهذه مسألة مهمة جداً. وهناك مسألة مهمة أخرى هي أن الذين يقومون بوظيفة الإرشاد والدعوة يجب أن يقتدوا بالأنبياء العظام ولا يأخذوا أجراً مقابل إرشادهم ونشرهم الحق. وهذا يجنبهم التعرض لانتقادات أهل الدنيا، لأن هؤلاء سيقولون "إن هؤلاء

يقومون بنشر الحق، ولكنهم يتمتعون بثمرات عملهم هذا في الوقت نفسه ويؤمنون عيشهم عن هذا الطريق". ألا ترون أن قارئ المواليد النبوية يتعرض للنقد وللغمز؟ لأنه ينشد مدح الرسول ﷺ ويعظم الله تعالى بكلماته، ولكنه يأخذ أجراً على ذلك. وكأنهم يقولون "لقد مدحتُ الله تعالى.. إذن أعطني مالاً". لذا فلا يؤثر كلامه ولا مدائحه في ضمير الشعب. وما دامت النية كسب المال فلن يكون له أي تأثير. ولكنك ترى في جانب آخر واعظاً مخلصاً صادقاً يبتغي وجه الله فقط ذا صوت ضعيف ولكنه يؤثر في سامعيه. فتأثيره متوقف على مدى استغنائه عن الناس عند قيامه بنشر الحق.

لذا فكم يتمنى القلب أن يلتفت القائمون بمهمة الدعوة إلى الله وبمهمة خدمة الإسلام والقرآن من جيش الدعاة والمثقفين إلى النعم الدنيوية أبدا، وأن يحافظوا على أنفسهم ويصونوها من كل دنس ومن كل شائبة وأن يكون الاستغناء عن الناس شعارهم، وأن يكتفوا بالكفاف وألا يتركوا عندما يرحلون عن الدنيا داراً ولا مالا. وعلى الدعاة ألا يحرصوا على إغناء أولادهم من بعدهم فلا يحرصوا على اقتناء الدور والأموال والأملاك، بل عليهم أن يعيشوا مستغنين عن الناس. وفي عصرنا الحالي عندما توفي أحد الدعاة الذين فتحوا عهد الدعوة هنا لم يجدوا عنده سوى ٢٥ قطعة نقود من فئة ٢٥ قرشاً... فما أحسنه من مثال، إذ علم الأصدقاء والأعداء وتأكدوا أن خدمة الإسلام ليس وراءها طمع في أي عرض من أعراض الدنيا.

أجل، إن على الدعاة أن يؤمّنوا قوت عيالهم ويعلموهم ليكونوا أصحاب مهنة أو وظيفة وأن يعملوا هذا في النطاق الضروري فقط، وألا يلتفتوا في مهمتهم المقدسة في نشر الحق إلى أي عرض من أعراض الدنيا، وأن يكونوا مستعدين على الدوام للتضحية حتى بالفيوضات المادية والمعنوية لكي يحافظوا على الثقة بهم. عليهم ألا يهتموا بحياتهم الشخصية، بل بإحياء النفوس. فإن فعلوا هذا لم تستطع الدنيا ولا إغراءات الدنيا الدخول إلى حياتهم ولا إلى خيالهم ولا تكون من آمالهم، وإلا فقدوا الثروة الحقيقية التي اكتسبوها، فلا يفلحوا بعد ذلك أبداً. والذين يركضون وراء الدنيا وهم يؤدون الخدمة الإسلامية ستكون عاقبتهم وخيمة وسيأخذ حتى عيالهم نصيبهم من هذه العاقبة.

على الدعاة إلى الله أن يعيشوا حياة ملؤها الإخلاص والاستغناء عن الناس بحيث يشهد الجميع حتى سكان الملأ الأعلى لهم بالإخلاص ويقولوا "هؤلاء هم المخلصون".

والذين لا يستطيعون سبق الدنيا والارتفاع عنها لا يستطيعون الارتفاع في الآخرة. والذين بقوا تحت ثقل الدنيا لا يستطيعون عبور العوائق الكبيرة أمامهم. والذين أثروا في الدنيا ظهروا على الدوام من بين الذين تجاوزوا أنفسهم وتخطوها وتجاوزوا الدنيا. فكم من بطل لم يخلف وراءه سوى جوادٍ وسيفٍ ورمحٍ. وعندما حضرت الوفاة خالد بن الوليد ﷺ وهو الذي قضى على إمبراطوريتين اثنتين وصرعهما قال: "لم أخلف ورائي سوى جوادي وسيفي". والحقيقة أنه يصعب فهم هؤلاء، لذا لا يملك الإنسان نفسه من القول لمثل هؤلاء "قل لي بالله عليك أأنت ملك أم صوفي أم درويش؟! قل لي من أنت؟"

أجل! إن رجلاً مثل خالد بن الوليد ﷺ الذي صرع إمبراطورية بيزنطة وإمبراطورية فارس لم يخلف وراءه سوى جواد وسيف، ولكنه يعيش منذ ذلك الحين في قلوبنا.

كخلاصة نستطيع القول إن الدعوة إلى الله مرتبطة مع صفة الاستغناء عن الناس ارتباطاً لا يمكن فصمه. لذا فعلى الدعاة المخلصين اليوم والمتجاوزين أهواء الدنيا وأعراضها من الذين شمّروا عن سواعدهم لنصرة القرآن الذي بقي وحيداً دون نصير منذ ثلاثة قرون أن يفكروا فقط في الرسول ﷺ الذي ينتظر جيل الفجر الجديد، وأن يأخذ هذا التفكير بمجامع قلوبهم بحيث لا يبقى هناك في هذه القلوب مكان لأي شيء آخر. إن الدنيا تنتظر عهداً جديداً، والذين يمثلون الآن دعوة الإسلام ودعوة القرآن يرنمون الآن ترنيمة بعث جديد. وما ذكرناه حتى الآن هو صفة واحدة فقط من صفات هؤلاء.

والجانب الآخر من هذه المسألة هو أن القائمين بأمور الدعوة والخدمة الإسلامية يجب ألا يربطوا معيشتهم بأمور هذه الخدمة. إن هذه الأمة أمة شهمة، وهي لن تدع العاملين المخلصين وحدهم، بل تعاونهم وتساعدهم، ولكن هؤلاء العاملين يجب أن يكونوا مستغنين وألا يطلبوا شيئاً، ولكن لا بأس من قيامهم بأخذ ما يكفي لأولادهم. وأنا أستند في هذا إلى ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ (التوبة: ٦٠).

فالعامل في سبيل خدمة المسلمين والذي يجمع الضرائب والزكاة له الحق في الاستفادة منها وإن كان شخصاً غنياً، لذا لا أرى هنا أي محظور عند قيامهم بأخذ ما يكفي لمعيشتهم. ولكن أكرر وأقول إن الأساس عند جنود الخدمة هو الاستغناء وعدم مدّ أيديهم إلى الناس أو انتظار شيء منهم. فهذا الأمر صفة من الصفات المهمة لهؤلاء الذين يريدون التهيئة للغد المرتقب.

لماذا خص النبي ﷺ بالبشارة بفتح إسطنبول من دون سائر المدن وبأن هذا الفتح سيتم على يد أجدادنا؟ هل يمكن تقديم إيضاح ديني وتاريخي حول هذا الأمر؟

لم تكن بشارات الرسول ﷺ خاصة بفتح اسطنبول فقط. فهناك إشارات إلى فتح "الفسطاط"، وهي المدينة التي بناها عمرو بن العاص ﷺ، ومدينة "القيروان" التي أنشأها عقبة بن نافع ﷺ، وهناك روايات حول فتح "البصرة" كذلك. ومع ذلك فلبشارة فتح إسطنبول موقع خاص ومتميز. وقد وردت هذه البشارة النبوية في المسند للإمام أحمد، وكذلك في المستدرك للحاكم وجاءت بالصيغة التالية: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».[1]

أصبحت "اسطنبول" بعد فتحها من قبل المسلمين ذات أهمية كبيرة للعالم الإسلامي، إذ أصبحت مركزا لانطلاق جيوش الفتح إلى جهات العالم الأربعة، وأصبحت عاصمة للدولة العالمية، وبلدة إسلامية مباركة أمام العالم الغربي. لذا فإن البشارة النبوية اكتسبت أهمية استثنائية لهذه الأسباب.

كانت المدينة المنورة في عهد الخلفاء الراشدين هي المركز وكانت جيوش الفتح تنطلق منها إلى أرجاء العالم. وحافظت على موقعها المتميز كمركز للثقافة وكمركز للفتح سنوات عديدة. لم تنـــزل المدينة عن موقعها المعنوي أبداً، ولكن كلما تغيرت جغرافية العالم الإسلامي وتوسعت انتقل مركز الدولة من بلدة إلى أخرى، فقامت دمشق أولاً ثم بغداد ثانياً بأداء هذه الوظيفة أمداً طويلاً. أما بعد فتح اسطنبول فقد أصبحت وظيفة المحافظة على مكة والمدينة ودمشق وبغداد على عاتقها. ليست المحافظة عليها فقط، بل رعايتها كذلك.

فكل عام كان محفل "الصرة" يخرج من اسطنبول حيث يشيعه السلطان راجلاً بنفسه

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤/٣٣٥.

حتى خارج المدينة، وكان هذا المحفل يحمل الهدايا الثمنية لأحفاد الرسول ﷺ أولاً ثم لأحفاد الصحابة ثم لجميع فقراء المدينة. وكانت الهدايا تحتوي على الذهب والفضة والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة وكذلك هدايا ثمينة أخرى. وهكذا كانت اسطنبول تعيش كل سنة لذة إهداء الهدايا إلى مدينة الرسول ﷺ وإلى مدن الصحابة رضوان الله عليهم.

لذا فبسبب هذه الخدمات الكبيرة التي ستقوم بها هذه المدينة كان الرسول ﷺ يبشر بهذه البشارة من وراء العصور ويتقبلها بقبول حسن. وأصبحت المدينة المنورة ودمشق وبغداد بعد فتح اسطنبول مثل أبوين يحظيان بمروءة ابنهما وشهامته، وكأن اسطنبول ابن بار يليق بمقام والديه. فنور الإسلام الذي ولد في المدينة وشع وتعمق في دمشق وبغداد انعكس في اسطنبول لينير ظلمات بلدان لم يصلها بعد هذا النور. لذا فمع تسليمنا بقدسية مكة والمدينة فإن لاسطنبول مكانة واضحة في خدمة هذه المدن وخدمة جميع العالم الإسلامي.

لقد تم بفتح اسطنبول انتهاء عصر وبداية عصر آخر في التاريخ[1]. فالجيوش الإسلامية التي توجهت نحو الغرب كانت تنطلق من اسطنبول. كما تم فتح بغداد أكثر من مرة من اسطنبول. وفي الفتح الأخير الذي تحقق في عهد السلطان مراد الرابع كان الجيش منطلقاً من اسطنبول حيث تم تأمين وحدة العالم الإسلامي مرة أخرى. لذا أصبحت اسطنبول لقيامها بمثل هذه الوظائف مدينة مباركة. كما استضافت –قبل فتحها من قبل المسلمين– أبا أيوب الأنصاري ﷺ وهو الصحابي الكريم الذي استضاف رسول الله ﷺ في بيته، وكان من أدلائه.

فانظروا إلى تجليات القدر كيف أتاح لاسطنبول استضافة من استضاف الرسول ﷺ في المدينة المنورة، فإن "محمد الفاتح" ما أن فتح اسطنبول حتى قام بالبحث عن مثوى هذا الصحابي الكريم قبل قيامه ببناء جامع الفاتح وقبل تحويله أياصوفيا إلى جامع وقبل المباشرة بخططه التي وضعها لاسطنبول، لذا أوعز إلى الولي الكبير أق شمس الدين الذي كان مظهراً لسر ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ (ق:٢٢) في الدنيا بمهمة البحث قائلاً له:

---

[1] يعد فتح إسطنبول سنة ١٤٥٣ نهاية القرون الوسطى وبداية العصور الحديثة، أي بداية عصر النهضة. (المترجم)

"ابحث لي عن مثوى هذا الصحابي الكريم الذي استضاف الرسول ﷺ. فلم يلبث أن وجده، فقام محمد الفاتح ببناء جامع من أجمل جوامع العالم الإسلامي بالقرب من قبر هذا الصحابي.

وهكذا فإن اسطنبول تحتفظ بأمانة ثمينة وقيمة ومهمة للرسول ﷺ، وأصبحت رمزاً للجهاد بسبب هذا الصحابي الذي جاء إليها مجاهداً. فكم من جيش مجاهد انطلق منها، وكم من فتح كانت اسطنبول مركز انطلاق له. فإن كانت خيولنا تلعب وتسرح في تلك العهود في ثلاث قارات، فقد فعلنا ذلك بالجيوش المنطلقة من اسطنبول. وقد استنبط بعض علمائنا بحساب الحروف اسم هذه المدينة من الآية الكريمة ﴿بلدة طيبة﴾ فأطلقوا عليها اسم "البلدة الطاهرة". صحيح إنهم ذكروا ذلك لمدينة "صنعاء" أولاً إلا أنه لا يمنع أن تكون مكة والمدينة واسطنبول مقصودة منها كذلك. فهذه البلدة الجميلة من الناحية المادية والمعنوية والتي تحتضن مراقد العديد من الصحابة والأولياء بلدة مباركة، ونأمل أنها ستستمر في الاحتفاظ بمقامها المبارك. فإن لم تكن محتفظة به فنحن نأمل أن تصل في يوم من الأيام إلى هذا المقام ويهبّ عليها من جديد النسيم المحمدي المبارك.

والنبي ﷺ يشير إلى فتح ثان لاسطنبول، أي أن إنساننا الذي هرب من ذاته وماهيته وروحه سيرجع يوماً إلى هويته الأصلية وإلى ذاته وروحه ويرتفع إلى حياة القلب والروح ويقوي صلته بالله تعالى، فهذه هي بشارة الرسولﷺ. ونحن نترقب ذلك اليوم الذي سيكون فيه فتح جديد. ورسولنا ﷺ يشير إلى علاقة معينة بين اسطنبول وبين الدجال. وعندما يحين ذلك اليوم ستنكشف هذه العلاقة بحيث يراها الجميع. ومن يدري فلعل هناك حكماً وأسراراً أخرى رآها وعلمها الرسول ﷺ في حق اسطنبول الأمر الذي جعله يشير الى فتحها ويثني على الجيش الفاتح وقائده قبل عصور عديدة.

لماذا كانت مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء؟

الصدّيق هو الشخص الذي يقوم بالتصديق وكذلك هو الشخص الصادق. أما معنى الشهيد فهو الشخص الحاضر والشاهد. ولعل هذه الكلمة أطلقت على الشهيد لكونه في حضور الله تعالى يعيش حياة قريبة من الحياة الدنيوية. وكلتا المرتبتين من المراتب العليا عند الله تعالى.

لقد تسابق المؤمنون منذ عصور مع بعضهم البعض من أجل هاتين المرتبتين. ووصل الكثيرون إلى مرتبة الشهادة ولا سيما في عهد الصحابة. وقد استشهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة العظام، بينما وصل الرابع إلى الدرجة العظمى لمرتبة الصديقية. والآن لنذكر هنا الأمر النسبي في هذا الموضوع، ثم نبحث عن خصائص هاتين المرتبتين، وهي خصائص تذكي الأشواق في القلوب إليها.

كل إنسان له نصيب في الصدق وفي مرتبة الصديقية حسب مستواه. وهناك أنواع عديدة من الموت تكسب الإنسان مرتبة الشهادة حسب العديد من الأحاديث النبوية. ولكن لكل من هاتين المرتبتين درجة عليا ودرجة قصوى تشكل الحدود النهائية لهما، أي لا يمكن تجاوزها، لأنه لا يوجد وراءها سوى مرتبة النبوة. مثلما توجد درجات في الشجرة بدءاً من البذرة وانتهاء إلى الثمرة، كذلك هنالك درجات مختلفة للإيمان. ومرتبة الصديقية والشهادة تشكلان قفزات كبيرة بين هذه الدرجات، ولهما أبعاد مهمة أخرى.

وكل إنسان أقر وقبل الإسلام بلسانه وصدق به بقلبه يعد قد دخل من باب الصديقية بوجه من الوجوه لوجود تصديق قلبي هنا. ومجرد الدخول من عتبة هذا الباب يكسب الإنسان سعادة كبيرة. لذا فقد ورد في حديث رواه البخاري ومسلم أن لله ملائكة طوّافون بمجالس الذكر. والذكر هنا لا ينحصر في تسبيح الله، بل هو كل مجلس يتم فيه مذاكرة مسائل الألوهية والربوبية ومسائل التفكر والتأمل في صنع الله تعالى، بل يوجد في مثل هذا المجلس ذكر وتفكر وشكر. لذا يجب فهم موضوع الذكر بشكل واسع وشامل. وقد ورد في حديث نبوي شريف:

«إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضُلا يتتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكرٌ قعدوا معهم وحفّ بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا. فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. فيسألهم الله ﷻ وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أيْ رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟! قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك. فيقول: قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. فيقولون: ربِّ فيهم فلان عبدٌ خطّاء إنما مر فجلس معهم. فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يَشقى بهم جليسهم».[1]

وهكذا فالإنسان الذي دخل إلى الإسلام بكلمة التوحيد مهما كانت درجته ومرتبته فهو قد دخل ضمن جماعة، وهذا درجة من درجات الصديقية، لأننا نرى هنا نوعاً من الإخلاص والارتباط وإن كان من درجة عامية. ولكن هناك أيضا درجة عليا ودرجة قصوى لهذه المرتبة يشغلها أبو بكر الصديق. وهناك حادثة تروى عن سبب إطلاق هذه الصفة عليه:

عندما قام الرسول ﷺ بإخبار مشركي مكة بحادثة الإسراء والمعراج أسرع بعض المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه فإخبروه أن محمدا ﷺ يقول كذا وكذا فقال: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: والله إنه ليقوله. فقال: إن كان قاله فقد صدق.[2]

كان أبو بكر رضي الله عنه أكبر مصدق لأكبر دعوى، ووصل في مرتبة الصديقية إلى حدودها النهائية التي لا يوجد وراءها شيء سوى مرتبة النبوة. وكل إنسان يأخذ مكانه حسب مرتبة إيمانه وراء أبي بكر رضي الله عنه، وهذا لا يتم إلا بالانتقال من "علم اليقين" إلى "عين اليقين" ثم إلى "حق اليقين". ومن وسائل هذا الانتقال التفكر في الآيات التكوينية وتأملها بقلب حاضر.

---

[1] البخاري، الدعوات ٦٦؛ مسلم، الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ٢٥.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/ ١١١.

وكما ذكرنا سابقاً فإن الشهادة أيضا مراتب. فإن تهدمت بناية ومات تحتها بعض الناس فإن المؤمن منهم يُعد شهيداً. ومع أنه لا يعامل في الدنيا معاملة شهيد إلا أنه يعد شهيداً ويدخل ضمن الذين لهم حق الشفاعة في الآخرة. ويدخل ضمن هذا الأمر من مات من الوباء والطاعون أو من وجع البطن وأشباه هذه الأمراض.

كما ورد في الأحاديث أن من مات غريقاً دخل ضمن هؤلاء الشهداء. وهذا يدل على أن بعض الحوادث ترفع الإنسان إلى بعض مراتب الشهادة. غير أن هناك ذروة هذه المرتبة وهي للذين يضحون بأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله. وهناك روايات عديدة تذكر بأن من يعمل صباح مساء في سبيل إعلاء الدين ويدعو الله تعالى مخلصاً أن يرزقه الشهادة يحوز على مرتبة الشهيد وإن مات مرتاحاً في فراشه.

وأنا أظن أن عمر بن الخطاب ﵁ هو الذي يمسك بكسوة مرتبة الشهادة إلى جانب مرتبة الفاروقية. فهو الشخص الموجود في ذروة هذه المرتبة، وقد طلب الشهادة طوال عمره وذرف الدموع خوفاً وخشية من عدم الوصول إليها. فبعد وفاة أبي بكر ﵁ بدأ عمر بن الخطاب ﵁ بإلقاء خطب الجمعة وبين في بعضها هذه الخشية. كانت كل خطبة من خطب عمر ﵁ حدثاً مهماً، حتى أن عبدالله بن عباس ﵁ (علاّمة الأمة الذي دعا له الرسول ﷺ قائلاً: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) عندما كان يسمع وهو في مكة أن أمير المؤمنين عمر ﵁ سيلقي خطبة الجمعة يشدّ الرحال وسافر إلى المدينة كي يسمع خطبته. وكان معظم هذه الخطب يتم كتابتها من قبل بعض المستمعين، لذا ففي أيدينا اليوم خطب عديدة له يستنبط منها العلماء والفقهاء أموراً كثيرة.

في خطبة من هذه الخطب قام عمر ﵁ بالحديث عن النبوة، وذكر الصفات العالية للنبي ﷺ ثم التفت إلى مرقد الرسول ﷺ قائلاً: "هنيئا لك يا صاحب هذا القبر!"

أجل، نحن أيضا نطلب الشهادة لأنفسنا، ذلك لأن الله تعالى عندما يعطي بكرمه الواسع لا يعطي حسب اللياقة بل حسب الحاجة. ولأننا محتاجون وندق أبواب كرمه بفقرنا وحاجتنا فإنه لن يرجعنا خائبين، لأنه لم يرجع أحداً دقّ بابه خائباً. أجل! لقد طلب عمر ﵁ الشهادة بشوق، فأعطاه الله هذه الشهادة من أعلى رتبها، إذ استشهد على يد مجوسي إيراني. كان الوقت صباحاً، وكان عمر ﵁ واقفاً في المحراب. وعندما

هم بالسجود انغرس الخنجر الخائن في صدره. والآن لنضع هذه الحادثة في صورها الكاملة:

أولاً، رغبة قوية وشوق.. ثم صلاة من نوع ومستوى صلاة عمر ﷺ الذي كان كثيراً ما يجهش بالبكاء فيها حتى ما يستبين أحد ما يقرأ.. أو تنحل عرى ساقيه فيتهاوى إلى الأرض في الصلاة. وفكروا في سجدة في مثل هذه الصلاة.. السجدة التي يكون فيها العبد أقرب ما يكون إلى ربّه.. في هذه اللحظة التي تجمعت وكملت جميع الشروط التي تهيء الإنسان إلى أعلى ذروة تكفي ضربة خنجر لكي تسمو به إلى ذروة الشهادة. كان الله تعالى قد قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، كان عمر قد سجد، ثم اقترب إلى الحد الذي تصل إليه طاقة إنسان غير نبي، لأن خطوة أخرى وراء هذا الحد تدخل في ساحة النبوة. وإلى هذا يشير النبي ﷺ عندما قال: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب».[1]

تحت هذه الذروة لمرتبة الشهادة هناك مراتب كثيرة أدنى من الشهادة تندرج نحو الأسفل. فالذين استشهدوا في "بدر" وفي "أحد" وفي "مؤتة" وفي "جناق قلعة" وفي طرابلس أو في أفغانستان ضد الروس أو الفلسطينين الذين يستشهدون اليوم في كفاحهم ضد الظلم اليهودي.. كل شهيد من هؤلاء الشهداء يشغل مرتبة من مراتب الشهادة هذه.

كما استشهد من الخلفاء الراشدين العظام عثمان وعلي رضي الله عنهما إذ استشهد أحدهما وهو يقرأ القرآن، واستشهد الآخر وهو في طريقه إلى المسجد. ويمكن تقييم الفرق بينهم بالوضع الأخير لكل منهم. لذا فإن علي بن أبي طالب ﷺ بوضعه الخاص كان عظيماً إلى درجة لا يمكن قياس أحد به. فهو الذي كان يمثل آل البيت. وبهذا الفضل الخاص كان أكبرهم جميعاً. ولكن إن أخذنا الفضل العام بنظر الاعتبار كان أبو بكر ﷺ هو الأول وكان عمر ﷺ هو الثاني.

ومع أنني لا أملك دليلاً موثوقاً على قيام الشهيد بالشفاعة للشهداء، وعلى قيام الصديق بالشفاعة للصديقين إلا أن قلبي يحدثني بأن هذا كائن. ثم يقوم هؤلاء بالشفاعة لأقربائهم ثم لمعارفهم. أما الذين يملكون هاتين المرتبتين معاً فالمأمول أن يشفع لهم الرسول ﷺ مباشرة.

---

[1] الترمذي، المناقب ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١٥٤.

أما القيام بالحديث عن الأسرار التي تحف بهذه المراتب فيتجاوز طاقة شخص مثلي، ذلك لأنه لا يمكن لمثلي أن يشرح حال هؤلاء الذين وصلوا إلى ذروة هذه المرتبة، ولا يمكن للآخرين فهم حالهم. لا أقول بأن كل مرتبة من مراتب الصديقية أفضل من كل مرتبة من مراتب الشهادة. فالتفاضل بينهما إنما يكون في ذروة كل منهما. ففي ذروة الأولى يوجد أبوبكر ﵁، وفي ذروة الثانية يوجد عمر ﵁.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (التوبة: ٤١) ولكننا لا نستطيع بذل ما بوسعنا، فما السبب في هذا؟

هناك آيات عديدة في القرآن الكريم تحض على بذل الأموال والأنفس في سبيل الله. وهناك أوامر عديدة صريحة أو غير صريحة في القرآن تهدف إلى تنظيم حياتنا الخاصة وحياتنا العائلية ضمن إطار الإسلام، وكذلك لتأمين الحياة الإسلامية في المجتمع الإسلامي ولسيادة الروح الإسلامي واستشعاره في البلد بأجمعه. والحقيقة أنه ما لم تتم سيادة مثل هذا الروح وهذا الشعور نستطيع أن نقول إنه لا يمكن لإنسان أن يعيش بشكل صحيح وكامل كمسلم.

إن الحياة الإسلامية تعرضت -ولا سيما في أيامنا الحالية- لضربات قوية تضعضعت مؤسساتها من قواعدها. هذا مع العلم بأن علماء الاجتماع المسلمين متفقون أنه لا يمكن عيش الإسلام الصحيح إلا في مجتمع إسلامي. فإن لم تكن السوق منتظمة حسب المبدأ الإسلامي، واذا لم تكن المؤسسات التربوية -التي تحاول رفع الإنسان إلى مستوى الإنسانية- تأخذ بيدك ضمن نفس الروح والشعور، ولا تسرع إلى نجدتك ولا تنير الطريق أمامك ولا ترشدك فإنك لا بد أن تتعثر بعد بضع خطوات أو تضل أو تنحرف أو تسقط وتضطر إلى إعطاء تنازلات كثيرة باسم الإسلام.

والنتيجة هي أنك لن تتوفق في العيش كمسلم بشكل تام وغير ناقص، لأن المجتمع سيقوم بقطع الطريق أمامك في بعض الأمور، وسيقطع الشارع في مثل هذا المجتمع الطريق أمامك. والأسوأ من كل هذا أن التربية الخاطئة ستقف أمامك كوحش وتقطع عليك الطريق. لذا فإن السبيل الوحيد للعيش كمسلم لا يتم إلا بتطبيق الوازع الديني بشكل جدي. ولا يكمل الوازع الديني إلا بتنبيه وإيقاظ القلوب وإيصال الدين وتبليغه للناس وإفهامهم أن الإنسان مسافر وضيف في هذه الدنيا، وأن هذه الدنيا ليست إلا عالماً واحداً من العوالم الكثيرة التي سيمر بها الإنسان، وأنه كما جاء إلى هذه الدنيا

فسيرحل عنها إلى دار القرار. أجل، يجب تذكير الإنسان بهذا وتنمية الوازع الروحي والديني في قلبه كي يستطيع القيام بوظيفة الجهاد بالنفس وبالمال.

لا تحتاج القلوب الظامئة إلى كلام كثير في هذا الموضوع. ونستطيع أن نقول إنه يوجد اليوم -بفضل الله- من المسلمين المضحين من يستحق أن يأخذ مكانه خلف الصحابة الكرام. نذكر فضل الله هذا ونعمته وننحني بخشوع وخضوع أمام حضور كبريائه. ذلك لأنه في عهد الجفاف هذا الذي لا تنبت فيه الأرض نبتة ولا تمطر السماء قطرة واحدة نرى أن الله تعالى ربط بفضله وكرمه كل هذه القلوب المترعة بالإيمان وبعشق الدعوة من جديد بالإسلام وبالقرآن، وأرجع أمة كاملة إلى الإسلام، وقلب هذه الصحراء القاحلة إلى بساتين مزهرة وإلى جنات وارفة الظلال، فله الحمد حمداً يليق بجلاله وعظمته.

وأنا أحس أن هذا السؤال الصادر من القلوب المتحمسة يستتر تحته السؤال الآتي: كيف نستطيع إثارة الرأي العام وعاطفته وإحساسه لكي يجاهد بماله ونفسه في سبيل خدمة الإسلام؟ كيف نستطيع هذا لكي نقطع نفق الزمن الذي نعيشه بسرعة أكبر ولكي نقطع البراري والصحارى والجبال الشامخة والوديان العميقة المملوءة دماً ودمعاً قبل أن تحس بنا الأعين الخائنة في الداخل وفي الخارج والتي ترصد وتراقب كل ما يهم المسلمين، وتحاول عرقلة كل شيء إيجابي ومفيد لهم.. هذه الأعين التي وصفها القرآن الكريم بـــ﴿خَائِنَةَ الأعْيُنِ﴾ (المؤمن:١٩). وإلا فإن الدنيا بأجمعها ستقف أمام المسلمين الذين يسيرون بين عوائق وموانع عديدة، ولن يستطيع المسلمون قطع طريق سنة واحدة إلا في عشر سنوات.

ثم إن قام المسلمون بتنبيه وإثارة الكفر فلن يستطيعوا أبداً الوصول إلى هدفهم. لذا كان على المسلمين تناول هذه المسألة وإنجازها بسرعة أكبر. مثلاً لنفرض أن المسلمين يستطيعون بالإمكانيات الموجودة في أيديهم فتح مدرسة واحدة في سنة واحدة لتربية جيلنا وتوجيهه. فإن عليهم أن يضغطوا على أنفسهم فيفتحوا مدرستين في سنة واحدة. وهذه عملية ضرورية في عملية إحياء الأجيال القادمة، أي إحياء العهود القادمة. فإن لم نقم بعمل ما يجب القيام به نحو إنساننا الحالي بشكل صحيح فلن نستطيع غداً القيام بأي

شيء حتى لو بقينا محتفظين بقوتنا كما هي الآن، لأن الموانع أمامنا في الغد ستكون أكبر وأشد وأقوى. لذا لن نستطيع تجاوزها والتغلب عليها.

لذا نرى أن الصحابة الكرام قاموا في ظرف ثلاثين سنة بفتح بلدان واسعة ووضعها تحت قيادة الرسول ﷺ ومنهجه. هذه البلدان كانت تعادل تقريباً من ناحية الكم والكيف ما تم فتحه من البلدان في عهد الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين. وإذا أردتم التأكد من هذا فألقوا نظرة إلى خريطة العالم. فمثل هذه المساحة الواسعة الشاسعة تم فتحها في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة. وهو أمر لا يمكن إيضاحه وتفسيره، بل يمكن القول إنه تم الوصول إلى مثل هذا الفتح في عهد الخليفة عثمان ﷺ.

هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر فهو أن هذه الفتوحات لم تتم بشكل استبدادي وقهري، فلم يتم إكراه القلوب. بل فتحت القلوب بجمال الإسلام وكونه مطابقاً للفطرة وللعقل. لذا فإن الإسلام انتشر انتشاراً كبيراً وسريعاً في جميع الأماكن التي وصل إليها الصحابة الكرام، وأعقب عهد الانتشار هذا عهد العلم والعرفان. وما تم عمله آنذاك لا يزال يذهل العالم.

وقد يقول قائل وما الفائدة من إعجاب العالم بذلك العهد. ونقول إن ذلك كان عنوان فضل وفضيلة، وأن الجميع –حتى الأعداء– يعترفون بذلك. إن الآثار الثقافية والحضارية التي تم إيصالها إلى الشعوب، والتمثيل الجيد للإسلام كان من أهم أسباب انجذاب الناس إلى الإسلام. فإن كان في هذه البلدان تواصل مع الإسلام فإن الفضل يعود إلى تلك البذور التي بذرتها تلك الأيدي المباركة والنورانية.

وأنا أعتقد أن هذه المسألة مهمة جداً. فالإنسان لا يملك نفسه من الإعجاب الشديد بمدى الإخلاص الذي كان الصحابة ﷺ يتمتعون به. فقد نظموا الأزمنة التي يجب فيها التضحية بأموالهم وأنفسهم تنظيماً جيداً. فمثلا عندما قيل لهم يوماً "يجب عليكم ترك مكة" تركوها دون أن يلتفتوا إلى أطفالهم الباكين وراءهم أو إلى أموالهم ومواشيهم. لقد كانوا يتمتعون بروح إبراهيمية وفهم إبراهيمي، لذا تركوا حتى زوجاتهم ونساءهم. فلو قيل لأبي بكر ﷺ لماذا هاجرت دون أن تلتفت وراءك؟ لقال لهم: إنني إنسان، لذا ربما أثرت فيّ توسلات عائشة وهي تناديني وتقول: ابتاه!.. ابتاه... لو فعلت هذا لقيل لي

آنذاك: يا أبا بكر لا يسع قلب واحد حُبين. عند ذلك كنت أقول: إذن فخذ أحدهما.

بمثل هذه الروحية نظموا أيامهم وأوقاتهم وزمانهم. وعندما جاء يوم التضحية لم يترددوا في التضحية بكل شيء، وقاموا بعمل ما يجب عليهم على الوجه الصحيح. وقد أنعم الله عليهم فيما بعد من الناحية المادية والمعنوية بأضعاف ما ضحوا به آنذاك. كان المهاجر المكي قد ترك أمواله وأملاكه في مكة، ولكن ما أن مرت عليه في المدينة بضع سنوات حتى أعطاهم الله أضعاف ما تركوا. فمثلاً بعد أن هاجر عثمان ﷺ وترك كل شيء في مكة حتى زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ اغتنى في المدينة إلى درجة أنه جهز (٣٠٠) بعيراً مع أرزاقها لـــ"جيش العسرة" الذي توجه إلى تبوك. وقد يصعب على العقول فهم كيف استطاع عثمان ﷺ في تلك المدة القصيرة تكوين مثل هذه الثروة الضخمة، ولكنه كان مظهراً لقوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام:١٦٠). والحقيقة أن هذا العطاء هو الحد الأدنى، وإلا فإن الله تعالى قد يعطي مئة أو الف ضعف. أجل، لقد أعطوا عندما جاء الوقت المناسب كل ما يجب إعطاءه، فحصلوا من قبل الله تعالى على أضعاف ما أعطوا. ويوجد اليوم من المؤمنين من يقول "أنفقوا في سبيل الله، فإن لم يعطكم عشرة أضعاف ما أعطيتم فسأقوم أنا بإعطائه".

ولو كان لدى أبي بكر أو عمر رضي عنهما أي ميل إلى الدنيا، لكان في مقدورهم أن يصبحوا فيما بعد من أغنى الأغنياء في العالم. ولكن لم يرد أي منهما الانحراف عن طريق رسول الله ﷺ أو الافتراق عنه. فما كانوا يحصلون عليه بيد، كانوا ينفقونه باليد الأخرى ويتصدقون به. وهكذا كان ينفد ما يأتي إليهم. وإلا فقد كان هناك من الصحابة الأغنياء أمثال عبد الرحمن بن عوف ﷺ من يقول: "نحن لا نستطيع إحصاء ثروتنا". ومثلاً أنس بن مالك ﷺ الذي شبّ في بيت الرسول ﷺ ونال دعاء النبي ﷺ له، ففي رواية عن أنس بن مالك ﷺ عن أم سليم أنها قالت: يارسول الله خادمك أنس ادع الله له. فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته».[1] كان أنس ﷺ في العاشرة من عمره عندما دخل في خدمة النبي ﷺ. وعندما أغمض الرسول ﷺ عينيه عن هذه الدنيا الفانية كان في العشرين من عمره. وأصبح من الأغنياء في عهد الخلفاء، حتى

---

[1] البخاري، الدعوات ١٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٤١.

أنه قال مرة إنه لا يعرف عدد أغنامه من كثرتها ولا أمواله.

إذن كان هذا هو درجة فضل الله تعالى عليه. لقد أعطوا وضحّوا عندما حان حين العطاء والتضحية، ثم عندما آن الأوان حصلوا على الثمرات الدنيوية والأخروية. فكما تنقل البذور الموجودة في المخزن وتبذر جميعها في الأرض في موسم الربيع، وعندما يحين الأوان تقوم الأرض بإرجاعها سنابل عديدة، كذلك يجب على الإنسان أن يتحول بكل كيانه إلى بذرة تبذر في الأرض، عند ذلك سنرى أن كل بذرة ستنشق عن سبع أو عشر سنابل، في كل سنبلة مئة حبّة كما جاء في القرآن الكريم. عندئذ سيذهل الجميع من كثرة فضل وعطاء الله تعالى، حتى الزرّاع سيصيبهم الانبهار والدهشة. بينما يصاب البعض بالغيظ ويظهر سر الآية الكريمة ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ (الفتح:٢٩).

إذن عليكم أن تقولوا "هذا موسم الربيع"، تقولون هذا دون أن تقصروا في البذل وفي العطاء. ولن تقولوا "ألا يكفي هذا الإنفاق الذي أنفقته؟" إلا إذا وقف أمامكم من يقول لكم "كلا، يجب ألا تبالغ مثل هذه المبالغة في الإنفاق". أي لا تنفق كل هذا الإنفاق اليوم، لأنه سيحين في المستقبل أوان الإنفاق أيضاً. فلو لم نحسب حساب الإنفاق في المستقبل لقلنا لكم "أنفقوا اليوم كل ما تستطيعون إنفاقه". وإذا أتينا إلى سؤال "حسناً! وماذا عن المستقبل؟" قلنا إن الغد في ضمانة الله تعالى.. فالشيء المناسب لنا هو التحلي بالروح الإبراهيمي الخليلي، أي كما ترك إبراهيم الخليل عليه السلام زوجته وابنه وذهب دون أن ينظر خلفه، فهذا هو ما يليق بنا. والرسول ﷺ يقول: «لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي».[1]

هكذا أحرز أبو بكر رضي الله عنه هذه المرتبة الرفيعة. فكما كان إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، كذلك كان أبو بكر رضي الله عنه خليل رسول الله ﷺ. عندما سأل الرسول ﷺ أبا بكر "يا أبا بكر! ماذا أبقيت لأهلك وعيالك؟" أجابه أبو بكر "أبقيت لهم الله ورسوله". هذا هو الجواب اللائق بمن حاز مرتبة الصديقية. وهذا الجواب من الصديق الأكبر تعبير عن تقييم الزمان تقييماً جيداً.

---

[1] البخاري، فضائل اصحاب النبي ٥.

والذي نفهمه من الآية الكريمة ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (التوبة:٤١) هو وجوب تقييم الزمان بهذا التقييم الجيد. ولو قام أحدهم بتسجيل صور الكرم والبطولة للمؤمنين الحاليين على غرار ما قام "الفردوسي" في كتابه "الشاهنامة" المؤلف من ستين ألف بيت شعر لاحتاج إلى تسطير ستين مليون بيت لكي يوفي هؤلاء المؤمنين حقهم في الشهامة والكرم. ندعو من الله تعالى أن يزيد من كرم ومن سخاء هؤلاء المؤمنين أضعافاً مضاعفة. فنحن الآن نعيش موسم ربيع هذا العمل، والزهور متفتحة حوالينا، أي هو الموسم الذي انتظرناه. فعلى الشباب الأن في كل مكان أداء الواجبات الملقاة على عاتقهم، لذا فإنهم كلما حاموا حول الفكرة التي بذر بذورها ذلك المؤمن العملاق[1] زاد فرح ذلك المؤمن العملاق في مكانه، وربما قال "لقد جاء هؤلاء الشباب إليّ بهدايا الربيع، وأنا أقابلهم الآن بالكلام الذي سبق وأن وعدهم به، فأقول هنيئاً لكم".

هذا هو الموقف الحالي كما أظن. وأنا عاجز عن تصوير مدى القبول الذي سيناله مثل هذه التضحية والكرم والشهامة من قبل رب العالمين ومن قبل رسول الله ﷺ ومن قبل العلماء العظام الذين أناروا لنا الطريق، وعن القبول والرضى الذي سيسري في عالم الروحانيين. أنا عاجز عن هذا التصوير وأدعه لكم ولقوة تصوركم.

الجانب الآخر من هذه المسألة هو كيف نستطيع أن نكافح بأموالنا وأنفسنا. وهذا الجانب مرتبط قبل كل شيء بالإيمان وبالثقة، ذلك لأن المزارعين إن اطمأنوا ووثقوا بأن البذور التي يبذرونها في الأرض سوف لن تتفسخ هناك فإنهم لا يترددون أبداً في بذر كل البذور التي يملكونها في التربة ثم يبدأون بالانتظار. ولو أطمأن أصحاب البساتين بأن الفسائل التي يزرعونها سوف تنمو وتبسق فلن يترددوا أبداً في زراعة جميع الفسائل التي يملكونها دون إهمال أو ترك فسيلة واحدة. والذين يملكون أجهزة تفريخ البيض سيقومون باستعمال هذا البيض في تلك الأجهزة أو يضعونه تحت الدجاج لكي لا يفسد. ولكن إن لم تكن ثقة هؤلاء الأشخاص بهذا المستوى، وشكوا بأن بعض البذور ستفسد وبعض

[1] المقصود هو بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٦- ١٩٦٠) رائد الحركة الإسلامية في العصر الحديث في تركيا ومؤسس حركة طلاب النور. (المترجم)

البيض لن ينتج الفراخ، أو ظنوا بأن ذلك الموسم غير صالح لبذر البذور، فمن الطبيعي أنهم لن يبذروا كل بذورهم، بل يبقون مقداراً منها في إيديهم، وسيقومون بكنـــز أموالهم ليبقى قسم منها لأحفادهم، لذا لن يتصرفوا بسخاء وبكرم.

من هذا المنطلق نستطيع القول بأن التضحية في سبيل الله مرتبطة بمقدار ثقتنا بالله تعالى وإيماننا به. فلو آمنا بأنه موجود مثل إيماننا بوجودنا، ولو آمنا بأن أي شيء نعمله في سبيله سيرجع إلينا أضعافاً مضاعفة، وأنه سيزهر وسيثمر في العالم الآخر مصداقاً لقول الرسول ﷺ "الدنيا مزرعة الآخرة".. لو آمنا بأن الدنيا مزرعة الآخرة وبستانها وحديقتها لما قصرنا أبداً في التضحية وفي البذل.

أجل، فما نقدمه من عمل ومن تضحية ومن كرم وبذل مرتبط بمدى إيماننا وبقوة هذا الإيمان. وما بذله المسلمون حتى الآن من سخاء وكرم يزيد من أملنا في أنهم يستطيعون إنجاز أعمال أكبر. وكما تعلمون فإن هناك بشارات من الصادق الأمين ﷺ، فلنسع جميعاً لأن نكون مظهراً لهذه البشارات حتى يتحدث أهل السماء ويقولوا "يا رسول الله! أهؤلاء هم الذين عنيتهم؟" أجل فكلما بذل خدام الإسلام مما يملكون وكلما زادت شهامتهم وتضحياتهم في هذا السبيل كما اقتربنا من الهدف المرسوم بسرعة أكبر وبصورة أفضل.

كيف يمكن أن نكون جنداً لله تعالى؟ أيمكنكم شرح هذا ضمن إطار الجندية؟

الجندية أهم خاصية للمؤمن. فنحن جند الله تعالى، نرجو من الله قبول هذا منّا. فطوبى لنا إن كنا جنوداً له تعالى بحيث نضع جباهنا وراء عتبة بابه ننتظر هناك إلى الأبد. ندق أحياناً بابه مصوبين بصرنا الحزين -ولكن المملوء أملاً أيضا- إلى اللانهاية ننتظر منه الجواب. فإن لم يأتِ هذا الجواب قلنا "يا صبور" وبقينا ننتظر دون ملل. وفي أثناء هذا الانتظار الطويل إن بدا أن الباب ينفرج قليلاً ثم ينسد في وجوهنا مرة أخرى قلنا "لم يتم استدعاؤنا هذه المرة أيضاً، إذن فلم نظهر بعد لياقتنا" وداومنا على الانتظار المؤلم، ولكن بعاطفة ملؤها الإخلاص، وكأن شيئاً لم يحدث. ولكن ونتيجة لهذا الإخلاص نأمل أن يأتي يوم وتأتي النتيجة على غير توقع منّا وينفتح لنا الباب قائلين لنا "لقد أظهرتم لياقتكم، فتفضلوا". يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، أي يقول بأنني لن أنقض العهد الموجود بيننا أبداً. فإن كان هناك من ينقض هذا العهد فهو أنتم. إذن فاثبتوا في هذا الموضوع ولا تنقضوا العهد والميثاق لكي ينفتح لكم باب الله تعالى يوماً ما.

ولكن لنسائل أنفسنا هل قمنا بالمحافظة على هذا العهد بهذا المقياس من الإخلاص والوفاء؟ وهل استطعنا المداومة على الانتظار على بابه صارين على أسناننا دون ملل ولا كلل ولا ضجر؟ أم هجم علينا اليأس، لأن الباب أغلق مرة في وجوهنا؟ وهل تخلينا عن الإخلاص لأن الحوادث في الكون لم تجر على هوانا ووفق توقعاتنا؟ ولكن كما قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ثم إن قيادة هذه السفن ومقودها في يد الآخرين. والبحر هنا بحر آخر. فالذي يحكم كل سفن هذا البحر حاكم آخر. فلا شيء يجري هنا حسب مشيئتنا، بل حسب مشيئته وإرادته "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن". فهذا أحد الإرشادات النورانية

لرسول الله ﷺ لنا حول التسليم المطلق للحق تبارك وتعالى، وهو أحد الأوراد التي نكررها في الصباح والمساء.

إن كنا نريد أن نكون جنداً لله تعالى فإننا مضطرون إلى "الفناء في الله" حسب التعبير الصوفي، وأن نعلم ونستيقن بأن كل الخير وكل المحاسن من الله تعالى، وكل توقف وكل هفوة حاصلة في الخدمة الإسلامية إنما هي من عند أنفسنا، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩). ويقول في موضع آخر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠). فالمصائب التي تصيبنا هي مما كسبت أيدينا ونتيجة أخطائنا وذنوبنا وغلبة أهوائنا علينا. ولأن الله رحيم فإنه لا يؤاخذنا بكل ذنب من ذنوبنا، بل ويعفو عن كثير. لذا علينا أن نكون ممتلئين حمداً وشكراً له. ندعو الله أن يغفر لنا ويتجاوز عن سيئاتنا.

يجب أن نكون جنداً حقيقيين لله تعالى. وعندما نكون جنداً له نشعر بالراحة والاطمئنان. وهناك من يعيش هذا بقلبه... أجل يجب أن نكون مثل الشاعر المتصوف "يونس أمرة" الذي هجر كل شيء، المال والبنين والعيال قائلاً لربه " أنا أريدك أنت... أنت وحدك... وحدك لا غير..." لم يطلب الجنة وحورها بل طلبه هو. إذن فهناك من المؤمنين من أسلم وجهه تماماً لله تعالى. وأنا أظن بأن جند الله سيحسون في ضمائرهم بمعان تتجاوز ما قلته وبينته هنا ويستمرون في جنديتهم بكل نشوة وبكل شوق.

هل اكتساب الفيض من العبادات مرتبط بأدئها بشكل تام؟ مثلاً إن لم تؤد الصلاة حسب أركانها ألا يمكن الحصول على درجات معنوية؟

أرى من الأفضل استبدال كلمة "الفيض" الواردة في السؤال بكلمة "السعادة" أو "اللذة"، ذلك لأنه لا يمكن فهم معنى "الفيض" هنا. الفيض في الحياة الدنيوية هو الواردات والألطاف السبحانية التي لها علاقة بالحياة القلبية والروحية للإنسان. أما في الآخرة فالفيض هو ما يناله الإنسان من مراتب وشرف مثل دخول الجنة ونيل رضا الله واستحقاق شرف رؤية جمال الله. لذا فإن إدراك كلمة "الفيض" وفهم محتواها والإحاطة بمعناها يكون شيئاً مستحيلاً بالنسبة الينا.

فربما أحاطت بنا الفيوض من كل جانب وتحيط بقلوبنا ونحن لا ندري ولا نشعر بها. وربما كان عدم معرفتنا وعدم شعورنا بها من لطف الله تعالى بنا وإحسانه، ذلك لأن أفضل إحسانه هو الإحسان الذي لا نحس به.

إذا تناولنا المسألة من هذا الجانب نستطيع القول بأن هناك فيضاً وبركة في جميع العبادات التي تؤدى لله تعالى. فليس من المتصور رجوع أي إنسان متوجه إلى بابه بالخيبة أبداً. ولكن على الإنسان ألا يربط عباداته بالفيض أو باللذة التي يحصل عليها منها. فأحياناً قد تؤدي صلاة وأنت في حالة روحية منقبضة، أي في وقت ضاقت فيه نفسك وقلبك. فحسب الظاهر وحسب حكم مستعجل قد تطلق حكماً متشائماً على تلك الصلاة. ولكن قد تكون تلك الصلاة من أفضل صلواتك وأكثرها قبولاً، لأنك وقفت للصلاة وأنت متجرد عن جميع الأذواق المادية والمعنوية، ولم تنس ولم تهمل إظهار عبوديتك لله تعالى حتى في ذلك الوقت. أي لم يخلّ بإخلاصك عدم تلقيك أي فيض معنوي. وهذه هي العبودية الخالصة المخلصة.

يجب أن تقول لنفسك "مادام الله تعالى يقول ﴿ادعُونِي أستَجِبْ لَكُم﴾ أي يخبرنا

بأنه سيستجيب لكل دعاء خارج من بين شفتينا، إذن فسأبقى مقيماً على بابه ولن أتركه أبداً". إذا كان العبد يُظهر مثل هذه العبودية طوال حياته حتى من دون إحساسه بأي لذة روحية يكون قد صرف عمره كله في عبودية خالصة.

من جانب آخر يجب ألا يكون الحصول على المراتب المعنوية هدفاً للعبودية. لذا قال جنيد البغدادي حول الذين يقومون بإيفاء وظائف العبودية من أجل الجنة إن عبادتهم هي "عبادة الجنة "، أي هم عبيد للجنة، بينما لا يمكن أن تكون الجنة هدفا وغاية للعمل وللعبادة. فالعبادة تؤدى لأن الله تعالى أمر بها، أي من أجل الحصول على رضائه.

أجل، فالسبب الحقيقي للعبادة هو أنها أمر الله تعالى، أي أننا نؤدي فروض العبادة لأن الله تعالى أمرنا بها. فإن قام أحدهم ووقف يصلي لله تعالى وهو يرتجف خوفاً من جهنم فإن مثل هذا الشخص "عبد النار" أي عبد جهنم. إذن فكيف يمكن أن يكون عبداً لله تعالى؟ إن على الإنسان ألا يؤدي عباداته طمعاً في الجنة أو خوفاً من النار بل لأنه عبد لله تعالى ولأن الله أمره بها.

إن على الإنسان أن يؤدي صلاته حتى وهو في حالة انقباض روحي، أي وهو محروم من جميع الفيوضات المادية والمعنوية. حتى أن بكاء الإنسان وأنينه كما يمكن أن يكون وسيلة للفيض والبركة، قد يكون أحياناً وسيلة للابتلاء والامتحان. فلا يمكن إعطاء حكم قاطع في هذا الخصوص.

أجل! فالإنسان الذي لا يراقب نفسه جيداً ولا يحاسبها قد يشكل بكاؤه وأنينه خطراً جدياً عليه، لأنه لا يكون عالماً بأعماق قلبه. وإذا كانت أحوال البكاء عطية خاصة للصلاة، واتبع الإنسان في صلاته هذه الأحوال على الدوام فقد نقاطاً مهمة من أمور الإخلاص. لأن من المهم جداً الوقوف في الصلاة أمام الله تعالى بنفس مشبعة برغبة الحصول على رضاء الله تعالى فقط. ندعو منه تعالى أن يرتفع بنا من ناحية الصدق والإخلاص إلى القمة. إذا تحقق هذا فما البأس إن كان منظرنا أمام الناس منظر المقصرين. مثل هذا المظهر الخارجي لا يهم كثيراً. ويدعو الرسول ﷺ الله بألا يجعله كبيرا في أعين الناس صغيرا عنده تعالى. لأنه ما أكثر الذين يعظم خطرهم في أعين الإنسان وهم لا يزنون جناح بعوضة عند الله تعالى. المهم هو نيل المرتبة عند الله تعالى وليس عند الناس. لذا يجب

على الجميع تكرار هذا الدعاء « اللهم اجعلني في عيني صغيراً وفي عينك كبيراً».

والأمر الآخر في هذا الخصوص هو أن الله تعالى قد يهب اللذة الروحية في العبادة إلى الإنسان. وهناك بعض العظماء والأولياء استطاعوا قلع العجب بالنفس من قلوبهم ووصلوا إلى التوحيد الكامل. فهؤلاء يستطيعون التحدث بصراحة عن نعم الله تعالى عليهم وكل أنواع الجمال الذي ألبسه الله تعالى إياهم. فمثلاً نرى رسول الله ﷺ في معركة حُنين عندما بقي وحيداً يهجم وحده على الأعداء والعباس ﷺ -وفي رواية أبو سفيان بن الحارث- يريد الإمساك بزمام جواده.. نراه ﷺ يهتف: «أنا النبي لا كذِب... أنا ابن عبد المطلب».[١]

وعندما قال الرسول ﷺ هذا إنما قاله في مقام الامتنان والتحدث بنعمة الله وقال في نفس المقام: «أنا سيد وَلَد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر».[٢]

وقال ﷺ أيضا: «أُعطِيتُ خمساً لم يُعطَهنّ أحد قبلي.. نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».[٣]

كل ذلك تحدثاً بنعم الله تعالى عليه. فمثلاً إن وهب لي شخص ملابس جميلة، فإني أتحدث في كل مكان أزوره عن صاحب الهدية وأقول إن هذه الملابس الجميلة التي ترونها عليّ والتي تضيف إلى جمال خلق الله جمالاً آخر إنما هي هدية الشخص الفلاني. لذا فلا بأس من التحدث بالنعم العديدة التي أسبغها الله تعالى علينا، بل يكون إخفاء هذه النعم -أحياناً- جحوداً. في هذا الخصوص يقول بديع الزمان عن الكتب التي كتبها:

"سأهتف بكل قوتي وأقول إن كتاب "الكلمات" كتاب جميل، ولكنه لا يعود لي، بل هو خارج ومنبعث من صدر القرآن". وهو يقتبس هذا المعنى من دعاء الرسول ﷺ

---

[١] البخاري، الجهاد ٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٦-٧٧؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٧٣/٤.

[٢] الترمذي، تفسير السورة (١٧) ١٨، المناقب ١؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨١/١.

[٣] البخاري، التيمّم ١؛ مسلم، المساجد ومواضع الصلاة ٣.

لشاعره حسان بن ثابت "اللهم أيده بروح القدس" لأن حسان بن ثابت ﷺ كان شاعراً فحلاً، وكان يدافع عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام وعن القرآن، ويكسر بكلماته البليغة معنويات المشركين، لذا خصص له كرسيا في المسجد النبوي. وكانت كلماته تنـــزل كالصاعقة على رؤوس المشركين. قال حسان بن ثابت يوماً:

وما مدحت محمداً بمقالتي ولكن مدحت مقالتي بمحمد

وهذا تحدث بالنعمة من قبل هذا الشاعر وهذا موافق لما جاء في القرآن الكريم الذي خاطب النبي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. وعندما قالت أم جميل وكانت امرأة مشركة: لقد ترك شيطان محمد محمداً. قال الله تعالى مسرّيا عن رسوله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾. وجاء يوم أصبح فيه خُمس سكان الأرض من السائرين على طريق الهداية التي رسمها الرسول ﷺ، وتشرفوا بشرف الإسلام وانتشرت المنائر والقبب في جميع أنحاء العالم. وأصبح الأذان المحمدي يُقرأ في شرق العالم وغربها خمس مرات في اليوم. فما أن ينتهي المؤذن في بلد من الأذان حتى يبدأ مؤذن آخر في بلد آخر بالأذان "أشهد أن محمداً رسول الله" وهكذا انتشر اسم محمد ﷺ وتماوج في أرجاء الارض.

أجل، لقد كانت سورة "الضحى" بشارة للرسول ﷺ وجواباً للمشركين في الوقت نفسه. كانت تقول إن الله لم يودعك ولم يهجرك. ثم تستمر السورة قائلة ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. وعند الانتقال من سورة ﴿الليل﴾ إلى سورة ﴿الضُّحَى﴾ حيث توجد علاقة واضحة بينهما نرى أن سورة ﴿الليل﴾ تنتهي أيضا بـــ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. وكذلك يرِد في سورة الضحى بأن الله سيعطيه حتى يرضى، أي أن الله سيعطيه في الدنيا وفي الآخرة حتى يرضى. ففي المحكمة الكبرى يوم القيامة يقال له "ارفع رأسك، اشفع تُشفَّع، سَلْ تُعط" وعند تمام النعم يسأل "هل رضيت؟" فيقول "نعم! رضيت". إذن ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر﴾. أجل! انظر إلى هذه الأمة المباركة والعظيمة تراها تمشي في أثرك منذ أربعة عشر قرناً.

عندما يدخل الإنسان إلى الروضة الطاهرة يستولي عليه إحساس بأن الرسول ﷺ حي، وأنه سيقابله وجهاً لوجه بعد قليل. فما أعجب هذه النضارة وتحدي الزمن! وما

أعجب هذه الجدة والشباب بحيث أنه لا يزال يعيش في قلوبنا وأفكارنا حتى بعد مرور أربعة عشر عصراً. والاحترام والحب الذي يحتله في قلوبنا يبرهن على أنه لا يزال يعيش في ضمائرنا. وهذا من النعم التي أنعمها الله عليه ليرضى، وأمره ربه بأن يتحدث بنعم الله عليه. فقام عليه الصلاة والسلام ببيان هذه النعم كما ذكرنا قبل قليل. ومن قبيل التحدث بالنعم قوله "وجُعلت شهوتي في الصلاة"، ولكن الرسول ﷺ لم يكن يصلي أبداً من أجل الحصول على اللذة الروحية فقط. ولعل في هذا إشارة إلى أصحاب الاستعدادات. فيجب أن تحتفظ بالهمة العالية وبذل الجهد للوصول إلى هذه الحالة.

ومع كل ما ذكرناه حتى الآن فإن أكثرية الفقهاء يرون أن تعديل أركان الصلاة فرض. وباستثناء الإمام أبي يوسف فإن علماء المذهب يرون أنه واجب. ومعنى تعديل الأركان هو أداء أركان الصلاة بهدوء ودون عجلة وبجوارح مطمئنة حتى نهايتها. وهذا مرتبط بوضع الجسد المادي في الصلاة. ودون رعاية هذا الوضع لا يمكن عد الصلاة كاملة وتامة. وأنا أرى أن من الحيطة الاشتراك مع وجهة نظر الذين يعدون تعديل أركان الصلاة فرضاً. فما دام هؤلاء العلماء الذين يقولون بهذا قد نذروا أنفسهم لفهم القرآن والسنة، لذا وجب الاقتراب باحتياط شديد في الأمور التي اختلفوا فيها.

كما أنه ليس من حقنا إصدار الأحكام في حق المؤمنين بعد مشاهدة أحوالهم الظاهرة في أداء العبادات والطاعات. كما ليس من حقنا الوقوع في سوء الظن والقول لهذا وذاك "إن حجك كان عبثاً ليس فيه إلا التعب، وصيامك ليس إلا جوعاً وظمأ". فسوء الظن هذا ليس من أخلاق المؤمن، لأن على الإنسان أن يتصرف كمدعٍ تجاه نفسه وكمحام تجاه المؤمنين الآخرين. فنقول عن أنفسنا "إنني أصلي كثيراً، ومع هذا لا أستقبل من صلاتي فيضاً أو بركة، فهل تقبل صلاتي وأنا في هذه الحال؟" ثم نبدأ بتذكر ذنوبنا.

أما بالنسبة للمؤمنين الآخرين فيكون حسن الظن بهم شعارنا، لأن هذا كان تصرف وسلوك النبي ﷺ وسلوك الصحابة والتابعين من بعدهم، فلم يؤولوا أحوال المؤمنين تأويلاً سيئاً، و لم يقوموا بتجريم أهل الصلاة وأهل القبلة استناداً إلى بعض تصرفاتهم السيئة. بل يجب حسن الظن بهم والتأكيد على الجوانب الجيدة من تصرفاتهم وعلى حسناتهم. فمن دخل إلى حديقة أو إلى بستان لم يلتفت إلى وجود بعض الأشواك فيها، بل يجب حصر

نظره على الأزهار وعلى الثمار الموجودة فيها، وشعاره "خذ ما صفا، دع ما كدر".

ففي عهد رسول الله ﷺ كان هناك شخص اسمه "نعيمان" يروى أنه اشترك في معركة بدر. وكان يصنع الخمر من العنب ويشربه، وقد ضبط سكراناً، وعوقب في حضرة النبي ﷺ مرات عديدة. وفي إحدى المرات قال أحد الحاضرين بعد انصرافه: ما له أخزاه الله! فقال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»[1] أي أن الشيطان هو الذي يوسوس له هذا الأمر ويوقعه في هذا الإثم فأعينوه بطيب الكلام. وفي رواية أخرى فأتي به يوما فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنْه ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه! فوالله ما علمت إلاّ إنه يحب الله ورسوله».[2]

أي إنه كان يمد يد العون لمن يحب الله ورسوله وإن وقع في الاثم مرات ومرات، فما كان رسول الله ﷺ تاركاً شخصاً يحب الله ورسوله في مثل هذه المحنة دون مساعدة. لذا يجب أن نكون واعين ويقظين تماماً في مثل هذ المواضيع.

إن الله تعالى يصدر أحكامه حسب رجحان الخير أو الشر لأفعالنا. وسنقف جميعاً أمامه يوماً، وحينئذٍ سنلتفت يميناً وشمالاً فنرى ذنوبنا وقد بلغت علو جبل "افرست"، وقد نقع في اليأس عندئذٍ، ويبدأ كل واحد منا في تذكر بعض أفعال الخير والبر الصغيرة التي عملناها في الدنيا "لقد ناولت قدح الماء مرة إلى أمي، ومسحت حذاء والدي مرة، كما صليت صلاة الجنازة على رجل صالح، ودعوت مرة بكل حرارة "رب اغفر وارحم" بين السجدتين" ثم نتضرع إلى الله: "اللّهم! هل يمكن أن تكون هذه الأعمال مجلبة لرحمتك وغفرانك؟" فإن كانت كذلك قلنا وقد أطمأن بالنا "كم تليق المغفرة بك يا رب!"

وما نأمله في حق أنفسنا من الخير نستطيع أن نأمله في حق جميع إخواننا المؤمنين. فإن رأينا فيهم بعض الجوانب السلبية بحثنا عن أعذار لهم وقلنا من يدري فلعل الله تعالى لم يشأ إعطاء ثمرات عملهم هنا في الدنيا، بل ادخرها لهم للآخرة. وهذا هو السبب في مظهرهم الناقص والسلبي.. نقول هذا ونحسن الظن بهم.

---

[1] البخاري، الحدود ٥؛ المسند للإمام أحمد، ١/٤٣٨.

[2] البخاري، الحدود ٥.

لا صوم عندي ولا صلاة، ولا دمعة في عيني أو حماسة في قلبي.. بل هناك رياء الظهور والوجود ضمن الدعوة.. ومع ذلك فلا أستطيع ترك هذا الباب.. فماذا أفعل؟

هذه هي صرخة قلب كل متألم يرى نفسه محاطاً بالفراغ من جميع الجوانب. هذا ليس سؤالاً، بل نوع من التقرير يعود إلينا جميعاً. كان أحد العظماء كثيراً ما يكرر الأبيات التالية:

ليس لي لا علم ولا عمل،
ولا صبر لي على الطاعة والبر،
غريق في العصيان... آثامي كثيرة...
فماذا تكون يا تُرى حالي يوم الحشر؟!

هنا يكون البكاء والأنين عملية تفريغ للمخلصين والصادقين من الناس الملتهبة أفئدتهم على الدوام. فكأن أفئدتهم تحوي على جمر من نار جهنم تكوي صدورهم فلا تجد مشاعرهم هذه طريقاً للخروج إلا بالدموع. لذا نرى أن رسول الله ﷺ يؤسس توازناً بين جهنم وبين الدموع. فقد ورد في الحديث: «ما من عبد مؤمن يَخرج من عينيه دموع وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار».[1]

أجل! فما يستطيع إطفاء نار جهنم سوى الدموع. وفي حديث آخر يعبر عن هذا التوازن بقوله: «عينان لا تمسهما النار.. عين بكت من خشية الله.. وعين باتت تحرس في سبيل الله».[2] وفي هذا الحديث -كما في أحاديث أخرى- ينظر بالنظرة نفسها إلى من يجاهد ضد الآخرين، وإلى من يجاهد نفسه فيذرف الدموع.

---

[1] ابن ماجة، الزهد ١٩.

[2] الترمذي، فضائل الجهاد ١٢.

ويذكر القرآن الكريم أيضا وضع الأشخاص الذين يخرون سجداً وبكياً. كما يدعو في آيات أخرى إلى الضحك القليل والبكاء الكثير ندماً. والدموع شاهدة على رقة الطبع وجمال الروح. وكل قطرة منها تعادل مياه الكوثر في الجنة. وجفاف الدموع مصيبة كبرى بحيث أن رسول الله ﷺ كان يلتجئ إلى الله منها. فيا ليت كان باستطاعة كل مؤمن مراقبة نفسه والاعتراف بهذه الحقيقة المرة فيقول: ليس لي لا علم ولا عمل.. ولا صبر لي على الطاعة والبر.. ولا دمعة في عيني.. ولا طاقة في القلب.. ولا أملك نورا في الإرادة...

ويا ليت كل مؤمن استطاع إقناع نفسه بأنه لا شيء، وأنه إن كان مظهراً لبعض ألطاف الله تعالى فليس بسبب لياقته، بل على العكس لحاجته. وإن فقره وإفلاسه هو الذي جلب رحمته تعالى، وهو سبب ألطافه. إن أول الطريق أمام الإنسان للتخلص من عيوبه وتقصيراته هو معرفة هذه العيوب أولاً. ويجب أن يعقب هذه المعرفة إحساس بالندم والألم لكي يحاول الإنسان الخلاص منها.

إن من أهم النعم التي أنعمها الله تعالى على المؤمن هو حبه للمسائل المتعلقة بالإيمان وكرهه ونفوره من المسائل المتعلقة بالكفر والفسوق والعصيان. ويستطيع الإنسان بهذا الحب وبهذا الكره التسلق إلى قمم الإنسانية وإلى قمم الإيمان، ويتخلص من كل ما يحاول جذبه ودفعه إلى أسفل. وإلى هذا الأمر تشير الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنَّ اللّٰهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ اِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ اُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَنِعْمَةً وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات:٧-٨). إذن فإن الله حبب الإيمان وزينه في قلوب المؤمنين. وعندما ينظر المؤمنون من عدسة هذا الإيمان فكأنهم يرون الجنة وحورها. ولكن الأهم أنهم يحسون بالقرب من الله تعالى.

إن المقصود من هذه الآية الصحابة الكرام. كان هذا السلوك طبعهم العام الذي لم يتغير أبداً. إذ كانوا يحبون إلى درجة الوجد والعشق كل المسائل المتعلقة بالإيمان وكل الأحكام المتعلقة بالعبادات، وينفرون ويكرهون الكفر وكل ما يؤدي إليه. وبفضل إيمانهم هذا كانوا وهم في الدنيا وكأنهم يعيشون في الجنة وفي جو الجنة. وكانوا يفضلون أن يقذفوا في النار ولا يعودوا إلى الكفر. ولو خيروا بين أن يعيشوا مرفهين في الكفر

وبين أن يحترقوا في النار كمؤمنين لاختاروا الأخير. لذا فقد وصلوا إلى مرتبة الرشد، وكان هذا فضلاً من الله ونعمة.

لقد ذكرنا من قبل أن الإنسان إن أحس وشعر بتقصيراته كان هذا هو الخطوة الأولى للتخلص منها. أما إن رأى نفسه كاملاً، ورأى كل ما يعمله من أجل الإسلام كاملاً لا نقص ولا خلل فيه فاعلموا أنه يغرق بشكل تدريجي. ينقل لنا الإمام القسطلاني أن أربعة عشر من الصحابة كانوا يرتجفون خوفاً من النفاق ومن كونهم مسجلين في قائمة المنافقين. وهذه الخشية والقلق علامة أخرى على المدى الرفيع الذي بلغه إيمانهم. وكان عمر بن الخطاب وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما من بين هؤلاء الصحابة.

كان عمر ﷺ من المبشرين بالجنة، ولكن هذا الرجل العظيم لم يكن مع هذا مطمئنًّا تمام الاطمئنان، مع أنه شرف بحديث الرسول ﷺ: «لو كان هناك نبيّ من بعدي لكان عمر». لذا كان يذهب إلى حذيفة[1] ﷺ ويسأله متوسلاً: قل لي يا حذيفة بالله عليك هل عمر من المنافقين.

أما أمنا عائشة رضي الله عنها فقد دخلت إلى بيت النبوة وهي في زهرة عمرها، فلم تعرف رجلاً غير الرسول ﷺ ولم يدر بخيالها رجل غيره. كانت تنظر إلى حقائق عقيدتها الألوهية من خلال مرآة الرسول ﷺ. كان بيتها مهبط الوحي، وكانت زوجة لرجل يفوق يوسف حسناً، وقد أنشد الشاعر على لسانها قائلا: "عندما رأى النساء في مصر يوسف عليه السلام قطّعن أيديهن.. ولو رأين سيدي لضربن صدورهن بالسكاكين التي في أيديهن..."

أما عبادتها وحساسيتها في العبادة فأمر معروف من قبل الجميع، فلم تفتها صلاة واحدة أو صوم يوم واحد خارج الأوقات التي تكون المرأة فيها معذورة عن الصلاة وعن الصوم. كما أنها كانت أحب الزوجات إلى الرسول ﷺ، أي نالت مثل هذه المرتبة العالية. نستطيع ذكر المزيد من هذه الأمور. والآن ضعوا كل هذه الأمور أمام أنظاركم لتفهموا مدى عظمتها ثم انظروا إليها وهي تبكي فيسألها الرسول ﷺ عن سبب

[1] لأن الرسول ﷺ كان قد أخبر الصحابي حذيفة ﷺ بأسماء المنافقين. وعندما كان حذيفة لا يحضر صلاة الجنازة على أحدهم يعرف الصحابة أنه كان من المنافقين. (المترجم)

بكائها كما جاء في الحديث الآتي:

عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله ﷺ: "ما يبكيك؟" قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا، عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال هاؤم اقرءوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم»[1]

وهكذا فإن امنّا عائشة رضي الله عنها التي نأمل أن تشفع لنا تبدي كل هذه الخشية وكل هذا الخوف، ولا تكون مطمئنة ولا واثقة من نفسها ومن وضعها. ليس هناك عرفان أكبر من معرفة الإنسان لنفسه. وكل من يعترف بأخطائه وبقصوره يستحق التهنئة، لأنه من الواضح أنه خطا الخطوة الأولى والخطوة المهمة في إنقاذ نفسه وتخليصها من عيوبها.

إن الصيام والقيام والعاطفة الجياشة والدموع هي الأسس التي تقوم عليها الحياة المعنوية والروحية. ولا شك أن هناك أمور يجب إضافتها أيضا كالتضحية بالمال مثلاً ولا سيما في مثل هذه الأيام التي أصبحت التضحية بالمال والجهاد فرضاً لا يمكن الاستغناء عنه. فهذه أركان لا يمكن الاستغناء عنها.

فإن غاب ركن من هذه الأركان كان كمن يؤدي صلاة ينسى فيها ركناً من أركانها لذا فلا يكون على تماس مع رحمة الله تعالى. فإن أردنا أن نكون على تماس مع رحمة الله تعالى وعلى نفس موجة التردد معها فيجب علينا القيام بتطبيق جميع أوامره سواء أكانت متعلقة بالحياة الفردية أو بالعائلة أو بالحياة الاجتماعية دون تهاون ودون تقصير. وهذا يشبه النتوئات الموجودة على المفتاح. فإن كان هناك عدم تطابق لنتوء واحد لم يستطع فتح الباب وإن كانت النتوئات الأخرى متطابقة. لذا فعلى كل مكلف أن يراعي الأسباب وأن يهيئ لكل قفل مفتاحه المناسب.

هذا هو معنى العبودية في الحقيقة. أجل! فالعبودية هي إصرار ووقوف وانتظار أمام

---

[1] أبو داود، السنة ٢٤.

الباب. على العبد أن يقف أمام الباب وينتظر فتحه ولا يتركه وإن أخذ هذا الانتظار منه العمر كله. ويبقى بنفس شوق اليوم الأول دون أن يدع للعادة وللألفة فرصة لتقليل شوقه ووجده، ودون أن تتحول عباداته إلى حركات رياضية لا روح فيها. هذه هي العبودية الحقة.. أن تتسابق مع الزمن وأنت محمل بالشوق وبالخوف وبالرجاء كما كنت في اليوم الأول، والقرآن الكريم يعلمنا هذا فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَـزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

كان الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا أول من خوطبوا بهذه الآية يجددون إيمانهم وكأن مائدة معنوية تنـزل عليهم من السماء كل يوم. لذا فإن توجيه هذا الخطاب إليهم يحمل لنا معنى خاصاً. ذلك لأن شروط الألفة لم تكن موجودة آنذاك، فالآيات كانت تنـزل تترى. وكانوا يعيشون الإسلام الجديد النضر. فمثلاً يسمعون في يوم ما صوت الأذان لأول مرة فيهرعون إلى المسجد بانفعال جديد. وفي يوم آخر يعلمهم الرسول ﷺ تسبيحة ودعاء آخر. وهكذا تبقى مشاعرهم نضرة ومتجددة على الدوام.

ومع كل هذا كانت هذه الآية تحذرهم من قسوة القلب وتطلب منهم مشاعر حية ودافئة على الدوام ودموعاً. فإن لم تكن مشاعرنا الداخلية حية، وإن لم تكن عيوننا دامعة بالمستوى الذي يطلبه القرآن منا فمن الطبيعي أن نلوم أنفسنا. في هذا العهد الذي أهمل فيه الدين و لم يعد هناك مَن يرعاه، فإن كنا لا نسارع للجهاد من أجل إعلاء الدين الإسلامي المبين أو لا نستطيع ذلك، وإذا كنا لا نصاب بالأرق من جراء انسحاقنا تحت صولة الكفر ومن جراء غلبة الباطل على الحق ولا نحس بالم عميق.. فليس هناك من يجب إلقاء اللوم عليه إلا أنفسنا. لذا يجب على كل منا أن يعيب نفسه ويتهمها.

نحن عبيد هذا الباب.. باب خدمة دين الله.. عبيد لا نريد الخلاص من هذه العبودية، إذ لن نفارق هذا الباب أبدا. ثم أيوجد هناك باب آخر؟ سنظل أمام هذا الباب بكل عناد وإصرار ولن نولي وجهنا عنه.

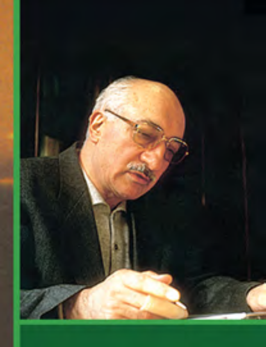
هناك قصة رمزية تقول إن أحد أولياء الله تعالى عبد ربه سنوات طوالا، وتخرج على

يديه الكثير من المريدين. وكان كل مريد منهم يترقى في المراتب حتى يشاهد اللوح المحفوظ ويقرأه. والغريب أن كل مريد كان يقرأ في اللوح المحفوظ أن شيخه شقي. فبدأ المريدون ينفضون عنه ويتركونه ولم يبق إلا مريد واحد. فسأله شيخه "لماذا ترك أصدقاؤك مجلسنا ولم يعودوا يأتون إلينا؟" فأجابه المريد على خجل "يا سيدي! لقد قرأوا في اللوح المحفوظ أنك شقي، لذا تركوا حلقة الدراسة". فأجابه الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة ألم "يا بني، لقد رأيت هذا قبل أن يروه بأربعين عاماً. ولكن قل لي يا بني أهناك باب آخر أستطيع أن أطرقه؟" وعلى أثر كلام الشيخ هذا اهتزت السماء وتغير اللوح المحفوظ، وكتب فيه من السعداء.

في العهود التي تلت عهد الصحابة كانت التربة قد أصبحت منبتة وخصبة إلى درجة نشأ فيها الآلاف من أحباء الله تعالى وجنوده، ولم يترك أحد منه بابه. كانت الخشية من الرياء أكثر ما يخشاه كبار المؤمنين. ولا شك أن مفهومهم للرياء يختلف عن مفهومنا كثيراً. ومع ذلك كانت هذه الخشية موجودة لديهم. وكانت هناك طرق معينة للتخلص منها، أولها العلم بأن الله تعالى مطلع على كل ما نفعله من أفعال وعلى كل ما يدور داخل أنفسنا من أفكار، وعدم نسيان هذا أو الغفلة عنه، وأن نكيف سلوكنا على ضوئه، وألا نبتعد عن الأذكار والأوراد ومطالعة الكتب التي تربي الخشية في قلوبنا، وننظر إليها كأحد الحلول التي توصلنا إلى الهدف. وأحيل هذا الأمر إلى الجواب المفصل الذي أجبت عليه في موضع آخر.

الفهرس

أَسْئِلَةُ العَصْرِ المُحَيِّرة



محمد فتح الله كولن

إننا لم نستطع تقديم الحقائق بصورة مشبعة لشبابنا... لقد أهملنا شبابنا وشباب العالم أجمع مع أنهم يحتاجون إلى الرسالة التي نحملها كحاجتهم إلى الهواء والماء... وعندما نقارن حالنا مع حال الصحابة الكرام الذين حملوا مشعل الهداية إلى جميع أنحاء الأرض في مدة قصيرة، ومع حال وجهود التابعين الذين أتوا من بعدهم يظهر بوضوح مدى كَسلنا وخمودنا وجمودنا. لقد كان ديدان الصحابة والتابعين البحث عن القلوب والأنفس المحتاجة إلى الهدي والنور وجعلوا إيصال هذا النور إلى الناس غاية حياتهم.






ISBN 975-315-146-2
9 789753 151467